بين عصرين

الاستراتيجية الامريكية فى العصر التكنترونى

بريجنسكى

ترجمة وتقديم

د. محجوب عمر

العربى
للنشر والتوزيع

٦٠ شـــــارع القصر العينى
امام روز اليوسف ت ٣٥٤٧٥٦٦

مقدمة الطبعة الثانية

الترجمة التالية هي لكتاب : بين عصرين : أمريكا والعصر التكنترونى الذى صدر فى الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٧٠ لمؤلفه « زبيغنيو بريجنسكى » ، الذى أصبح فى أواخر السبعينات مستشار الرئيس الامريكى جيمى كارتر لشئون الامن القومى .

والكتاب هو من الكتب التى تهتم بمستقبل البشرية والعالم كله ، وهو بذلك واحد من أهم كتب المستقبليات السياسية التى ظهرت فى الربع الثالث من القرن العشرين .

وكما سيجد القارىء تناول الكاتب واقع ومستقبل العالم فيما أسماه العصر التكنترونى ، أى عصر التكنولوجيا والالكترونيات ، او بكلمات أخرى العصر ما بعد الصناعى . وعلى غير المألوف من السياسيين الامريكيين ، حرص بريجنسكى على صياغة نظرية كاملة ، اى منظومة فكرية يفترض فيها ان تفسر الواقع الراهن ، وان تؤثر فى مستقبله فى اتجاه دعم المصالح الامريكية طبعا ، وان كان بريجنسكى لم يقل ذلك صراحة ، وانما وحد بين المصلحة الامريكية ومصلحة العالم كله ، بحيث جعل تحقيق الاخيرة مشروط بدوام الاولى .

وكما سيتبين القارىء فان أهم ثلاثة افكار وردت فى هذا الكتاب على لسان بريجنسكى . كانت هى افكار التقاطع والعملية او السيرورة ، وفكرة أن العالم يشكل مدينة واحدة .

ولقد شرحت مقدمة الطبعة الاولى هذه الافكار الثلاث ، وبعد عشر سنوات تقريبا فان الشرح الوارد لايزال صالحا ، وان امكن اضافة مزيد من التفاصيل .

ولكن أهم تغير حدث فى هذه السنوات العشر ، منذ نشر الطبعة الاولى ، اى بعد عشرين عاما تقريبا من صدور الكتاب باللغة الانجليزية لم يكن عند امريكا وانما كان عند نقيض بريجنسكى ، أى الاتحاد السوفييتى .

ذلك ان السوفييت كانوا يرفضون نظريات بريجنسكى رفضا كاملا ، خاصة نظريته حول العالم الواحد ونظريته حول التقاطع .

كان بريجنسكى يرى أن ثورة الاتصالات ستزيد من وحدة العالم ، وان لم يمنع ذلك ازدياد انغلاق الجماعات العرقية والدينية على نفسها ، وكان السوفييت فى ذلك الوقت ـ عام ١٩٧٠ ـ ينظرون الى العالم باعتباره مقسما الى عالمين ، عالم الاشتراكية وعالم الامبريالية ، وكانت تحليلاتهم كلها تقوم على أساس هذه الفكرة ، وعلى اساس أن الصراع بين العالمين حتمى ومتصاعد ، ويمكن ان يؤدى الى اندلاع حرب عالمية ثالثة .

وكان السوفييت يرون فى افكار بريجنسكى محاولة لتنظير عملية الاحتواء الامبريالى ، وتمييع الصراع بين المعسكرين ، ومحاولة اختراق النظام الاشتراكى .

الان يتقدم ميخائيل جورباتشوف بافكار جديدة تماما تكاد تتطابق مع فكرة بريجنسكى عن العالم الواحد ، ويقيم الاتحاد السوفييتى خططه السياسية والعسكرية والتنموية على اساس النظره الى العالم باعتباره عالما واحدا .

يقول جورباتشوف فى مقدمه كتاب « بيروسترويكا » « ان العالم لا يعيش فى جو الخطر النووى فحسب ، انه يعانى كذلك من عدم العثور على حلول مسائل اجتماعية كبرى وضغوطات جديدة ولدتها الثورة العلمية التقنية ، واحتدام المعضلات ذات الطابع العالمى الشامل » .*

بل ان جورباتشوف يحدد صراحة أنه مع « كل التناقض الذى يسود العالم المعاصر ، ومع تنوع أنظمته السياسية والاجتماعية الموجودة ، ومع اختلاف الخيار الذى اصطفته الشعوب لنفسها فى أزمات متفرقة . فان هذا العالم يشكل كلا محددا ، فنحن جميعا ركاب سفينة واحدة هى الارض » (ص ١١ ـ التشديد من عندنا) .

بالتخلى عن نظرية المعسكرين أو العالمين ، اختلفت لغة الخطاب السياسى السوفيتية ، وبدلا من المناداه بالصراع الذى لا يهدأ أو لا يلين ضد الرأسمالية العالمية والامبريالية والاستعمار الجديد حلت شعارات أخرى ، بل أعلن جورباتشوف فى مقدمه كتابه ، ما لم يعلنه بريجنسكى فى كل كتابه . فهذا الاخير لم يعترف أبدا بحق شعوب الاتحاد السوفييتى فى اختيار نظامها ، ولم يخف لحظة سعى الامريكيين المتواصل لقلب النظم الاشتراكية بدعوى انها نظم استبدادية وضد الحرية ، بينما يقول جورباتشوف ، « اننا نعترف بحق شعب الولايات المتحدة ، كما نعترف بحق أى شعب آخر فى العيش وفق قواعده ، وقوانينه ، وبما يلائم عاداته وهواه ، ونحن نعرف ، ونأخذ فى حسابنا الدور الهائل الذى تضطلع به الولايات المتحدة الامريكية فى العالم المعاصر ، كما نقدر اسهام الامريكيين فى الحضارة العالمية ، وننظر بعين الاعتبار الى مصالح الولايات المتحدة الامريكية القومية المشروعة . ونحن ندرك ايضا أنه بمعزل عن هذه الدولة من المستحيل ابعاد خطر الكارثة النووية ، والحفاظ على سلام دائم » . (المصدر السابق ص ١١ ، ١٢ ـ التشديد من عندنا) .

لقد حاولت مقدمة الطبعة الاولى تلخيص فكره بريجنسكى فى كلمات ، وهى ان عالم اليوم مدينة واحدة ، ويمكن القول ان ميخائيل جورباتشوف ينظر الى العالم النظرة نفسها . ولكن هناك فرق . . .

لقد بنى بريجنسكى نظرته على ان العوامل الداخلية فى التطور العالمى ، وعامل ثورة الاتصالات اساسا ، هو الذى يجعل من العالم مدينة واحدة ، ومن ثم فهو يبنى على هذه الفكرة خططا هجومية ، تهدف الى الحفاظ على مكانة أمريكا الاولى فى العالم ، وتشكيل تحالف بينها وبين أوروبا الغربية واليابان لمواجهة الاتحاد السوفييتى والصين ضمن اطار يجمع الاخيرين فى التأثير على مقدرات العالم ، وعلى نحو متوازن ، ومأسسة علاقات التوازن ، هذه . وبذلك يهاجم بريجنسكى باستمرار باطلاق سيل من المبادرات تطلق عمليات سياسية هدفها باستمرار هو الحفاظ على المكانة الامريكية ، واضعاف « المنافسين » الآخرين .

---

* ميخائيل جورباتشوف ـ بيروسترويكا والتفكير الجديد لبلادنا والعالم أجمع ـ ترجمة د. محمد احمد شومان ، وأخرين ، (دار الفارابى ـ بيروت ـ لبنان ١٩٨٨ ، ص ٩

جورباتشوف ينطلق من تقديره للاخطار النوويه التى تواجه العالم ، ومن الضغوطات التى ولدتها الثورة العلمية التقنيه ، واحتدام المعضلات ، لكى يخلص الى أن البشر « مضطرون » الى التعايش والعيش فى عالم واحد ، والقارىء للبيروسترويكا ولكتاب بريجنسكى سيكتشف اختلاف التقدير عند كليهما بالنسبة لثورة المعلومات والاتصالات .

فبينما يرى بريجنسكى أن هذه الثورة تضيف امكانيات جديدة ضخمة تمكن الولايات المتحدة من توحيد العالم ، يرى جورباتشوف ان هذه الثورة تفرض « ضغوطا » لا يمكن للاتحاد السوفييتى ان يحلها وحده (بيروسترويكا ص ١٧٤) .

أى أن جورباتشوف يعطى للعوامل السلبية الضاغطة من اجل وحدة البشر دورا اكبر من العوامل الايجابية المترتبة على التقدم التقنى والعلمى الذى يقرب البشر من بعضهم البعض .

هل معنى ذلك ان جورباتشوف يتخذ خطه دفاعيه بينما بريجنسكى يتخذ على العكس من ذلك خطه هجوميه ؟

ليس الأمر على هذا النحو ، ولا يمكن أن يكون . ان جورباتشوف يصوغ افكاره منطلقا من موقف دفاعى ضد الاخطار المحدقة للبشر بحيث يبدو ان ، نداءاته لنزع السلاح ، وللتعاون الدولى هى اجراءات دفاعية ضد الاخطار المحدقة بالبشر وبالكره الارضية ، ولكن المتأمل فى الكتابات التى تشرح البيروسترويكا ، ومنها كتاب ميخائيل جورباتشوف نفسه ، يجد ان لدى القيادة السوفيتية خطة للعمل فى هذا العالم الواحد تقتضى اللحاق بالغرب تكنولوجيا وتقنيا ، بل وتحقيق السبق أيضا فى هذا المجال ، وهى لا تغفل ابدا استمرار الصراعات فى العالم ، وضرورة امتلاك عوامل التفوق من أجل كسبها .

بل ان الجهد الاساسى فى الحملة الدعاويه السوفيتية منصب على احياء منظومة القيم الوطنية التى من شأنها اطلاق الطاقات الجماهيرية فى عمليات التقدم والبناء ، واثاره الحماس الوطنى والقومى على نحو غاب عن روسيا السوفيتية منذ الحرب العالمية الثانية .

يقول جورباتشوف فى البيروسترويكا « ان مزيدا من الاشتراكية يعنى المزيد من الوطنية والنزوع الى الاقتداء بالمثل الساميه ، ورعاية مواطنيه مدنيه نشيطه حيال قضايا البلاد وتأثيرها المفيد والايجابى على القضايا الدولية . .

النظرتان اذن هجوميتان ، بل لعل تحول الاتحاد السوفييتى من نظرية المعسكرين الى نظرية العالم الواحد تشكل فى الواقع خطرا اكبر على الولايات المتحدة ومصالحها ، وبشكل خاص خارج العالم الصناعى الغنى ، والى حد ما على الساحة الاوروبية .

ان عرض استمرار المنافسة السلمية بين امريكا من جانب والاتحاد السوفييتى من جانب آخر ، يجعل لعوامل اخرى غير التفوق التقنى أو العسكرى دورا اكبر مما كان لها ، وفى ذلك ستلعب الحضارة والجغرافيا أدوارا أساسية ولدى الاتحاد السوفييتى منها ما يتفوق به على الولايات المتحدة الامريكية .

* * *

ولقد تنبأت مقدمة الطبعة الاولى ان بريجنسكى يقع فى خطأ قاتل عندما يحتقر قوة ودور العالم الثالث ، ويقطع بأنه من المستحيل عليه أن يلحق بالولايات المتحدة الامريكية ، وتساءلت المقدمة عن مبرر ان يكون التحدى المطروح امام شعوب العالم الثالث هو اللحاق بالولايات المتحدة الامريكية وذكرت ان لهذه الشعوب طرقها لحل مشاكلها

ولقد شهدت السنوات الاخيرة محاولات عديدة من الشعوب الفقيرة للسير فى طرقها الخاصة بعيدا عن تقليد امريكا أو محاولة اللحاق بها . ربما لم تنجح حتى الان مثل هذه المحاولات ، ولكن واقع حدوثها يعنى ان الشعوب بدأت تعى أن مصالحها ليست على اى حال فى اللحاق بالغرب (بالمصطلح الاجتماعى) ، ولعل ذلك يفسر للكثيرين سبب علو موجه التمسك بالدين ، وارتفاع الاصوات المطالبة بالعودة الى التراث والاصاله والاعتماد على الذات .

كما تنبأت مقدمة الطبعة الاولى ولاحظت ان العقول الالكترونية والتكنولوجيا المتقدمة جدا لم ولن تمكن بريجنسكى من الوصول الى المعرفة الصحيحة بما يجرى بين شعوب العالم الفقير . ولقد تكرر ذلك عدة مرات وفى كل مرة كان تفسير الاخفاق الامريكى فى توقع حدث كبير ما يلقى على عاتق اهمال المخابرات أو ظروف خارجة عن ارادة البشر ، ولكن رجلا مثل « رونالد هكلى » وهو باحث استراتيجى ، وعمل لسنوات فى مجلس الامن القومى الامريكى وفى التخطيط الاستراتيجى يكتب فى عام ١٩٨٦ فى مجلة « واشنطن كوارترلى » مقالا بعنوان « الامن القومى فى عصر المعلومات » يقر فيه صراحة بان الاجابة « ليست هى فى المزيد من قوة الحاسبات » ، ويرجع الفشل فى فهم ما حدث فى ايران الى أن المعلومات المتوفره ، وكانت كثيرة لم تمرر على « عوينات حضارية سياسية » ، وهو يعترف ان الجهل بالاسلام وحضارته هو الذى ادى الى اصدار قرارات خاطئة فى التعامل مع ايران .

ولقد كتب الكاتب المذكور هذا المقال الهام تلخيصا لخبرته فى البيت الابيض اثناء فترة وجود بريجنسكى فيه ، وهو ينتقد بشدة الرؤية الخاطئة التى ترتبت على الجهل بالاصول الدينية والعقائدية للثورات .

حتى الان لم يتمكن العلماء من التو صل الى « عوينات مفاهيمية » على حد قول الكاتب المذكور ، لقراءة المعلومات على نحو صحيح ، وهو يخلص الى أنه لا غنى عن قيام حوار بين الآله والانسان . ويعترف ان فهم الانسان والحضارة هو السبيل الى الوصول الى نتائج صحيحة عند اتخاذ القرارات .

ان بريجنسكى ما يزال يمارس هوايته او طبيعته فى الظهور بمظهر المفكر البراجماتى ، بل وفى الظهور بمظهر المؤمن بالجدل (الديالكتيك) ، ومع ذلك فان التطورات فى العالم فى السنوات العشرين الاخيرة التى تفصل بين موعد صدور الطبعة الانجليزية لهذا الكتاب ، وبين موعد صدور هذه الطبعه الثانية من الترجمة العربية ، قد أثبتت انه برغم تطور العلوم الالكترونية وازدياد احجام الذاكرات الالكترونية بما تحمل من معلومات مع امكان نقلها بسهولة وصناعتها باحجام بالغة الصغر فان العقل الانسانى الذى يشغل هذه الحاسبات الالكترونية ما يزال - وسيظل - غير قادر على الاحاطة بمئات العوامل المؤثرة فى كل حدث ، والتى تعمل على نحو اعمى وغير ارادى على حد قول فردريك انجلز فى رسالته لبلوخ عندما تحدث عن تفسيره للتطور وعوامله وتعارض الارادات المؤدية الى محصلة كل موقف منها . وقد كتب ذلك فى ٢١ - ٢٢ سبتمبر ١٨٩٠ م ، وما يزال هذا الكلام صحيحا رغم ثورة الاتصالات

* * *

وسيلاحظ القارىء ان بريجنسكى يتحدث عن الولايات المتحدة الامريكية دائما باعتبارها الاقوى ، والاكثر تقدما والاغنى ، والتى لا يمكن اللحاق بها أبدا .

ومع ذلك فبعد أقل من عشرين عاما كتب بريجنسكى مقالا فى مجلة « فورين افيرز » عدد ربيع عام ١٩٨٢ تحدث فيه عن الاستراتيجية الجغرافية الجديدة لامريكا .

وبالرغم من انه تحدث منطلقا من الفكرة ذاتها ، وهى ان امريكا هى الاقوى والاغنى الا انه اضطر الى القيام بمحاولة تفنيد ما تردد عن الافول الوشيك للامبريالية الامريكية . وكذلك للحديث عن اهمية تغيير استراتيجية الانتقام النووى الشامل الى الرد الانتقائى ، والاهم انه نصح بان تفسح امريكا مكانا بجوارها فى قيادة العالم لليابان .

وهو عندما يحاول الرد على فكرة الافول الامبريالى لا يجد حجة الا أن الامبرياليات السابقة التى أفلت كانت بسبب حروب كبيرة وخسائر بشرية واقتصادية شديدة ، وكذلك ظهور بديل .

ليس من الضرورى طبعا ان تأفل الظواهر الاجتماعية فى تاريخ البشرية الطويل للاسباب نفسها التى حدثت من قبل فى التاريخ . ان انتشار الايدز مثلا فى الولايات المتحدة الامريكية قد يؤدى الى اضعافها واقصائها عن الموقع الاول للامبريالية فى العالم . كما أن حجة عدم وجود بديل يناقضها ان بريجنسكى يقلل من قوة الاتحاد السوفييتى ، وانه فى الوقت نفسه يقر بأن الولايات المتحدة الامريكية فى حاجة الى رأس المال اليابانى لتمويل تجديدها الصناعى والتكنولوجى ، وكذلك يطالب بتضافر مصالح كل من امريكا واليابان لحماية دورهما القيادى الكونى فى مجالات الابحاث العلمية والتطوير فى الاستخدامات السلمية والعسكرية للتكنولوجيا . وهو يبنى تزاوج المصلحة هذا على أساس حاجة امريكا الى رءووس الاموال وحاجة اليابان الى الحماية الامنية الامريكية لاراضيها ، والى سبل الوصول الى الاسواق الامريكية والعالمية .

وكالعادة يصوغ بريجنسكى كلمة جديدة فهو فى هذا الكتاب قدم للناس تعبير « تكنترون » ، اما فى المقال المشار اليه فقد قدم للناس تعبير « أمريبون » كاسم للعلاقات الامريكية ـ اليابانية التى يجب من وجهة نظره ان تتطور الى مشاركة كونيه .

وهكذا وبالرغم من ان بريجنسكى لم يقر بتراجع الدور الامريكى عن الموقع الاول فى مخططه لحكم العالم فقد اضطر الى الاعتراف بنقاط الضعف الامريكية التى ظهرت . وكيف اصبحت امريكا هى اكبر دولة مدينة فى العالم وصاحبة اكبر عجز فى ميزان مدفوعاتها ، وميزانها التجارى ، وهى متخلفة بالقياس مع ما تحققه اليابان وبعض دول أوروبية من تقدم تقنى ومعدلات النمو .

* * *

رغم كل شيء ، ورغم كل اختلاف مع بريجنسكى حول نظرته الى العالم فان كتاب « بين عصرين .. أمريكا والعصر التكنترونى » ، يظل مرآه لمدرسة فكرية سياسية امريكية حكمت الولايات المتحدة بمالها من دور كونى ، ويتوقع لها ان تستمر فى الحكم سنوات قادمة .

والكتاب بذلك يسهل على الاقل حساب الخطوات الامريكية المتوقعة أو فهمها وتوقع ما يترتب عليها .

وفى ذلك فائده ، وضرورة .

م . ع

القاهرة ١/ ١٠/ ١٩٨٨

تقديــم

لماذا يترجم هذا الكتاب ؟ سؤال من الضروري الاجابة عنه تقديما للكتـــاب وتوضيحا لمسوغات ترجمته .

فالترجمة من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية تحقق اهدافا عدة اولها انه ان كان من عرف لغة قوم أمن شرهم فكيف تكون الحال لو عرف كيف يفكر هؤلاء القوم وما يخططون. وثانيها ان الغالبية العظمى من قراء العربية الذين لا يستطيعون الاطلاع على ما يكتب بلغات اجنبية اخرى هي غالبية محرومة من كثير من فرص البحث ومجالات المعرفة بينما تتحول المقدرة على اللغات الاجنبية في وطننا العربي الى مدخل للاغتراب الاجتماعي والغربة عن الوطن ولغته ، فضلا عن انها امتياز اجتماعي للقادرين فحسب .

ثم ان العالم من حولنا يتغير ، والجديد يتدفق بسرعة تناسب سرعة التطور الحادث في التكنولوجيا والتغير الحادث في علاقات القوى ، وموازينها في العالم. وفي الولايات المتحدة بوجه خاص محاولات عديدة ومتزايدة لبناء مفاهيـم جديدة تناسب هذا الواقع المتغير ، وفي كل عام تظهر مجلة فصلية جديدة تختص بالشؤون الاستراتيجية والنظرية . وعشرات الكتب التي تقدم نظريات جديدة في السياسة والاجتماع والعلوم العسكرية .

ويعد كتاب بريجنسكي الذي نقدم ترجمته من اهم المحاولات في هذا المجال رغم مرور عشر سنوات على اصداره ، بل هو يعد أهم كتاب بين الكتب التي نشرها بريجنسكي ، لانه يضم نظرية كاملة عن دور الولايات المتحدة فيما يسميه بريجنسكي عصر ما بعد الصناعة ، او العصر التكنتروني (التكنولوجي ــ الالكتروني) وما تزال مفاهيم الكاتب الان بشكل عام متفقة مع ما ورد في هذا الكتاب .

ثم ان مؤلف هذا الكتاب زبيغنيو بريجنسكي هو مساعد (مستشار) الرئيس جيمي كارتر لشؤون الامن القومي ، وهو يشارك الان في صنع القرار الامريكي وذو موقع حساس مثير للجدل في ساحة العلاقات الدولية . وهو ما يزال كما سيتضح للقارىء متمسكا بالافكار والآراء التي وردت في هذا الكتاب برغم مرور عقد من الزمان عليها .

ويذكر ان هذا الكتاب هو الذي جعل العلماء النظريين السوفيات يصنفون بريجنسكي باعتباره من اعداء الشيوعية الألداء وكانوا قبل هذا الكتاب يهاجمون نظريته حول «التقاطع» ، وهي النظرية التي عمقها ووسعها وادخلها ضمن البناء الفكري الوارد في هذا الكتاب .

ومن بين مجموع ما كتب بريجنسكي من كتب ومقالات وهي كثيرة بالنسبة الى صغر سنه فان النقاد والباحثين يجمعون على ان هذا الكتاب الذي نقدم ترجمته هو اهم واشمل ما كتبه بريجنسكي في حياته السياسية . حتى ان مجلة الشؤون الخارجية قالت عنه «ان هذا الكتاب هو واحد من اكثر الكتب أصالة في الفكر السياسي والاجتماعي التي ظهرت في السنين الاخيرة» .

★★★

كثيرون يتتبعون أنباء بريجنسكي وتصريحاته فهو الرجل الثاني بعد نائب رئيس الولايات المتحدة ، وكان من الممكن ان يكون الرجل الثاني بعد الرئيس نفسه لولا عوامل شخصية تتعلق به وبالرئيس بل وبالمجموعة الحاكمة في البيت الابيض الان .

ان مساعد (مستشار) الرئيس لشؤون الامن القومي في الولايات المتحدة الامريكية هو المسؤول عن تقديم المعلومات للرئيس يوميا وتقديم المشورة بشأن الخطوات العملية والاشراف على وضع الخطط والخطط البديلة امام الرئيس، وهو من هذا الموقع اول من يرى الرئيس في الصباح وآخر من يتصل به في المساء . لذا يعد منصب مساعد الرئيس لشؤون الامن القومي من أهم المناصب في البيت الابيض . فان اضفنا الى ذلك ان سلف بريجنسكي اي المستشار السابق كان هنري كيسنجر ، ادركنا لماذا اصبح لهذا الموقع بريق شديد ونفوذ كبير في السياسة الخارجية الامريكية .

ولكن بريجنسكي ليس كيسنجر ، بل انه يكره علانية على الاقل ان يقارن بكيسنجر . فأحيانا ينفي انه كانت بينه وبين كيسنجر اي منافسة ويقول «في الحقيقة لم نكن متنافسين ... لقد سرنا معا دائما وسنبقى كذلك لكننا لن نتنافس ... هناك اسطورة في الصحافة تقول اننا تنافسنا على المقعد في جامعة هارفرد ، ولكننا لم نكن نعمل في المجال نفسه . كنت اعمل في الشؤون السوفياتية وكان كيسنجر يعمل في الشؤون العالمية وكنا متوازيين ، وكان هو

يسبقني بعام تقريبا» . واحيانا ينفي التشابه فيقول : ان كيسنجر يعمل عند نلسون روكفلر في اطار اللجنة الثلاثية بينما هو ، اي بريجنسكي ، صديق لديفيد روكفلر ولا يعمل عنده (١) .

والحقيقة ان هناك خلافا كبيرا بين بريجنسكي وكيسنجر ليست هذه المقدمة مجال تفصيله ، ولكنهما متفقان قطعا في الهدف . فكلاهما يتحدث ويتحرك في اتجاه تاكيد دور الولايات المتحدة الامريكية الاول في شبكة الموازين والعلاقات الدولية . يقول بيتر جاي وكان سفير بريطانيا في الولايات المتحدة من ١٩٧٧ — ١٩٧٩ ويعمل الان باحثا زائرا في معهد بروكينغز «ان المفهوم الفكري العام والمشترك غير المعلن بين ... كيسنجر و ... بريجنسكي يشمل الفكرة العامة عن التعددية العالمية الخلاقة كأساس للنشاط الامريكي مع الاصدقاء والمحايدين (ومع الخصوم الذين يمكن ان يصبحوا محايدين)» ، ويقتطف بيتر جاي لتأكيد ذلك قولا لكيسنجر في ١٩٦٨ : «ان هدفنا يجب ان يكون بناء وعي عام معنوي يمكنه ان يجعل العالم التعددي خلاقا» ويقارن هذا القول بقول آخر لبريجنسكي في ١٩٧٧ : «اننا نقطع بثقة ان تعاوننا مع المجتمع العالمي يمكن ان يسرع ويشجع الفرصة التي تجعل الانسان يعيش مستقبله في عالم تعددي خلاق» (٢) .

ويمكن بالطبع لدعاة نظريات التحليل النفسي والنفسي — الاجتماعي ان يجدوا في نشأة بريجنسكي ما يفسر سلوكه واختلافه عن كيسنجر ..

ولد بريجنسكي عام ١٩٢٨ في بولندا لعائلة ارستقراطية كاثوليكية (٣) وعندما بلغ العاشرة انتقل مع عائلته الى كندا حيث عيّن والده في منصب دبلوماسي ، وعندما اجتاح النازيون بولندا استقر ابوه في كندا ولم يرجع الى بولندا التي خرجت من الحرب العالمية الثانية وهي تحت حكم الشيوعيين . واستقر بريجنسكي في كندا حتى تخرّج من جامعة ماك جيل وسافر بعد ذلك الى الولايات المتحدة الامريكية ليدرس في جامعة هارفرد . وتزوج حفيدة ادوارد بنش آخر رئيس لتشيكوسلوفاكيا قبل انفراد الحزب الشيوعي بالحكم فيها .

تخرّج بريجنسكي من هارفرد وعمل فيها باحثا ومدرسا ولكنه عندما لم ينجح في الحصول على مقعد ثابت في هيئة التدريس تركها الى جامعة كولومبيا حيث أسس فيها معهدا لدراسة الشؤون الشيوعية وهناك نشط ضمن المجتمع الاكاديمي وبرز في مجال الدراسات عن الاتحاد السوفياتي ، ونشر عدة كتب في هذا الموضوع وتعرّف الى عدد كبير من الاكاديميين والسياسيين ورجال الاقتصاد

---

١ — سالي كوني ، بريجنسكي وكيسنجر : آراء وتنافس وتلاحم ، **الوشنطن بوست** ، ٢١—١٢—١٩٧٩ .

٢ — بيتر جاي ، الاقليمية والجغرافيا السياسية ، **الشؤون الخارجية** العدد السنوي ١٩٧٩ .

٣ — البيانات الشخصية الواردة مأخوذة من عدة مصادر ، اهمها : تقرير فوق العادة ، كتبته اليزابيث درو ونشرته مجلة **نيويوركر** — ١—٥—١٩٧٨ .

ومن بينهم دافيد روكفلر . ثم اسس مع دافيد روكفلر المصرفي الاشهر الجمعية المسماة باللجنة الثلاثية والتي تضم حوالي ٢٩٠ شخصية امريكية واوروبية ويابانية من بين رجال الاعمال والبنوك والسياسة الدوليين واصبح هو اول مدير لها ، فكانت فرصته للتعرف الى جيمي كارتر والى عدد غير قليل من النافذين في النخبة الحاكمة الامريكية . ويمكن القول ان زبيغنيو بريجنسكي قد وجد لنفسه مكانا بين النخبة الحاكمة الامريكية منذ تلك اللحظة برغم حداثة وجوده في الولايات المتحدة .

وسيجد القارىء ان اللجنة الثلاثية التي تأسست في ١٩٧٣ يمكن ان تعتبر تطبيقا لمفاهيم عرضها بريجنسكي في كتابه هذا في ١٩٧٠ . فقد نادى بضرورة تنسيق الجهود الدولية بين الولايات المتحدة الامريكية واوروبا الغربية واليابان . وهو ايضا قد عرض في كتابه هذا افكاره عن دور النخبة الحاكمة وعن دور التيار الليبرالي في السياسة الامريكية ونظّر لهذا الدور بحيث رسم له مستقبلا زاهيا برغم مشاكل مرحلة التحول الى العصر التكنتروني . ولقد وصف روكفلر مهمة اللجنة الثلاثية بقوله : «ليس لدى الحكومات الوقت الكافي للتفكير في القضايا الاوسع والابعد مدى ، ويبدو منطقيا ضرورة تشجيع مجموعة من المواطنين المؤهلين الاهليين (غير الرسميين) ليجتمعوا معا لتحديد القضايا الاساسية التي تؤثر على العالم وتحديد الحلول الممكنة لها» (٤) . ولكي يدرك القارىء تأثير هذه اللجنة نذكر ان سبعة عشر من المسؤولين الكبار في حكومة كارتر هم من الاعضاء السابقين في اللجنة من بينهم نائب الرئيس والتر مونديل ، ووزير الخارجية (السابق) سيروس فانس ، وزبيغنيو بريجنسكي ، وهارولد براون وزير الدفاع . كما ان جورج بوش من زعماء الجمهوريين وكيسنجر ايضا هما من بين اعضائها .

***

والآراء في شخصية بريجنسكي كثيرة ومتضاربة ويكفي ان نذكر ان صحفيا اطلق عليه ذات مرة انه «Dawk» وهي كلمة تجمع بين الصقر والحمامة (٥) . ولا شك في ان كتابات بريجنسكي تكشف عن عداء شديد خبيث للشيوعية وعن محاولة للتأمرك تفضح شعورا عميقا بعقدة الاقلية والغربة عن المجتمع الاميركي ، وعن رغبة ملحة في بناء المفاهيم وصياغة الشعارات بحيث يبدو دائما كمفكر غير براغماتي يهتم بالمبادىء والافكار والنظريات . وربما كان لنشأة بريجنسكي أثر كبير في تشكيل شخصيته ومسلكه ، فكونه بولنديا حديث العهد بالحياة الاميركية،

---

٤ ــ مجلة نيوزويك ، ٢٤ آذار (مارس) ١٩٨٠ .

٥ ــ روبرت شير ، بريجنسكي : سطحي أم متعمق ؟ لوس انجلوس تايمز ٢٢–١–١٩٧٧ .

وكونه كاثوليكيا في بلد يغلب على النخبة الحاكمة فيها المذهب البروتستانتي ، وكونه ارستقراطي النشأة في بلد ليست للارستقراطية فيه جذور عميقة ، وكونه ابن ديبلوماسي ومنافس لديبلوماسي في بلد له دور عالمي بالضرورة ، كل هذه العوامل تلقي بعض الضوء على توجه بريجنسكي الى مجال العلاقات الدولية وسعيه لتنظير هذه العلاقات ودور اميركا فيها ، بل وتفسر ايضا موقفه من الاتحاد السوفياتي وموقفه من الشيوعية وكذلك ضعفه النسبي ضمن المجموعة الحاكمة حيث لم يستطع حتى الان كما هو معلوم ان يحتل الموقع الثاني كما كان كيسنجر.

★★★

كان لاشتراك بريجنسكي في الحكم أثر كبير في اثارة العديد من الاسئلة والتساؤلات حول مدى تمسكه بنظرياته التي صاغها قبل وصوله الى هذا المنصب.

فلسنوات دعا بريجنسكي الى انشاء نظام عالمي جديد يمكنه في النهاية ان يحتوي الاتحاد السوفياتي بحيث يصبح وجود الاتحاد السوفياتي الى جانب الولايات المتحدة والقوى الكبرى الاخرى امرا طبيعيا في العالم المعاصر . وفي سبيل ذلك دعا بريجنسكي الى توازن قوى عالمي متعدد الاطراف تكون نواته هي التحالف الوثيق بين اميركا واوروبا واليابان في مواجهة الاتحاد السوفياتي والصين المختلفين مع بعضهما . وقدم بريجنسكي نفسه دائما بانه الواثق المتفائل بمستقبل اميركا والعالم ، واكد على حتمية التحاق الاتحاد السوفياتي بهذا التوازن الدولي الجديد . وارفق بهذه النظرية فكرتين اخريين . الفكرة الاولى تقول ان الظواهر السياسية هي «عملية» متحركة ومستمرة ومتغيرة . وفي هذا انتقد كيسنجر الذي كان يخشى من تأثير التغير الثوري على التوازن الاستراتيجي مما حدا به ، اي كيسنجر . الى العمل على اقامة علاقة مستقرة مع الاتحاد السوفياتي ومن ثم الى وضع فكرة الانفراج والوفاق على اساس اتفاقات كلية ثابتة ، او تدوم لفترة طويلة ، كاتفاقات فيينا ومترنيخ في القرن الماضي . في مقابل ذلك طرح بريجنسكي فكرة «التقاطع» Convergence واستنتج من دراساته التي قام بها هو ومعهد دراسات الشؤون الشيوعية انه ليس امام الاتحاد السوفياتي الا ان يتعاون او ان تكون امامه مواجهة مكلفة ليست عسكرية فحسب وانما تؤثر اساسا في التنمية الداخلية فيه . ومن المعروف ان فكرة «التقاطع» هذه هي التي جعلت المنظرين السوفيات يعتبرون بريجنسكي عدو الشيوعية رقم واحد ، وعدو الانفراج والوفاق الى درجة ان بريجنيف اشار الى ذلك خلال المأدبة التي اقامها المستشار كرايسكي للرئيسين بريجنيف وكارتر في فيينا غداة

★ مع ان فعل To Converge معناه ان يتلاقى شيء بشيء آخر او ان ينصب به ، فاننا فضلنا استعمال تعبير «تقاطع» في سياق بحثنا .

لقائهما لتوقيع اتفاق سولت ٢ .

بالطبع ليس بريجنسكي هو الوحيد بين الساسة الامريكيين الذين يهاجمون الشيوعية ويعادون الاتحاد السوفياتي والوفاق والانفراج . ولكن الفرق يكمن بين بريجنسكي وغيره في انه طرح «نظرية» في هذا المجال ، نظرية تبدو للوهلة الاولى سلمية وسليمة النوايا ، ولكن تفحصها يكشف عن خطورتها .

فقد اصدر بريجنسكي مع صمويل هنتنفتون في ١٩٦٤ كتابا بعنوان **«السلطة السياسية : الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي»** وقد طبع الكتاب عدة مرات وصدر في طبعة شعبية في سلسلة بنغوين ، والكتاب مخصص كله لاثبات فكرة التقاطع وفي مقدمة الكتاب نجد محاولة لتعريف «التقاطع» (وهو امر نادر في الكتابات الاميركية) ولكنه تعريف على الطريقة الشائعة في الكتابات السياسية الاميركية ، تعريف تطبيقي ، فهو يعرف «نظرية التقاطع» بانه في اواخر الخمسينات بدأ مفهوم الابيض والاسود الجامد يتراجع لتحتل مكانه نظرية اكثر دينامية عن تقاطع المجتمعين الاميركي والسوفييتي .. وان الفكرة الاساسية في هذه الفرضية هي ان الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة يصبحان اكثر تشابها . «(ص ٧) .

تبدو الفكرة مثيرة للتفاؤل . وتقول المقدمة «ان نظرية التقاطع ليست مجرد موقف فكري تجريدي وانما هي ايضا مصدر لتفاؤل الكثيرين وترضي الجميع» . وفي هذا الكتاب كما في الكتاب الذي تقدمه جمع بريجنسكي قدرا هائلا من البيانات الاحصائية وغير الاحصائية الامريكية والسوفييتية وقارن بينها لكي يثبت فكرته. والطريف انه يعتبر ان مجرد حديث الشيوعيين عن «ان كل العالم سيصبح يوما ما شيوعيا» هو اعتراف منهم بأن العالم وظواهره يسير على قاعدة التقاطع هذه .

ولكن الفكرة لم تعجب – وهي بالتأكيد لا يمكن ان ترضي – المنظرين السوفييت ، فمعنى كلام بريجنسكي ان النظام السوفييتي يتطور لا في اتجاه مناقض للنظام الرأسمالي وانما في اتجاه النظام الرأسمالي . ان مفهوم التقاطع ينفي عن الشيوعية طابع كونها نقيضة للرأسمالية ومن ثم يتنبأ للانظمة الشيوعية بمستقبل لا تسر له كثيرا النخب الحاكمة في الدول الشيوعية .

من هنا كان غضب المنظرين والسياسيين السوفييت على بريجنسكي . والمسألة الاهم هي ان مفهوم التقاطع لا يتوقف عند حد تفسير حركة المجتمعات او التنبؤ بمستقبلها ، وانما يمكن ان يصبح – وهذا حادث بالفعل – منهج عمل للقوة التي تملك التأثير في حركة بعض الظواهر . اي ان بريجنسكي يرى انه لا يكفي ان تنتظر الولايات المتحدة تحرك الاتحاد السوفييتي ، او اي نظام آخر في اتجاه التقاطع مع الولايات المتحدة ، وانما يجب ان تقوم الولايات المتحدة بالخطوات التي تشجع ذلك ضمن خطط مرسومة ، كأن تشجع قوى معينة داخل المجتمع المعين ، او تقيم علاقات اقتصادية معينة من شانها ربط فروع من الاقتصاد بالسوق العالمي .. الخ ..

كذلك فان تبني مفهوم التقاطع ومنهاجه يعني رفض مفهوم الابيض والاسود او الكل او لا شيء على الاطلاق ، ويستبدل بذلك مفهوما يعني التكامل مع ما هو قائم ومحاولة البحث عن نقطة التقاء وتقاطع حتى مع الخصم ، اعتمادا على تفوق الطرف المعين (الولايات المتحدة) تفوقا يلحق به اي قوى اخرى تتقاطع معه .

ثم ان التقاطع لا يقتصر على قوتين متصارعتين فقط ، فالحقيقة ان بريجنسكي من اصحاب فكرة العالم المتعدد القوى وليس عالم المعسكرين ، كما ان فكرة «التقاطع» نفسها تعني التقاء حركة عدة قوى في نقطة ما (وهذا ما جعله في المقدمة يقول بأنها ترضي الجميع) ، فعند حدوث حدث معين كمحصلة لتقاطع مصالح عدة اطراف ، يشعر كل طرف كبيرا كان او صغيرا بانه قد حقق شيئا ما .

وقد يكون ذلك صحيحا في بعض حالات التقاطع العفوي ، ولكن الامر يختلف في حالة التقاطع الموجه والمرسوم حيث تدفع القوة الاقوى الى تحريك العمليات السياسية في اتجاه يحقق لها مصلحتها او على الاقل يتحرك ضمن مصالحها هي. ففي هذه الحالة سيحقق الطرف الاقوى مصلحته وسيضمن في نفس الوقت شعورا بالرضى — ولو مؤقتا — لدى الاطراف الاضعف .

هناك اذن جانبان لفكرة التقاطع : الاول انها فكرة تصلح لتفسير حركة الظواهر السياسية ومدى تقاطعها (أي جوانب التشابه والالتقاء فيما بينها) ، والثاني انها اسلوب او خطة في العمل السياسي للتأثير في حركة الظواهر بتقوية نقاط الالتقاء (ربما بتوسيع وتنمية نقاط ضعف الخصم) لتحقيق السيطرة الفعلية بالربط والالحاق .

وتكمل فكرة التقاطع هذه ، فكرة «العملية» (٦) ، وهي كلمة شائعة في الكتابات السياسية الامريكية ولكن ليس لها — كالعادة — تعريف محدد . ومفهوم «العملية» هذا يقوم على اساس ان كل ظاهرة هي ظاهرة متحركة ، وانه يجب دراستها على هذه الحالة . ومثلما يمكن ان يتحول مفهوم التقاطع من مفهوم لتفسير حركة ظاهرة ما الى خطة للتأثير في حركة هذه الظاهرة ، كذلك فان مفهوم «العملية» الى جانب تفسيره لحركة الظاهرة ، يتيح للقوة القادرة التأثير في هذه الحركة بل على «اطلاق» هذه العملية ثم مراقبة حركتها وعدم التدخل الا عندما تخرج عن المجرى العام الذي يتفق مع مصلحة القوة القادرة . ويمكن تشبيه «اطلاق العملية» بقصة «حل الحبل» الشعبية المشهورة التي تقول ان الشيطان اراد اختبار ابنه فأمره باشعال الفتنة في قرية فذهب وعاد بعد ثانية واحدة ، ولم تمض دقائق حتى كان اهل القرية يقاتل بعضهم بعضا ، سأل الشيطان ابنه : «ماذا فعلت ؟» فقال «حليت الحبل» فقال له : «فسر ..» قال : «وجدت امرأة ربطت العجل الصغير بعيدا عن أمه حتى تحلبها ، ففككت حبله فانطلق الى امه فأوقع وعاء

---

٦ — بعض الكتاب يترجمون كلمة Process بالسيرورة . والى ان تصبح هذه الترجمة شائعة ومفهومة للقارىء فانني افضل ترجمتها «بالعملية» — م.ع.

الحليب ورضع ما تبقى من ضرع أمه ، وعندما عادت المراة الى زوجها لم يصدق انها ربطت العجل واتهمها بالاهمال وضربها فذهبت الى اخوتها باكية وجاء هؤلاء وتضاربوا مع الزوج وانتشر العراك والقتال في القرية» .

بهذا نفهم سر شيوع كلمة «مبادرة» في العمل السياسي الامريكي ، فالمبادرة تعني خطوة اولى تطلق عملية سياسية معينة في اتجاه معين ، ويمكن ان نستنتج ان اطلاق مبادرة معينة يعني ان مطلقها قد درس العوامل والمؤثرات التي ستؤثر في حركة «العملية السياسية» وانه يملك من القدرة الذاتية او الموضوعية ما يسمح له بالتحكم في حركة هذه العملية السياسية . ولا يعني ذلك بالطبع ضرورة نجاح كل مبادرة سياسية ، او ضرورة وصول العملية السياسية لنهاياتها المرسومة ، ولكن يعني ان فشلها سيكون دليلا إما على عدم دراسة ظروف وعوامل العملية السياسية قبل اطلاقها (كان يخطىء ابن الشيطان في تقدير حماسة اخوة الزوجة فلا يتعرضون لزوجها) او ان عوامل جديدة قد ظهرت فأوقفت العملية السياسية او غيرت مجراها عن الطريق المرسوم .

ذلك ما يفسر لنا ايضا سر تعدد المبادرات ، ففي حال فشل العملية السياسية المرسومة ، سيسعى مطلقها لتحريكها من جديد بدفعة جديدة اي بمبادرة جديدة، كذلك في حال تباطؤ حركة العملية السياسية المعنية فان الاطراف اصحاب المصلحة في حركتها سيسعون الى الاسراع بها بينما ستسعى الاطراف المتضررة منها الى وقفها او إبطائها .

ولا تقتصر فكرة «العملية» السياسية على تلك العمليات التي تطلق قصدا لخطة ، وانما تشمل ايضا كل عملية سياسية تجري ويمكن التاثير فيها بالالتحاق بها او بتحريك بعض اطرافها (تطبيقا لفكرة التقاطع) او باحتوائها .

ومن الواضح ان مفهوم «العملية السياسية» يزداد انتشارا في ظروف عالم اليوم المتغيرة بل السريعة التغير . ذلك العالم الذي تتعارض «وحدته» مع «براغماتية» السياسيين ، كما انه اكبر واعقد من ان تشمله نظرة عقائدية شاملة جامدة . مفهوم «العملية السياسية» يتيح لاصحابه الجمع بين النظرة الكلية «للعملية السياسية المعينة» والتي يقدر انها تغطي مكانا وزمانا وظواهر وقوى محددة ، وبين المرونة البراغماتية المترتبة التي تحتاجها العملية السياسية بسبب تغيير ظروفها وعواملها باستمرار . اي ان مفهوم «العملية السياسية» يتيح لاصحابه «تحديد» جزء من الظاهرة العالمية (قد يتم ذلك على اساس جغرافي سياسي او جغرافي استراتيجي ، او اقتصادي ، او حتى ايديولوجي) ودراسة العوامل المكونة لهذا «الجزء» وحركتها والظروف المحيطة بها ، ثم هو يتيح التعامل البراغماتي مع متغيرات هذا الجزء في حركته – او تحريكه – نحو النهاية المرسومة .

بكلمات اخرى فانتحريك عملية سياسية يعني امكان دفع «السبب» في اتجاه انه يعطي «نتيجة» ما،ثم جعل هذه «النتيجة» سببا جديدا وتحريكها لتعطي نتيجة

جديدة . كل ذلك ضمن اطار محدد ، ونحو هدف مرسوم . هذا يفسر ما يردده بريجنسكي دائما عن الفرق بين اسلوبه واسلوب كيسنجر ، فكيسنجر في رأيه يتبع اسلوب الخطوة خطوة دون تحديد الاطار العام للعملية السياسية الكلية ، بينما يرى بريجنسكي انه من الضروري تحديد اطار عام اولا ، وتصور الهدف المراد ثم تحريك العملية السياسية ضمن هذا الاطار ونحو هذا الهدف خطوة خطوة.

ان بريجنسكي يفتخر بأنه ليس براغماتيا ، ويبدو حريصا على انه يقدم نفسه كمفكر مفاهيمي ديالكتيكي لديه على الدوام الاجابة على الاسئلة المطروحة وهي اجابة تتميز بالصياغة المفاهيمية المترابطة . وتتيح فكرة «العملية السياسية» وفكرة «التقاطع» لبريجنسكي ان يغير تصريحاته وآراءه وافكاره ، وان يتصرف ببراغماتية مقنّعة بقناع من المفاهيم والخطط العامة .

***

ويقودنا الحديث عن «ديالكتيك» بريجنسكي الى افكاره التي طرحها في هذا الكتاب حول وحدة العالم وتفتته في نفس الوقت . فبريجنسكي يتنبأ للولايات المتحدة بل للعالم كله انه مع ازدياد وحدة العالم نتيجة الثورة ، في وسائل الاتصالات والالكترونيات ، ستزداد الجماعات العرقية والدينية انغلاقا على نفسها بسبب رغبة الافراد في الحصول على انتماء حميم وعلى شعور بالحماية . ويناقش بريجنسكي بتفصيل كبير اثر ذلك في مجتمع الولايات المتحدة ويتنبأ بازدياد دور الجماعات والتنظيمات المعبرة عن العروق والاجناس والمذاهب الدينية التي تكوّن المجتمع الامريكي نفسه .

ولا شك ان توقعات بريجنسكي في هذا المجال صحيحة ولكنها جزئية . والخطر هو ان بريجنسكي لا يكتفي بتفسير ظواهر ازدياد تبلور الخصائص العرقية والدينية باعتبارها ظواهر مرافقة لتطور العالم ولكنه يسعى عمدا – وهو في مواقع السلطة الان – لتعميقها ، وبالطبع لاستغلالها لصالح الولايات المتحدة الامريكية . فالعالم المفتت الواحد سيكون ،من وجهة نظر بريجنسكي تحت قيادة المجتمع الاغنى والاقوى اي المجتمع الامريكي .

وفي تصريح لبريجنسكي في ١٩٧٧ كشف عن خلفية خططه بالنسبة الى نزاع الشرق الاوسط فهو ينكر على سكان مصر وساحل شرقي البحر الابيض عروبتهم ويرى ان «الداخل السوري» مع الجزيرة العربية هم عرب . فان اضفنا هذه الافكار الى فكرته عن ازدياد تمايز الجماعات العرقية والدينية يمكننا ان نستنتج ان بريجنسكي والادارة الامريكية طبعا يتصوران «شرق اوسط» مكونا من جماعات عرقية ودينية مختلفة يجمعها اطار اقليمي (لبريجنسكي ايضا نظرة خاصة للأطر الاقليمية واهميتها) اي ان بريجنسكي يسعى الى تفتيت الدول العربية القائمة حاليا على اساس مبدأ الدولة / الامة (وهو التفتيت الذي لجأت اليه القوى الكبرى في مطلع القرن) وتحويلها الى «كانتونات» طائفية وعرقية يجمعها اطار اقليمي

(كونفدرالية) وهذا الاطار الاقليمي سيسمح – اذا تحقق – للكانتون الاسرائيلي اليهودي بالعيش في المنطقة بعد ان تصفى فكرة القومية ، ومن ثم فكرة الوحدة القومية وما يتطلبه تحقيقها من ضرورة تحرير الارض وحماية الاستقلال .

***

منذ وصول بريجنسكي الى منصبه الجديد على قمة الادارة الامريكية حرص على ان يعلن خطته وطرحها في حوار تم في «مجلس العلاقات الخارجية – **مجلة الشؤون الخارجية** ربيع – ١٩٧٩» ، وتتحدد خطوطها العامة فيما يلي :

١ – تحقيق الامن القومي عسكريا .

٢ – تقوية الروابط مع الحلفاء الرئيسيين وتشجيع التعاون مع اوروبا الغربية واليابان .

٣ – التعامل بايجابية مع التحدي الاقتصادي – الاجتماعي بين الشمال والجنوب.

٤ – تحسين العلاقات بين الشرق والغرب .

٥ – حل النزاعات الاقليمية ، مثل نزاع الشرق الاوسط .

٦ – الاستمرار بجهود الحد من انتشار الاسلحة النووية والاسلحة الاستراتيجية بشكل عام .

٧ – تأكيد القيم الامريكية التقليدية والالتزام بالدفاع عن حقوق الانسان .

وفي مقدمة لمجموعة من مقالاته نشرت في كتاب في باريس كتب جان – بيار كوت عن بريجنسكي وعن آرائه في السياسة الخارجية الامريكية ، فأكد ان هدف بريجنسكي ما يزال هو الحفاظ على الموقع المتفوق للغرب الرأسمالي الصناعي في العالم ، والحفاظ على موقع امريكا المتفوق ضمن هذا العالم الصناعي المتقدم. وقد ركز جان – بيار كوت على اهمية «المفاهيم» لدى بريجنسكي وأكد انها لا يمكن ان تخفي براغماتيته مع ذلك . وأشار الى ان بريجنسكي يسعى الى بناء منظومة دولية تعددية تقوم على ثلاث اولويات :

١ – توازن بين امريكا وأوروبا الغربية واليابان والاتحاد السوفياتي والصين مع تشجيع اوروبا واليابان للتعبير عن ذاتهما ومأسسة علاقات التوازن هذه . و٢ – تحسين العلاقة بين الشمال والجنوب بحيث «لا تصبح امريكا كلب حراسة النظم الديكتاتورية المفسدة» و٣ – تحقيق التعادل في نطاق النزاع العسكري والايديولوجي بين الجبارين اي بين امريكا والاتحاد السوفياتي ، وفي ذلك يعلن بريجنسكي خطأ التصدي للشيوعية بمجرد العداء لها ويشير بضرورة خوض المعركة الايديولوجية على كل الساحات بدءا من حقوق الانسان وصولا الى تصدير نمط الحياة الامريكي (الجينز والديسكو والعلوم والتكنولوجيا والعادات الامريكية) .

هذه هي بشكل عام افكار زبيغنيو بريجنسكي . ويمكن للقارىء ان يطلع عليها كاملة في هذا الكتاب ويمكنه ايضا ببساطة ان يفسر تحركات الادارة الامريكية

وبوجه خاص تلك التي يلعب فيها بريجنسكي دورا بارزا او على الاقل تحدث عنها بريجنسكي كمنظر او كصانع قرار .

وبشكل عام ايضا يتضح ان تطور الاحداث السياسية تتفق الى حد ما مع توقعات بريجنسكي وخططه ومفاهيمه بالذات فيما يتعلق بالعلاقة بين الشرق والغرب وفي العلاقة بين الولايات المتحدة وبين اوروبا واليابان ، وبدرجة أقل بكثير ، في العلاقة بين الشمال والجنوب والعلاقة مع دول العالم الثالث والموقف من النزاعات الاقليمية . ففي المجالات الاولى تصبح كتابات بريجنسكي هي مجرد صياغة لواقع معروف ومدروس ومحدود المعالم بل ويمكن التأثير فيه بالمواجهة او بالتنازل . اما بالنسبة للمجالات التي فشلت فيها الادارة الامريكية حتى الان فانها على الاغلب مجالات العالم الثالث والتناقض بين الشمال الصناعي الغني والجنوب الزراعي الفقير والنزاعات الاقليمية . على هذه الساحات الاخيرة تواجه الادارة الامريكية وبريجنسكي عوامل محلية لا يمكن للمهاجر الكاثوليكي البولندي الارستقراطي الذي يعمل لدى الادارة الامريكية ، لا يمكنه ان يفهمها او يتوقعها ومن ثم لا يمكنه ان يواجهها .

ان العقول الاليكترونية التي يهواها بريجنسكي لدرجة الافتتان لم تمكنه من توقع التغيير في ايران ولا من مواجهته ، بل على العكس لقد توقع بريجنسكي منذ عشر سنوات في هذا الكتاب انه لن تكون هناك ثورات جذرية في العالم . وقال «ان الثورات هي من الامور النادرة تاريخيا» ، وبعد الحدث الايراني يتحدث بريجنسكي عن «بعث اسلامي شامل» يجب حسابه والتعامل معه . كذلك فان العقول الاليكترونية والتكنولوجيا المتقدمة جدا لم تسهل على الادارة الامريكية مهمة كان بريجنسكي — وكارتر — بالطبع يريد تحقيقها «تحت السيطرة»، تلك هي مهمة تغيير الانظمة الديكتاتورية المتعاملة بشكل مباشر واستبدالها بانظمة ذات واجهات ليبرالية ، لان الجماهير لا تترك مجالا لعمليات مثل هذه دون ان تحول التغيير لصالحها وتفرض شروطها بل وسلطاتها .

حتى على الساحة الايديولوجية حيث كان بريجنسكي يتوقع ان ينتشر الجينز والديسكو ونمط الحياة الغربي فيحقق بذلك سيطرة فكرية على مجتمعات العالم الثالث ، فاننا نجد ان الثورات الشعبية التي تهب في السنوات الاخيرة تغرف من تاريخها وتراثها وترفض التغرب وتقليد الاجنبي .

ولا يعني ذلك ان بريجنسكي عاجز او ان الادارة الامريكية عاجزة عن التأثير والتدخل ، كما لا يعني ان تحليلاته حول اثر الثورة ما بعد الصناعية (التكنولوجية — الاليكترونية) هي تحليلات سطحية او مرفوضة برمتها . فواقع الامر غير ذلك . ان الكثير من الظواهر الحديثة التي تحدث حولنا قد تحدث عنها بريجنسكي واقترح لها خططا وخططا بديلة . ولنضرب مثلا على ذلك ظاهرة التفتت القاعدي الذي تحدث عنها بريجنسكي في مواجهة التمركز عند القمة ، وكيف انها تحدث بالفعل احيانا كنتيجة لعوامل محلية واحيانا بتشجيع او تدبير من قوى التدخل الاجنبي . ان هذه الحالة التي تشغل الان كل القوى والتي تتنوع بين الصراعات

الدينية والصراعات العرقية والصراعات القومية ، والتي تهدد كيان دول حديثة الاستقلال توقعها بريجنسكي في كتابه واقترح لها حلولا ـ تصبح وهو في السلطة تدابير ومخططات ـ على اساس ان العالم مدينة واحدة .

تلك هي فكرة بريجنسكي في كلمتين **ان عالم اليوم مدينة واحدة** ، وكل من في المدينة مضطر للتعايش مع الباقين ولا يعني ذلك وجود نخبة حاكمة ونخبة اقتصادية وارستقراطية واحياء مغلقة واحياء من التنك وفقراء وجماعات دينية مختلفة وعصابات وجريمة ونظام يحكم كل ذلك . ويامل بريجنسكي ان تتمكن الولايات المتحدة من بناء هذا النظام بل ان تستمر القوة الاولى في داخله .

خلاصة القول ان بريجنسكي مفكر يعمل لدى الولايات المتحدة الامريكية (وهو لهذا اكثر تشددا من الامريكيين انفسهم لكي يثبت اخلاصه) وهو يسعى لتنظير استمرار السيطرة الامبريالية ودور الولايات المتحدة الامريكية الاول والمتفوق في العالم. ولكن بريجنسكي الذي يحتقر قوة ودور العالم الثالث ويقطع بانه من المستحيل على هذا العالم الثالث ان يلحق بالولايات المتحدة الامريكية . يقع في خطأ قاتل به ولمصالح الولايات المتحدة الامريكية . فبادىء ذي بدء لماذا يجب ان يكون التحدي المطروح امام شعوب العالم الثالث هو اللحاق بالولايات المتحدة الامريكية ؟! ان لهذه الشعوب طرقها لحل مشاكلها وهي طرق تقوم على مواجهة السيطرة والنفوذ الاجنبي ومحاولات الضم والالحاق والتفتيت على اختلافها .

ويكفي ان نقرأ فيما بين سطور كتاب بريجنسكي هذا وكتاباته وكتابات المنظرين الامريكيين الآخرين انهم ـ اي الكبار ـ يفضلون التعامل مع الظواهر المأساة بدلا من مواجهة الظواهر غير المأساة (يقول بريجنسكي انه في كل مدينة تفضل السلطات التعامل مع الجريمة المنظمة لا الجريمة الفوضوية) اي ان بريجنسكي يحلم بالتعامل مع ما يتخيله هو من تغيير «منظم» ولا يعرف او هو يتجاهل ان التغيير الحقيقي لا يمكن الا ان يكون مستقلا عن انظمته العالمية القائمة .

ان المواجهة ستدور على ارض العالم الثالث بلا شك ، وفي هذه المواجهة ستسقط الرهانات الامريكية على ارض الواقع بالعودة الى الاصالة والاعتماد على الذات ووحدة الصغار وتعاونهم فيما بينهم وعندئذ ، ربما كتب بريجنسكي كتابا آخر ليحاول الحفاظ على تفاؤله الزائف في امكانية محافظة امريكا على تفوقها العالمي .

محجوب عمر
١٠-٤-١٩٨٠

تنويـــه

بالرغم من ان هذا الكتاب لا يتناول قضية الشيوعية الا جزئيا ، انما يتناولها اساسا في علاقتها بالقضايا الأعم التي اهتم بها ، فان معهـــد الابحاث الخاص بالشؤون الشيوعية في جامعة كولومبيا قد أمدني بمساعـــدة بحثية لا تقدر ، وبمجموعة من المنطلقات ملائمة ومنشطة . ان زملائي بالمعهد لا يدركون كم كانوا ذوي فائدة عظيمة لي خلال عملية تشكيل افكاري، واختبار آرائي، وتوسيع آفاقي.

لقد قرا المسودة ونقدها عدد من الاصدقاء والزملاء ، واني لممتن بشكل خاص للبروفيسور صموئيل ب. هنتنغتون لملاحظاته النقدية العميقة وتوصياته التي افادتني جدا . وللبروفيسور البرت ا. مفريناك الذي حافظ على اسلوبنا الودود خـــلال مناقشته للحجج التي قدمتها بحيث ارغمني على اعادة التفكير في بعض افتراضاتي. وللسيدة كريستين دودسن مساعدة المدير الاداري السابقة لمعهد الابحاث ، التي أعدت ملء فصل من الملاحظات النقدية والبناءة والدقيقة علـــى المسودة كلها ، وللبروفيسور الكسندر ارليخ لانه حاد بي عن بعض المزالق الاقتصادية . كما انني ممتن غاية الامتنان للآنسة صوفيا سلوزار مساعدة المدير الاداري حاليا التي قامت في وقت سابق بدور اساسي في اعداد الجداول وجمع البيانات المطلوبة . امـــا الآنسة توبي ترستر الباحثة المساعدة لي فقد كانت لا تكل عن الكشف عن جوانب عدم الدقة التي اقع فيها ، وفي ملء الثغرات في قوائم الكتب وفي اكمـــال البحث . اما الآنسة دوروتي رودنايت والآنسة ميشيل ايلون والسيـــد ميرون غوتمن فقد تفانوا بكل طاقاتهم وبكل محبة وكفاءة ، حتى تحت ضغط الوقت ، لاكمال المسودة . اني مدين لكل هؤلاء بما يسعدني ان انوه به .

كما انني اود ان أسجل امتناني للسيد مارشال بست من فايكنغ برس الذي

غالبا ما اعتمدت على خبرته وحكمته ، كذلك للسيد ستانلي هوشمن لمساعدته الرقيقة في الصياغة .

ويحق لزوجتي تنويه خاص . ففي كل كتاباتي لم يحدث انني قابلت قارئا ذا ضمير يقظ ولا ناقدة متشددة ــ لا اجرؤ ان اقول عنيدة ــ مصممة على طلب الكمال ، مثلها . انني لا اتردد في القول ، بالرغم من انني اقوله الان مرتاحا ، انه اذا كانت هناك حسنات لهذا البحث فان مردة لجهودها في معظمه .

Z. B. ز. ب.
تشرين اول (اكتوبر) ١٩٦٩

مقدمـــة

ربما كان الوقت قد مضى بالنسبة الى النظرة الشاملة «الكبيرة» فلقد كانت في بعض جوانبها ضرورة لتحل محل الجهل ولتعوض بشكل عام النقص في تعمق فهم الانسـان لعالمه . حتى لو كان الامر كذلك ، لكادت نتيجة المزيد من المعرفة ان تكون جهلا . او على الاقل شعورا اكبر بالجهل بالموقع الذي نقف فيه والوجهة التـي نحن بصددها ، وبشكل خاص بالوجهة التي يجب ان نتوجه اليهـــــا جهلا،او شعورا بالجهل اكبر مما كان عليه الامر عندما كانت معرفتنا اقل في واقع الامــر ولكن كنا نظن اننا نعرف اكثر .

لست متأكدا انه من الضروري ان يكون الامر على هذا النحو . وعلى اي حال، فانني لست راضيا ، بذلك الفهم المفتت الميكروسكوبي للجزئيات ، واشعر انني بحاجة الى الوصول الى منظور اكبر حتى وان يكن فجا . وهذا الكتاب هو محاولة لتقديم هذا المنظور . انه محاولة للوصول الى تعريف ــ في اطار ديناميكي ــ لمعنى احد الاوجه الكبرى في واقعنا الحالي : الا وهو العملية السياسية العالمية الآخذة في الظهور ، هذه العملية تميّع بشكل متزايد التمايز التقليدي بين السياســات المحلية والدولية . سأركز الاضواء بشكل خاص على معنى ظهور هذه العمليـــة بالنسبة الى الولايات المتحدة مستهدفا رسم مترتباتها من خلال فحص القـــوى التي تكونها .

ان الزمان والمكان يشكلان ادراكنا للواقع . كما ان اللجنة المعنية والوضع المحدد يمليان طريقة تحديد التقديرات والاولويات الدولية . وفي بعض الاحيان، وعندما تكون اللحظة «ناضجة» تاريخيا ، يمكن ان يتطابق الوضع والزمان لينتجا رؤيـــا خاصة . انه لمن الاسهل الوصول الى صيغة فطنة في اللحظات ذات الضغـــط

الخاص . وبهذا المعنى نجد ان ظروف الحرب والازمات والتوتر هي ظروف خصبة بوجه خاص . ان وضع الازمة يسمح بأحكام تقييمية اكثر دقة تتفق هي ونزعة الانسان القديمة نحو تقسيم واقعه الى خير وشر . (ان الجدلية الماركسية تندرج بوضوح ضمن هذا التقليد ، وهي تدخل هذا التقسيم الثنائي من خير وشر في كل موضوع) . ولكن السياسات العالمية في غير تلك الظروف الحرجة ـ والتي تشمل في اقصى اشكالها بدائل الحرب او السلم ـ لا تسلم نفسها لتلك الصياغات الايقاعية ولا التنبؤات القاطعة ، حتى في ظل وضع يتميز بالتغير الواسع . وبالنتيجة ، وفي معظم الاحيان ، يكون الامر بالغ الصعوبة على المرء اذا راح يحرر نفسه من التأثير المسيطر للحظة المباشرة ليدرك من خلال منظور منفصل الموجه الاوسع للاحداث المندفعة .

ان اي محاولة مجردة للوصول الى صيغة تشمل كل شيء كفيلة بأن تتضمن درجة من التشويه . ان المؤثرات التي تتحكم في العلاقات بين الدول وفي التطور الواسع للشؤون الدولية متنوعة بشكل كبير . ومع ذلك طالما نعي ان اي صياغة كتلك التي تحدثت عنها لا بد ان تحتوي على بذرة من الخطأ ـ وبالتالي لا بد ان تكون تجريبية ـ فان محاولة الوصول الى صيغة ستكون بمثابة تقدم نحو فهم جزئي على الاقل . ان البديل هو الاستسلام للتعقيد : الاعتراف بانه لا يمكن استخلاص اي معنى مما يحدث . وسيفرض انتصار الجهل اثر ذلك ضريبته على شكل سياسات غير مستقرة تتسم برد الفعل ، وباحلال الشعارات محل التفكير ، وبالتمسك الجامد بصيغ عامة وضعت في عصر آخر لمواجهة ظروف مختلفة في جوهرها عن ظروفنا حتى وان تشابهت سطحيا .

واليوم نجد معظم البلدان الصناعية المتقدمة (وفي المقام الاول الولايات المتحدة الامريكية) آخذة بالخروج من المرحلة الصناعية من تطورها . انهم يدخلون عصرا تصبح فيه التكنولوجيا وبوجه خاص الاليكترونيات ـ من هنا تعبيري الجديد التكنتروني * ـ تصبح اكثر فأكثر العوامل الاساسية التي تحدد التغيير الاجتماعي، وتغير القيم والبنى الاجتماعية والنظرة العالمية للمجتمع . ولان التغيير هذه الايام سريع ومعقد لدرجة كبيرة نجد من الضروري وربما من المهم اكثر من اي وقت مضى ان يتم توجيه تصرفاتنا في الشؤون الخارجية بنوع من الفهم للتاريخ ـ وعندما نتكلم عن التاريخ في هذا المجال نتكلم بالتالي عن الماضي وعن المستقبل .

ان هذا الكتاب الذي يركز على الشؤون الدولية هو في احسن الاحوال مجرد استجابة جزئية جدا للحاجة الى تقييم اكثر شمولا . انه ليس محاولة لتخليص الظروف الانسانية او للجمع بين الفلسفة والعلم ، او لتقديم اجوبة على الاسئلة المحيرة المتعلقة بواقعنا ، انه كتاب اكثر تواضعا من ذلك بكثير ، ومع ذلك اعي انه كتاب طموح جدا اكثر من اللازم لانه يمس بالضرورة كل هذه المواضيع .

---

* سأناقشه باستفاضة في الجزء الاول .

الكتاب مقسم الى خمسة اجزاء كبرى . يتناول الجزء الاول اثر الثورة العلمية التقنية في شؤون العالم بشكل عام ويناقش بشكل اكثر تخصيصا الوضع المبهم للولايات المتحدة وهي الموزع الرئيسي لهذه الثورة ، ويحلل آثار هذه الثورة فيما يسمى بالعالم الثالث . ويفحص الجزء الثاني كيف اثرت الاعتبارات السابق ذكرها في محتوى واسلوب وشكل نظرة الانسان السياسية لواقعه العالمي مع الاشارة بشكل خاص الى دور الايديولوجيا المتغير . ويقيم الجزء الثالث علاقة الشيوعية حاليا بمشاكل التحديث متناولين اولا تجربة الاتحاد السوفياتي ثم ظروف الشيوعية الدولية ككل بصفتها حركة اعتبرت يوما ما انها تجمع بين الاممية والانسانية . ويركز الجزء الرابع على الولايات المتحدة وهي مجتمع يجمع بين كونه رائـــدا اجتماعيا ، وكونه في نفس الوقت حقل تجارب للانسانية ، ويهدف هذا الجزء الى وجهة التغيير والمعنى التاريخي للتحول الامريكي الحالي . ويحدد الجزء الخامس الخطوط العامة بشكل عريض جدا للتوجهات العامة التي قد تأخذ بها امريكا لكي تواجه بشكل فعال المشاكل الخارجية والمحلية التي نوقشت آنفا .

واذ ذكرت ما سيحاوله الكتاب ، قد يكون مفيدا للقارىء ايضا ذكر ما لن يتعرض له . فان هذا الكتاب في المقام الاول ليس تمرينا في «علم المستقبل» . انه جهد لفهم الاتجاهات الحالية ولتطوير منظور ديناميكي لما يجري . ثانيا ليس هذا الكتاب كتاب سياسة بمعنى ان هدفه ليس من اجل تطوير منتظم لسلسلة متماسكة للوصفات والبرامج . ومع ذلك يحاول في الجزء الخامس ان يشير الى التوجهات العامة التي يجب ان تتوجه نحوها امريكا والتي يحتمل في بعض المجالات ان تقبل عليها .

ولقد توسعت في مجال تطوير هذه المقالات ، توسعت في الافكار التي قدمتها بشكل أولي في مقالتي بعنوان «امريكا في عصر التكنترونيا» والمنشورة في مجلة **انكونتر** عدد يناير – كانون ثاني ١٩٦٨ والتي اثارت جدلا كبيرا . ويجب ان اضيف انني لم احاول توسيع وتوضيح بعض النقاط المركزة في تلك المقالة فحسب ، بل انني راجعت ايضا بعض آرائي على ضوء الملاحظات النقدية البناءة التي قدمهـــا زملائي . وبالاضافة الى ذلك فقد توجهت تلك المقالة الى وجه واحد فقط (نوقش بشكل أولي في الجزء الاول) من هذه اللوحة الاكبر بكثير التي احاول رسمها في هذا الكتاب .

وأملي ان تساعد هذه المحاولة في ان تزود القارىء بفهم افضل لطبيعة العالم السياسي الذي نعيش فيه والقوى التي تشكله والتوجهات التي يتبعها . وبهذا المعنى فمن المحتمل ان يساهم هذا الكتاب في تشكيل مفهوم اكثر دقة للعمليات السياسية الجديدة التي تشمل عالمنا وأن يتخطى الاشكال التقليدية في فحص السياسات الدولية . وآمل ايضا ان المقترحات التجريبية ، والتعميمات والمقولات المقدمة هنا – بالرغم من انها بالضرورة افتراضية واعتباطية ومن نواح كثيرة غير ملائمة حتما – قد تسهم في اغناء النقاش حول دور امريكا في العالم .

انني في هذا العمل قد عبَّرت عن آرائي الخاصة وعرضت أحكامي المسبقة.

لهذا كله ارى ان هذا الجهد هو اقرب ما يكون في طبيعته الى «قطعة من التفكير» مدعومة بالادلة ، اكثر من كونه تمرينا في منهجية علم الاجتماع * .

واخيرا دعوني انهي هذه المقدمة باعتراف قد يحبط حجتي : ان القارىء ذا العقلية المتشائمة قد يرى ان مقولتي غير متناسقة لان رأيي في دور امريكا في العالم لا يزال رأيا متفائلا . واقول «لا يزال» لان اكثر ما يشغلني هو المشاكل التي تواجهنا في الداخل والخارج ، وربما كنت اكثر انشغالا بسبب الآثار الاجتماعية والفلسفية المترتبة على اتجاه التغيير في ايامنا .

وتفاؤلي حقيقي مع ذلك . وبالرغم من انني لم أقصد التقليل من سوء المشاكل الامريكية — فقائمتها طويلة والمشاكل حادة والعلامات على وجود تجاوب معفول تكاد تساوي المشاكل والمآزق — اعتقد بصدق ان هذا المجتمع لديه القدرة والمقدرة والثروة والعزيمة المتنامية لتخطي الصعاب القائمة في مرحلة التحول التاريخية الحالية .

---

* في هذا المجال أتفق في الراي مع بارينغتون مور الصغير انه «عندما نضع الجسم المسيطر للتفكير الحالي في مواجهة ارقام هامة في القرن التاسع عشر تبرز امامنا الاختلافات التالية : اولا وقبل كل شيء ان الروح النقدية قد اختفت تماما . ثانيا ان علم الاجتماع الحديث وربما العلوم السياسية والاقتصادية والسيكولوجية الحديثة ايضا ، بدرجة أقل اصبحت لا علاقة لها بالتاريخ . ثالثا ان علم الاجتماع الحديث يميل الى ان يكون تجريديا وشكليا . وفي مجال البحث يكشف علم الاجتماع اليوم عن قدر كبير من الولع بالتقنيات . ولكن هذا الولع قد تحقق على حساب المحتوى. لذلك علم الاجتماع الحديث لديه اليوم ما يقوله عن المجتمع اقل مما كان لديه منذ خمسين عاما» (**السلطة السياسية والنظرية الاجتماعية** ، كمبردج ، ماساشوستس ، ١٩٥٨ ، ص ١٢٣) .

بين عصرين

«عندما يتداخل عصران ، وثقافتــان ، وديانتان تتحول الحياة البشرية الى معاناة حقيقية ، الى جحيــم ... هناك اوقات يحشر فيها جيل كامل في ذلك الطريق الواقــع بين عصرين وأسلوبين للحياة فيكون من نتيجة ذلك أن يفقد كل قدرته على فهم نفســـه ويفتقد المعايير والامان وبســاطـــة الرضا » .

هرمان هيس
(ذئب البوادي)

الجزء الاول

الاثر العالمي للثورة التكنترونية

ان الامر المتناقض في زماننا هو ان الانسانية تصبح اكثر وحدة واكثر تفتتا في الوقت نفسه . تلك هي الحركة الدافعة الرئيسية للتغير المعاصر . لقد انضغط الزمان والمكان بشكل يجعل السياسات العالمية تكشف عن اتجاه نحو اشكال من التعاون اكبر واكثر تداخلا وكذلك نحو تفسخ القناعات المستقرة ، والولاءات الايديولوجية . ان الانسانية تصبح اكثر اندماجا وتقاربا حتى مع ازدياد الاختلافات في ظروف كل مجتمع على حدة . وفي ظل هذه الظروف فان التقارب بدلا من ان يقوي الوحدة ، يؤدي الى نشوء توترات تزداد حدة بشعور جديد بالاحتقان العالمي.

هناك نمط جديد من السياسات الدولية آخذ في الظهور والعالم يتوقف عن ان يكون مكانا تتفاعل فيه الامم المتجانسة ذات الاستقلال النسبي و«السيادة» ، او تتعاون او تصطدم او تشن الحرب . لقد ولدت السياسات الدولية ، بالمعنى الاصيل للكلمة عندما بدات مجموعات من الناس في تعريف انفسها ، او غيرها بعبارات قاطعة متبادلة (الارض واللغة والرموز والمعتقدات) ، وعندما اصبح هذا التمييز بالتالي العامل المسيطر في العلاقات بين هذه المجموعات . ان مفهوم المصالح القومية ــ والقائم على العوامل الاقتصادية والعلاقات التقليدية بالعداوة او الصداقة ، والاقتصاد ، والاعتبارات الامنية ــ ادى الى درجة من الاستقلال الذاتي والخصوصية كانت ممكنة فقط طالما كانت هذه الامم مفصولة عن بعضها تحتاج اليها بما يكفي من الزمان والمكان ، وما يحقق لكل منها مجال الحركة ،

والمسافة التي تحتاج اليها للاحتفاظ بشخصية مستقلة .

وخلال المرحلة الكلاسيكية للسياسات الدولية كانت الاسلحة والاتصالات والاقتصاد والايديولوجيا كلها ذات طابع قومي في جوهرها . ومع اختراع المدفعية الحديثة احتاج السلاح الى مصانع سلاح قومية وجيوش بشكل دائم . وفي الازمنة الاحدث اصبح من الممكن بشكل فعال وسريع ان تنقل أمة ما الاسلحة والجيوش ضد حدود أمة اخرى . ولقد قوت الاتصالات وبخاصة منذ اختراع الآلة البخارية وما نتج عنها من عصر السكك الحديدية ، من عمـلية الاندماج القومي بأن جعلت من الممكن نقل الناس والبضائع عبر معظم الامم في فترة لا تزيد عن يومين غالبا . وقد حرك الاقتصاد القومي الذي قام غالبا على اسس الاكتفاء الذاتي ، حرّك الوعي بالمصالح الجماعية المكتسبة وبتطويرها ، وحمايتها باجراءات جمركية. وهكذا عبّرت القومية عن مشاعر الجماعية واصبحت الامة امتدادا للانا * .

العوامل الاربعة المذكورة آنفا كلها عالمية الان . فالاسلحة ذات القدرة التدميرية الشاملة ، يمكن استخدامها في اي نقطة على الكرة الارضية خلال بضع دقائق ، وهو زمن يقل في الواقع عن الزمن الذي تحتاج اليه الشرطة في مدينة كبيرة لكي تلبي نداء طارئا . لقد اصبحت الكرة الارضية كلها في متناول اليد اكثر مما كانت تستطيع قوة اوروبية متوسطة بالنسبة الى عاصمتها هي منذ خمسين عاما . ان اهمية الروابط عبر الامم آخذة في الازدياد بينما دعاوي القومية بالرغم من انها ما تزال حادة تخفّ مع ذلك شيئا فشيئا . هذا التغير قطع شوطا كبيرا بالطبع في البلاد الاكثر تقدما ، ولكن لا يوجد بلد الان معصوم منها . والنتيجة المترتبة هي مرحلة جديدة ، مرحلة العملية السياسية العالمية .

ومع ذلك وبرغم ان هذه العملية عالمية تظل الوحدة الحقيقية للبشرية بعيدة. ان العالم المعاصر يتغير في أوجه عديدة ، كذلك التغيير الذي حدث عند ظهور المراكز السكانية الكبرى . لقد أدى نمو مثل هذه المراكز الى إضعاف الخيوط الوثيقـة والمباشرة للسلطات وساهم في ظهور عدة ولاءات متعارضة ومتقاطعة . وكان المقيم في مدينة معينة يرتبط في نفس الوقت بعدد متنوع من المجموعات منها المهني او الديني او السياسي حتى مجموعات اوقات الفراغ ، ونادرا ما كان مثل هـذا الشخص في ظروف تسودها بشكل مطلق مجموعة واحدة من القيـم والتزام شخصي واحد . ان السياسة في المراكز السكانية الامريكية (المتروبول) خريطة نموذجية في هذا المجال : حيث نجد المصالح الخاصة ومجموعـات الضغط ، والتجمعات الاتنية ، والمنظمات السياسية ، والمؤسسات الدينية ، والقـوى

---

* كان هذا هو التغير الكبير منذ عصر الاقطاع السابق . ففي ذلك الوقت كانت الاسلحة بشكل عام فردية وشخصية ، وكانت الاتصالات محدودة جدا شفهية اساسا ، وكان الاقتصاد بدائيا وريفيا اما الايديولوجيا فقد كانت تركز على طاعة دينية لرئيس معروف شخصيا للناس . تلك الظروف دفعت بالتالي الى تقوية عملية سياسية «دولية» اكثر تفتتا ، كما عبرت عنها .

الصناعية والمالية الكبرى ، حتى عالم الأجرام السفلي ، كل ذلك يتفاعل في نمط يشمل حربا محدودة مستمرة ، وتكيفا ، في الوقت نفسه .

ان السياسات العالمية تكتسب الان بعض السمات المتشابهة لذلك . فالامم من مختلف الاحجام وفي مختلف المراحل التاريخية للتطور تتفاعل فتخلق بذلك الاحتكاك والانماط المتنوعة من التكيف والتحالفات المتغيرة . وبينما تحافظ القواعد الرسمية للعبة على وهم انها لعبة يلعبها فقط اولئك اللاعبون المسمون «دولا» ــ وعندما تندلع الحرب تصبح الدول فعلا اللاعبين الوحيدين ــ تتم اللعبة في غير زمن الحرب في الحقيقة على اساس غير رسمي اوسع بكثير ، وبمشاركة مختلطة اوسع بكثير . بعض الدول تملك سلطة مسيطرة ، وبعضها الآخر وهو «الدول الصغيرة» تعيش في كنف شركات دولية كبرى تعد رؤوس اموالها بالملايين ، او البنوك الكبرى او المصالح المالية الكبرى او المنظمات الدينية او الايديولوجية المتعددة القوميات ، او المؤسسات الدولية الآخذة في الظهور التي «تمثل» في بعض الحالات مصالح اللاعبين الاصغر (كالامم المتحدة مثلا) او في حالات اخرى تكون قناعا لسلطة الامم الكبرى (على سبيل المثال حلف وارسو وحلف جنوب شرقي آسيا) .

لذا تصبح اساليب مواكبة النزاعات الدولية شيئا فشيئا مشابهة لتلك المطلوبة للتعامل مع التنافر في المدينة . ان احدى السمات المميزة للتجمعات البشرية الكثيفة هي تحويل النزاع الى امر روتيني . وبذلك يصبح العنف المباشر بشكل متزايد اكثر تنظيما ومحدودية حتى يصل في النهاية الى درجة اعتباره انحرافا عما هو نموذجي . وعلى ذلك تتم اقامة قواعد عمل منظمة على شكل اشخاص يلبسون الزي الرسمي ويتقاضون رواتب ، لكي يخضعوا العنف في حدود مقبولة اجتماعيا . ويسمح بدرجة معينة من الجريمة على اساس انه لا يمكن تجنبها . لذلك وفي سبيل النظام تفضل الجريمة المنظمة بشكل عام على العنف الفوضوي . وبذا تصبح الجريمة المنظمة بشكل غير مباشر وغير رسمي امتدادا للنظام .

لقد كانت عملية جعل النزاعات على النطاق العالمي روتيناً هي هدف رجال الدولة لعديد من العقود . وكان يظن ان الاتفاقات والمواثيق والاحلاف يمكن ان تتحكم في النزاع . ولم تثبت اية هذه الحلول فعاليتها مع منظومة مكونة من وحدات متميزة نسبيا وذات سيادة ، ولكن ظهور الاتصالات السريعة التي لم تؤد فقط الى التقريب الفعلي وانما ادت ايضا الى الادراك الفوري للاحداث البعيدة، وكذلك بدء العصر النووي الذي حقق لاول مرة وجود قوة تدمير عالمية متاحة على الاقل لدولتين ، كل ذلك غيّر جذريا نمط النزاع الدولي . فمن ناحية خفضت هذه العوامل من مستوى النزاع ومن ناحية اخرى قوّت عوامله الكامنة ووسعت مداه.

ان حروب العالم السفلي في المدينة لا تؤدي الى استياء معنوي كبير ولا هي تعد تهديدا كبيرا للسلم الاجتماعي . وفقط حين ينفجر هذا العنف ضد السلم الاجتماعي الذي تمثله الحياة الانسانية والمصالح الكبيرة المكتسبة ــ كالبنوك

والمتاجر والملكية الخاصة — يقاوم بحسم . وبالمثل ففي الاجزاء الاكثر تقدما من العالم هناك اتجاه بين اوساط المؤسسة والطبقة الوسطى في «المدينة العالمية» للوقوف موقف اللامبالاة من نزاعات العالم الثالث ولتصويرها وكأنها صفات لازمة للمستوى المتدني من التطور ، مفترضين بالطبع ان مثل هذه النزاعات لا ينتج عنها ما يؤثر في العلاقات بين الدول الاكثر قوة . وهكذا تبدو الحروب في العالم الثالث محتملة طالما يمكن مداها الدولي الاحاطة به عند مستوى لا يهدد المصالح الكبرى ✱ .

في زماننا ايضا ، يعني تحويل النزاع الى روتين التحول من حالة الحرب المستمرة الى الانفجارات العنيفة بين حين وآخر . لقد كانت الحرب الطويلة المستمرة ممكنة في العصر الصناعي . كانت الجيوش في العصور الاولى يواجه بعضها بعضا وتحارب بضراوة وتخوض المعارك ، كما كان العبيد في الزمن القديم يحققون نصرا حاسما او ينهارون مهزومين . ولقد اتاح العصر الصناعي للمجتمعات ان تعبىء طاقاتها البشرية ومواردها لصراعات طويلة ولكنها غير حاسمة ، تشبه المصارعة الكلاسيكية وتحتاج الى المهارة والجلد . ولقد ادت الاسلحة النووية — وهي لم تستخدم ابدا في النزاع بين القوى النووية — الى امكانية الوصول الى الابادة المتبادلة حتى انها — اي الاسلحة النووية — جمدت مالكيها في وضع ضبط النفس السلبي مع انفجارات عنف بين حين وآخر تظهر على اطراف المواجهة. وبالرغم من انه في الماضي كان العنف يميل الى ان يؤدي الى استعمال اقصى قوة متوفرة ، تسعى اليوم تلك الدول التي تملك القوى الاقصى ، بالحاح لاستخدام الحد الادنى من القوة لتحقيق مصالحها .

✱ «... في سنوات ما بعد عام ١٩٤٥ اصبح تطور الاسلحة النووية ، وتشكيل التكتلات ومجموعات التحالف المتعددة الاطراف ، وازدياد تكاليف الحرب الحديثة ، عوامل تحد من اندلاع الحرب الرسمية بين الامم المتقدمة . ولقد وقع معظم «النزاعات» خلال هذه السنوات في افريقيا والشرق الاوسط وآسيا او ما يسمى بالعالم الثالث . ولقد حدث بعد عدد كبير من هذه النزاعات ، او صاحبها ، تحطم امبراطوريات استعمارية كالامبراطورية العثمانية او البريطانية او الفرنسية او اليابانية وبالتالي ظهور دول جديدة هي على الاغلب صغيرة وفقيرة وغير آمنة» (دافيد وود ، النزاع في القرن العشرين ، **اوراق ادلفي** ، حزيران -يونيو- ١٩٦٨ . ص ١٩) . الدراسة المذكورة آنفا تحتوي على قائمة من ثمانين نزاعا ظهرت في سنوات ١٩٤٥ — ١٩٦٧ . كلها باستثناء ثمانية فيها مشاركون من العالم الثالث على جانبي النزاع .

هناك ايضا المقارنة مع السياسة في المراكز المدينية الكبرى (المتروبول) التي قدمها تيودور هـ. فون لوي في كتابه العميق **المدينة العالمية** (نيويورك ١٩٦٩) . ان فون لوي يحرك بشكل خاص في تحليله مسألة تأثير نظام الغرب الحضري المركزي (المتروبول) الى السياسات العالمية خلال القرن الماضي .

ومنذ ظهور الاسلحة النووية حكمت العلاقات بين القوى الاعظم بناموس أولي من ضبط النفس تمت صياغته بالتجربة والخطأ في مجرى المواجهات الممتدة من كوريا الى كوبا مرورا ببرلين . ولقد كان من المحتمل في غياب مثل هذه الاسلحة ان تندلع الحرب منذ زمن طويل بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . وهكذا كان للقوة التدميرية تأثير اساسي في درجة استعمالها في العلاقات بين الـــدول فارضة بذلك درجة لم يسبق لها مثيل من التعقل في سلوك معظم الدول القوية . وبذلك تكون الاسلحة النووية في نطاق الاطار الهش الذي تتم فيه تحولات واقعنا الحالية قد خلقت نظاما جديدا تماما من الردع القائم على عدم استعمال القــوة المتفوقــة .

في حالة السياسات المدينية نجد ان ضعف السلطـــة المباشرة ، وان كانت مقبولة ومحترمة ، يعوضه الشعور بالانتماء العميق للأمة كما تمثلها المؤسسات التي تعكس سلطة الدولة . تفتقر المدينة العالمية لهذا البعد العالي ، وكثير مـــن المحاولات الحالية في البحث عن النظام هو محاولة لخلق هذا البعد او للعثور على معادل ما قريب منه . وفيما عدا ذلك تتسم السياسات العالمية ايضا بذلك النمط المربك من التورط والاحتقان والتداخل الذي يؤدي ، بالتراكم وبشكل تدريجي ، الى نسف الوضوح القاطع واولوية تلك الخزائن المحكمة التي تسمى الدولة ـ الامة. ففي مجرى العملية تتحول السياسات الدولية تدريجيا لتصبح عملية اكثر تلاحما وتشابكـا .

ان المراحل مجرد تجريد تاريخي . وهي ايضا للراحة الفكرية . فالمقصود بها ان تكون علامات طريق تتغير في فترة من الزمن بشكل غير محسوس ولكن بدرجة عميقة ايضا . وانه لمن الصعب القول متى تنتهي مرحلة وتبدأ اخرى ، فـــلا النهاية ولا البداية يمكن تحديدهما بوضوح قاطع . وعلى المستوى الرسمي مــا تزال السياسة تعمل كعملية عالمية ، تماما كما كانت في الماضي . ولكن الواقـــع الداخلي لهذه العملية تشكله الان بشكل متزايد قوى تخطت بتأثيرها او مداهـــا الحدود القومية .

بداية عصر التكنترونية

ان تأثير العلم والتكنولوجيا في الانسان ومجتمعه بخاصة في البلاد الاكثر تقدما في العالم ، آخذ في الازدياد ، ليصبح المصدر الاكبر للتغيير المعاصر . وقد شهدت السنوات الاخيرة انتشارا كبيرا لكتابات مثيرة وجريئة عن المستقبل . وفي الولايات المتحدة واوروبا الغربية ، وبدرجة اقل في اليابان والاتحاد السوفياتي بذل بشكل منظم عدد من الجهود الاكاديمية يحاول تصوير ما يخبئه لنا المستقبل او يتنبأ به او يدركه .

ان التحول الحادث الان ، وبالذات في امريكا ، يخلق بالفعل مجتمعا يزداد اختلافا عن سلفه الصناعي (١) . ان المجتمع ما بعد الصناعي يصبح مجتمعا تكنترونيا ✱ : اي مجتمعا يشكله ثقافيا ونفسيا واجتماعيا واقتصاديا تأثير التكنولوجيا والاليكترونيات ، وبوجه خاص في مجال العقول الاليكترونية والاتصالات . ان العملية الصناعية لم تعد هي العامل المقرر الرئيسي في التغيير الاجتماعي ، لا في تغيير الاعراف ، ولا في البنية الاجتماعية ولا في قيم المجتمع . ففي المجتمع الصناعي كانت المعرفة التقنية تطبق اساسا من اجل غاية محددة واحدة : الا وهي الاسراع بتقنيات الانتاج وتحسينها . وكانت المترتبات الاجتماعية نتاجا ثانويا متأخرا لهذا الهدف الاعم . اما في المجتمع التكنتروني فان المعرفة التقنية والعلمية تطغى بسرعة لتؤثر في معظم أوجه الحياة مباشرة بالاضافة الى انها تقوي امكانيات الانتاج . وبالتالي نجد ان نمو المقدرة على اجراء حسابات فورية لمعظم العمليات المعقدة المتداخلة ، وازدياد امكانية الحصول على الوسائل الكيمائية الحيوية المسيطرة على الجسم الانساني ، من شأنهما مضاعفة المجالات المحتملة لعملية الاختيار الواعي للاتجاه المعين ، وبالتالي ايضا تضاعف الضغوط من اجل التوجيه والاختيار والتغيير .

ان الاعتماد على هذه التقنيات الجديدة في الحساب وفي الاتصالات يزيد من الاهمية الاجتماعية للذكاء الانساني واهمية التعلم وعلاقته المباشرة بالانسان وتزداد الحاجة الى تحقيق تكامل التغيير الاجتماعي بازدياد المقدرة على حل أسرار انماط التغيير وهذا بدوره يزيد من اهمية الفروض الاساسية المتعلقة بطبيعة الانسان وملاءمة شكل او آخر من التنظيم الاجتماعي . وهكذا يقوي العلم من قيمة القيم بدلا من ان يقلل منها . ولكن الامر يتطلب ان تصاغ هذه القيم في صيغ تتخطى تلك الصيغ الفجة الخاصة بالعصر الصناعي (سنشرح هذه المقولة اكثر في الجزء الثاني) .

---

١ – جزء من هذا الفصل معدل ومراجع من مقالتي بعنوان «امريكا في العصر التكنتروني» مجلة انكونتر Encounter يناير – كانون ثاني ١٩٦٨ . وفي هذا الخصوص يهمني التنويه بالعمل الرائد الذي قدمه دانيال بل حول هذا الموضوع العامفي جامعة كولومبيا ، ودونالد ميشال في جامعة متشيغان .

✱ ان تعبير «ما بعد الصناعي» قد استخدمه دانيال بل الذي قدم الكثير من التفكير الرائد حول الموضوع . ومع ذلك فانني افضل استخدام التسمية الجديدة (التكنتروني) لانها تنقل بشكل مباشر اكثر طبيعة العوامل الرئيسية للتغيير في عصرنا . وبالمثل فان تعبير «الصناعي» كان يصف ما كان يمكن ان يسمى بالعصر «ما بعد الزراعي» .

انماط اجتماعية جديدة :

بالنسبة الى نوربرت وبنر يمكن العثور على «جنين الثورة الصناعية قبل الثوره الصناعية الرئيسية» في الابحاث الخاصة بالقرن الخامس عشر المتعلقة بالملاحة (البوصلة البحرية)، وكذلك في تطور ملح البارود والطباعة (٢). ان الشبيه الوظيفي للملاحة اليوم هو الاندفاع نحو الفضاء الذي يحتاج الى مقدرة سريعة على الحساب المركب تفوق وسائل العقل الانساني، اما الشبيه لملح البارود فهو الفيزياء النووية الحديثة، والشبيه للطباعة فهو التلفزيون والاتصالات الفورية الطويلة المدى. ونتيجة لهذه الثورة التكنترونية الجديدة يبرز شيئا فشيئا مجتمع يزداد اختلافا عن ذلك المجتمع الصناعي في اوجه متنوعة، اقتصادية وسياسية واجتماعية. ويمكن ان نذكر بايجاز الامثلة التالية لكي نلخص بعض هذه الاختلافات الحادة :

١ ـ ان اسلوب الانتاج في المجتمع الصناعي ينتقل من الزراعة الى الصناعة حيث يحل عمل الآلة محل القوة العضلية البشرية والحيوانية. اما في المجتمع التكنتروني فان قوة العمل الصناعية تنتقل الى الخدمات بينما يحل التشغيل الذاتي (Automation) والسيبرناتيكا في تشغيل الآلات محل الافراد.

٢ ـ ان مشاكل العمل والبطالة ـ ولن نتحدث عن مشاكل التحضر السابقة والخاصة بقوة العمل في مرحلة ما بعد الزراعة ـ كانت تحكم العلاقة بين المستخدمين (بكسر الميم) وقوة العمل والسوق في المجتمع الصناعي، وكانت عملية تأمين حد ادنى من الخدمات العامة للجماهير الصناعية الجديدة محل اهتمام كبير. اما في المجتمع الجديد الآخذ بالظهور فان قضايا اجتماعية جديدة تختص بالمهارات التي تخطاها الزمن كالأمن والاجازات واوقات الفراغ وتقاسم الارباح هي التي تسيطر على هذه العلاقة، وتصبح الراحة النفسية لملايين الناس الآمنين نسبيا من بين العمال ذوي الياقات الزرقاء الذين يشكلون الفئات الدنيا للطبقة الوسطى. والذين لا يرون لهم مستقبلا، مشكلة متنامية.

٣ ـ كان تحطيم الحواجز التقليدية امام التعليم ومن ثم خلق نقطة الانطلاق الاساسية للتقدم الاجتماعي هو الهدف الاكبر للمصلحين الاجتماعيين في المجتمع الصناعي. وكانت درجة التعليم المتاحة لفترات محدودة ومحددة من الوقت تهتم اساسا بالتغلب على الأمية ثم بالتدريب التقني القائم في معظمه على متتاليات منطقية مكتوبة. اما في المجتمع التكنتروني فالتعليم ليس فقط عملية عالمية ولكن التدريب المتقدم ايضا متاح تقريبا لكل من لديه المواهب الاساسية. وهناك تركيز اكبر بكثير على عملية الانتقاء النوعية. ان المشكلة

---

٢ ـ نوربرت وبنر، **الاستخدام الانساني للكائنات البشرية**، نيويورك ١٩٦٧ ـ ص.ص ١٨٩ـ١٩٠.

الحيوية هي كيف تكتشف اكثر التقنيات فعالية من اجل الاستخدام المعقول للموهبة الاجتماعية . وفي سبيل ذلك تستخدم احدث تقنيات الاتصال والمحاسبة. ان العملية التعليمية تصبح عملية اطول وتعتمد بشكل متزايد على وسائل الايضاح البصرية – السمعية . وبالاضافة الى ذلك يتطلب تدفق المعارف الجديدة المزيد والمزيد من الدورات الدراسية المتكررة بهدف اعادة التنشيط .

٤ – في المجتمع الصناعي ، تنتقل القيادة الاجتماعية من الارستقراطية الريفية التقليدية الى النخبة الحضرية المتنفذة ، والثروة المكتسبة حديثا هي اساس هذه القيادة بينما المنافسة الحادة هي متنفس طاقاتها وكذلك حافزها . أما في المجتمع التكنتروني فان المتنفذين البارزين من قبل يواجهون تحديا من القيادة السياسية التي يدخل في صفوفها بشكل متزايد افراد يملكون مهارات خاصة وكفاءات فكرية . وتصبح المعرفة اداة للقوة وتصبح التعبئة الفعالة للكفاءات طريقة هامة للحصول على القوة .

٥ – الجامعة في المجتمع الصناعي – بالمقارنة مع الاوضاع في القرون الوسطى – هي برج عاجي منعزل ، ومخزن للحكمة ، التي وان كانت محترمة ، لا علاقة لها بالواقع ، كما كانت الجامعة لفترة قصيرة من الزمن مصدر الاعضاء البارزين من النخبة الاجتماعية المستقرة . أما في المجتمع التكنتروني فان الجامعة تصبح «فريق تفكير» Think Tank منغمسا بدرجة كبيرة في المجتمع ، ومصدرا لكثير من التخطيط السياسي المتماسك والتجديدات الاجتماعية .

٦ – ان الدوامة التي تصحب عملية الانتقال من مجتمع ريفي تقليدي جامد الى مجتمع حضري تشجع الميل نحو ايجاد اجابات كلية على المشاكل الاجتماعية ، وهكذا تزدهر الايديولوجيات في المجتمع الصناعي (ان الاستثناء الامريكي على هذه القاعدة يرجع الى غياب التقاليد الاقطاعية ، ولقد شرح لويس هرتز هذه النقطة جيدا) . وفي العصر الصناعي فتحت معرفة القراءة والكتابة الباب لظهور انماط من التفكير النظري الجامد تتوافق مع الانظمة الايديولوجية . أما في المجتمع التكنتروني فقد شجعت الاتصالات السمعية – البصرية على ظهور آراء عن الواقع اكثر تغييرا وتباينا ، وغير قابلة لان تنضغط في منظومات رسمية حتى لو ان الاحتياجات الخاصة بالعلم واساليب الحساب الالكترونية الجديدة قد ركزت على المنطق الرياضي والتعليل المنتظم . ويمكن ملاحظة التوتر الناتج عن ذلك بشكل حاد جدا بين العلماء مع ما يترتب على ذلك من محاولة بعضهم ان يربط العقل بالعلم بينما يعبّر عن عواطفه من خلال السياسة . وبالاضافة الى ذلك فان المقدرة المتزايدة على التخفيف من النزاعات الاجتماعية الى ابعاد كمية يمكن قياسها ، قد ضاعفت الميل نحو اساليب اكثر براغماتية في تناول المشاكل الاجتماعية ، بينما تؤدي في نفس الوقت الى تنشيط اهتمامات جديدة للمحافظة على القيم «الانسانية» .

٧ ـ في المجتمع الصناعي يؤدي تحول الجماهير التي كانت سلبية الى موقف نشط الى بروز نزاعات سياسية حادة حول قضايا كالحرمان من الحقوق وحق التصويت . وتصبح قضية المشاركة السياسية مشكلة حرجة . اما في العصر التكنتروني فان المسألة تصبح بشكل متزايد مشكلة تأمين المشاركة الحقيقية في القرارات التي تبدو شديدة التعقيد وابعد من مستوى المواطن العادي بكثير . ويصبح الاغتراب السياسي مشكلة . وبالمثل تخلي مشكلة المساواة السياسية بين الجنسين مكانها لصراع من اجل المساواة الجنسية بالنسبة الى النساء . ففي المجتمع الصناعي تكف المرأة ـ بصفتها تشغل الآلة ـ عن ان تكون أقل من الرجل ، وهي مسألة لها بعض الاهمية في الحياة الريفية ، ومن ثم تبدأ بالمطالبة بحقوقها السياسية . اما في المجتمع التكنتروني الناشىء فان التشغيل الذاتي يهدد الذكور والاناث على السواء ، كما ان القدرة الفكرية يمكن حسابها «والحبة» ✱ تشجع على المساواة الجنسية ومن ثم تبدأ النساء بالمطالبة بمساواة كاملة .

٨ ـ في المجتمع الصناعي تجد الجماهير التي حصلت على حقوقها حديثا تنظم في نقابات واحزاب سياسية وتوحدها برامج بسيطة نسبيا ذات طابع ايديولوجي الى حد ما . وبالاضافة الى ذلك تتأثر المواقف السياسية بنزعات المشاعر القومية التي تنتشر من خلال الزيادة الضخمة في استخدام الصحف ومن ثم الزيادة الضخمة في عدد قراء اللغة القومية . أما في المجتمع التكنتروني فان الاتجاه يبدو نحو تجميع تأييد الافراد من الملايين من المواطنين غير المنظمين وقد اصبح من الممكن بسهولة لشخصيات جذابة ذات قدرة مغنطيسية مخاطبتهم وأن تستغل بفعالية احدث تقنيات الاتصال للتلاعب بالعواطف وللسيطرة على العقل . ان الاعتماد على التلفزيون ـ ومن ثم الاتجاه لان تحل الصورة محل اللغة وهي مسألة دولية اكثر منها قومية ، والتي تشمل تغطية الحروب او مشاهد الجوع في اماكن بعيدة كالهند مثلا ـ يؤدي الى مشاركة عالمية اكبر في المشاكل الدولية . وان تكن هذه المشاركة انطباعية بشكل كبير .

٩ ـ تميل القوة الاقتصادية في مرحلة التصنيع الاولى الى ان تتخذ لها رموزا اما من رجال اعمال كبار كهنري فورد او موظفين صناعيين بيروقراطيين مثل كاغانوفتش او منك (في بولندا الستالينية) . ويبدأ التوجه الى نحو عدم الربط بين الاشخاص والقوة الاقتصادية في المرحلة التالية وذلك عند ظهور تداخل كبير ومعقد بين المؤسسات الحكومية (بما في ذلك العسكرية) والمؤسسات العلمية والتنظيمات الصناعية . وعندما تصبح القوة الاقتصادية مرتبطة بشكل لا ينفصم بالقوة السياسية تصبح مخفية عن الانظار اكثر فأكثر

✱ المقصود هو حبوب منع الحمل . ـالمترجمـ

ويزداد الشعور بعقم الفرد .

١٠ - في اي مجتمع صناعي تصبح حيازة البضائع وتراكم الثروة الشخصية من اشكال النجاح الاجتماعي لعدد كبير لم يسبق له مثيل من الناس . أما في المجتمع التكنتروني فان وضع العلم في خدمة الاهداف الانسانية والاهتمام المتزايد بنوعية الحياة يصبحان ممكنين كما يصبحان حافزا معنويا لعدد كبير من المواطنين وبالذات الشباب .

وبالنتيجة ، فان هذه التغييرات والكثير غيرها بما في ذلك ما سيؤثر مباشرة في الشخصية وفي نوعية الانسان نفسه ، ستجعل المجتمع التكنتروني مختلفا عن المجتمع الصناعي ، تماما كما كان الاخير مختلفا عن المجتمع الزراعي * وكما ان الانتقال من الاقتصاد الزراعي والسياسة الاقطاعية نحو المجتمع الصناعي والانظمة السياسية القائمة على توحد انفعالات الافراد مع الدولة - الامة ادى الى السياسة الدولية المعاصرة ، كذلك سيعكس ظهور المجتمع التكنتروني بداية علاقة جديدة بين الانسان وواقعه العالمي المتسع .

الانفجار الاجتماعي الخارجي / الانفجار الاجتماعي الداخلي :

هذه العلاقة الجديدة هي علاقة متوترة : فما يزال على الانسان ان يعرفها في مفاهيم محددة ثم يجعلها مفهومة له . ان واقعنا العالمي المتسع يتفتت وفي الوقت نفسه يفرض نفسه علينا . ونتيجة هذا التطابق بين الانفجار الخارجي والانفجار الداخلي ليس فقط حالة من التوتر وعدم الامان وانما ايضا منظور جديد تماما لما يسميه الكثيرون حتى الان بالشؤون الدولية .

ان الحياة تبدو مفتقرة الى التماسك عندما تتغير البيئة بسرعة ويصبح البشر اكثر عرضة للتطويع والتشكيل . كل شيء يبدو اكثر انتقالية ومؤقتا : الواقع الخارجي يميل الى السيولة اكثر من الصلابة ، والانسان يبدو مصنوعا اكثر من كونه أصيلا . حتى مشاعرنا تدرك «واقعا» جديدا كليا ، واقعا من صنعنا ومع

---

* يعرّف بل «الابعاد الخمسة للمجتمع ما بعد الصناعي» بانها تشمل ما يلي :
١ - خلق اقتصاد خدمات .
٢ - بدء ظهور طبقة المهنيين والتقنيين .
٣ - مركزية **المعرفة النظرية** كمصدر لتجديد السياسة وصياغتها في المجتمع .
٤ - امكانية تحقيق نمو ذاتي تقني .
٥ - خلق «تقنية فكرية» جديدة .
(دانيال بل ، «قياس المعرفة والتكنولوجيا» ، **في مؤشرات التغير الاجتماعي** ، اليانور شلدون وويلبرت مور ، نيويورك ١٩٦٨ ، ص ١٥٢ - ١٥٣) .

ذلك فبمقاييس مشاعرنا «حقيقي» تماما * . والاكثر اهمية من ذلك ان هناك حاليا اهتماما واسع الانتشار بامكانية التأثير البيولوجي والكيميائي فيما كان يعد حتى الان جوهر الانسان الذي لا يمكن تغييره . والبعض يقول ان السلوك الانساني يمكن ان يحدد سلفا ويتم اخضاعه للسيطرة الارادية . والانسان يحرز بشكل متزايد القدرة على تحديد جنس اطفاله ، وان يؤثر من خلال الادوية في درجة ذكائهم وأن يشكل ويسيطر على شخصياتهم . ولقد أكد احد الذين يقومون بالتجارب للسيطرة على الذكاء ، وهو يتحدث عن المستقبل الذي لا يبعد اكثر من بضعة عقود قائلا «انني ارى الوقت الذي سيكون فيه لدينا الوسائل ومن ثم الرغبة التي لا يمكن مقاومتها لتشكيل الوظائف السلوكية والفكرية لكل الناس من خلال تشكيل العقل بيئيا وبالكيمياء الحيوية» (٣) .

وهكذا فان السؤال يبقى قائما عما اذا كانت التكنولوجيا والعلوم ستزيد بالفعل من الخيارات المفتوحة امام الفرد . وقد نشرت النيويورك تايمز تقريرا تحت عنوان «دراسة تصف التكنولوجيا بأنها نعمة للفردية» (٤) اوردت فيه الاستنتاجات الاولية لمشروع قامت به جامعة هارفرد حول الدلالة الاجتماعية للعلوم . وقد نقل عن المشاركين في هذا الموضوع استنتاجهم بأن «معظم الامريكيين لديهم مجال اكبر في الخيار الشخصي وخبرة أوسع وشعور اكثر تطورا بقيمة الذات عن اي وقت مضى» قد يكون الامر كذلك ، ولكن حكما من هذا النوع يستند اساسا الى الحدس الذاتي او المقارن لعقول الامريكيين بحالتها الحالية او السابقة. وفي هذا المجال تعد كلمة تحذير من مراقب يقظ ذات علاقة كبيرة بالامر : «يتعين علينا لكي نفحص بعناية وبمقياس السلوك العملي ، درجة صحة القول ان من فوائد التكنولوجيا انها ستزيد من عدد الخيارات والبدائل المتاحة امام الفرد . من ناحية المبدأ هذا ممكن . اما في الواقع فان الفرد يمكنه ان يستخدم أي عدد من المخترعات السيكولوجية لكي يتجنب الارهاق المترتب على زيادة المعلومات ، وبذلك يحافظ على البدائل التي يستجيب لها في نطاق اضيق بكثير من ذلك الذي تتيحه له التكنولوجيا في الاساس» (٥) . والمسألة الحقيقية بكلمات أخرى هي

---

* تشارلز ر. دي كارلو ، في «تكنولوجيا العقول الالكترونية» (نحو سنة ٢٠١٨ ، نيويورك، ١٩٦٨ ص ١٠٢) يصف استعمال «المخطوطات» لخلق شعور بالوجود الحسي ـ كان هناك حديث فعلي ـ وذلك عن طريق أشعة ليزر البعيدة المدى من الاقمار الصناعية .

٣ ـ شهادة الدكتور د. كريش امام اللجنة الفرعية للابحاث الحكومية المتفرعة من لجنة العمليات الحكومية بمجلس الشيوخ كما وردت في جريدة النيويورك تايمز ٣ـ٤ـ١٩٦٨ ، ص ٣٢ . انظر ايضا غوردون ، تايلور ، القنبلة البيولوجية الموقوتة ، نيويورك ، ١٩٦٧ .

٤ ـ النيويورك تايمز ١٨ـ١ـ١٩٦٩ .

٥ ـ دونالد ن. ميشال ، بعض التأملات حول الاثر الاجتماعي للتكنولوجيا . محاضرة في ندوة كولومبيا حول التكنولوجيا والتغير الاجتماعي ، ١٩٦٦ ص ١١ .

كيف سيستغل الفرد الخيارات ، ولاي درجة سيكون مستعدا فكريا وسيكولوجيا لاستغلالها ، وبأي السبل سيخلق المجتمع ككل ارضية مؤاتية للاستفادة من هذه الخيارات . ان كون الخيارات متاحة ليس في ذاته دليلا على شعور اكبر بالحرية او بقيمة الذات .

وبدلا من ان يقبل الانسان ذاته باعتباره هكذا جاء ، قد يصبح في معظم المجتمعات المتقدمة اكثر اهتماما بأن يدرك تحليله النفسي الذاتي حسب المقاييس الخارجية ، وبمعطيات محددة : ما هو معدل ذكائي ؟ ما هي استعداداتي الداخلية وسمات شخصيتي وقدراتي وجوانب الجاذبية عندي والصفات السلبية ؟ وسيواجه هذا «الانسان الداخلي» الذي كان يقبل عفوية ذاته بشكل عفوي ، سيواجه اكثر فأكثر تحدي «الانسان الخارجي» وسيسعى وهو واع وراء صورته الواعية . والانتقال من واحد الى آخر ربما لا يكون سهلا . وسيؤدي ذلك ايضا الى نشوء مشاكل صعبة عند تقرير المدى القانوني للسيطرة الاجتماعية.سوف تتطلب امكانية السيطرة الكيميائية الضخمة على العقل ، وخطر فقدان الخصوصية الفردية الاصيلة بعمليات الزرع الواسعة ، وجدوى التدخل في البنية الوراثية كل ذلك سيتطلب التعريف الاجتماعي بالقواعد العامة لما هو مسموح باستعماله وما هو ممنوع . وكما قال الكاتب المذكور آنفا : «... وبينما تؤثر الكيمياويات في الفرد يظل الشخص مهما بالنسبة الى نفسه والى المجتمع في اطاره **الاجتماعي** ــ في العمل وفي المنزل وفي اللعب . والمترتبات على ذلك هي مترتبات اجتماعية . فعندما نحاول ان نقرر كيف نتعامل مع هذه التغيرات في الانا وفي الممارسة (وبالتالي التغيرات في الشخصية بعد الممارسة) ، وعندما نحاول ان نقرر كيف نتعامل مع البشر الذين «تغيروا» سيكون علينا ان نواجه اسئلة جديدة من طراز من انا ؟ متى اكون انا ؟ من هم هؤلاء في العلاقة بي ؟» (٦) .

بالاضافة الى ذلك ، سيعيش الانسان بشكل متزايد في بيئة هي من صنع الانسان وتتغير بسرعة بيد الانسان . وعند نهاية هذا القرن سيعيش ثلثا الناس تقريبا في البلدان المتقدمة في مدن * . ان النمو الحضري كان حتى الان نتاجا جانبيا للسعي العفوي وراء الراحة الاقتصادية ، ولقوة الجذب المغنطيسية لمراكز السكان ولفرار الكثيرين من الفقر والاستغلال الريفيين . لم يكن ذلك مخططا بشكل ارادي لتحسين نوعية الحياة ولأن تأثير هذه المدن «العرضية» يساهم بالفعل

---

٦ ــ ميشال ، ص ٦ ــ ٧ .

* في سنة ١٩٠٠ كان هناك عشر مدن يسكنها مليون شخص او اكثر ، في ١٩٥٥ ارتفع الرقم الى ٦١ مدينة ، في ١٩٦٥ اصبحت اكثر من مئة مدينة يسكن كل منها مليون فأكثر . واليوم يعيش ثلاثة ارباع الناس في اوستراليا وجنوبي المحيط الهادي في المدن وفي امريكا واوروبا (بما في ذلك الاتحاد السوفياتي) يعيش نصف الناس ، وفي افريقيا وآسيا خمس الناس يعيشون في المدن .

في عملية القضاء على شخصية الحياة الفردية اذ تتقلص البنية العائلية ويصبح من الصعب الاحتفاظ بعلاقات صداقة متينة وثابتة . لم يكن جوليان هكسلي مبالغا عندما حذر من ان «ازدياد الازدحام بين الحيوان يؤدي الى سلوك عصابي مشوه ومرضي . ويمكننا ان نؤكد ان هذا صحيح في جوهره بين الناس ايضا ان حياة المدن اليوم تقودنا قطعا الى امراض عقلية جماعية والى ازدياد الرغبة في تدمير الممتلكات العامة والى انفجارات محتملة للعنف العام» ✱ (٧) .

أما مشكلة الشخصية الوطنية فانها على الارجح ستتعقد بسبب الفجوة بين الاجيال وستزداد حدة بضعف الروابط والقيم التقليدية المستمدة من الاسرة الكبيرة والعلاقات المجتمعية الثابتة . وسيصبح الحوار بين الاجيال حوارا بين الطرشان . هذا الحوار لم يعد يجري الان في اطار المحافظين ــ الليبراليين او القوميين ــ الاممميين . ان انهيار الاتصالات بين الاجيال ــ وقد شوهدت بوضوح خلال انتفاضات الطلاب في ١٩٦٨ ــ كان له جذوره في عدم ملاءمة الرموز القديمة لكثير من الشباب . فالجدل يتطلب القبول باطار عام يمكن الرجوع اليه وبلغة مشتركة ، ولما كان هذا الاطار غير موجود فقد اصبح الحوار مستحيلا بشكل متزايد .

وبالرغم من ان الصدام الحالي هو حول القيم ــ لان الكثير من الشباب يرفضون قيم من هم اكبر منهم سنا بينما يؤكد الآخرون ان الشباب يتهربون من مسؤولية تحمل القيم ــ ففي المستقبل سيكون الصدام بين الاجيال حول الخبرة ايضا . وخلال سنوات قليلة سيلحق بالمتمردين في البلاد الاكثر تقدما والذين لديهم اليوم اعلى قدر من الوضوح جيل جديد يدعي حقه في الاشتراك في سلطة الحكم والاعمال : انه جيل مدرب على اعمال العقلنة المنطقية ومعتاد على استعمال الوسائط الاليكترونية في خدمة العقل الانساني تماما كما كنا نحن معتادين على استخدام الآلات لزيادة قدرة تحركنا ، وهو جيل يعبّر عن نفسه بلغة تنتمي وظيفيا الى هذه الوسائط الاليكترونية ، ويقبل التجديدات المعاصرة باعتبارها عمليات ادارية روتينية ، مثل نظام التخطيط ــ والبرمجة ــ وتحديد الميزانية . وكظهور

✱ ج.ن. كارسترز ، في «سبب عدوانية الانسان» (تأثير العلم في المجتمع ابريل ــ نيسان ــ يونيو ــ حزيران ــ ١٩٦٨ ص ٩٠) يقول بأن النمو السكاني والازدحام والقمع الاجتماعي تساهم كلها في العدوان غير المبرر والشديد . وتظهر التجارب على الفئران ذلك كما تظهر ملاحظة السلوك الانساني في المدن الكبرى ان من الممكن الوصول الى نفس الاستنتاج . انظر جاك ايلول ، **المجتمع التكنولوجي** نيويورك ١٩٦٥ ص ٣٢١ وذلك من اجل **صرخة من القلب** يطلقها عالم اجتماع فرنسي ضد حالة الاحتقان هذه .

٧ ــ السير جوليان هكسلي ، «ازمة مستقبل الانسان» ، البلاي بوي (Playboy) يناير ــ كانون ثاني ١٩٦٧ ص ٤ .

مجموعات رجال الاعمال الكبرى من مديري العقول الاليكترونية التنفيذيين (٨) . ولما كانت النخبة الاقدم تدافع عما تعتبره مصالحها المكتسبة الخاصة بل وعن طريقتها الخاصة بالحياة اساسا ، فان نتيجة الصدام قد تولد قضايا اكثر حدة خصوصا بالمفاهيم .

الامتصاص العالمي :

ولكن بينما يأخذ واقعنا المباشر في التفتت ، نجد الواقع العالمي يمتص الفرد بشكل متزايد ، ويشركه معه وقد يطغى عليه ، احيانا . والقضية المباشرة الاكثر وضوحا وعرضة للنقاش الان بالفعل هي الاتصالات . ان التغييرات التي احدثتها الاتصالات والعقول الاليكترونية تؤدي الى مجتمع متداخل النسيج بشكل غير عادي فأعضاؤه على صلة سمعية ـ بصرية وثيقة ومستمرة ، يتفاعلون باستمرار ويتشاطرون في نفس اللحظة اكثر الخبرات الاجتماعية حدة وهو مجتمع يحث على زيادة الانغماس الشخصي حتى في اكثر المشاكل بعدا عن الفرد . ان الجيل الجديد لم يعد يعرف العالم بشكل محدد على اساس القراءة ولا على اساس التحليلات المبنية ايديولوجيا ولا على اساس الوصف الشامل ، ان هذا الجيل يمارس ويشعر بالعالم من خلال الاتصالات السمعية ـ البصرية . هذا الشكل من الواقع القائم على الاتصالات ينمو ـ وبوجه خاص في البلاد المتقدمة * ـ ، بسرعة اكبر مما كان عليه الواقع القائم على الوسائط التقليدية المكتوبة ، وهي تقدم مصدرا اساسيا من الاخبار للجماهير (انظر جداول ١ ـ ٣) . «وفي ١٩٨٥ لن تصبح المسافات مبررا لتأخر المعلومات من أي جزء من العالم الى المراكز العصبية الحضرية القوية التي ستشكلها التركزات الكبرى من الناس على ظهر الارض» (٩) . وسيؤدي التليفون الاتوماتيكي العالمي الذي سيتضمن في الدول الاكثر تقدما اتصالا مرئيا مباشرا ، وايضا نظام التلفزيون العالمي عبر الاقمار الصناعية ، سيؤدي ذلك

---

٨ ـ انظر نيل ج. دين ، «حلول عصر الكومبيوتر» ، يناير ـ فبراير / كانون ثاني ـ شباط ١٩٦٨ ، ص.ص ٣٣ ـ ٩١ . انظر ايضا حول ما اثاره الكومبيوتر من «ثورة عميقة في انماط فكرنا واتصالاتنا» انطوني ج. اوتينغر ، «التكنولوجيا التعليمية» في نحو العام ٢٠١٨ ، جمعية السياسة الخارجية ، نيويورك ١٩٦٨ .

* على سبيل المثال يقدم هرمان ماين في كتابه اجهزة الاعلام في جمهورية المانيا الاتحادية برلين ١٩٦٦ بيانات تظهر بشكل كمي ان الالماني الغربي العادي فوق سن الخامسة عشرة يقرا كل يوم لخمس عشرة دقيقة ويستمع الى الراديو ساعة ونصف ويشاهد التلفزيون ساعة وعشر دقائق .

٩ ـ الولايات المتحدة والعالم في مرحلة ١٩٨٥ ، سيراكيوز ، نيويورك ، ١٩٦٤ ، ص.ص ٩٠ ـ ٩١ .

لأن يكون في مقدرة بعض الدول «غزو» المنازل الخاصة في بلدان اخرى ✱ ممـــا سيخلق نوعا من العلاقات الحميمة العالمية لم يسبق لها مثيل .

ان الواقع الجديد مع ذلك لن يكون شيئا «كالقرية العالمية» . ان المقارنة المثيرة التي عقدها ماك لوهن تغفل عن الاستقرار الشخصي والعلاقـــة الحميمة بين الاشخاص والقيم المطلقة المشتركة والتقاليد ، وهي التي كانت مكونات هامة في القرية البدائية . وهناك مقارنة اخرى اكثر ملاءمة هي تلك الخاصة «بالمدينة العالمية» المتوترة والعصبية والمستثارة وحيث شبكة مفتتة من علاقات الاعتماد المتبادل . ومع ذلك من الافضل وصف هذا الاعتماد المتبادل بأنه تفاعل متبادل لا بانه علاقة حميمة . ان الاتصالات الفورية تخلق الان بالفعل ما يشبه جهازا عصبيا عالميا . وسيصبح توقف هذا الجهاز العصبي بين حين وآخر بسبب انقطاع الطاقة او الانهيارات مظهرا من مظاهر الاضطراب ، لسبب محدد هو ان الثقة المتبادلـــة والاستقرار المتبادل ، الذي يدعم بعضه بعضا ، وهو ما كان يميز العلاقات الحميمة في القرية ، لن تكون موجودة في العملية الخاصة بالتفاعل «العصبي» .

ان انغماس الانسان بعمق في الشؤون العالمية ينعكس ،كما يتشكل بلا جدال، في التغير الذي حدث في ما كان يوصف ويعتبر حتى الان بالاخبـــار المحلية ، فالتلفزيون قد لحق بالصحف في توسيع الآفاق المباشرة للمشاهد او القارىء الى الدرجة التي جعلت كلمة «محلية» تعني بشكل متزايد كلمة قومية ، وفي ذات الوقت تسعى الشؤون العالمية لجذب الانتباه لدرجة لم يسبق لها مثيل . ان المناعة المادية والمعنوية ضد الاحداث «الخارجية» لم يعد من الممكن المحافظة عليها بشكل فعال جدا في ظل ظروف ينمو فيها الادراك الفكري للاعتماد المتبادل علميا ولنفاذ الاحداث العالمية الى داخل البيوت الكترونيا .

الجدول ـ ١ ـ

عدد الراديو والتلفزيون لكل الف من السكان ، وعدد الصحف اليومية الموزعة لكل الف من السكان

	١٩٦٠			١٩٦٦		
	راديو	**تلفزيون**	**صحف**	**راديو**	**تلفزيون**	**صحف**
الولايات المتحدة	٩٤١	٣١٠	٣٢٦	١٣٣٤	٣٧٦	٣١٢

✱ من المقدر انه في خلال عشر سنوات ستتمكن الاقمار الصناعية الخاصة بالتلفزيون من حمل الطاقة الكافية لتبث مباشرة لاجهزة الاستقبال دون محطات وسيطة تستقبل وتبث ثانية .

كندا	٤٥٢	٢١٩	٢٢٢	٦٠٢	٢٨٦	٢١٢*
السويد	٣٦٧	١٥٦	٤٩٠	٣٧٧(١٩٦٢)	٢٧٧	٥٠١
المملكة المتحدة	٢٨٩	٢١١	٥١٤	٣٠٠	٢٥٤	٤٨٨
المانيا الغربية	٢٨٧	٨٣	٣٠٧	٤٥٩	٢١٣	٣٣٢
تشيكوسلوفاكيا	٢٥٩	٥٨	٢٣٦	٢٦٩	١٦٧	٢٨٨
فرنسا	٢٤١	٤١	٢٥٢(١٩٦٢)	٣٢١	١٥١	٢٤٨*
الاتحاد السوفياتي	٢٠٥	٢٢	١٧٢	٣٢٩	٨١	٢٧٤
الارجنتين	١٦٧	٢١	١٥٥	٣٠٨	٨٢	١٢٨*
اليابان	١٣٣	٧٣	٣٩٦	٢٥١	١٩٢	٤٦٥
البرازيل	٧٠	١٨	٥٤	٩٥ (١٩٦٤)	٣٠	٣٣
الجزائر	٥٤	٥	٢٨	١٢٩ (١٩٦٤)	١٣ **	١٥**
الهند	٥	—	١١	١٣	—	١٣

مصدر الجداول ١ و٢ : كتاب الاحصاءات السنوي لليونسكو ١٩٦٧ ، جداول ٥–١ و٨–٢ و٩–٢ .

* الاحصاءات من كتاب الاحصاء السنوي للامم المتحدة ١٩٦٨ .

** (١٩٦٥) .

الجدول – ٢ –

الزيادة المطلقة في الراديو والتلفزيون وتوزيع الصحف لكل الف من السكان ما بين ١٩٦٠ و ١٩٦٦

	الراديو	التلفزيون	الصحف
الولايات المتحدة	+ ٣٩٣	+ ٦٦	− ١٤
كندا	+ ١٥١	+ ٦٧	− ١٠
السويد	+ ١٠	+ ١٢١	+ ١١
المملكة المتحدة	+ ١١	+ ٤٣	− ٢٦
المانيا الغربية	+ ١٧٢	+ ١٣٠	+ ٢٥
تشيكوسلوفاكيا	+ ١٠	+ ١٠٩	+ ٥٢
فرنسا	+ ٨٠	+ ١١٠	− ٤
الاتحاد السوفياتي	+ ١٢٤	+ ٥٩	+ ١٠٢
الارجنتين	+ ١٤١	+ ٦١	− ٢٧
اليابان	+ ١١٨	+ ١١٩	+ ٦٩
البرازيل	+ ٢٥	+ ١٢	− ٢١
الجزائر	+ ٧٥	+ ٨	− ١٣
الهند	+ ٨	—	+ ٢

الجدول ـ ٣ ـ

الاستعمال التقريبي لوسائط الاعلام لكل من المجموعات الاربع من المستمعين والقراء

النسبة المئوية من سكان الولايات المتحدة الذين:	العموم (٥٠ـ٦٠ بالمئة)	اطراف العموم (٢٠ـ٤٠ بالمئة)	طلاب الكليات (١٠ـ٢٥ بالمئة)	النخبة (اقل من ١ بالمئة)
قراوا اي كتب غير روائية في العام الماضي	٥	١٥	٣٠	٥٠
قراوا مقالة في الشهر من مجلة هاربر ناشيونال ريفيو	١/٢	٢	١٠	٢٥
قراوا مقالة في الشهر من مجلة التايم او نيوزويك او يواس نيوز	٥	١٠	٤٥	٧٠
قراوا مقالة في الشهر من مجلة لوك او ليف او بوست	٢٥	٥٠	٦٥	٣٠
قراوا جريدة يومية	٧٠	٨٠	٩٠	٩٥
قراوا النيويورك تايمز	١/٢	١/٢	٥	٥٠
قراوا الاخبار المحلية او الدولية اولاً في الصحيفة	١٠	٢٠	٣٠	٥٠
يريدون اخبار خارجية اكثر في الصحيفة	١٠	٢٠	٣٠	٥٠
يستمعون الى الراديو يوميا	٦٠	٧٠	٨٥	؟
يستمعون الى اخباراً الراديو يوميا	٥٠	٦٠	٦٥	؟
يستعملون التلفزيون يوميا	٨٠	٧٥	٦٥	؟
يشاهدون اخبار التلفزيون	٤٥	٤٥	٤٥	؟
يفضلون التلفزيون كمصدر للاخبار	٦٠	٣٥	٢٠	؟
يفضلون الاخبار كعرض تلفزيوني	٥	١٥	٣٠	٥٠

المصدر : مجلة التلفزيون (تلفزيون كوارتارلي ، ربيع ١٩٦٨ ص ٤٧) . هذه الارقام هي في الجزء الاغلب منها مأخوذة من بيانات من كتاب جون روبنسون ، المعلومات العامة عن الشؤون العالمية ، آن آربور ، متشيغن ١٩٦٧ .

هذا الوضع يؤدي ايضا الى مفهوم جديد للشؤون الخارجية . فحتى الماضي القريب كان الانسان يعرف عن السياسة الدولية من خلال دراسة التاريخ والجغرافيا وكذلك من خلال قراءة الصحف . وقد ساهم ذلك في تشكيل طريقة معالجة مبنية بشكل جيد ــ برغم جمودها ــ جعلت من السهل تصنيف الاحداث والامم بمقاييس ايديولوجية . واليوم تقحم الشؤون الخارجية نفسها على الطفل او البالغ في البلاد المتقدمة على شكل أحداث متنافرة معزولة ومتباينة ولكنها تشركهم فيها . وتصبح الكوارث واعمال العنف المحلية والخارجية متداخلة ، وبالرغم من انها يمكن ان تستثير رد فعل سلبي او ايجابي ، لم تعد تصنف في تلك الخانات المرتبة النظيفة الخاصة ب «نحن» وهم . ان التلفزيون بشكل خاص يساهم في خلق موقف انطباعي اكثر وانغماسي ايضا قبل الشؤون العالمية (١٠) . وأي انسان يعمل في مجال تعليم السياسة الدولية يشعر بالتغير الكبير في موقف الشباب ضمن هذه الحدود .

ومع ذلك لا يؤدي مثل هذا التدخل والتفاعل العالميين الى «فهم» افضل لشؤوننا المعاصرة . بل على العكس ، يمكن القول ان الفهم في بعض الجوانب ــ بمعنى امتلاك الثقة الذاتية في ان المرء يمكنه تقييم الاحداث على اساس بعض المبادىء المنظمة ــ هو اليوم أصعب بكثير بالنسبة الى معظم الناس . ان المشاركة الفورية غير المباشرة في الاحداث تؤدي الى عدم اليقين ، وبوجه خاص عندما يصبح واضحا اكثر فأكثر ان التصنيفات التحليلية الثابتة لم تعد ملائمة للاحاطة بالظروف الجديدة ✶ .

ان الانفجار العلمي ــ وهو اكثر الجوانب انتشارا وسرعة في واقعنا كله لانه ينمو اسرع من السكان والصناعة والمدن ــ يقوى بدلا من ان يضعف مشاعر عدم الامان هذه . ببساطة من المستحيل على المواطن العادي حتى على اولئك الذين يملكون قدرة فكرية ان يقوموا بعملية تمثل لفيض المعلومات وتنظيمها بشكل مرتب له معنى بالنسبة اليهم . ان الشكوى في كل الحقول العلمية تتصاعد من تدفق التقارير المنشورة والاوراق العلمية والمقالات الدراسية وانتشار الصحف المهنية بحيث اصبح من المستحيل على الافراد تحاشي ان يصبحوا إما متخصصين ضيقي

---

١٠ ــ انظر جون ب. روبنسون . وجيمس و. سوينمارت ، «الشؤون العالمية ومشاهدي التلفزيون» ، مجلة التلفزيون الفصلية ، Telvision Quarterly . ربيع ١٩٦٨ .

✶ لنقدم مثلا واحدا بسيطا ، فلعشرين عاما خلت كان العداء للشيوعية المبدأ التنظيمي الاكبر لكثير من الامريكيين . كيف إذن يمكن فهم وترتيب أحداث كالمواجهة بين موسكو وبكين ، وكيف كان الانسان قد تعوّد على التفكير في موسكو باعتبارها اكثر «ليبرالية» ، بين موسكو وبراغ ؟

الافق او عموميين سطحيين * . ان المشاركة في الآفاق الجديدة المشتركة تصبح اكثر صعوبة كلما اتسعت المعرفة ، وبالاضافة الى ذلك لا يمكن ان تستمر طويلا الآفاق التقليدية كتلك التي قامت على الاساطير الاولية او الايديولوجيات التاريخية الاحدث .

ان خطر التفتت الفكري الذي تفرضه الفجوة بين سرعة توسع المعرفة ومعدل تمثلها يثير سؤالا محيرا يتعلق بآفاق الوحدة الفكرية للانسانية . لقد كان من المفترض بشكل عام ان العالم الحديث الذي يتشكل بشكل متزايد بوساطة الصناعة والثورات الحضرية سيصبح اكثر تجانسا في نظرته . قد يكون الامر كذلك ولكنه سيكون تجانس عدم الامان وعدم اليقين والفوضوية الفكرية . والنتيجة تبعا لذلك لن تكون بالضرورة بيئة اكثر استقرارا .

موزع المتناقضات

ان الولايات المتحدة هي الموزع العالمي الرئيسي للثورة التكنترونية . وللمجتمع الامريكي التأثير الاكبر في كل المجتمعات الاخرى وهو مشجع على عملية تحول كبيرة وبعيدة المدى في نظرتها وقيمها . وفي مراحل مختلفة من التاريخ لعبت مجتمعات مختلفة دور الحافز من اجل التغيير باستثارة التقليد او التكيف لدى الآخرين . ان الدور الذي لعبته اثينا وروما في الماضي البعيد بالنسبة الى العالم المتوسطي ، او الدور الذي لعبته الصين بالنسبة الى آسيا ، هو مثل الدور الذي لعبته فرنسا في التاريخ القريب بالنسبة الى اوروبا . لقد كان للآداب والفنون والافكار السياسية الفرنسية قوة جذب مغنطيسية ، وربما كانت الثورة الفرنسية هي اقوى حافز منفرد ادى الى نشوء القومية الشعبية في القرن التاسع عشر .

وبالرغم من التوترات المحلية ـ وبالتأكيد بسببها في بعض النواحي (انظر الجزء ٤) ـ نجد ان الولايات المتحدة هي المجتمع الخلاق المجدد في ايامنا هذه ،

---

* من المقدر مثلا ان «ناسا» تستخدم حوالي خمسة عشر الفا من التعابير التقنية الخاصة كلها موضوعة في موسوعتها الخاصة (مجلة **سي .ت.ن** : مركز دراسات الآثار العامة للاختراعات التقنية الكبرى ، باريس ، يونيو ـ حزيران ١٩٦٨ ص ٦) . ومن المقدر ايضا ان عدد الكتب التي نشرت قد تضاعف كل عشرين عاما منذ ١٤٥٠ وان حوالي ثلاثين مليون كتاب منشورة حتى الان ، وان الرقم المتوقع هو ستون مليون في ١٩٨٠ (سيريل بلاك ، **دينامية التحديث** نيويورك ١٩٦٦ ، ص ١٢) وان العلوم وحدها لها مئة الف جريدة في السنة بأكثر من ستين لغة وهو رقم يتضاعف كل خمسة عشر عاما . غلن. ت. سيبورج «عالم صعب يكسب السلطة على القدر» نيويورك تايمز ٦ يناير ـ كانون ثاني ١٩٦٩) .

كما انها ايضا ذات تأثير ممزق كبير في المسرح العالمي . إن الشيوعية التي يراها كثير من الامريكيين السبب الرئيسي لحالة عدم الاستقرار ، تركز في الواقع في الاساس على الاحباطات والآمال التي يعتبر التأثير الامريكي في بقية العالم مصدرها الكبير . ان الولايات المتحدة هي بؤرة انتباه العالم واعجابه وحسده ومحاكاته وحقده . ولا يوجد مجتمع آخر يستثير مشاعر في مثل هذه القوة ، كما لا يوجد مجتمع آخر تخضع شؤونه الداخلية ـ بما في ذلك العنف العرقي والحضري الامريكي ـ لهذا الفحص الدقيق والانتباه الكبير . لا توجد سياسة في اي مجتمع آخر يتم تتبعها بهذا الانتباه اليقظ ، لدرجة انه بالنسبة الى عديد من الامم الاجنبية اصبحت السياسة الداخلية للولايات المتحدة امتدادا حيويا لسياستهم هم ، لا يجود مجتمع آخر ينشر بهذه الضخامة طريقته الخاصة في الحياة وقيمه عن طريق السينما والتلفزيون والطبعات الاجنبية التي تصدر بالملايين من مجلاتها القومية ، او ببساطة ، بمنتجاتها . ولا يوجد مجتمع آخر يتعرض لمثل هذه التقييمات المتناقضة .

التأثير الامريكي :

في البداية كان تأثير امريكا في العالم مثاليا لدرجة كبيرة : فقد اقترنت امريكا بالحرية وفيما بعد اصبح التأثير اكثر مادية فقد نظر الى امريكا باعتبارها ارض الفرص ، يتم تعريفها تماما بالدولارات واليوم حيث يمكن مشاهدة بعض المزايا المادية المشابهة في اماكن اخرى ، مقابل مخاطرة شخصية اقل ، الى جانب مقتل آل كنيدي ومارتن لوثر كينغ وكذلك التوترات العرقية والاجتماعية وناهيكم عن فيتنام فقد اطفأ بريق اقتران امريكا بالحرية . وبدلا من ذلك نجد التأثير الامريكي الان هو في المقام الاول علميا وتكنولوجيا ، وانها لوظيفة الولايات المتحدة ان تقود علميا وتقنيا وتعليميا * .

ان التطور العلمي والتقني هو عملية دينامية . وهي عملية تعتمد في المقام الاول على الموارد المخصصة لها ، والاشخاص المتوفرين للعمل فيها والاساس التعليمي الذي يدعمها واخيرا وليس آخرا حرية التجديد العلمي . وفي كل هذه المجالات الاربعة نجد الوضع الامريكي سابقا على غيره ، فامريكا المعاصرة تنفق

---

* يمكن القول بتعميم شامل انه اذا كانت يوما قد صدرت القانون وانكلترا الديمقراطية الحزبية البرلمانية وفرنسا الثقافة والقومية الجمهورية فان الولايات المتحدة المعاصرة تصدر التجديد التكنولوجي العلمي والثقافة العامة الناتجة عن الاستهلاك العالمي .

اكثر من غيرها على العلوم وتخصص مصادر للبحث اكبر من اي مجتمع آخر ✱ .

وبالاضافة الى ذلك يتمتع الشعب الامريكي بتسهيلات تعليمية على نطاق اكبر بكثير من معظم المجتمعات المتقدمة الاخرى (انظر جدولي ٤ – ٥) وفي بداية الستينات كان اكثر من ٦٦ بالمئة من المجموعة العمرية ١٥ – ١٩ في الولايات المتحدة مسجلين في معاهد تعليمية ، بالمقارنة مع ارقام فرنسا والمانيا الغربية التي كانت ٣١ بالمئة و٢٠ بالمئة على التوالي . ان مجموع سكان فرنسا والمانيا وايطاليا والمملكة المتحدة يساوي مجموع السكان في الولايات المتحدة ، اي حوالي ٢٠٠ مليون . ولكن في الولايات المتحدة نجد ان ٤٣ بالمئة من الذين هم في عمر الدراسة الجامعية مسجلين عمليا بينما حوالي ٧ – ١٥ بالمئة هم المسجلون في البلاد الاربعة (لايطاليا أقل رقم ولفرنسا اعلى رقم) . اما النسبة المئوية السوفياتية فقد كانت تقريبا نصف النسبة المئوية الامريكية . وبالارقام هناك ما يقرب من سبعة ملايين طالب في الكليات في الولايات المتحدة ، وفقط مليون ونصف طالب في البلاد الاوروبية الاربعة وعند المستوى الاكثر تقدما في المجموعة العمرية ٢٠ – ٢٤ كان الرقم الامريكي ١٢ بالمئة بينما كان الرقم في المانيا الغربية وهي البلد

✱ طبقا لتقرير الكونفرس عام ١٩٦٨ «يبلغ الانفاق الحالي على الابحاث والتطوير في الولايات المتحدة حوالي ٢٤ بليون دولار سنويا تقدم ثلثيها الحكومة الفدرالية بالمقارنة مع ٦ بلايين دولار فقط في كل اوروبا الغربية» . وقد قدر الرقم السوفياتي بانه حوالي ٨ ملايين روبل ، ولكن التكلفة الامريكية للبحث اعلى لان الروبل يمكنه شراء ما يساوي ٣ دولارات من البحث . وفي ١٩٦٢ وطبقا لتقرير لمنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية OECD كانت الولايات المتحدة تنفق ٩٣ر٧٠ دولارا / فرد على الابحاث والتطوير ، وبريطانيا ٣٣ر٥٠ دولارا ، وفرنسا ٢٣ر٦٠ دولارا ، والمانيا ٢٠ر١٠ دولارا وبحساب النسبة المئوية الى الناتج القومي العام نجد ان مصروفات الولايات المتحدة على الابحاث والتطوير تبلغ ٣ر١ ، وبريطانيا تبلغ ٢ر٢ ، وفرنسا تبلغ ١ر٥ ، وبولندا تبلغ ١ر٦ ، وألمانيا تبلغ ١ر٣ ، والاتحاد السوفياتي ٢ر٢ . وقد بلغ مجموع عدد العلماء والمهندسين العاملين في البحث والتطوير ١ر١٥٩ر٥٠٠ في الولايات المتحدة ، ٢١١ر١٠٠ في بريطانيا ، ١١١ر٢٠٠ في فرنسا ، ١٤٢ر٢٠٠ في المانيا ، و٥٣ر٨٠٠ في بلجيكا وهولندا وحوالي مليون او اكثر في الاتحاد السوفياتي (سي. فريمان و أ. يونغ ، جهود البحث والتطوير في اوروبا الغربية وامريكا الشمالية والاتحاد السوفياتي OECD ١٩٦٥ ص ٧١ – ٧٢ و١٢٤ . المصدر لبولندا : خطاب أ. ويربلان المنشور في وكالة الانباء البولندية ١٥ اكتوبر – تشرين اول ١٩٦٨ يتوقع البولنديون ان يبلغوا ٢ر٥ بالمئة فقط في ١٩٧٥ . ويوجد رقم تقديري اعلى للطاقة البشرية العلمية السوفياتية في السياسة العلمية في الاتحاد السوفياتي ، تقرير خاص من OECD ١٩٦٩ وبوجه خاص صفحات ٦٤٢ – ٦٤٧) وعلى نطاق عالمي تقدم الولايات المتحدة حوالي ثلث العدد الكلي للطاقة البشرية العلمية في العالم (نزيف العقول العلمية من البلاد النامية الى الولايات المتحدة ، التقرير الثالث والعشرون من لجنة العمليات الحكومية ، مجلس النواب ، واشنطن ، مارس – اذار ١٩٦٨ ص ٣) .

الاوروبي الغربي الاول حوالي ٥ بالمئة . اما عند مستوى المجموعة العمرية ٥ — ١٩ فان المستوى الامريكي والاوروبي الغربي كان متساويا تقريبا (حوالي ٨٠ بالمئـــة) ويأتي الاتحاد السوفياتي في المؤخرة بـ ٥٧ بالمئة (١١) .

الجدول — ٤ —

فرصة التعليم العالي لكل مئة الف من مجموع السكان (١٩٥٠ — ١٩٦٥)

	١٩٥٠	١٩٦٥	الزيادة المطلقة (١٩٥٠—١٩٦٥)
الولايات المتحدة	١٥٠٨	٢٨٤٠	+ ١٣٣٢
المانيا الغربية	٢٥٦	٦٣٢	+ ٣٧٦
فرنسا	٣٣٤	١٠٤٢	+ ٧٠٨
اليابان	٤٧١	١١٤٠	+ ٦٦٩
الاتحاد السوفياتي	٦٩٣	١٦٧٤	+ ٩٨١
بولندا	٤٧٣	٨٠٠	+ ٣٢٧
الهند	١١٣	٢٨٤ (١٩٦٣)	+ ١٧١
اندونيسيا	٨	٩٥ (١٩٦٣)	+ ٨٧
البرازيل	٩٨	١٨٩	+ ٩١
الجزائر	٥٢	٦٨	+ ١٦

المصدر : كتاب الاحصاء السنوي اليونسكو ، ١٩٦٧ ، جدول ٢ — ١٠ ، ص ١٨٥ — ١٩٩ .

١١ — سبيريل أ. بلاك ، «المجتمع السوفياتي : نظرة مقارنة «Soviet Society: A Comparative View» في آفاق المجتمع السوفياتي ، ايدن كاسوف ، وآخرين « نيويورك ، ١٩٦٨ ، ص ٣٦ و أ.ب. تراوبرغ ، «مجتمع الاطلسي يرنو الى المستقبل» مجلة وزارة الخارجيـــة Department of State Bulletin ١٧—٧—١٩٦٧ ص ٧٢ .

الجدول ـ ٥ ـ

عدد الخريجين من معاهد التعليم العالي لكل مئة ألف من مجموع السكان ١٩٦٤

الولايات المتحدة	٣٤٩	(١٩٦٥)
المانيا الغربية	١٠٩	
فرنسا	٩٦	
اليابان	٢٣٣	
الاتحاد السوفياتي	١٧٧	
بولندة	٨١	
الهند	٤٥	(١٩٦٢)
اندونيسيا	ـ	
البرازيل	٢٥	
الجزائر	ـ	

المصدر : كتاب الاحصاء السنوي اليونسكو ١٩٦٧ الجدول ٢ـ١٤ ص ٢٥٩ـ٢٦٨ .

وبالنتيجة تملك الولايات المتحدة هرما من المواهب الاجتماعية المتعلمة تسمح قاعدته العريضة بتقديم الدعم الفعال لقمته القيادية الخلاقة . هذا صحيح حتى بالرغم من انه في نواح عديدة نجد التعليم الامريكي ناقص فكريا ، وبوجه خاص بالمقارنة مع المستويات الاكثر صرامة في المعاهد التعليمية الثانوية في اوروبا الغربية واليابان . ومع ذلك تسمح القاعدة العريضة لاناس مدربين نسبيا بالتكيف السريع والتطور والتطبيقات الاجتماعية للمستحدثات او الاكتشافات العلمية ✶ .

✶ ان التفوق العلمي الامريكي قوي بشكل خاص فيما يسمى الصناعات الرائدة التي تشمل معظم الحقول المتقدمة للعلوم . وقد قدر ان حوالي ٨٠ بالمئة من مجموع الاكتشافات العلمية والتقنية التي تمت في العقود القليلة الماضية خرجت من الولايات المتحدة . وحوالي ٧٩ بالمئة من العقول الاليكترونية في العالم تعمل في الولايات المتحدة . كما ان تفوق امريكا في الليزر ملاحظ جدا . وقد قدرت الوكالة الدولية للطاقة النووية (في تقريرها بعنوان **الطاقة ومتطلبات الابحاث لدى الدول الاعضاء** ، فيينا ، ١٩٦٩) انه بحلول ١٩٧٥ ستستعمل الولايات المتحدة طاقة نووية في الاستخدامات السلمية اكثر مما ستستعمله الدول الاحدى عشرة التالية لها مجتمعة (بما في ذلك اليابان وكل اوروبا الغربية وكندا والاتحاد السوفياتي) .

وبالرغم من انه لا يوجد تقدير محدد يرى بعض الخبراء ان المجتمع المعاصر سيواجه المصاعب في عملية التحديث السريعة اذا كان الحاصلون على التعليم العالي هم اقل من ١٠ بالمئة من المجموعة العمرية المناسبة من سكانها ، واذا كان لديه اقل من ٣٠ بالمئة من الحاصلين على التعليم الاقل مستوى من التعليم العالي .

وبالاضافة الى ذلك تشجع البنية التنظيمية والجو الفكري في عالم امريكا العلمي على التجريب وعلى سرعة التكيف الاجتماعي . وفي تقرير خاص عن السياسات العلمية الامريكية وضع في مطلع ١٩٦٨ استخلص مجموعة من الخبراء

ولقياس قدرة التجديد قام عدد من محللي OECD باختبار لاظهار اين يستخدم لاول مرة ١٣٩ اختراعا جديدا وقد تمت الدراسة على تسعة قطاعات صناعية تعتمد بشكل كبير على المخترعات (وهي العقول الاليكترونية ، والمواد شبه الموصلة ، والعقاقير ، والبلاستيك ، والحديد والصلب ، وادوات الآلات ، والمعادن غير الحديدية . والادوات العلمية ، والالياف الصناعية) واظهرت النتائج ان الولايات المتحدة في الاعوام العشرين الاخيرة لديها اعلى نسبة من التجديد اذ بدأ العمل بـ ٦٠ بالمئة من ١٣٩ اختراعا لاول مرة في الولايات المتحدة (١٥ بالمئة في بريطانيا العظمى ، و٩ بالمئة في المانيا ، و٤ بالمئة في سويسرا ، و٢ بالمئة في السويد) . وتحصل الولايات المتحدة على ٥٠ – ٦٠ بالمئة من كل تصاريح منظمة OECD الخاصة ببراءات الاختراع والرخص الخ ، كما تسود في مجال الاداء التجاري وتقوم بحوالي ٣٠ بالمئة من الصادرات العالمية للمجموعات الانتاجية ذات الابحاث المكثفة (ج. ريتشارد سون وفورد باركس «لماذا تتخلف اوروبا» **ساينس جورنال** المجلد الرابع . اغسطس – آب ١٩٦٨ ص ٨١ – ٨٦) .

انه لمن المثير ان نلاحظ مثلا انه بينما لا تزال اوروبا الغربية تسبق الولايات المتحدة في عدد براءات الاختراعات المسجلة سنويا ، نجد ان التطبيقات الصناعية لهذه الاختراعات في الولايات المتحدة اعلى بحوالي ثماني مرات .

ويلاحظ التفوق الامريكي ايضا في مجال العلوم البحتة . وقد ذكرت الاكاديمية القومية للعلوم في تقرير قاطع بشكل غير عادي وصحيح في الوقت نفسه ، ذكرت في اواخر ١٩٦٨ ان الولايات المتحدة تحتل موقع القيادة العالمية في الرياضيات ، وذكرت كدليل على ذلك ان ٥٠ بالمئة من ميداليات فيلد للتفوق الممنوحة من ١٩٤٥ قد منحت للامريكيين ، وان الرياضيين الامريكيين يلعبون دورا قياديا في المؤتمرات الدولية للرياضيات (فقد قدموا اكثر من ٣٣ بالمئة من كل الاوراق العلمية) وان بحوث الرياضيات الامريكية غالبا ما تنقل في المجلات الاجنبية الخاصة بالرياضيات (**نيويورك تايمز** ٢٤ نوفمبر – تشرين ثاني ١٩٦٨) .

ان رجحان الكفة الامريكية في جوائز نوبل في الفيزياء والكيمياء والطب قد اصبح ملحوظا ايضا . وهكذا فبين سنوات ١٩٠١ – ١٩٣٩ كسبت الولايات المتحدة وكندا ١٣ جائزة بينما كسبت فرنسا والمانيا وايطاليا والبينيلوكس والمملكة المتحدة ما مجموعه ٨٢ جائزة ، وكسبت سكندنافية ٨ جوائز ، والاتحاد السوفياتي ٤ جوائز ، واليابان لا شيء . اما بين ١٩٤٠ – ١٩٦٧ فالارقام على التوالي هي ٤٢ – ٥٠ – ٦ – ٨ – ٢ .

على صلة بـ OECD ان المؤسسة العلمية والتقنية الامريكية هي ذات جـــذور عميقة في التاريخ والتقاليد الامريكية * . ولقد ادى التنافس والتركيز علـــى الاستغلال السريع ، الى الاستخدام السريع لجهود الدفاع الضخمة وابحاث الفضاء، في الاقتصاد ككل ، وذلك بالمقارنة بالاتحاد السوفياتي حيث كل النتائج الاقتصادية الجانبية لمثل هذا الجهد البحثي الواسع النطاق ما تزال مهملة . ومن الجديـــر بالذكر ان «الروس انفسهم يقدرون ان انتاجية باحثيهم هي فقط نصف انتاجية الباحثين الامريكيين وان التجديدات تحتاج الى ضعفين او ثلاثة اضعاف من الوقت لكي تعطي نتائجها» (١٢) .

هذا الجو وما يصحبه من مكافآت مجزية للانجازات الخلاقة تؤدي الى قوة جذب مغناطيسية (نزيف العقول) ، تستفيد منه امريكا بوضوح . فامريكا تقــدم للكثير من العلماء المدربين ، حتى اولئك الذين هم من بلدان متقدمة ، ليس فقط مكافآت مادية اكبر بل فرصة فريدة لتحقيق مواهبهم الى اقصى درجة . فـــي الماضي كان الكتّاب والفنانون الغربيون ينجذبون نحو باريس اساسا . ومنذ عهد قريب كان للاتحاد السوفياتي والصين بعض الجاذبية الايديولوجية . ولكن كلا الحالتين لم يستطيعا جذب تلك النسبة الكبيرة من النخبة العلمية . بالرغم من ان العلماء المهاجرين يفكرون اولا في امريكا كقاعدة للعمل الخلاق وليس كمجتمع قومي ينقلون اليه ولاءهم السياسي ، ففي معظم الحالات يتحقق هذا الولاء من خــلال الاندماج . ان قدرة الجذب الامريكية المهنية للنخبة العلمية العالمية لم يسبق لها

---

* «منذ الساعات الاولى في حياة الجمهورية اصبح حق المواطنين في العمل من اجل سعادتهم والمسوغ في اعلان الاستقلال احد الروافد الرئيسية في المجتمع الامريكي . كما اصبـــح اساس السياسة الاجتماعية النابعة من آفاق المزايا الجديدة المستخلصة من المشاريع العلمية والتقنية . كيف يمكن الا يأمل المرء في ان هذه المزايا التي ساهمت كثيرا بالفعل في عملية الدفاع القومي او في السباق نحو المكانة الاولى في العالم لـــن تساهم بشكل رئيسي في انجاز اهداف قومية عظيمة اخرى . انه هو الدافع الذي اعطى العلم ، فهو ابو المعرفة ، مظهر كونه المورد القومي الحقيقي . ان المشروع الاستثماري مرتبط بشكل لا ينفصل عن اهداف المجتمع الامريكي ، الذي يحاول بدوره ان يبني مستقبله على اساس تقدم العلم والتكنولوجيا . وفي هذا المضمار ، نجد ان هذا المجتمع ككل هو مستهلك للمعرفة العلمية ، التي يستخدمها من اجل غايات مختلفة : كانت في القرن الماضي من اجل زيادة انتاجية الزراعة وتسهيل تنمية المناطق ، ثم من اجل دعم جهود الدفاع القومي ثم من اجل حماية الصحة العامة واكتشاف الفضاء . وهذه الاهداف لها تأثيرها في مصير الامة كلها ، ويبدو طبيعيا ان من الواجب تعبئة كل المهارات لكي تتعاون في هذا السبيل . بهذه الطريقة ترتبط الصناعة والجامعات والمنظمات الخاصة بالمشروع الحكومي» . (خلاصة تقرير اعدتــــه امانة سر الـــ OECD يناير ـ كانون ثاني ١٩٦٨ ، كما نقلته النيويورك تايمز ١٢-١-١٩٦٨ ص ١٠) .

١٢ ـ «الفجوة التكنولوجية في روسيا» ، الايكونومست Economist ٩-٢-١٩٦٩ .

مثيل لا في المجال ولا في المدى ✱ .

وبالرغم من انه من المحتمل ان تهبط قوة الجذب هذه بالنسبة للاوروبيين (بشكل خاص بسبب مشاكل امريكا المحلية ، وجزئيا بسبب تقدم اوروبا العلمي نفسه) يعكس نجاح كتاب **التحدي الامريكي** لمؤلفه ج.ج. صرفان شريبر التوجه الجذري للاوروبيين المهتمين للقبول بفكرة ان الولايات المتحدة تقترب من ان تكون المجتمع الحديث الحقيقي الوحيد بمعيار التنظيم ومدى سوقها الاقتصادي وادارة الاعمال والبحث والتطور والتعليم . (وبنية الحكومة الامريكية في المقابل تصور بأنها عتيقة بشكل مثير للدهشة) . ان الحساسية الاوروبية في هذا المجال محكومة ليس فقط بالخوف من اتساع الدور الامريكي القيادي التكنولوجي ، ولكن وبشكل كبير بازدياد حضور المؤسسات الامريكية الضخمة في الاسواق الاوروبية التي تستغل مزاياها الاقتصادية في الحجم وفي تفوق التنظيم للاستحواذ التدريجي على المصالح المسيطرة في مجالات الصناعات الرئيسية المتقدمة . ان وجود هذه المؤسسات وما يؤدي اليه من ظهور ما يمكن ان يسمى بالنخبة الدولية الجديدة المتعاونة تحت جناحها، وما يثيره وجودها من تبنّ لخبرات ادارة الاعمال والتدريب الامريكيين وتعمق الشعور بأن ما يسمى بالفجوة التكنولوجية هو فجوة ادارية وتعليمية (١٢) ـ كل ذلك ساهم في ظهور موقف ايجابي من جانب النخبة الاوروبية لرجال الاعمال والعلماء تجاه «البنية التقنية» الامريكية ، وساهم ايضا في الرغبة لتبني بعض الخبرات الامريكية .

ان التأثير الامريكي في الثقافة العامة في تقاليد الشباب واساليب الحياة ملموس بشكل اقل ولكنه ليس اقل تغلغلا . وكلما كان مستوى الدخل بالنسبة

✱ في كلمات لـ إ. بايور ، نائب رئيس الـ IBM وكبير علمائها «لقد اصبحت الولايات المتحدة المركز الفكري للعالم ـ مركز الفنون والعلوم والاقتصاديات» (نحو سنة ٢٠٠٠ ، مجلة **ديدالوس** صيف ١٩٦٧ ص ٩٥٨) انه لامر ذو دلالة انه في بداية الستينات كان ٤٤ بالمئة من الطلبة الباكستانيين الذين يدرسون في معاهد تعليم عالٍ في ١٥ بلدا اجنبيا يدرسون في الولايات المتحدة، و٥٩ بالمئة من الطلبة الهنود ، و٣٢ بالمئة من الاندونيسيين ، و٥٦ بالمئة من البورميين ، و٩٠ بالمئة من الفيلبيين ، و٦٤ بالمئة من التايلانديين ، و٢٦ بالمئة من السيلانيين . جونار مردال ، الدراما الاسيوية ، نيويورك ١٩٦٨ ص ١٧٧٣) . وفي ١٩٦٧ خرّجت الولايات المتحدة ١٠٦٩٠ طبيبا من جامعاتها هي ، وسمحت في نفس السنة لـ ٣٤٥٧ طبيبا بالمجيء كمهاجرين دائمين (**تقرير** ... ص ٣) في نفس السنة هاجر الى الولايات المتحدة من البلدان المتطورة ١٠٥٠٦ اشخاص من العلماء والمهندسين والاطباء (نزيف العقول بين العلماء والمهندسين والاطباء من البلدان النامية الى الولايات المتحدة ، بيانات امام اللجنة الفرعية للعمليات الحكومية ، مجلس النواب ، واشنطن ، ٢٣ يناير ـ كانون ثاني ١٩٦٨ ، ص ٢ وص ٩٦ . ستذكر فيما بعد تحت عنوان بيانات ...) .

١٣ ـ جون ديبولد ، «هل الفجوة تكنولوجية ؟» الشؤون الخارجية **Foreign Affairs** يناير ـ كانون ثاني ١٩٦٨ ص‌ص ٢٧٦ ـ ٢٩١ .

الى الفرد عاليا في بلد ما بدا ان تعبير«الامركة»اكثر انطباعا . ويكشف ذلك عن ان المظهر الخارجي للسلوك الامريكي المتميز المعاصر ليس مصمما على اساس حضاري بقدر ما هو تعبير عن مستوى معين من التطور الحضري والتقني والاقتصادي ومع ذلك فلكون هذه الاشكال طبقت في امريكا اولا ثم «صدرت» الى الخارج ، اصبحت ترمز للتأثير الامريكي ولعلاقة التقليد ـ التجديد التي تسود بين امريكا وبقية انحاء العالم .

ان ما يجعل امريكا فريدة في عصرنا هو ان المواجهة مع الجديد هي جزء من الخبرة اليومية الامريكية . وسواء كان ذلك للافضل او للأسوأ فان العالم يتعلم ما هو مخبوء له بملاحظة ما يحدث في الولايات المتحدة : وسواء كان ذلك آخر الاكتشافات العلمية في الفضاء او الطب او فرشاة الاسنان الكهربائية في الحمام او فن الغناء الشعبي (بوب) او الـ L.S.D. ، او تكييف الهواء او تلويث الهواء او مشاكل المسنين او جنوح الاحداث . ان هذا الامر يبدو اقل وضوحا في مجال امور مثل (الموضة) والموسيقى والقيم والعرف الاجتماعي ، ولكن حتى هنا ايضا يعني تعبير «الامركة» مصدرا معينا لها .

ان الطلاب الاجانب العائدين من الجامعات الامريكية قد حركوا ثورة تنظيمية وفكرية في الحياة الاكاديمية في بلادهم . ويمكن تتبع التغيرات في الحياة الاكاديمية في المانيا والمملكة المتحدة واليابان ، وكذلك في فرنسا مؤخرا ، وبدرجة اكبر في البلاد الاقل تطورا لنرى تأثير المعاهد التعليمية الامريكية . والمسألة بالنسبة الى التطور في مجال الاتصالات الحديثة مسألة وقت فقط قبل ان يجلس طلاب جامعة كولومبيا وطلاب جامعة طهران مثلا للاستماع لنفس المحاضر في الوقت ذاته.

يبدو ذلك اكثر احتمالا لان المجتمع الامريكي ، اكثر من اي مجتمع آخر «يتصل» بالعالم كله (١٤) . فان ٦٥ بالمئة تقريبا من الاتصالات في كل العالم تصدر في هذا البلد . وبالاضافة الى ذلك كانت الولايات المتحدة هي الاكثر نشاطا في تعزيز نظام الاتصالات العالمي عن طريق الاقمار الصناعية كما انها الرائدة في تطوير شبكة المعلومات على النطاق العالمي ✱ . ومن المتوقع ان تكتمل هذه الشبكة

---

١٤ ـ للحصول على بعض الامثلة عن انتشار الاتصالات الامريكية بين النخبة الهندسية ـ التقنية في امريكا اللاتينية ، انظر بول ج. دويتشمان وآخرين ، **الاتصالات والتغير الاجتماعي في امريكا اللاتينية** ، نيويورك ١٩٦٨ ، خاصة ص.ص ٥٦ ، ٧٠ .

✱ من المقدر (من معهد السياسة والتخطيط ، ارلينغتون ، فرجينيا) ان حجم الاتصالات الرقمية سيزيد قريبا عن حجم المخاطبات البشرية عبر الاطلنطي ، لقد تحقق ذلك الان بالفعل في الولايات المتحدة. وبالاضافة الى ذلك ستزيد في العقد المقبل قيمة المعلومات المصدرة من الولايات المتحدة الى اوروبا على قيمة المواد المصدرة .

في حوالي ١٩٧٥ (١٥) . ولاول مرة في التاريخ ستكون المعرفة المتراكمة الانسانية متاحة على مستوى عالمي وستكون متاحة على الاغلب فورا عند الطلب .

الامبريالية الجديدة ؟

كل هذه العوامل ادت الى علاقة جديدة بين الولايات المتحدة والعالم . علاقة فيها بعض النفحات الامبريالية ولكنها في الجوهر تختلف تماما عن البنية الامبريالية التقليدية . وبالتأكيد ان حقيقة وجود عدد من الامم كان يعتمد في اعقاب الحرب العالمية الثانية بشكل مباشر على الولايات المتحدة في امور الامن والسياسة والاقتصاد ، قد خلق بالتأكيد نظاما يشبه ظاهريا في عديد من الاوجه الامبراطوريات البريطانية والرومانية والصينية القديمة (١٦) بما في ذلك في مداها. لقد ادى وجود مليون من القوات الامريكية في حوالي ٤٠٠ قاعدة عسكرية امريكية كبيرة و٣٠٠٠ قاعدة عسكرية صغيرة منتشرة في كل العالم ، وكذلك ارتباط ٤٢ أمة بالولايات المتحدة بأحلاف أمنية ، ووجود بعثات عسكرية امريكية كثيرة لتدريب ضباط وجنود عديد من جيوش البلدان الاخرى ، وما يقرب من ٢٠٠ الف موظف حكومي مدني في وظائف اجنبية ، كل ذلك ادى الى تحليلات مثيرة عن الانظمة الامبريالية الكلاسيكية الكبرى (١٧) .

ومع ذلك يحجب مفهوم «الامبريالية» اكثر مما يفصح عن العلاقة ما بين امريكا والعالم ، فهي علاقة اكثر تعقيدا وتوثقا . كان الوجه «الامبريالي» في المقام الاول انتقاليا ورد فعل عفوي غالبا على الفراغ الذي خلقته الحرب العالمية الثانية

---

١٥ ـ انظر ليونارد هـ. ماركس ، «الديبلوماسية الامريكية والتكنولوجيا المتغيرة» Television Quarterly **مجلة التلفزيون الفصلية** ، ربيع ١٩٦٨ ، ص.ص ٧ و٩ .

١٦ ـ بروس م. روست ، «هل هناك اتجاه بعيد المدى نحو التركيز في النظام الدولي ؟» **مجلة الدراسات السياسية المقارنة** Journal of Comparative Political Studies ابريل ـ نيسان١٩٦٨ . وأنظر جورج لسكا، **امريكا الامبريالية** ، بلتيمور ، وذلك من اجل مقارنات مصطنعة الى حد ما مع الامبراطوريات السابقة . وانظر كلود جوليان ، في **الامبراطورية الامريكية** L'Empire Americain باريس ، ١٩٦٨ خصوصا الفصل الاول والسادس حتى الحادي‌عشر. وكذلك رونالد ستيل في **السلم الامريكي** ، Pax Americana ، نيويورك ١٩٦٧ . وانظر ستانلي هوفمان ، Gulliver's Trouble ، **مشاكل غوليفر** ، نيويورك ١٩٦٨ ، ص.ص ٤٦ ـ ٥١ ، وذلك من اجل نقد «المدخل الامبريالي» .

١٧ ـ نقلت النيويورك تايمز عدد ١٧ـ١١ـ١٩٦٨ عن مصادر حكومية تشير ان ٢٠٠ الف مدني امريكي يعملون في الخارج. وبالنسبة للالتزامات، انظر **التزامات الولايات المتحدة الامريكية للقوى الخارجية** US Commitments to Foreign Powers لجنة العلاقات الخارجية ، واشنطن ، ١٩٦٧ ، خاصة ص.ص ٤٩ ـ ٧١ . وللحصول على بيانات عن القواعد انظر **النيويورك تايمز ٩ـ٤ـ١٩٦٩** .

وما تلا ذلك من الشعور بتهديد الشيوعية . وبالاضافة الى ذلك لم تكن هـــذه العلاقة مبنية من قبل ولا هي مشرعة صراحة . لقد كانت «الامبراطورية» علـــى الاغلب نظاما غير رسمي يتميز بادعاء المساواة وعدم التدخل . ولقد سهل ذلــك الوضع على المساهمات الامبريالية ان تتراجع عندما تغيرت الظروف . ففي أواخر الستينات ، باستثناءات قليلة بدأ الاعتماد العسكري ــ السياسي المباشر السابق على الولايات المتحدة بالتراجع (وذلك في اغلب الاحيان بالرغم من الجهود السياسية التي بذلتها الولايات المتحدة للحفاظ عليه) . ولقد حل محله النفوذ الاكثر تغلغلا والاقل ظهورا للحضور الاقتصادي والتجديد الامريكي سواء منها النابع مباشرة من الولايات المتحدة او الذي احدثته في الخارج الاستثمارات الاجنبية الامريكية (وكان عائد هذه الاستثمارات من الانتاج يزيد عن الناتج القومي العام لمعظم البلدان الكبرى) (١٨) . وفي الواقع «... كان للنفوذ الامريكي خاصية مسامية وغـــير مرئية غالبا . فهو يعمل من خلال النفاذ المتبادل للمؤسسات الاقتصادية والتنسيق المتعاطف مع القادة والاحزاب السياسية ، والمفاهيم المشتركة للمثقفين عالـــي الثقافة ، وتداخل المصالح البيروقراطية . انها بكلمات اخرى شيء جديد فـــي العالم لم يفهم جيدا بعد» (١٩) .

ان حداثة العلاقة الامريكية بالعالم ــ المعقدة والوثيقة والمسامية ــ هي التي فشلت في الاحاطة بها التحليلات الارثوذكسية وبخاصة الماركسية حول الامبريالية. ذلك ان رؤية هذه العلاقة باعتبارها تعبيرا عن دافع امبريالي فحسب معناه تجاهل الجزء الذي يلعبه فيها البعد الحيوي للثورة التكنولوجية ــ العلمية . فهذه الثورة لا تأسر خيال الانسانية فحسب (من الذي لا يمكن ان يحركه منظر الانسان وهو يصل الى القمر ؟) وانما لا مفر من ان تدفع ايضا من هو أقل تقدما لتقليد الاكثر تقدما وتنشط تصدير التقنيات الجديدة والمناهج الجديدة والمهارات التنظيمية من الثانية الى الاولى . لا شك في ان ذلك يؤدي الى علاقة غير متساوية ، ولكـــن محتوى عدم التساوي هذا يجب ان يفحص قبل ان يسمى امبريالية . فأمريكا مثل كل المجتمعات تفضل بلا شك ان تصبح اكثر تقدما من ان تكون أقل تقدما ، ومع ذلك نجد انه من المثير رؤيتنا انه لا يوجد بلد آخر قد بذل مثل هذا الجهد الكبير على المستوى الحكومي والخاص ومن خلال المشروعـــات وبالذات المؤسسات ،

---

١٨ ــ جود بولك ، «اقتصاد العالم الجديد» ، مجلـــة كولومبيا للاعمال المالية العالميـــة Columbia Journal of world Business يناير ــ فبراير / كانون ثاني ــ شباط ١٩٦٨ ص٨ . ويقدر ان استثمارات الولايات المتحدة في الخارج تبلغ ما مجموعه حوالي ١٦٥ بليون دولار مـــن التحويلات .

١٩ ــ جوزيف كرافت ، «انتشار القوة» ، The New York Times Book Review ٢٢-٩-١٩٦٨ ص ١٠ (عرض لكتاب آموري دي رينكورت **الامبراطورية الامريكية** ، نيويورك ١٩٦٨) .

لتصدير خبراتها وللاعلان عن مكتشفاتها في الفضاء ولتطوير تقنيات جديدة للزراعة ولتحسين الخدمات التعليمية ولتنظيم النمو السكاني ولتحسين العناية بالصحة، وكل هذا له سمات امبريالية بلا ريب ، ومع ذلك فسيكون من الخطأ ان يصنف هكذا (٢٠) .

ومن المؤكد ان الامريكيين وهم غير قادرين على ان يفهموا تماما ما يحدث في مجتمعهم ، يجدون من الصعب ان يفهموا الاثر العالمي لهذا المجتمع بدوره الفريد كموزع للثورة التكنترونية . هذا التأثير يحمل تناقضاته : فهو يقوي المصالح الامريكية وينسفها حسبما يحددها صناع السياسة الامريكية . انه يساعد في تقدم قضية التعاون على نطاق اكبر حتى وهو يمزق النسيج الاجتماعي والاقتصادي القائم . انه يرسي الاساس للرفاهية والاستقرار ويقوي القوى العاملة من اجل الثورة واللااستقرار . وعلى عكس القوى الامبريالية التقليدية التي اعتمدت على مبدأ فرّق تسد (والتي مارسها البريطانيون في الهند وبالمثل تماما وبشكل مثير مارسها الروس مؤخرا في اوروبا الشرقية) كافحت امريكا لتطوير الاقليمية* في اوروبا وامريكا اللاتينية . ومع كل هذا تساعد وهي تفعل ذلك على خلق شخصيات اكبر واقدر على مقاومة نفوذها والتنافس معها اقتصاديا . كما أن عملية التحديث التي تتم ضمنا وعلنا حسب النمط الامريكي تؤدي الى تحسن اقتصادي اكبر ، ولكن خلال هذه العملية تمزق المؤسسات القائمة وتنسف الاعراف السائدة وتستثار المشاعر التي تتركز مباشرة على مصدر التغيير ، امريكا . والنتيجة هي توتر حاد بين نوع الاستقرار والنظام العالمي الذي تسعى اليه امريكا ذاتها ، وبين حالة اللااستقرار ونفاذ الصبر والاحباط التي تخلقها امريكا بدون وعي .

لقد برزت الولايات المتحدة بصفتها المجتمع العالمي الاول في التاريخ . مجتمع تزداد صعوبة رسمه في معايير وخطوط تحدد حدوده الثقافية والاقتصادية الخارجية . وبالاضافة الى ذلك ، ليس من المحتمل ان تتوقف امريكا في المستقبل المنظور عن ممارسة دور حافز التحديد الذي يميز علاقتها الحالية بالعالم . وفي نهاية هذا القرن (باستقراء الاتجاهات الحالية) يمكن ان يصل حوالي ثلاثة عشر بلدا الى مستوى عام ١٩٦٥ الخاص بمعدل الناتج القومي العام للفرد في الولايات المتحدة (٢١) . وما لم يحدث ركود علمي واقتصادي كبير او ازمة سياسية (انظر الجزء الرابع) ستظل امريكا عند نهاية القرن قوة كبرى للتغيير

---

* Regionalism الاقليمية بمعنى الانتماء للاقليم لا للبلد الموجود داخل هذا الاقليم — المترجم.

٢٠ — في هذا المجال قارن بين كتاب هاري مكدوف **عصر الامبريالية** ، نيويورك ١٩٦٩ ، والذي ينظر لامريكا على اساس انها قوة امبريالية ذات دافع سياسي فحسب ، مع تقرير مؤسسة روكفلر President's Five - Year Review and Annual Report ١٩٦٨ والذي يصف نشاطات المؤسسة الخارجية. يمكن ايضا الرجوع الى مؤسسة فورد .

٢١ — هرمان كاهن وانطوني ج. وينر ، سنة ٢٠٠٠ ، نيويورك ، ١٩٦٧ ، ص ١٤٩ .

العالمي ، سواء كان الجو العام السائد مع امريكا او ضدها .

الاحياء المغلقة العالمية (*)

العالم الثالث هو ضحية الثورة التكنترونية وسواء نمت البلدان الاقل تطورا بسرعة او ببطء او لم تنم ابدا فان معظمها على الاغلب لا مفر له من ان يستمر وقد سيطرت عليه مشاعر قوية بالحرمان النفسي . ففي عالم متشابك الكترونيا لن يكون التخلف المطلق او النسبي محتملا خصوصا عندما تبدأ البلاد الاكثر تقدمـــا بتخطي المرحلة الصناعية التي ما يزال على البلدان الاقل تطورا ان تدخلها . وهكذا لم يعد الامر امر «ثورة لطموحات متصاعدة» فالعالم الثالث اليوم يواجه طيـــف الطموحات التي لا يمكن اشباعها .

وذات مرة في التاريخ ادت مشاكل مشابهة لا حل لها الى القدرية فقد ظن انها جزء من حالة عالمية . ولكن مشاكل اليوم المشابهة تثير الاحباط لانها ينظر اليها باعتبارها ظاهرة خاصة لا يعاني منها الاكثر حظا . ان حالة الأحياء المغلقـة المدينية (الغيتوات) في الولايات المتحدة تقدم لنا نموذجا ملائما مشابها للوضـــع العالمي للبلدان الاقل تطورا ، وبوجه خاص في افريقيا وآسيا . ان مشكلتهـــم ليست في غياب التغيير ** وفي بعض الحالات ليست حتى في عدم كفاية التغيير السريع ، لانه في السنوات الاخيرة حقق العديد من البلدان المتخلفة معدلات نمو مثيرة ومستمرة (كوريا الجنوبية وتايوان وغانا مثلا) ومع ذلك تنشأ مشكلتهم من شعور متزايد بالحرمان النسبي من اشياء يزداد شعورهم بها عن طريق انتشار التعليم والاتصالات . وبالنتيجة يمكن ان يؤدي هذا الانكفاء السلبي الى انفجارات نشطة لغضب غير موجه .

★ Global Ghettos.

** «ان معدل نمو هذه البلدان خلال عقد التنمية لم يصل الى الرقم السنوي ٥ بالمئة الذي وضع بمثابة حد وهدف يتحقق ومن الناحية العملية نجد ان متوسط معدل النمو لاربعة واربعين بلدا يمثلون ٨٧ بالمئة من السكان في العالم النامي ككل كان ٤١ بالمئة فقط في السنة من ١٩٦٠ الى ١٩٦٥ ... وبين الاربعة والاربعين بلدا المذكورة كانت هناك مجموعة من ١٨ بلدا بمتوسط نمو ٣ر٧ بالمئة سنويا، بينما معدل نمو خمسة عشر بلدا كان بالكاد ٧ر٢ بالمئة سنويا ... وبين هذين الحدين كان هناك واحد وعشرون بلدا بمتوسط نمو ٩ر٤ بالمئة» . («نحو استراتيجية عالمية للتنمية» تقرير من السكرتير العام لمؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتنمية ، نيويورك ١٩٦٨ ص ٥) .

آفاق التغيير :

ان التنبؤ بمجرى التنمية الاقتصادية والسياسية في البلدان المتخلفة امر بالغ الصعوبة . فبعضها ، وبوجه خاص في امريكا اللاتينية قد يحقق تقدما محترما وربما يمكنه في خلال العقدين التاليين ان يصل الى المستويات الاقتصادية للبلدان الاكثر تقدما في الوقت الحاضر . ومن الممكن ايضا ان تظهر على خرائط آسيا وافريقيا بشكل متزايد جزر من التنمية ، بافتراض انه سيوجد سلم نسبي واستقرار سياسي في المنطقة ككل . والتقدير الكلي مع ذلك للمستقبل لا أمل فيه . ان متوسط التقديرات لعديد من اكثر البلدان المتخلفة اهمية تشير الى معدل ناتج قومي عام بالنسبة الى الفرد سنويا في ١٩٨٥ يصل الى ١٠٧ دولارات في نيجيريا و١٣٤ دولارا في الباكستان و١١٢ دولارا في اندونيسيا و١٦٩ دولارا في الهند و١٨٥ دولارا في الصين و٢٩٥ دولارا في الجمهورية العربية المتحدة (مصر) و٣٧٢ دولارا في البرازيل . (آفاق نفس الرقم بالمقابل في ١٩٨٥ في الولايات المتحدة هو ٦٥١٠ دولارات ، وفي اليابان ٣٠٨٠ دولارا ، وفي الاتحاد السوفياتي ٢٦٦٠ دولارا ، وفي اسرائيل ٢٩٧٨ دولارا) «٢٢» . والامر الاكثر اثارة هو انه بينما يحتمل ان يتضاعف معدل الناتج القومي العام بالنسبة للفرد النيجيري سيزيد فقط معدل الناتج القومي العام بالنسبة الى الفرد بمقدار ١٤ دولارا وللباكستاني بمقدار ٤٣ دولارا وللاندونيسي بمقدار ١٢ دولارا وللهندي بمقدار ٧٠ دولارا وللصيني بمقدار ٨٨ دولارا وللمصري بمقدار ١٢٩ دولارا وللبرازيلي بمقدار ٩٢ دولارا خلال عقدي التنمية ذاتهما .

ولقد نوقش في الاعوام الاخيرة مدى تهديد ازدياد السكان للنمو الاقتصادي حتى على مجرد الوجود . ويجب ان نضيف ان هذا التهديد يتضمن بعدا اجتماعيا سياسيا حرجا . فازدياد السكان يساهم في تحطيم حيازة الارض ومن ثم يزيد في تقسيم وتعقيد البنية الطبقية الريفية ويوسع التباين ويقوي الصراعات الطبقية. كما ان المشاكل المتردية للبطالة تصبح اكثر احتمالا . وطبقا لمنظمة العمل الدولي ستكون قوة العمل في بلدان آسيا النامية قد زادت بحلول عام ١٩٨٠ من ٦٦٣مليونا الى ٩٣٨ مليونا . وخلال نفس الفترة ستزيد فرص العمل الجديدة في هذه

---

٢٢ ــ انظر كاهن وينر ، الجداول على صفحات ١٦١ ــ ١٦٥ و١٢٣ ــ ١٣٠ ، وذلك لنقاش اوفى حول الافتراضات التي قامت عليها هذه الحسابات . انظر ايضا مع ذلك كتاب ايفرت ا. هاغان ، «بعض الحقائق حول مستويات الدخل والنمو الاقتصادي» مجلة الاقتصاد والاحصاء Review of Economics and Statistics فبراير ــ شباط ١٩٦٠ . يشير هاغان ان عقد المقارنات بين البلدان المتطورة وغير المتطورة، مضلل في بعض الوجوه ويميل الى المبالغة في درجة التفاوت.

البلدان بمقدار ١٤٢ مليونا فقط وذلك حسب توقعات معدلات النمو الحالية (٢٣).

حتى اذا افترضنا ان مشكلة ازدياد السكان ستواجه بمزيد من اعمال تنظيم النسل ، فان الصورة الاقتصادية للبلدان المتخلفة بمقياس معدل الناتج القومي العام للفرد ، ستكون فقط اكثر اضاءة بشكل هامشي عند مقارنتها بالارقام المتوقعة للمجتمعات الاكثر تقدما . فمثلا اذا حدث ، وهو غير محتمل ، أن عدد سكان اندونيسيا سنة ١٩٨٥ لم يزد عن عددهم سنة ١٩٦٥ فان معدل الناتج القومي العام للفرد سيكون حوالي ٢٠٠ دولار بدلا من المعدل المتوقع وهو ١١٢ دولارا . وفي ظل نفس الظروف سيكون المعدل بالنسبة الى الباكستان ٢٥٠ دولارا بدلا من المتوقع وهو ١٣٤ دولارا ، وبالنسبة الى مصر حوالي ٥٠٠ دولار بدلا من المتوقع وهو ٢٩٥ دولارا . ولما لم يكن من الممكن تجنب بعض النمو السكاني ، فان الارقام المذكورة آنفا تمثل مستويات لا يمكن تحقيقها وان كانت في ذاتها غير مشجعة عند مقارنتها بارقام الاجزاء الاكثر تقدما من العالم .

ان الاشارة الى هذه الارقام لا تستبعد احتمال تحقيق تقدم في بعض المجالات. فمن المحتمل فعلا ان «تكون صورة العالم في ١٩٨٥ ، وبالرغم من جيوب الفقر الكبيرة التي ستظل موجودة ، ليست صورة تعيسة . فمن المؤكد انه في ١٩٨٥ سيكون قد تم القضاء بشكل عام على المجاعات العامة وعلى حالة عدم توفر الوطن للملايين وعلى الانتشار المخيف للامراض التي قضت تاريخيا على مجموعات كاملة من السكان . وبالرغم من ان البلاد المتخلفة ستظل فقيرة بالمقارنة ، سيكون لديها علاقة اكبر ومباشرة اكثر بانظمة النقل والاتصالات العالمية وباحتياطيات الدواء ، وبالعناية الطبية ، والغذاء والملجأ والملبس من خلال المساعدة الدولية في حالة الكوارث . وسيكون فائض الانتاج السلعي عاملا مهما في تغذية الامم الاقل حظا» (٢٤) . ويمكن للمرء ان يفترض ان ظهور تخطيط دولي اكبر على شكل اتفاقات دولية للسلع واتفاقات نقل دولية وقواعد صحية ومالية وتعليمية ، سيؤدي الى معالجة المشاكل التي يفرضها التخلف وبطء النمو واتساع التباين في مستويات المعيشة ، بشكل مدروس اكثر انتظاما . ان زيادة الاتصالات ستسمح بالاستجابة الفورية لحالات الطوارىء المفاجئة كما ستسمح بالتشاور المستمر مع المختصين من مسافات بعيدة . وعند الحاجة يمكن تحريك المعونة ونقلها عبر العالم في وقت لن يزيد على ما نحتاج اليه اليوم لتلبية كارثة داخلية قومية ، او حتى داخل مدينة واحدة .

---

٢٣ ـ مؤتمر منظمة العمل الدولية ، سبتمبر ـ ايلول ١٩٦٨ ، كما نقلته النيويورك تايمز ٣ـ٩ـ١٩٦٨ . وانظر ايضا للحصول على احصاءات سكانية مثيرة مشابهة في امريكا اللاتينية ، كتاب لويس اوليفوس «٢٠٠٠ : اوديسا لا مكان لها» ، مجلة امريكا «2000 : A No - Space Odyssey», Americas (OAS).

٢٤ ـ الولايات المتحدة والعالم في مرحلة ١٩٨٥ ، ص.ص ٧٨ ـ ٧٩ .

ان الثورة الزراعية في آسيا تتحدى الان بالفعل التنبؤات السائدة التقليدية عن الجوع والمجاعة العامة . فحملات التعليم العامة وتقديم بذور جديدة واسمدة قد اثارت موجة صاعدة مشجعة في الانتاجية . وخلال السنوات القليلة القادمة قد تصبح الباكستان والفيليبين وتركيا دولا مصدرة للقمح ، بعد ان اصبحت تايلاند وبورما تصدرانه الان بالفعل . ان الاثر التراكمي لمثل هذه النجاحـــات يمكن ان يؤدي «الى دعم ثقة القادة المحليين في قدرتهم على تناول المشاكل الاخرى التي تبدو مستعصية . كما يمكن ايضا ان تقوي الايمان بالتكنولوجيا الحديثة وقدراتها الكامنة في تحسين احوال معيشة شعوبهم» (٢٥) .

حتى مع السماح بهذه التطورات الاكثر اثارة للامل ، تبقى الحقيقة انه بالرغم من ان الظروف المادية للحياة في العالم الثالث تتحسن في بعض أوجهها لا يمكن ان يتواكب هذا التحسن مع العوامل التي تؤدي الى التغيير النفسي . ان التغيـــير الثوري الاساسي يتم تحقيقه عن طريق التعليم والاتصالات . وهذا التغيير الضروري والمرغوب فيه من اجل تنشيط موقف متقبل للتجديد (كقبول الفلاحين للاسمدة مثلا) ، يثير ايضا ادراكا حادا بعدم التوافق والتخلف .

ان المقارنة في هذا المجال بين التحول الاجتماعي ــ الاقتصادي للعالم الثالث والتحول الذي حدث في روسيا في مطلع القرن تفيد في الايضاح . ففي روسيا سبقت الثورة الصناعية التعليم العام ، ولحق محو الأمية بالتغيير المادي بدلا عن ان يسبقه ✻ . واندفعت الحركات الثورية وبوجه خاص الماركسية لتغلق هـذه

---

٢٥ ــ ليستر ر. براون ، «الثورة الزراعية في آسيا» (**الشؤون الخارجية**) يوليو ــ تموز ١٩٦٨ ، ص ٦٩٨ ، وكلمة براون في جامعة كنساس ستيت ، «مرحلـــة جديدة في الزراعة العالميـــة» ٣ــ١٢ــ١٩٦٨ .

وللحصول على بيانات خاصة بعام ١٩٦٧ تظهر ان النمو السكاني في العالم الثالث يفـــوق انتاج الاغذية ، انظر مجلة سيرس Ceres (مجلة منظمة الاغذية العالمية F.A.O.) سبتمبر ــ اكتوبر / ايلول ــ تشرين اول ١٩٦٨ ، ص.ص ١٧ ــ ١٨ . وانظر كتاب ميردال ، **الدراما الاسيوية**، نيويورك ، ١٩٦٨ ، ص.ص ٤١٧ ، ١٠٢٩ ــ ٤٩ ، وذلك للحصول على تقييم اكثر تشاؤما .

✻ بين ١٨٨٧ و١٩٠٤ زاد انتاج الفحم الروسي بمقدار ٤٠٠ بالمئة (من ٥ ملايين الى ٥ر٢١ مليون طن) كما زاد الحديد ٥٠٠ بالمئة . وبين ١٨٦١ و١٨٧٠ تم مد ٥٨٣٣ ميلا من السكك الحديدية ، وبين ١٨٩١ و١٩٠٠ ١٣٩٢٠ ميلا «وارتفع انتاج الفحم في روسيا ٤٠ بالمئة بالفترة ما بين ١٩٠٩ ــ ١٩١٣ بالمقارنة مع معدل نمو ٢٤ بالمئة في الولايات المتحدة و٢٨ بالمئة في المانيا و٧ بالمئة فـــي بريطانيا و٩ بالمئة في فرنسا في نفس الفترة . وفي حالة الحديد الخام ارتفع الانتاج الروسي في الفترة ما بين ١٩٠٩ ــ ١٩١٣ بمقدار ٦١ بالمئة بينما كان معدل الزيادة في الولايات المتحدة الامريكية ٢٠ بالمئة وفي المانيا ٣٣ بالمئة وفي بريطانيا ٨ بالمئة وفي فرنسا ٤٦ بالمئة .، وبالرغم من ان تخلف روسيا الاقتصادي لم يكن قد زال عشية الحرب كان من الواضح انه في طريقه الى الزوال . لم يكن مستوى المعيشة عاليا ولكنه كان في صعود . وفي العشرين عاما التي سبقت الحرب ازداد عدد =

الفجوة بالتثقيف السياسي للجماهير ، محولة اياها الى جماهير راديكالية . وفي هذه الايام تسبق الثورة الذاتية في العالم الثالث التغيير في ظروف البيئـــة الموضوعية فتخلق بذلك حالة من القلق والاضطراب والغضب والالم والسخط . وبالتاكيد ، لوحظ انه «كلما كانت عملية تنوير السكان أسرع ازدادت الاطاحـــة بالحكومات » * .

ويبدو ان الفجوة بين وعي الجماهير الناهضة والواقع المادي آخذة بالاتساع. ففي سنوات ١٩٥٨ ـ ١٩٦٥ ازداد الدخل للفرد في الهند من ٦٤ دولارا الى ٨٦ دولارا ** . وفي اندونيسيا من ٨١ دولارا الى ٨٥ دولارا وانخفض في الجزائر من ٢٣٦ دولارا الى ١٩٥ دولارا (٢٦) . كما ازدادت النسبة المئوية الى السكان النشطين اقتصاديا في مجالات اخرى غير الزراعة فقط في الجزائر من ١٠ بالمئة الـــى ١٨ بالمئة . اما نسبة الاسكان والاطباء الى كل الف من السكان وكذلك الاستهلاك الشخصي فلم تظهر اي تقدم ذي دلالة في معظم المناطق الكبرى المتخلفة . وفي بعضها اظهرت انخفاضا (٢٧) . (انظر جدول ٦) .

= السكان في روسيا بحوالي ٤٠ بالمئة بينما تضاعف الاستهلاك المحلي للسلع اكثر من مرتين» . (س. بوشكاريف ، **ظهور روسيا الحديثة ١٨٠١ ـ ١٩١٧** ، نيويورك ١٩٦٣ ، ص ٢٨٠) . ومع ذلك كان هناك عشية الحرب العالمية الاولى فقط ١١٧ الف طالب في التعليم العالي في بلد يبلغ تعداد سكانه حوالي ١٦٠ مليون نسمة ، و٥٦ بالمئة من الشعب كان أميا . (بوشكاريف ، ص.ص ٢٨٦ ، ٢٩٢) . ومن بين المجموعة العمرية للاطفال ٨ ـ ١١ سنة كان ٤٩ بالمئة منهم لا يتلقون اي تعليم بينما نسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة بين المتقدمين للخدمة العسكرية ارتفعت بين سنة ١٨٧٤ و١٩١٣ بمعدل طفيف يزيد عن ١ بالمئة في السنة (أ.ج. راشين ، موسكو ، ١٩٥٨ ، ص ٥٨٢) .

* بالنسبة الى ستة وستين بلدا على سبيل المثال نجد ان استخلاص نتيجة نسبة الاطفـــال المسجلين في المدارس الاولية وعدد الثورات كان ٨٤ر. ، بالمقارنة مع سبعين بلدا آخر فان استخلاص النسبة بين معدل التغيير بين التسجيل الاولي واللااستقرار السياسي كان ٦١ر.» (صموئيل. ب. هنتنغتون ، **النظام السياسي في المجتمعات المتغيرة** ، نيو هافن ولندن ، ١٩٦٨ ص ٤٧) .

** يجب ملاحظة ان هذه الارقام هي المتوسط العام «فقد اشارت دراسة في ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ الى ان نصف سكان الهند كانوا يعيشون على ٦ر١٤ روبية او اقل في الشهر (اي حوالي ١٠ سنتات بالعملة الامريكية في اليوم) ... وباختصار لا يكشف معدل الدخل الشديد الانخفاض في الهند عن عمق التعاسة فيها بعد» (ميردال ص ٥٦٥) .

٢٦ ـ **انظر الكتاب السنوي للامم المتحدة عن احصاءات الحسابات القومية United Nations Yearbook of National Accounts Statistics** ، ١٩٦٦ ، جدول ٧ ب .

٢٧ ـ ميردال ، ص.ص ٣٢٢ ، ٥٤٠ ـ ٥٤١ ، ٥٥٢ وما تلاها ، ١٥٨٥ . وأنظر ايضا كتاب الاحصاء السنوي للامم المتحدة ، ١٩٦٧ ، للحصول على بيانات عن نسبة الاطباء للسكان في اوائل الستينات (ص ٦٩٦) ، وعن عدد المنازل المشغولة ومتوسط حجمها وكثافة الاشغال والتسهيـــلات الاسكانية العامة (جدول ٢٠٢ ، ص ٧٠٨ وما تلاها) . وحول عدد السعرات الحرارية في اليـــوم والبروتينات واستهلاك القطن والصوف والمطاط والصلب والصفيح والسماد في الصناعة في سنوات ١٩٥٥ ـ ١٩٦٥ ، شاملة الاستهلاك الكلي (ص.ص ٤٩٨ ـ ٥١١) .

جدول ــ ٦ ــ

الدخل القومي العام / للفرد / دولار امريكي بالمئـة للسكان العاملين خارج الزراعـة

	١٩٥٨	١٩٦٦	الزيادة بالمئة	١٩٥٠	١٩٦٠	الزيادة بالمئة
الولايات المتحدة الامريكية	٢٦٠٢	٣٨٤٢	٤٨	٩٠ر٤	٩٣ر٥	١ر٣
المانيا الغربية	١٠٧٧	٢٠٠٤	٨٦	٧٤ر٢	٨٦ر٦ (١٩٦١)	١٢ر٤
فرنسا	١٣٠١	٢٠٥٢	٥٨	٧٢ر٥ (١٩٥٤)	٨٠ر٢ (١٩٦٢)	٧ر٧
ايطاليا	٥٩٢	١١٨٢	٩٨	٦٠ر٥ (١٩٥١)	٧١ر٨ (١٩٦٢)	١١ر٣
الاتحاد السوفياتي	١١٠٠	١٥٠٠ (١٩٦٥)	٣٦	٥٢ر٠	٦٠ر٨ (١٩٥٩)	٨ر٨
بولندا	٨٠٠	١١٠٠ (١٩٦٥)	٣٨	٤٢ر٨	٤٦ر٦	٣ر٨
تشيكوسلوفاكيا	—	—	—	٦١ر٤	٨٠ر٥ (١٩٦٥)	١٩ر١
اليابان	٣٤٤	٩٨٦	١٨٧	—	٧٤ر٠	—
الهند	٧٢	١٠٥	٤٦	٢٧ر٠ (١٩٥١)	٢٧ر١ (١٩٦١)	١ر٠
اندونيسيا	٨٤	٩٥ (١٩٦٣)	١٣	—	٣٢ (١٩٦١)	—
مصر	١٢٠	١٧٩ (١٩٦٥)	٤٩	٣٧ر٣ (١٩٤٧)	٤٣ر٣	٠ر٦
البرازيل	٣١٠	٣٣٣	٧	٥١ر٩	٤٨ر٤	ـ٣ر٥

تابع جدول رقم ـ٦ـ

	النسبة المئوية لسكان المناطق أكثر من ٢٠ الف			متوسط عدد الاشخاص في الغرفة		
	١٩٥٠	١٩٦٠	الزيادة بالمئة	١٩٥٠	١٩٦٠	الزيادة بالمئة
الولايات المتحدة	٤١ر٤	٤٦ر٩	٥ر٥	٠ر٧	٠ر٧	٠ر٠
المانيا الغربية	٤١ر٥	٤٧ر٦	٦ر١	—	٠ر٩	—
فرنسا	٣٣ر٣ (١٩٥٤)	—	—	١ر٠ (١٩٥٤)	١ر٠ (١٩٦٢)	٠ر٠
ايطاليا	٤١ر٢ (١٩٥١)	—	—	١ر٣ (١٩٥١)	١ر١ (١٩٦١)	−٠ر٢
الاتحاد السوفياتي	—	٣٥ر٥ (١٩٥٩)	—	—	١ر٥ (١٩٥٦)	—
بولندا	٢٥ر٥	٣١ر٩	٦ر٤	—	١ر٧ (١٩٦١)	—
تشيكوسلوفاكيا	٢١ر٠ (١٩٤٧)	٢٥ر٣ (١٩٦١)	٤ر٣	١ر٥	١ر٣ (١٩٦١)	−٠ر٢
اليابان	—	٧٢ر٠	—	—	١ر٢ (١٩٦٥)	—
الهند	١٢ر٠ (١٩٥١)	—	—	—	٢ر٦	—
اندونيسيا	٩ر١ (١٩٥٥)	—	—	—	—	—
مصر	٢٩ر١ (١٩٤٧)	٢٩ر١ (١٩٥٥)	٠ر٠	—	١ر٦	—
البرازيل	٢٠ر١	٢٨ر١	٨ر٠	١ر٣	١ر٣	٠ر٠

التحول الذاتي :

بالرغم من ان الظروف الموضوعية تغيرت ببطء ، نجد ان البيئة الذاتية تغيرت بسرعة . ولقد حدث تقدم ملحوظ اساسا في مجالين : الاتصالات والتعليم . ان عدد اجهزة الراديو في الهند قد تضاعف اربع مرات بين ١٩٥٨ – ١٩٦٦ (من مليون ونصف الى ٦ر٤ مليون) وفي الاماكن الاخرى من العالم الثالث تضاعف الرقم مرتين او ثلاثا . اما عصر التلفزيون فهو لم يكد يبدأ بعد في هذه المناطق، ولكن اجهزة الراديو والتلفزيون الترانزستور ستكون بلا شك متوافرة بشكل عام في العقدين القادمين * . كما زادت بسرعة ايضا فرص الوصول الى التعليم العالي : ففي الهند فيما بين ١٩٥٨ – ١٩٦٣ كانت الزيادة حوالي ٥٠ بالمئة (من ٩٠٠ الف الى ٣ر١ مليون طالب) وفي ١٩٦٨ كان هناك ٩ر١ مليون طالب في ٢٧٤٩ كلية و٨٠ جامعة . وفي اندونيسيا كانت الزيادة ٣٠ بالمئة (من ٥٠ الفا الى ٦٥ الفا) فيما بين ١٩٥٨ – ١٩٦٤ . وفي مصر كانت اكثر من ٥٠ بالمئة خلال نفس الفترة (٨٣ الفا الى ١٤٥ الفا) كما قفز التسجيل في المدارس الاولية في الهند من ٥ر١٨ مليون في ١٩٥١ الى ٥ر٥١ مليون في ١٩٦٦ وذلك حسب احصاءات اليونسكو (انظر جدول –٧–) .

ان ازدياد فرص التعليم يخلق مشاكله الخاصة به . فمن جانب نجد ان فرص التدريب المتقدم وبالذات ذي الطبيعة التقنية ، محدودة جدا في مواجهة التحديث الواسع المكثف ** . ان العالم الثالث ما يزال متخلفا بشكل مفجع في التعليم التقني المتوسط . ومقدرة العديد من البلدان الاقل تطورا على امتصاص الاشخاص المدربين لا تزال من ناحية اخرى غير ملائمة . والنتيجة هي طبقة من خريجي الكليات الساخطين ، بخاصة من اولئك الخريجين من كليات الحقوق والآداب الحرة ، والذين هم غير قادرين على الحصول على عمل مجز يتفق

---

* يقدر رئيس البعثة الهندية للطاقة النووية ان الارسال التلفزيوني المحلي لـ ٥٦٠ الف قرية في الهند يمكن ان يتم تشغيله من طريق الاقمار الاصطناعية في خمس سنوات بكلفة ٢٠٠ مليون دولار فقط (**النيويورك تايمز** – ١٥ اغسطس – آب ١٩٦٨) . وفي سبتمبر – ايلول ١٩٦٩ توصلت الولايات المتحدة مع الهند الى اتفاق لصنع قمر اصطناعي يمكنه في ١٩٧٢ ان يزود حوالي ٥ آلاف قرية في الولايات الاربع التي تتكلم الهندوكية ببرامج تلفزيونية عن الزراعة وتحديد النسل (انظر ايضا نقاشنا السابق عن الاثر الامريكي) .

** انظر الجداول على صفحة ٢٧ وكذلك المقارنة الاوسع بين العالم الثالث والولايات المتحدة واوروبا الغربية (بالارقام الحالية ، وبالارقام المتوقعة لسنة ٢٠٠٠) والموجودة في كتاب **التعليم العالي** الصادر عن لجنة التعليم العالي ، لندن ١٩٦٣ وبشكل خاص الملحقات ١ و٥ .

الجدول – ٧ –

	عدد الطلاب في معاهد التعليم العالي			عدد اجهزة الراديو		
	١٩٥٨	١٩٦٥	الزيادة بالمئة	١٩٥٨	١٩٦٦	الزيادة بالمئة
الولايات المتحدة	٣ر٠٤٢ر٢٠٠	٥ر٥٢٦ر٣٢٥	٨١ر٦	١٦١ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٦٢ر٧٠٠ر٠٠٠	٦٣
المانيا الغربية	١٧٥ر٣٢٠	٣٧٢ر٩٢٩	١١٥	١٥ر٢٦٣ر٠٠٠	٢٧ر٤٠٠ر٠٠٠	٧٩
فرنسا	١٨٦ر١٠١	٥٠٩ر٧٦٤	١٧٤	١٠ر٦٤٦ر٠٠٠	١٥ر٨٦١ر٠٠٠	٤٩
ايطاليا	٢١٦ر٢٤٨	٣٠٠ر٩٤٠	٣٩	٦ر١١٢ر٠٠٠	١١ر١٦٣ر٠٠٠	٨٣
الاتحاد السوفييتي	٢ر١٧٨ر٩٠٠	٨٦٠ر٥٠٠	٧٧	٣٦ر٦٦٧ر٠٠٠	٧٦ر٨٠٠ر٠٠٠	١٠٩
بولندا	١١١ر٨٢٠	٢٥١ر٨٦٤	١٢٥	٤ر٤٦٥ر٠٠٠	٥ر٥٩٣ر٠٠٠	٢٥
تشيكوسلوفاكيا	٤٨ر٨٠٥	١٤١ر٦٨٧	١٩٠	٣ر٣١٧ر٠٠٠	٣ر٨٢٩ر٠٠٠	١٥
اليابان	٥٦٦ر٥٥١	١ر١١٦ر٤٣٠	٩٧	١٤ر٦١٠ر٠٠٠	٢٤ر٧٨٧ر٠٠٠	٧٠
الهند	٩١٣ر٣٨٠	١ر٣١٠ر٠٠٠ (١٩٦٥)	٤٣	١ر٥٦٠ر٠٠٠	٦ر٤٨٥ر٠٠٠	٣١٦
اندونيسيا	٤٩ر٥٥٧	٦٥ر٦٣٥ (١٩٦٤)	٣٢	٦٣١ر٠٠٠	١ر٢٥٠ر٠٠٠	٩٨
مصر	٨٣ر٢٥١	١٧٧ر١٢٣	١١٣	٧٩٢ر٠٠٠	١ر٦١٣ر٠٠٠ (١٩٦٥)	١٠٤
البرازيل	٨٦ر٨٦٨	١٥٥ر٧٨١	٧٩	٤ر٠٠٠ر٠٠٠	٧ر٥٠٠ر٠٠٠ (١٩٦٤)	٨٨

تابع جدول رقم -٧-

	عدد اجهزة التلفزيون ١٩٥٨	عدد اجهزة التلفزيون ١٩٦٦	الزيادة بالمئة	عدد اجهزة التليفون ١٩٥٨	عدد اجهزة التليفون ١٩٦٦	الزيادة بالمئة
الولايات المتحدة	٥٠ر٢٥٠ر٠٠٠	٧٤ر١٠٠ر٠٠٠	٤٧	٦٦ر٦٣٠ر٠٠٠	٩٨ر٧٨٩ر٠٠٠	٤٨
المانيا الغربية	٢ر١٢٥ر٠٠٠	١٢ر٧٢٠ر٠٠٠	٤٩٩	٥ر٠٩٠ر١٠٢	٩ر٥٣٢ر٤١٧	٨٧
فرنسا	٩٨٩ر٠٠٠	٧ر٤٧١ر٠٠٠	٦٥٥	٣ر٧٠٣ر٥٧٨	٦ر٥٥٤ر٤٤١	٧٧
ايطاليا	١ر٠٩٨ر٠٠٠	٦ر٨٥٥ر٠٠٠	٥٢٤	٢ر٩٨٨ر٤٦٥	٦ر٤٦٧ر٥٩٧	١١٦
الاتحاد السوفيتي	١ر٧٦٧ر٠٠٠	١٩ر٠٠٠ر٠٠٠	٩٧٥	٢ر٣٧٠ر٠٠٠	٤ر٤٥٩ر٠٠٠ (١٩٦٥)	٨٨
بولندا	٨٥ر٠٠٠	٢ر٥٤٠ر٠٠٠	٢ر٨٨٨	٤٤٦ر٢٣٦	١ر٤١١ر٤٨١	٢١٦
تشيكوسلوفاكيا	٣٢٨ر٠٠٠	٢ر٣٧٥ر٠٠٠	٦٢٤	٧٨٩ر٦٧٩	١ر٥٨٢ر٨٥٢	١٠٠
اليابان	١ر٦٠٠ر٠٠٠	١٩ر٠٠٢ر٠٠٠	١٠٨٨	٤ر٣٣٤ر٦٠٢	١٦ر٠١١ر٧٤٥	٢٦٩
الهند	٤٠٠ (١٩٦٢)	٤ر٠٠٠	٩٠٠	٣٦٧ر٠٠٠	٩٢٦ر٦١٧	١٥٣
اندونيسيا	—	٤ر٦٠٠	—	٩٠ر٩٦٨	١١٦ر٣٣٢	٢٨
مصر	١٢٨ر٠٠٠ (١٩٦٢)	٣٧٥ر٠٠٠	١٩٣	١٨٥ر٤٥٢	٣٣٥ر٠٠٠	٨١
البرازيل	٧٠٠ر٠٠٠	٢ر٥٠٠ر٠٠٠	٢٥٧	٩٢٨ر١١٧	١ر٤٣١ر٦٥٣	٥٤

مصدر جدولي ٦ و٧ : كتاب الاحصاء السنوي للامم المتحدة ، ١٩٦٠ — ١٩٦٧ وكتاب الاحصاء السنوي لليونسكو ١٩٦٧ .

وتطلعاتهم المتنامية . وبالرغم من ان هذه المشكلة حادة الان في عدة بلدان (٢٨) ، نجد انها من الممكن ان تسوء بادخال التشغيل الذاتي (الاوتوميشن) في المصانع والمكاتب التي تفيض بالعاملين في البلدان الاقل تطورا ✱ .

ان المشكلة تزداد سوءا بالمستوى المنخفض باستمرار لما يوصف رسميا بالتعليم العالي . فطبقا لتقرير انطباعي ولكنه متعمق ، «انه بتقدير متساهل ربما كان ٥ بالمئة من مجموع الطلاب الهنود في معاهد التعليم العالي يتلقون تدريبا محترما حسب المستويات العالمية المعترف بها ... وفي معظم الاماكن سقطت المستويات الاكاديمية الى مستوى منخفض حتى يكاد من الصعب القول انها ما تزال موجودة» (٢٩) . هذه الحالة ليست في الهند فقط بأي حال . «فالتعليم في مدارس جنوبي آسيا على كل المستويات يميل الى عدم تشجيع التفكير المستقل او نمو الجانب التجريبي والبحثي في التفكير والذي هو حيوي للتنمية ... ان شعوب جنوبي آسيا ليست لا تتلقى فقط تعليما كافيا وانما ايضا يساء تعليمها على نطاق واسع» (٣٠) . وبالمثل في امريكا اللاتينية : «فالآن من المعترف به تماما ان التعليم في امريكا اللاتينية يعاني من نواقص جوهرية ، وان هناك معدل أمية عاليا ، وان نظام التعليم لا علاقة له باحتياجات التنمية الاقتصادية الى جانب النواقص الخطيرة في الجوانب الثقافية الاساسية» (٣١) . ان التعليم من هذا النوع يؤدي الى نشوء طبقة مدربة بطريقة غير ملائمة من الشباب الذين يشبهون في مشاعر

---

٢٨ ـ لمناقشة بعض الامثلة ذات الصلة الوثيقة بالموضوع انظر **التقرير الثالث والعشرين للجنة العمليات الحكومية** ، مجلس النواب ، واشنطن ، مارس ـ اذار ١٩٦٨ . سيذكر بعد ذلك تحت عنوان **التقرير** ... . وكذلك جلسات الاستماع امام اللجنة الفرعية للعمليات الحكومية ، مجلس النواب ، واشنطن ، ٢٣ـ١ـ١٩٦٨ . سيذكر بعد ذلك تحت عنوان **استماع** ...

✱ «عندما تأخذ عملية الترتيب العلمي للمعلومات طريقها الى المراكز الحضرية في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية في ١٩٨٥ ستكون أعداد كبيرة من الكتبة والملاحظين وعمال الفرز والملفات الذين يشكلون اليوم ثقل البروقراطية في القطاعين العام والخاص في الهند ونيجيريا والبرازيل عرضة للتهديد بالنقل وبمخاطر البطالة» . (الولايات المتحدة والعالم في مرحلة ١٩٨٥ ص ٩١) . ومن المقدر انه بحلول ١٩٧٠ سيكون نصف عدد المتعطلين في سيلان والمتوقع ان يكون عددهم مليونا ، من الحائزين على شهادات التعليم العالي (التقرير الدولي ، **الايكونومست** ١٥ يونيو ـ حزيران ١٩٦٨ ص ٤٧) .

٢٩ ـ جوزيف ليليفلد ، «مطلب الطلاب الهنود : وظيفة مأمونة في المؤسسة» **مجلة النيويورك تايمز** ١٢ـ٥ـ١٩٦٨ ، ص‌ص ٥٣ ، ٥٨ . وانظر لحكم مماثل ايضا ، ميردال ، ص‌ص ١٧٨٤ ـ ١٧٩٠ .

٣٠ ـ ميردال ، ص‌ص ١٦٤٥ ، ١٦٤٩ .

٣١ ـ راؤول بريبيش ، «النظام والهيكل الاجتماعي في امريكا اللاتينية» ، في كتاب **راديكالية امريكا اللاتينية** Latin American Radicalism ، لايرفينك لويس هوروفيتش ، وجوزيه اي كاسترو ، وجون غيراسي وآخرين ، نيويورك ، ١٩٦٩ ، ص ٣١ .

الاحباط والراديكالية المتزايدة وحساسية الاحلام (اليوتوبيا) ، يشبهون مثقفي القرن التاسع عشر في الاقاليم الاكثر تخلفا في اوروبا وبوجه خاص روسيا والبلقان .

وللحصول على تعليم ذي نوعية جيدة تسافر نسبة صغيرة من الطلاب الى الخارج إما لانهم موهوبون بشكل غير عادي ويمكنهم الحصول على منح دراسية او لانهم من عائلات غنية . انهم يندفعون بالنتيجة الى التواؤم مع أسلوب الحياة الاجنبية وطرقها ، حتى للبقاء في الخارج . وفي الواقع انهم يخرجون من مجتمعاتهم الخاصة ، إما بالهجرة الداخلية عند عودتهم او ببساطة بعدم العودة ابدا . على سبيل المثال ، في ١٩٦٧ اختار ٢٦ بالمئة من الطلاب الصينيين الذين درسوا العلوم والهندسة في الولايات المتحدة عدم العودة الى تايوان ، والنسبة في الهند كانت ٢١ بالمئة وفي كوريا والباكستان كانت ١٥ و١٣ بالمئة على التوالي (٣٢) . انها حقيقة متردية ان تكون البلدان المتخلفة قد قدمت تقريبا نصف المجموع الكلي للمهندسين والعلماء والاطباء الذين هاجروا الى الولايات المتحدة في العام الذي ينتهي في يونيو — حزيران ١٩٦٧ : ١.٢٥٤ من ٢.٧٦٠ (٣٣) . ومن المتوقع ان ترتفع هذه النسبة عمليا في الاعوام المقبلة (٣٤) . وفي الوقت نفسه كثيرون من اولئك الذين يعودون بالفعل الى اوطانهم الاصلية يفعلون ذلك بعد ان يكونوا «قد تشرّبوا بقيم ونظام تعليم بعد الافراد لبلد متقدم وقد يجعلهم غير قادرين على تطوير شخصية مناسبة لحياة نشطة في مجتمعاتهم الخاصة » (٣٥) .

ان الاثر المتراكم لهذه العوامل يؤدي الى نمط سياسي شديد الاضطراب وهش الى اقصى درجة . وبدون ذكر الاختلافات الخاصة بين بلدان العالم الثالث يمكن القول بعبارات عامة ان الهرم السياسي في البلدان الاقل تطورا ذو قاعدة من جماهير فلاحية لا تزال تعمل اساسا في العمل اليدوي وامية * على الاغلب ، ولكنها

---

٣٢ — **التقرير** ... ، ص.ص ٧ — ٨ .

٣٣ — **استماع** ... ، ص ٩٦ .

٣٤ — **التقرير** ... ، ص ١٧ .

٣٥ — **التقرير** ... ، ص ٩ . حيث ينقل عن شهادة الدكتور س.ف. كيد رئيس ادارة الفيزياء في الجامعة الامريكية في بيروت .

* في ١٩٦٠ كان ٧٠ بالمئة من الذكور تقريبا ممن هم فوق الخامسة عشرة و٩٠ بالمئة من الاناث من نفس العمر في باكستان ، أميين ، وفي الهند كانت النسبة ٦٠ بالمئة و٨٥ بالمئة على التوالي ، وفي اندونيسيا ٤٠ بالمئة و٧٠ بالمئة وفي بورما ٢٠ بالمئة و٦٠ بالمئة . اما في امريكا اللاتينية ففي ١٩٦٠ كان ٣٦٫٥ بالمئة من الذكور و٤٢٫٦ بالمئة من الاناث في البرازيل أميين ، وفي الارجنتين ٧٫٥ بالمئة و٩٫٧ بالمئة ، وفي التشيلي ١٥٫١ بالمئة و١٧٫٦ بالمئة ، وفي البيرو ٢٥٫٦ بالمئة و٥٢٫٤بالمئة، وفي فنزويلا ٣٠٫٢ بالمئة و٣٨٫٣ بالمئة . (ميردال ، ص.ص ٥٤٠ ، ١٦٧٢ ، كتاب الاحصاء السنوي للامم المتحدة ١٩٦٥) .

لم تعد مقيدة كما في السابق ببيئتها المباشرة لان اجهزة الراديو الترانزستور تقيم بينها وبين المجتمع الوطني كله علاقة وثيقة وتساعد على تنمية الوعي بالحرمان المادي او القومي * ، والخطوة التالية لذلك هي الزيادة السريعة لسكان المدن ** . وهؤلاء يتشكلون لدرجة كبيرة من الجيل الاول من سكان المدينة الذين كانوا فلاحين والذين يبحثون عن مصادر جديدة للسلطة (٣٦) . ثم يلي ذلك مجموعة من اشباه المثقفين تشكل حوالي ٢ – ٣ بالمئة من السكان مكونة نسبيا من شباب كانوا خلال العقد الاخير قد حصلوا على درجة من العلم المتقدم رسميا – وهم غالبا ضعاف جدا مهنيا – ولكونهم يعيشون في ظروف سيئة ويشعرون بان المجتمع لا يقدم لهم الفرصة التي اعدوا لها يصبحون سريعي التأثر بالقضايا النضالية المعادية للاجانب . وعند قمة الهرم نجد طبقة من النخبة ذات التعليم الجيد والضيقة الافق ، تكافح من اجل تحقيق الاستقرار والتقدم (ايران) ، او في بعض الاحيان لتأخير او منع الاصلاحات (بعض بلدان امريكا اللاتينية) ، لانه كما قال باحث برازيلي «يريدونها هكذا ، ليحافظوا على امتيازاتهم وهم يعتمدون على دوام الواقع الراهن» (٣٧) . هذه الامتيازات هي في الملكية او كما هي الحال في معظم الحالات في البلدان الجديدة في الوضع البيروقراطي .

ان الأحياء المغلقة في المدينة العالمية لها ما يشابهها في الاحياء العرقية

---

* لذلك فات الوقت لكي يمكن اقتراح انه طالما سبقت المشاركة عملية بناء المؤسسات السياسية الفعالة ، قد يكون من المرغوب فيه لمنع الكارثة ان يحد من البرامج التي تستحث مستويات اعلى من المشاركة او ابطائها . مثلا بابطاء النشاط ضد الأمية حتى لا يسبق تعلم القراءة والكتابة التطور الاقتصادي والسياسي. حتى لو كان ذلك ممكنا من الناحية العملية فان توزيع اجهزة الراديو الترانزستور (والتلفزيون قريبا جدا) بدأ بأن يكون له نفس الدور السياسي المنشط الذي كان للقراءة والكتابة بين بروليتاريا المدن في اواخر القرن التاسع عشر وهكذا كان فرانز فانون محقا تماما في ملاحظته التي اوردها في كتابه دراسات في كولونيالية منهارة (نيويورك ١٩٦٥) انه «منذ ١٩٦٥ اصبح شراء راديو في الجزائر ليس مجرد حيازة تكنيك حديث للحصول على الاخبار ولكن للحصول على مدخل للطريقة الوحيدة للالتحاق بالثورة او العيش معها عبر الاتصالات» (ص ٨٣) .

** ان المدن ذات السكان الاكثر من مئة الف تزيد في آسيا بمعدل ثلاثة أضعاف الزيادة العامة للسكان في البلدان المعنية (ميردال ص ٤٦٩) .

٣٦ – وليم كورنهوزر ، **سياسات مجتمع الجماهير** The Politics of Mass Society غلينكو ، الينوي ، ١٩٥٩ .

٣٧ – هـ. جافواريب ، «المونة التقنية الاجنبية والتنمية القومية» ، بحث مقدم في جامعة برنستون ، ١٩٦٥ ، ص‌ص ٢٥ – ٢٦ ، كما جاءت في **الاستماع** .. ، ص ٥٧ . انظر ايضا ايرفينك لويس هوروفيتس ، «الشرعية السياسية ومؤسسة الازمات في امريكا اللاتينية» ، **مجلة الدراسات السياسية المقارنة** Comparative Political Studies ، ابريل – نيسان ١٩٦٨ خاصة ص‌ص ٦٤ – ٦٥ .

الفقيرة في الولايات المتحدة وفي المدن الامريكية . ليست المشكلة هي غيـــاب التطور او التغيير بل انها تنبع من شعور الفقراء بانه حتى مع التغيير السريع لن يكون هناك تغيير يكفي الكثيرين في المستقبل القريب ، ومـن تيـقنهم المتزايد من ان اولئك الذين هم اغنى منهم بدأوا يعانون معنويا بسبب هذه الفجوة المادية . هذه المجموعة من العوامل تخلق شعورا بالحرمان الحاد الذي يؤدي الى ازدياد درجة العداء السياسي قبل العالم الخارجي (٣٨) . ولقد اصبح ممكنا تعبئة العداء في الولايات المتحدة بازدياد عدد الامريكيين السود الذين يتلقون تعليما عاليا ومن ثم يصبحون قادرين على ان يقدموا انفسهم على نطاق اجتماعي كبير بصفة قيادات محركة للتعبير عن المعاناة المكبوتة المذكورة آنفا . كما ان النمو السريع للامريكيين السود ساكني المدن * كان عاملا آخر ، فلقد تحرروا من الكيان الريفي التقليدي الذي يسوده البيض واصبحوا على صلة مباشرة بالتجمعات البيضاء ، وبرغم ان هذه التجمعات محافظة في جوهرها الا انهم اصبحوا بشكل متزايد متساوين فيها. في داخل هذا الاطار ساهمت محاولات الاصلاح في مزيد من التوتر والاحتكـــاك ودفعت بالبعض ، حيث سيادة البيض في المجتمع ، الى تبني مواقف رجعية ضد التغيير ، بينما دفعت بالبعض الآخر خصوصا من بين المحرومين للقول بانه لا معنى لاي تغيير داخل اطار النظام القائم .

ان الأحياء الفقيرة الامريكية العرقية قد نمت بنمط لا يختلف كثيرا عـــن التوسع الذي حدث في المراكز الحضرية الفقيرة الضخمة في آسيا . ولقد توجه السود من الجنوب للانتقال الى مدن الشمال كرد فعل لفقرهم والشعور بالظلم اكثر منه تلبية لفرص عمل فعلية متاحة هناك . ان معدل البطالة في المدن الامريكية الكبرى هو اضعاف معدلها القومي العام . وفي آسيا نمت المدن التي تسكنهـا الجماهير الفقيرة وغير المنتجة بسرعة في السنوات الاخيرة ليس بسبب فـــرص العمل المتاحة ولكن بسبب الفقر واللاامن في الريف . «وبدلا من ان يكون التحضر علامة على النمو كما كان في الغرب ، نجده في جنوبي آسيا وجها من أوجـــه

---

٣٨ – انظر على سبيل المثال ، وليم هـ. غريـــار وبرايسي م. كوبس ، **الغضب الاسود** ، نيويورك ١٩٦٩ .

* ان نسبة كل السود الذين يعيشون في الشمال والغرب قد تضاعفت تقريبا اربع مرات من ١٩١٠ الى ١٩٦٠ ، حيث يقيم ٧٣ بالمئة من مجموع السود في المناطق الحضرية وهكذا اصبحوا سكانا حضريين اكثر من البيض الذين يقيم ٧٠ بالمئة منهم فقط في المناطق المدينية (فيليب م. هوسر ، «العوامل الديموغرافية في اندماج الزنجي الاسود» ، في **كتاب الزنجي الامريكي** ، تلكوت برسنز وكينيث ب. كلارك ، بوسطن ، ١٩٦٥ ص ٧٤ – ٧٥) .

استمرار الفقر» (٣٩) .

ان التشابه بين الاحياء المغلقة في المدينة العالمية والاحياء الفقيرة العرقية في الولايات المتحدة يمكن ان ينطبق على المشاكل التي تواجه النخبة السياسية المثقفة في العالم الثالث . ففي الولايات المتحدة اتجه «الاندماج» لان يكون معناه تمثلا انتقاليا لقلة من الافراد يمكنهم ان يتلاءموا مع النموذج السائد للتجمع المسيطر ، ومع ذلك يعني في الوقت نفسه خسارة للموهبة والخبرة للتجمع الاسود ، حيث يقدم الذين هم أقل تعليما واكثر نضالية «أشباه المثقفين» يوما بعد يوم قيادات جذابة للجماهير تستغل مشاعر عرقية معاكسة . وبنفس الطريقة فقد اتجهت النخبة الاجتماعية المستقرة في العالم الثالث الى تقليد أسلوب الحياة في العالم الاكثر تقدما والهجرة اليه بشكل مباشر او غير مباشر .

الفراغ السياسي :

ان الفراغ الناتج يملؤه اشباه المثقفين المحليين الذين تتأثر آراؤهم بالعقائد التي دعا اليها فرانز فانون وريجي دوبريه وتشي غيفارا وآخرون . وقد تم تكييف ماركسية القرن التاسع عشر الاوروبية التي توجهت في الاصل لبروليتاريا حضرية انفصلت حديثا عن الحياة الريفية ، تم تكييفها بشكل رومانسي لتوافق ظروف الأحياء المغلقة العالمية الصناعية المتخلفة في القرن العشرين . «ان المثقف الثوري هو في الحقيقة ظاهرة عالمية في عملية تحديث المجتمعات . وقد لاحظ هوسلتز ووينر : انه لا يوجد احد يميل الى استعمال العنف كالمثقف الساخط ، علـــى الاقل ضمن المفهوم الهندي ، ان هؤلاء الاشخاص هم الذين يكوّنون كـــوادر الاحزاب السياسية الاقل مسؤولية ، وهم الذين شكلوا هوامش ضيقة مـــن الديماغوجيين ، وهم الذين اصبحوا قادة الحركات الدينية المؤمنة بعودة المسيح او قيام القيامة عام ٢٠٠٠ ، وكلها حركات يمكنها عندما تنضج الفرصة ان تهدد الاستقرار السياسي. وفي ايران كان المتطرفون من اليمين واليسار نتاج المدينة ومن المراتب الاقتصادية المتوسطة والاكثر تعليما من المعتدلين» (٤٠) .

---

٣٩ ـ ميردال ، ص ٤٧١ . انظر ايضا صص ٤٦٧ ـ ٦٩ للحصول على بيانات عن النمو الحضري بالمقارنة مع النمو القومي . وللمزيد من البيانات عن نمو المدن في العالم الثالث انظر ج. بريز ، **التحضر في البلاد المتطورة حديثا** Urbanization in newl y Developing Countries انغلوود كليفـــر ، نيوجرسي ، ١٩٦٦ .

٤٠ ـ صموئيل ب. هنتنغتون ، **النظام السياسي في المجتمعات المتغيرة** Political Order in changing Societies نيوهافن ولندن، ١٩٦٨ ، ص٢٩ ، وقد نقل ايضا عن برت ف. هوسلتز وميرون وينر ، «التطور الاقتصادي والاستقرار السياسي في الهند» ، مجلة **ديسنت** Dissent مجلد ٨ ، ربيع ١٩٦١ ، ص ١٧٧ ؛ وبنيامين ب. رنغر ودافيد ل. سيلز ، «المتطرفون السياسيون في ايران» ، **مجلة الراي العام الفصلية** Public Opinion Quarterly المجلد ١٦ ، ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ ، صص ٦٩٣ ـ ٩٤ .

ضمن هذا الاطار الانفعالي نجد ان المعونة الاجنبية التي قصد منها التغلب على الوضع الخاص بالتخلف والفقر ، تصبح مصدرا آخر للاحتكاك . حتى اذا ساعدت في تحسنين الوضع الموضوعي ، فانها تثير مزيدا من التوتر الذاتي . ففي الأحياء المغلقة الحضرية في الولايات المتحدة قابل السود بجفاء برامج المعونة الحكومية والخاصة التي يديرها البيض . وعندما تولى السود ادارتها تعرضوا مرارا لاتهامات البيض بأن الاعتمادات المالية الموجهة لبرامج تنمية خاصة قد استعملت لتقوية النضال الاسود . وعلى نطاق عالمي كانت عبارة «الاستعمار الجديد» هي العبارة المستعملة لاثارة شكوك الجماهير في الدوافع السياسية للمعونة الاقتصادية من البلدان المتقدمة ✱ ، وكانت الاتهامات التي تثيرها البلدان التي تقدم المعونة على الذين يتسلمون معونتها الاقتصادية هي الفساد وعدم الكفاءة والكسب غير المشروع .

ان التحول نحو المساعدة الاقتصادية على اساس دولي هو لمواجهة هذا الخطر ، جزئيا على الاقل . ولكنه يخلق خطرا آخر . فالمعونة في افضل الاحوال ليست الا استجابة جزئية لحالة لها جذور نفسية ومعادية عميقة ولا يمكن للمعونة الاقتصادية ان تكون فعالة الا اذا تمت بالاضافة اليها تعبئة الموارد العاطفية للبلد المستقل وتم خلق شعور بالحماسة الشعبية نحو غاية واحدة.ويحتاج ذلك الى قيادة محلية تعرف كيف تحرك الجماهير وكيف تستخدم المعونة الاجنبية بذكاء ، ومثل هذه القيادة نادرة ، وهي عندما توجد بالفعل تميل الى عدم التجاوب مع المصالح والنصائح الاجنبية وهكذا تستثير الغضب الاجنبي . ان المصاعب التي واجهتها الولايات المتحدة في التعامل مع ناصر وأيوب خان اللذين لم يكونا يستثيران مشاعر جماهيرهما فحسب بل يستجيبان لها ايضا هي حالات من هذا النوع .

✱ في مستوى اكثر تعقيدا يدان النظام الاقتصادي في البلدان المتقدمة باعتباره غير قادر بطبيعته على تقديم مساعدة حقيقية . «وهكذا يشير فورتادو [الاقتصادي من امريكا اللاتينية] الى ان المؤسسة او الشركة مصممة لتلائم احتياجات تحقيق الربح في اقتصاد متقدم ، وعندما يحاول الانسان نقل تكنولوجيتها الى بلاد فقيرة تنمو نجد ان النتيجة هي تناقضات حادة جدا . فالآلات الاحدث توفر الطاقة البشرية وهو نعمة للولايات المتحدة ولعنة لبلد فيه بطالة مزمنة . والانتاج الكبير يحتاج الى سوق ضخم غير موجود في مجتمع زراعي قديم. وهكذا يستخلص فورتادو ان بنية الحياة الاقتصادية ذاتها في الامم الجديدة وقد فرضت عليها في القرن الماضي تجعل من الصعب عليهم امتصاص مزايا التقدم العلمي والتقني في تلك الفرص النادرة التي قد تسنح لهم . وهكذا تتخصص الامم الغنية في النشاطات التي تجعل العمل أسهل والبضائع اكثر والرفاهية اوسع انتشارا ومستويات المعيشة اعلى . اما الامم الفقيرة فانها تترك للمهام الوضيعة في الانتاج الاولي وبسوق راكد او منهار ، وهكذا يصبح عليهم ان يبيعوا ارخص وأن يشتروا اغلى من المصانع المزدهرة» (**ميشال هرنفتون ، القوة الامريكية في القرن العشرين** نيويورك ١٩٦٧ ص ٩) .

ويضاف الى ذلك انه اذا كان اولئك الذين هم في موقع المسؤولية عازمين على تشجيع التغيير الاجتماعي فانهم يواجهون بالحقيقة الصعبة وهي ان واقعهم لا يمكن ان يتغير الا بشكل تدريجي جدا بينما التعبئة الشعبية لصالح التغيير يمكن تحقيقها باستثارة حماسة الجماهير وعواطفها . عندئذ يواجه الحكام مشكلة محيرة. فهم ان اعترفوا بواقع بطء التغيير فانهم سيحرمون انفسهم من مساندة الجماهير ويسلمون المبادرة السياسية الى الديماغوجيين الراديكاليين . وهـــم اذا عبأوا جماهيرهم بأهداف لا يمكن تحقيقها فانهم بذلك يعدون لانفجار لا مفر منه ، الا اذا اصبحت التعبئة وسيلة لاخضاع الجماهير لاشراف مركزي بيروقراطي من ذلك النوع الذي يمارسه القادة الشيوعيون بفعالية كبيرة . وبالاضافة الى ذلك كان على مخططي الاصلاح لكي يحصلوا على دعم المالكين والمجموعات الاكثر تعلما أن «يتقدموا بأقصى درجة من الحذر حتى لا يمزقوا النظام الاجتماعي التقليدي ... فهم يسمحون بأن تحتوي القوانين على ثغرات من كل الانواع بل ان تبقى دون تقوية» (٤١) . عندئذ تتجه المسافة بين الوعد والانجاز الى الاتساع .

وواضح في الافق ان مشاعر الضيق الشديد ستنمو على الاغلب كلما اتسعت الفجوة بين العالم الثالث والعالم المتطور ✱ . ومن المؤكد انها ستزداد حدة لانــه ستتسع رقعة الفوارق في العام ٢٠٠٠ بين القلة القليلة للدول المتقدمة ما بعد الصناعية التكنترونية (الولايات المتحدة ، اليابان ، السويد وكندا) ، الى حوالي اثنتي عشرة دولة من الدول الصناعية المكتملة (تقترب وقتئذ من المستويات الحالية في الولايات المتحدة) الى عشر او خمس عشرة دولة من الدول المتخلفة حاليـــا والتي ستبلغ في العام ٢٠٠٠ المستويات الحالية للدول الاقل تقدما والتي تمر في المراحل الصناعية الاولى ، ثم الى مجموعة كبيرة (حوالي ستين) ما تزال في مرحلة ما قبل الصناعة ، واخيرا اولئك الذين ما زالوا في ظروف بدائية تماما . وستكون المجموعتان الثالثة والرابعة ، وهما اللتان تضمان اغلبية سكان العالم وتحققان في احسن الاحوال تقدما جزئيا فعالا ، في كل الاحتمالات مراكز النشاط السياسي الملتهب والغضب والتوتر والتطرف (٤٢) .

---

٤١ ـ ميردال ص ١١٧ .

✱ في ١٩٦٥ كان الانتاج بالنسبة الى المفرد في العالم المتطور قد فاق مثيله في العالم الاقل تطورا باثنتي عشرة مرة . ومن المقدر انه في العام ٢٠٠٠ ستكون النسبة اكبر بثماني عشرة مرة . (هرمان كان وانطوني ج. وينر ، سنة ٢٠٠٠ نيويورك ١٩٦٧ ص ١٤٢ . وفي ١٩٦٥ كان الانتاج الكلي لولاية ايلينوي اكبر من كل افريقيا وكاليفورنيا اكبر من كل الصين .

٤٢ ـ للحصول على نقاش مفيد وذو صلة بالموضوع حول علاقة العنف بالتطور الاقتصادي انظر بروس م. روست وآخرين ، **الكتيب العالمي للمؤشرات السياسية والاجتماعية** World Handbook of Political and Social Indicators نيوهافن، ١٩٦٤ ، خاصة ص‌ص٣٠٤ـ٣١٠ ، وجون هـ. كوتسكي ، **الشيوعية وسياسات التنمية** Communism and the Politics of =

ضمن هذا الاطار من الصعب تصور كيف يمكن للمؤسسات الديمقراطية ان تستمر في بلد كالهند (وهي المأخوذة في معظمها من الخبرة الغربية وتتطابق فقط مع اكثر الامم الغربية استقرارا وثروة) . او كيف يمكن ان تتطور في اي مكان آخر غير الهند ✶ . «ان الكثير سيتوقف على سرعة التطور الاقتصادي نفسه ، والبشائر في هذا المجال غير مشجعة» (٤٣) . والمضاعفات المحتملة هي اضطرابات متناثرة في الدول كل على حدة ومن ثم الاتجاه نحو الديكتاتورية الفردية . وستعتمد هذه الاخيرة على عقائد نابعة من الداخل واجتماعية راديكالية وموحدة على أمل الجمع بين كراهية الاجنبي وشخصية الزعيم الآسرة فتوفر الحد الادنى من الاستقرار لفرض التحديث الاجتماعي الاقتصادي من اعلى .

وكما هو الحال في الأحياء المغلقة الحضرية في الولايات المتحدة فقد يؤدي ذلك الى علاقة اشد توترا مع العالم الاكثر تقدما وغنى . ولقد قبل هذا الاخير في السنوات الاخيرة – على الاقل كافتراض عام وان لم يزل على مضض – نوعا من الالتزام المعنوي بأن يقدم مساعدات مادية للتنمية في العالم الثالث . هذه «الاخلاقية الجديدة» قد حركتها بلا شك المنافسة في الحرب الباردة التي جعلت المعسكرين المتطورين يتنافسان في تقديم المساعدة الى الامم المتخلفة ومن المشكوك فيه ان مشاعر الضمير هذه ستستمر اذا خفت الحرب الباردة ✶✶ ومن المؤكد انها لن تستمر اذا حل محل التنافس بين الشرق والغرب عداء متزايد بين الشمال والجنوب . ان شعوب العالم المتطور يمكن ان تلجأ الى حجة تفيدها وهي ان التعصب الذي لا مبرر له من جانب زعماء غيتوات العالم يعرقل التعاون . ومثل

= Development. نيويورك ١٩٦٨ خاصة الفصل العاشر بعنوان «الشيوعية والتطور الاقتصادي» وقد شاركه في الكتاب دوجر و. بنيامين . انظر لاشكال اخرى مختلفة لانهيار المجتمعات ، سيريل أ. بلاك ، ديناميات التحديث Dynamics of Modernization نيويورك ١٩٦٦ ، ص ١٥٠ . ولرؤية مستقبلية اكثر تفاؤلا انظر والت روستو ، **مراحل النمو الاقتصادي The Stages of Economic Growth** كمبردج ، ماساشوستش ، ١٩٦٠ ص ١٢٧ .

✶ «ان البلدان غير الاوروبية اليوم يمكنها ، مثل الدول الاوروبية في القرن السابع عشر ان تحقق تحديثا سياسيا او ان يكون لديها تعددية ديمقراطية ولكن لا يمكنها ان تجمع بين الاثنين بشكل طبيعي» (عنتنغتون ص‌ص ١٣٦ – ١٣٧) .

٤٣ – ميردال ص ٣٠٠ .

✶✶ لقد لاحظ هذا بعض المتحدثين باسم العالم الثالث . فلقد قال الوفد الجزائري الى اجتماع المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للامم المتحدة في جنيف في يوليو – تموز ١٩٦٦ «حتى اذا كان الانفراج في الحرب الباردة قد سمح بتهدئة النزاع بين الكتل ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة فان المرء يجب ان يخشى ان تدور المواجهة بين الشرق والغرب على محورها وتصبح مواجهة للشمال ضد الجنوب» (نقلا عن هرنغتون ص ٢٠) .

هذا الموقف السلبي سيؤكد مزيدا من اتساع الهوة والانقسام الاكثر مرارة بين بني البشر الذين بدأوا لاول مرة يعيشون علاقات حميمة فيما بينهم (ذاتية) .

التفتيت والتوحيد العالميين

ان الاثر التراكمي للثورة التكنترونية هو اثر متناقض . فمن جانب تميز هذه الثورة بدايات مجتمع عالمي ومن جانب آخر تفتت الانسانية وتنتزعها من مراسيها التقليدية . ان الثورة التكنترونية تزيد من تنوع الظروف الانسانية والوانها . فهي توسع الهوة في الظروف المادية بين بني البشر حتى وهي تقلص قدرة الانسان الذاتية على تحمل هذا التباين .

وبالرغم من ان الاختلافات بين المجتمعات قد تطورت تدريجيا في مجرى التاريخ الانساني لم تصبح اختلافات حادة الا بقيام الثورة الصناعية . واليوم ما يزال بعض الامم يعيش في ظل ظروف تشبه تلك التي كانت ايام ما قبل المسيحية ، والكثيرون يعيشون في ظروف ليست افضل من تلك التي كانت في القرون الوسطى ومع ذلك فعما قريب سيعيش عدد قليل من الامم بطرق جديدة لدرجة انه من الصعب الان تخيل تشعباتها الاجتماعية والشخصية . والنتيجة قد تكون انشقاقا عميقا ثلاثي الشعب في مواقف وآراء البشرية . ان التعايش بين المجتمعات الزراعية والصناعية والمجتمعات التكنترونية الجديدة ـ وكل منها يقدم منظورا مختلفا للحياة ـ قد يجعل الفهم اكثر صعوبة في نفس الوقت الذي يصبح فيه اكثر امكانية ، وقد يجعل تقبل العالم لنماذج حياتية معينة اقل احتمالا لكونه اكثر ضرورة والحاحا .

الاحتقان المتفتت :

ان هذا الانشقاق العالمي ثلاثي الشعب قد يزيد من اجهاد النسيج الحالي الضعيف للنظام الاجتماعي والسياسي ويؤدي الى فوضى محلية وربما الى فوضى دولية . ان الفوضوية النامية في العالم الثالث يرجح ان تشمل مشاعر عرقية متعصبة . وعلى الاقل ، سيخلق ذلك جيوبا كبيرة من التمزق والفوضى في العالم ، وعلى الاسوأ قد يجر عدم استقرار العالم الثالث الامم الاكثر تطورا الى اشكال من التورط المعادية التي قد يكون لها نفس التأثير في العلاقات الامريكية السوفياتية كما كان لنزاعات البلقان في النظام الاوروبي قبل الحرب العالمية الاولى .

وفي العالم الاكثر تقدما نجد ان التوتر بين الانسان «الداخلي» والانسان

«الخارجي» ـ اي بين الانسان المنشغل بمعناه الداخلي في علاقتــه باللانهاية ، والانسان المنغمس بعمق في بيئته وقد التزم بتشكيل ما يعترف به هو كشــيء محدد ـ سيثير ازمة حادة حول الشخصية الفلسفية والدينيـــة والنفسية . وستتضاعف هذه الازمة بالخوف من ان قدرة الانسان على التكيف قد تسمــح بنسف ما كان يعد من قبل جوهرا لا يمكن المساس به في الانسان . ان الانفجار في المعرفة العلمية يفرض خطر التفتت الفكري مع ازدياد حالة عدم اليقين كلمــا ازداد التوسع فيما هو معروف . والنتيجة ، خصوصا في الولايات المتحــدة (انظر جزء ٤ لمزيد من المناقشة الموسعة) هي البحث المتسارع عن اشكال اجتماعية وسياسية جديدة .

ان تأثير الولايات المتحدة بصفتها المجتمع العالمــي الاول سيعكس هـــذه الاتجاهات المتعارضة . وبالرغم من ان الولايات المتحدة تبحث عن استقرار العالم وتكرس مواردها الضخمة من اجل منع الهبات الثورية ، نرى تأثيرها الاجتماعــي في العالم هو تأثير مجدد خلاق لا يسمح بالاستقرار . ومع انها تستثير عداء عنيفا لنفسها تطلق الآمال والتوقعات التي تقاس بالنماذج الامريكية التي لا يمكن توافيرها في معظم البلاد الا بعد ان تقطع شوطا كبيرا في القرن المقبل . انها تسرع بتوحيد المجتمعات الاخرى ـ ليس فقط لان الاقليمية قد اصبحت منذ ١٩٦٠ صيغــة السياسة الخارجية الرسمية المتبعة في واشنطن ولكن ايضا لان الامم الاخرى ترى ان التوحيد هو السلاح الافضل لمواجهـــة النفوذ الامريكي . وهـــي بدورها كالمجتمع العالمي الاول توحد وتغير وتستحث وتتحدى الآخرين ـ وغالبا ما يكون ذلك ضد مصالحها الآنية . ان الامركة تخلق طموحات مشتركة وردود أفعــال غاية في التنوع .

ان فعل تأثير الولايات المتحدة في العالم الثالث هو تقوية التناقضات والنزاع بين الاجيال . فالاتصالات والتعليم على مستوى ضخم تخلق الطموحات التــي تصورها ثروة امريكا المادية بنماذج غامضة ، وهو ما لا يمكن تلبيته ببساطة في معظم المجتمعات . وطالما لا يمكن الاحاطة بالاتصالات او التعليم فانه من الواجب توقع ازدياد التوترات السياسية كلما اخلت المواقف التقليدية القديمة أماكنهــا لمنظور عالمي اوسع في العالم المتقدم . ان التحدي المعاصر في العالم المتقدم يتركز بازدياد حول شخصية الانسان ، ولكن في العالم الثالث يبرز التفتت الاجتماعي كالمشكلة الرئيسية ، وهي مشكلة تسابق شعور المجتمعات المتقدمة الذي ينضــج ببطء بمسؤولياتها العالمية في مساعدة تطوير العالم الثالث .

حتى القومية تخضع لتأثيرات متناقضة . فلم تكن القومية يوما اقوى ممــا هي عليه الان ، ولم تتمتع يوما بمثل ما تتمتع به الان من الدعم المكثف الواعــي النشط سواء أكان ذلك من الجماهير الشعبية ام من المثقفين . ان التفاعل بين الدول ـ الامم ما يزال يقرر الامور التي تؤثر في الحرب والسلم كما لا يـــزال تعريف الانسان الاولي لشخصيته يقوم على اساس القومية . وربما كانت الدول غير الروسية في الاتحاد السوفياتي هي الاستثناء الوحيد بين حالات التفســخ

القومي الناجح للامبراطوريات الاستعمارية . ومع ذلك ولان الامرهكذا بوجه خاص تكف القومية عن ان تكون قوة دافعة في تحديد السمات العريضة للتغيير في زماننا هذا . فبرغم ان القومية ما تزال مصدرا لبعض التوترات ، تخف بأثر الاعتراف المتنامي من جانب معظم النخب القومية التي تقر بأن التعاون الاقليمي والقاري في هذه الايام ضروري لتحقيق كثير من الاهداف القومية الصرفة . ان نجاح القومية يجعل من الامة هدفا اساسيا ولكنه لا يجعلها بعد ذلك الموضوع الحيوي للعمليات الدينامية .

ولان الانسان يجد نفسه وهو يعيش في بيئة محتقنة متداخلة مربكة وليست خصوصية ، ينشد السلوان في الخصوصية الاليفة المحدودة . ان المجتمع القومي هو المجتمع الواضح الذي يمكن ان يلجأوا اليه ، وسيصبح تحديد هذا المجتمع القومي اكثر محدودية كلما ازداد تطور التعاون بين الامم واتسع . وبالنسبة الى كثير من الشعوب كانت الدولة ــ الامة حلا وسطا فرضته عوامل الاقتصاد والامن وعوامل اخرى . وغالبا ما كان يتم الوصول بالنهاية الى انسب توازن بعد قرون من النزاع . اما اليوم فان التوازن آخذ في عدم الاستقرار وذلك لبروز شبكات من التعاون احدث واكبر وبسبب الاندماج الفعال للوحدات الاصغر والاكثر التصاقا في وحدات اكبر ، وهو الامر الذي تسهله بازدياد العقول الاليكترونية والسبيرناتيكا والاتصالات ، وهكذا .

والنتيجة المترتبة على ذلك انه من المحتمل ان يدعي في المستقبل القريب كل من الفلمنك والوالون في بلجيكا والكنديين الفرنسيين والانكليز في كندا ، والاسكتلانديين وابناء ويلز في المملكة المتحدة ، والباسك في اسبانيا ، والكرواتيين والسلاف في يوغسلافيا ، والتشك والسلاف في تشيكوسلوفاكيا وبعض القوميات غير الروسية في الاتحاد السوفياتي ومختلف المجموعات الاتنية ــ اللغوية في الهند ، يدّعون ان الدولة ــ الامة المحددة الخاصة بهم لم تعد لها علاقة بالضرورة التاريخية . وفي مستويات اعلى من ذلك اصبحت الدولة ــ الامة لا ضرورة لها في اوروبا او في بعض الاتفاقات الاقليمية (كالسوق المشتركة) بينما في مستوى ادنى نرى ان المطلوب هو مجتمع اكثر خصوصية لغويا ودينيا وذلك للتغلب على اثر الانفجار الداخلي ــ الخارجي الذي تتسم به المراكز السكانية المتقدمة الكبرى العالمية (المتروبول) .

ان هذا التطور ليس عودة الى النموذج الصوفي الخاص بالقرن التاسع عشر للقومية ولا لعواطفها ، بالرغم من وجود عديد من اوجه الشبه الظاهري . انه يتم اساسا ضمن محتوى يعترف بالضرورة الحالية للتعاون الاوسع وعلى مستوى اعلى من القومية . انه تطور يقبل كأحد مثله الاندماج الوظيفي للاقاليم حتى القارات بأكملها . انه انعكاس للرغبة في شعور بالشخصية اكثر تحديدا في خضم عالم غير خصوصي بشكل متزايد ، ودور متغير لبعض البنى القائمة للدول . يمكن ان ينطبق هذا حتى على الديغولية التي غالبا ما وصفت بانها ارتداد الى قومية القرن

التاسع عشر . والطموح الاكبر مع ذلك للديغولية كان بناء اوروبا التي يمكن أن تكون «اوروبية» ولا تسيطر عليها اي هيمنة خارجية ، على ان تمارس فرنسا القيادة السياسية فيها بالتأكيد .

ان القومية «الجديدة» لها عناصر عديدة من القومية القديمة خصوصا في الامم الجديدة . فهناك ، ما تزال القومية راديكالية ، وقوى التغيير تعبىء بشكل خلاق مشاعر الجماعة ولكنها في الوقت نفسه تستثير النزاعات الاتنية والتمايزية ✱ . وانه لصحيح مع ذلك بشكل عام ، كما اشار الى ذلك احد الباحثين ، ان «نظرة واهداف المجتمع قد تغيرت . فهناك اليوم مفهوم جديد عن الانسان وعالمه يتحدى مفاهيم عصر النهضة التي وجهت سلوك الانسان في القرون الخمسة الماضية» . ان الدولة ــ الامة كوحدة اساسية في حياة الانسان المنظمة قد كفت عن ان تكون قوة التغيير الخلاقة الرئيسية : «فالبنوك الدولية والشركات المتعددة الجنسيات تنشط وتخطط بمعايير اكثر تقدما بكثير من المفاهيم السياسية للدولة ــ الامة»(٤٤). ولكن كلما سلمت الدولة ــ الامة في سيادتها تدريجيا ازدادت الاهمية النفسية لقومية الجماعة ، واصبحت محاولة الوصول الى توازن بين ما يترتب على الدولية الجديدة والحاجة الى تجمع قومي حميم وخاص مصدر الاحتكاكات والنزاعات .

ان تحقيق هذا التوازن يصبح اكثر صعوبة شيئا فشيئا بالتجديدات العلمية والتقنية في مجال السلاح . وانه لامر مثير أن نتذكر انه في ١٨٧٨ علق فريدريك انجلز على الحرب الفرنسية البروسية قائلا «ان الاسلحة التي استخدمت قد وصلت الى درجة من الدقة لدرجة انه لم يعد من الممكن تحقيق اي تقدم اكثر ذي تأثير ثوري» (٤٥) . ولم يقتصر التغيير على تطوير الاسلحة الجديدة فحسب وانما تغيرت ايضا بعض المفاهيم الاساسية في الجغرافية والاستراتيجية ، فالسيطرة على الفضاء والطقس قد حلا محل السويس وجبل طارق كعناصر اساسية في

✱ «... بالرغم من كل جوانب الشبه مع القومية الاوروبية ، نرى القومية الجديدة في جنوب آسيا هي شيء مختلف تماما . انها تختلف عنها في أوجه اكثر بكثير ولاسباب اكثر حيوية مما يبدو من السمات المعدودة . ان السبب الجوهري هو ان العملية التاريخية التي اقتضت قرونا في اوروبا تتداخل هنا في عدة عقود وان نظام الاحداث قد اختل ... ان القومية هناك مطلوبة لتقدم دفعة التغيير ، لكل التغييرات الضرورية والمتزامنة . ان المثقفين المتنورين والقادة السياسيين في الاقليم يرون الضرورة التاريخية للسياسات المحذوفة والمجهضة وما يترتب عليها من مصاعب جمة» (ميردال ص‌ص ٢١١٨ ــ ٢١١٩) .

٤٤ ــ أ. بادبر ، «نهضة القرن العشرين» بحث خاص ، معهد التخطيط والسياسة ، واشنطن، ١٩٦٨ ، ص‌ص ١ ، ٨ .

٤٥ ــ من كتاب فريدريك انجلز **ثورة الهر يوجين دوهرينغ وعلومه** Herr Eugen Duhring's Revolution and Science كما نقلها عنه د.ج. بريnan ، «التسليح» في **نحو عام ٢٠١٨** ، نيويورك ١٩٦٨ ، ص ٢ .

الاستراتيجية .

وبالاضافة الى الصواريخ المحسنة والصواريخ المتعددة الرؤوس والقنابل الاكثر قوة والاكثر دقة ، قد تشمل التطورات المقبلة ايضا سفن فضاء حربية تعمل ذاتيا او تحمل من يشغلها ، وقواعد في أعماق البحار واسلحة كيميائية وبيولوجية واشعة الموت واشكالا اخرى من ادوات الحرب ، حتى الطقس يمكن التلاعب به* . هذه الاسلحة الجديدة إما ان تشجع على الامل في نصر احادي الجانب «مكلف» نسبيا ، او تسمح بأن تتم نزاعات «بالوكالة» يقوم بها الأتباع والموالون تكون حاسمة في نتيجتها السياسية الاستراتيجية وتدور الحرب فيها بعدد قليل من البشر (كما في معركة بريطانيا) او حتى بالانسان الآلي (روبوت) في الفضاء الخارجي (٤٦) . او ببساطة تخلق حالة من اللااستقرار المتبادل التي تجعل انهيار السلم حتما بالرغم من اعتراف الانسان العقلاني بعقم الحرب .

وبالاضافة الى ذلك قد يكون ممكنا ومرغوبا فيه استغلال ثمار الابحاث على العقل الانساني وسلوكه لاغراض سياسية ــ استراتيجية. ولقد كتب غوردون ج. ف. مكدونالد وهو فيزيائي جغرافي متخصص في مشاكل الحرب ، انه اذا ما استخدمت بدقة شديدة في التوقيت صدمات اليكترونية مقصودة فانها «قد تؤدي الى نمط من الذبذبات ينتج مستوى عاليا نسبيا من الطاقة فوق اقاليم معينة من الارض ... وبهذه الطريقة يمكن للمرء ان يطور نظاما يمكنه ان يعرقل بشكل خطر اداء المخ عند قطاع كبير من السكان في اماكن معينة مختارة وعلى فترات طويلة ... وبغض النظر عن عمق ارباك الفكر لدى البعض باستخدام البيئة للتحكم في السلوك لاغراض قومية ، قد تتطور التكنولوجيا التي تسمح بمثل هذا الاستعمال خلال العقود القليلة المقبلة» (٤٧) .

---

* لاحظ احد المتخصصين ، «انه في سنة ٢٠١٨ ستتيح التكنولوجيا لزعماء الدول الكبيرة اساليب تقنية متنوعة لخوض حرب سرية يتطلب القيام بها مجرد عدد قليل جدا من **قوى الامن** . ان امة ما قد تهاجم منافستها سرا بوسائل بكتريولوجية مضعفة بذلك سكانها بشكل كبير (مع عدد قليل جدا من الوفيات) وذلك قبل الهجوم بقواتها المسلحة العلنية . وهناك اساليب تقنية بديلة لتغيير الطقس يمكن استخدامها لاحداث فترات طويلة من الفيضانات او العواصف ، وبذا تضعف قدرة الامة وترغم على القبول بمطالب منافسها» . (غوردون ج.ف. مكدونالد «الفضاء» في كتاب **نحو العام ٢٠١٨** ص ٣٤) .

٤٦ ــ انظر بربنان ، المصدر السابق ، ص ١٩ . طور هذه الامكانية ، م.و. ثرينك في مقالته «مسيرة الانسان الآلي» في كتابه **الا ان يحل السلام** Unless Peace Comes ميغل كالدر ، وآخرين ، لندن ١٩٦٨ ص‌ص ١٥٥ ــ ١٦٤ .

٤٧ ــ غوردون ج.ف. مكدونالد ، «كيف نحطم البيئة» في كتاب **الا ان يحل السلام** ، ص ١٨٦ .

ان مثل هذه التكنولوجيا ستكون متاحة اولاً وبشكل قاطع في البداية لاكثر البلدان تقدما * . ولكن من المرجح ان بعض دول العالم الثالث في العقود المقبلة ستكون قد خطت عدة خطوات كبرى نحو حيازة ـ او ربمـــا تكون قد حازت ـ اسلحة ذات قدرة تدميرية عالية . حتى ان لم يكونوا قادرين على استخدامها ضد القوى الكبرى بدون القضاء بذلك على انفسهم ، فانهم ربما يكونون قادرين بـل راغبين في استخدامها في «حروب العالم التحتي» فيما بينهم . ان السؤال الذي يبرز عندئذ هو ما اذا كانت القوى الكبرى سترى ان تلك الحروب تشكل خطرا مباشرا على السلم ، وما اذا كان اي رد فعل مشترك منها يمكن تشكيله وفرضه. ان غياب المؤسسات العالمية المقبولة يمكن تعويضه مؤقتا بالترتيبات والاتفاقـــات المؤقتة المصممة لمواجهة تهديدات معينة ، ولكن من المتوقع انه في بعض الحالات لن يكون هناك اجماع كاف يسمح برد فعل مشترك . لذلك تظل الابادة المتبادلـة لبعض الدول الاصغر احتمالا قائما على الاقل .

نحو وعي كوكبي :

ومع ذلك سيكون من الخطأ استنتاج ان التفتت والفوضى هما الواقع السائد في زماننا . ان وعيا انسانيا عالميا قد بدأ في التعبير عن نفسه لاول مرة . ان هذا الوعي هو الامتداد الطبيعي للعملية الطويلة التـي توسع آفاق الانســـــان الشخصية . وفي مجرى الزمن توسع توحد الانسان مع اسرته ثم قريته ثـم قبيلته ثم اقليمه ثم أمته ، وانتشر مؤخرا الى قارته (مثل الحرب العالمية الثانية لم يكن مألوفا كما هو مألوف الان ان يصف طلاب الجامعة والمثقفون انفسهــــم باعتبارهم مجرد اوروبيين او آسيويين) .

فخلال القرون الثلاثة الاخيرة كان معنى زوال الارستقراطية الاوروبية المتداخلة القوميات ، وما تلا ذلك من جعل الكنيسة المسيحية كنيسة قومية ، ثم الاشتراكية ثم الشيوعية ، كان معناه ان معظم النشاطات السياسية المهمة في العصر الحديث اتجهت الى ان تكون ضمن وداخل اطارات قومية مغلقة . وهنا نحن نشهد اليوم ثانية ظهور النخب المتداخلة القوميات ، الا انها تتشكل الان من رجال اعمـــال دوليين ، وأكاديميين ، ومهنيين ، وموظفين عموميين . ان الروابط بين هـــذه النخب الجديدة تقطع الحدود القومية ، كما ان منظورها ليس محددا بالتقاليـد

---

* ادى ذلك الى ان يعلق باحث مهتم قائلا «انه سواء ادى الاستخدام المنظم الى للأسلحـــة البيولوجية والكيميائية الى القتل ام الضرر ام اثارة الغثيان ام الشلل ام الهلوسة ام الى افزاع العسكريين او المدنيين ، فان هذا الاستخدام سيحتاج الى الوصول الى قرارات في مشاكل كبرى متعلقة بالقيم والاخلاق» (دونالد ن. ميشيل «بعض التوقعات حول التأثير الاجتماعي للتكنولوجيا»، نص مكتوب موجه الى ندوة جامعة كولومبيا حول التكنولوجيا والتغير الاجتماعي ص ٦) .

القومية ، ومصالحها وظيفية اكثر منها قومية . هذه التجمعات العالمية تكتسب قوة يوما بعد يوم ، تماما كما في القرون الوسطى . ومن المرجح انه قبل مضي وقت طويل ستكون النخب الاجتماعية في معظم البلدان الاكثر تقدما ذات روح ونظرة دولية وعالمية عالية . ان اقامة شبكة معلومات عالمية ، تسهل التفاعل الثقافي المستمر وتجميع المعرفة ، ستؤدي الى مزيد من تقوية الاتجاه الحالي نحو تشكيل نخب مهنية دولية ونحو ظهور لغة علمية مشتركة (وهي في الواقع المعادل الوظيفي للغة اللاتينية) . وقد يؤدي هذا الى خلق فجوة خطرة بينهم وبين الجماهير النشطة سياسيا والتي قد تقف «محليتهم» التي تستغل من جانب اكثر الزعماء السياسيين قومية ، تقف ضد كوسموبوليتية النخبة .

ان النخبة الثقافية تميل بشكل متزايد الى التفكير بالمشاكل العالمية . واحد الاوجه الدالة على هذه العملية هو الطريقة التي تعرف بها المشاكل المعاصرة : الحاجة الى التغلب على التخلف التقني ، القضاء على الفقر ، التوسع في التعاون الدولي في مجالات التعليم والصحة ، منع ازدياد السكان ، تطوير جهاز فعال للمحافظة على السلم * . هذه المواضيع هي مواضيع عالمية كلها . ومنذ ثلاثين عاما فقط لم تكن في واجهة الاهتمامات العامة التي كانت متركزة في ذلك الوقت على نزاعات معينة اكثر اقليمية وقومية او نزاعات حول الاراضي .

ان الثورة التكنترونية تخلق ظروفا تجعل من الممكن بشكل متزايد الاستجابة العالمية الى هذه الاحتياجات ولمعاناة الانسان بشكل عام . ومن المؤكد ان اطارا جنينيا من المؤسسات العالمية الاجتماعية والاقتصادية قد تشكل بالفعل ** . ان توافر وسائل التعاون عالميا يقوي من شعور الالتزام بالعمل . ان

---

* «نحن نكتشف الحاجة الى التنسيق على مستوى العالم ولان نتطلع الى الامام بحيث يمكن ان تتجمع القطع معا بشكل اكثر احكاما . ولقد ادى ذلك بنا الى بداية التخطيط العالمي . ان F.A.O. رائدة في هذا المجال فمخططها العالمي هو الاول في مثل هذه المحاولات وفي عام ١٩٦٩ سيتم اعداد نموذج اولي له . كما تعمل منظمة العمل الدولية I.L.O. بجد على خطة تشغيل عالمية » .

«ان مركز الامم المتحدة لتطوير التخطيط والمشاريع والسياسات يعد لما يمكن ان يسمى بالفعل الاطار العام لخطة عامة تغطي كل هذه النشاطات . هذا هو جزء من المهمة الملقاة عليه بقرارات من الجمعية العامة طلبت من الامين العام بكلمات واضحة ان يعد جهود التنمية المستقبلية التي هي تحسين لعقد التنمية الحالي» . (جان تنبرغن، المخرج من التيه ، مجلة سيرس (مجلة فاو) المجلد الاول عدد ٣ ، مايو - ايار يونيو - حزيران ١٩٦٨ ، ص ٢٠) .

** سنذكر قليلا منها : منظمة الصحة العالمية ، منظمة التغذية والزراعة العالمية ، منظمة العمل العالمية ، منظمة التعليم والثقافة العالمية ، البنك العالمي ، منظمة ارصاد جوية عالمية ، وكالة طاقة نووية دولية ، منظمة طيران مدني دولية ، وكالة دولية للاستعمالات السلمية للفضاء الخارجي، وكالة لجس قاع المحيط ، الخ .

الضمير يمكن اسكاته بسهولة بالشعور بالعجز . والضمير القلق هو عادة ذلك الضمير الذي يعرف ان بالامكان التصرف بشكل مختلف ، ان الشعور بالقرب ، ومباشرة المعاناة ، والقدرة التدميرية العالية للاسلحة الحديثة كلها تساعد على ظهور نظرة عامة تصور الانسانية تجمعا واحدا .

ومن الدلائل المشيرة في هذا المجال ان المقاييس التي يقيس بها الراي العام التنافس الدولي تتغير في اتجاه بنّاء . ففي الماضي القريب ، حتى في الحاضر، كان التوسع في الاراضي ، والسكان ، والمزاعم القومية الغامضة حول التفوق الحضاري والايديولوجي ، والقوة العسكرية بشكل عام ، والنصر في النزاعات المباشرة بشكل خاص هو وحدة القياس التي يقاس بها الوضع والنفوذ . كل ذلك اخذ يخلي مكانه تدريجيا للمنافسة حول ارقام الناتج القومي العام ، ومعدل الدخل بالنسبة الى الفرد ، وبيانات الاستهلاك ، وفرص التعليم ، والانجازات العلمية الخلاقة ، والبحث والتطوير ومستويات الصحة والتغذية حتى الارقام القياسية الاولمبية التي تحققها أمة معينة ، ناهيك عن سباق الفضاء بين القوتين الاعظمين. وبالنسبة الى اي انسان كان يعيش في سنة ١٩١٤ لن يكون التنافس الدولي الحالي في انتاج جداول احصائية اكثر اقناعا في تعريف مقاييس جديدة لقياس الاوضاع القومية ، مفهوما على الاطلاق ، ففي ذلك الوقت كانت للجغرافية السياسية القومية قوة جذب مباشرة أكبر .

اما اليوم فان توجها مختلفا اخذ يسود شيئا فشيئا . فالمشاكل الاجتماعية ينظر اليها كأنها منتجات جانبية للتعقيد والجهل اكثر من اعتبارها من مضاعفات الشرور المتعمدة . والحلول لا يبحث عنها بتبسيطات عاطفية ولكن باستعمال المعرفة الانسانية الاجتماعية والعلمية المتراكمة . وشيئا فشيئا يسود الشعور بأن تنوع التطور العلمي والنفس الانسانية لا يخضعان الى الحلول العقائدية الموضوعة سلفا . وبالاضافة الى ذلك يسود الشعور ايضا بأن المضاعفات غير المتوقعة التي ادت اليها الاكتشافات العلمية وبوجه خاص في البلاد الاكثر تقدما قد أدت الى ادراك عام ، ان المواضيع الاساسية التي تواجه الانسان هي ذات اهمية مشتركة لاستمرار الحياة الانسانية بغض النظر عن التنوع الداخلي الدولي .

ويتراجع الاهتمام بالايديولوجيا امام الانشغال بالايكولوجيا . وتمكن مشاهدة بدايات ذلك في الاهتمام العام الذي لم يسبق له مثيل بأمور كتلوث الهواء والماء ، والمجاعات ، وازدياد السكان ، والاشعاع ، والسيطرة على الامراض والدواء والطقس ، وفي التوجهات المتزايدة غير القومية لاكتشاف الفضاء او قاع المحيط . ولقد تشكل بالفعل وعي عام واسع الانتشار بأن التخطيط الوظيفي هو امر مرغوب فيه، وانه الطريقة الوحيدة لمواجهة التهديدات الايكولوجية

المتنوعة (٤٨) . وبالاضافة الى ذلك يبرر التقدم المستمر في العقول الاليكترونية والاتصالات التوقع بأن التكنولوجيا الحديثة ستجعل مثل هذا التخطيط ميسورا والتحليل الطيفي المتعدد من الاقمار الصناعية (وهو نتاج جانبي لسباق الفضاء) يعطي ايضا أملا بتخطيط اكثر فعالية فيما يتعلق بالمصادر الطبيعية في الارض .

ومع ذلك لا يزال الوعي العالمي في بداية الطريق المؤدي الى ان يصبح قوة ذات تأثير . فما يزال ينقصه التبلور والتماسك والبؤرة المركزية . فقطاع كبير من الانسانية — الاغلبية بالتأكيد — لم تشارك بعد في هذا الوعي ولا هي مستعدة لدعمه . وما يزال العلم والتكنولوجيا يستخدمان في دعم المزاعم الايديولوجية وتقوية الطموحات القومية ومكافأة المصالح القومية الضيقة . فمعظم الدول تنفق على السلاح اكثر مما تنفق على الخدمات الاجتماعية ، واعتمادات المعونة الخارجية للدولتين الاعظمين لا تتناسب بشكل كبير مع دورهما العالمي المعترف به ✶ ومن المؤكد ان العالم القديم المقسم الى حجر مغلقة لديه تماسك داخلي اكبر ويتمتع بانسجام اكبر من الواقع العالمي المتطاير اليوم . لقد قدمت الثقافات المستقرة والاديان التقليدية العميقة الجذور والشخصيات القومية المتمايزة ، اطارا مستقرا ومراسي ثابتة ، وكانت المسافة والزمن هما العوازل ضد الاحتكاك الزائد عن الحد بين تلك الحجر المغلقة . وهذا الاطار آخذ اليوم في التحلل والعوازل آخذة في الذوبان . وما يزال على الوحدة العالمية الجديدة ان تجد بنيتها ووعيها وانسجامها الخاص .

---

٤٨ — فيكتور سي. فركيس ، **الرجل التكنولوجي : الحقيقة والخيال** Technological Man: The Myth and the Reality نيويورك، ١٩٦٩ ، ص١٩٩ . وميشال هارينغتون، **القوة الامريكية في القرن العشرين** American Power in the Twentieth Century ، نيويورك ، ١٩٧٦ ، ص‌ص ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٨ . وكذلك النداء البليغ الذي اصدره اورليو بيتشي من شركة اوليفتي : «اعتبارات وحاجات التنمية على نطاق العالم» والصادر في اكاديمغورودوك ، الاتحاد السوفياتي ، ١٢—٩—١٩٦٧ (مخطوطة).

✶ قدر انه في عام ١٩٦٦ كان الانفاق العالمي على السلاح يزيد بمقدار ٤٠ بالمئة عما خصصه العالم للتعليم وأكثر من ثلاث مرات عن ميزانية العالم للصحة العامة . وفي نفس العام كان مجمل المعونة الاجنبية التي تقدمها الولايات المتحدة حوالي ٤ بلايين دولار ، والاتحاد السوفياتي حوالي ٣٣٠مليون دولار (الارقام من «مصروفات العالم العسكرية ، ١٩٦٦ — ١٩٦٧» الوكالة الامريكية للاشراف على الاسلحة ونزعها ، واشنطن ١٩٦٨ ، وخاصة ص‌ص ٩ — ١٢) .

الجزء الثاني

عصر الايمان المتطاير

يرتبط عصر الايمان المتطاير بشكل وثيق بأثر الثـــورة التكنترونية علـــى الايديولوجيات ووجهات النظر القائمة عن الحياة . فما يفكر فيه الانسان يتصل اتصالا وثيقا بما يمارسه . والعلاقة بين الاثنين ليست سببية ولكنها علاقة تفاعل متداخل : فالممارسة تؤثر في الفكر ، والفكر يتحكم في تفسير الممارسة . والنمط السائد هذه الايام يبدو اكثر فأكثر شديد الفردية وبدون بنية وذا آفاق متغيرة . ان المعتقدات المؤسسية التي نتجت عن اندماج الافكار بالمؤسسات لم تعد تبـــدو للكثيرين حيوية ومتسقة كما كانت ، بينما يصطدم الان الشك الذي ساهم بشكل كبير في نسف المعتقدات المؤسسية ، بالتأكيد الجديد على الانفعال والانغماس في الحياة . والنتيجة بالنسبة الى الكثيرين هي مرحلة جديدة من البدع وسرعـــة الانتقال بين المعتقدات ، بينما العواطف تشكل بالنسبة الى البعـــض الاسمنت الموحد وهو الدور الذي كانت تقوم به المؤسسات من قبـــل ، بينما الشعارات الثورية التي كانت سائدة في الماضي والآخذة في الزوال تزود الانسان بالطموحات الضرورية لمواجهة مستقبل مختلف تماما .

ومن الممكن تمييز عدة مراحل واسعة في عملية تشكيل الوعي الانساني الجماعي الذي يحكم تجاوبنا مع الواقع ويزودنا باطار لعملية البناء الفكري لهذا الواقع . لقد كانت الاديان الكبرى في التاريخ المكتوب حيوية لتشكيل منظور يربط بين اهتمام الانسان بحياته الداخلية وإله كلي ، هو مصدر لنموذج السلوك الذي يربـــط الجميع . كان الواقع هبة الله وكان الخط الفاصل بين المحدد واللانهائـــي

غير واضح .

لقد شملت المرحلة الايديولوجية التي صاحبت التصنيع وانتشار القـــراءة والكتابة ، ميلا عاليا نحو التنشيط الاجتماعي واكدت علـــى الاهداف المباشرة الفورية ، كما تحددت إما بمقاييس الامة او بمقاييس مصلحة جماعية اخرى ، على ان الظروف الخارجية للانسان هي البؤرة الاساسية . وقد احتاج التنشيط الى تعريف اكثر وضوحا وصراحة لواقعنا وقصد بالاطر الفكرية المنتظمة حتى الجامدة منها ان تلبي هذه الحاجة .

اما في ايامنا فان الايديولوجيات المستقرة تتعرض للهجمات بسبب طبيعتها المؤسسية التي كانت ذات يوم مفيدة في تعبئة الجماهير غير المتعلمـــة نسبيا ، واصبحت اليوم عائقا امام التوافق الفكري حيث يزداد الشعور بأن اهتمامهـــا بالنوعية الخارجية للحياة يتجاهل البعد الداخلي الاكثر روحية . ان الالتـــزام بالنشاط الفردي القائم على الالتزام بالقيم والذي يقويه مستوى من التعليم العام اعلى بكثير من ذي قبل ، اصبح بديلا للنشاطية المنظمة عاليا ، بالرغم من انــه – اي الالتزام بالنشاط الفردي – يتجنب اتخاذ موقف سلبي لا مبال حيـــال الواقع الخارجي وهو ما كان يتسم به عصر ما قبل الايديولوجيات .

وهكذا تخلي الايديولوجيات الدافعة مكانها للافكار الملحة المسيطرة ولكن بدون ذلك الايمان بالغيبيات الذي ميز الفترات التاريخية الاخرى، ومع ذلك فلا يزال هناك شعور بالحاجة الى توليفة يمكنها تعريف معنى زماننا وقوة دفعه التاريخية . والفكرة العاطفية المسيطرة في هذا البحث هـــي المساواة ، المساواة بين الناس داخل المؤسسات ، وداخل المجتمعات وبين الاجناس وبين الامم . ان المساواة تحفز المتمردين في الجامعات – في الغرب وفي الشرق – والامم الجديدة فـي صراعها ضد الامم الاغنى والاكثر استقرارا . ان هذا التركيز ، وكذلك الخوف من الاهمال الشخصي يثيران الاهتمام لدى الكثيرين بأن العصر الذي بعد الصناعـي الجديد سيحتاج الى تمييز اكبر في المهارات ، وفي التنافس ، وفي الاعـــداد الفكري ، موسعا بذلك التفاوت داخل الظروف الانسانية في وقت يتزايد فيـــه التفاعل العالمي بدرجة لم يسبق لها مثيل .

البحث عن رؤية عالمية

«بصمت جاء الانسان الى العالم» (١) . ولكن برغم ان الغموض يلف مجـــيء

---

١ – بيار تيلار دي شردان ، ظاهرة الانسان the phemomenon of Man ، نيويـــورك ١٩٦١ ، ص ١٨٣ .

الانسان ــ بمعنى اننا لانزال نعرف القليل عن البدايات العملية للوجود الانساني ــ قدم الانسان منذ اقدم العصور التاريخية المعروفة الدليل على رغبته القومية في التعرف على نفسه وعلى بيئته . وبغض النظر عن درجة بدائيته وخشونته حاول الانسان دائما ، ان يبلور مبدأ تنظيميا يمكنه من خلق النظام من الفوضى ، يربط بينه وبين الكون المحيط ويساعده على تحديد موقعه فيه (٢) .

وبالرغم من اختفاء حضارات كاملة في الازمنة الاولى (٣) ، فقد اشتمل التطور الانساني او النمو الاجتماعي على توسع في ادراك الانسان لنفسه ولزملائه شخصية انسانية تجمعها سمات مشتركة معينة وكذلك اشتمل على جهد فكري منتظم متزايد لتحديد وتنظيم واقعه الخارجي بشكل ذي معنى . وهكذا ظل يعمل باستمرار ما دعاه تيلار دي شردان «ان ازدياد الوعي المستمر ... هو تيار تأسس به تقليد التأمل المستمر القابل للنقل والنمو» (٤) .

ومن المؤكد انه يمكن القول بمقياس شمولية الوجود الانساني ان هذا «التيار» هو تيار قصير وذلك كما يقول نقاد نظرية التقدم التاريخي الان . الا ان التاريخ المكتوب يقدم بالفعل دليلا قويا على ــ انه بالرغم من توقف هذا التيار وعدم انتظامه ينمو على اي حال ــ ان هناك نموا في الوعي الانساني بمصير الانسانية المشترك وبالقيم النموذجية المشتركة ورغبات عالمية مشتركة محددة * . حتى عندما كانت تتنافس الاديان والايديولوجيات كانت تفعل ذلك باستمرار على اساس

---

٢ ــ انظر كلود ليفي ــ شتراوس ، **العقل المتوحش** the Savage Mind شيكاغو ، ١٩٦٦ .

٣ ــ انظر في هذا الخصوص ، جاك سوستيل **الشموس الاربعة** ، Les quatres Soleils ، باريس ، ١٩٦٧ . حيث يهاجم سوستيل بعبارات حية النظرية التقدمية عن التاريخ كما عبر عنها ماركس ، وسبنغلر وتوينبي ، وتيلار دي شردان . ولمزيد من التحليل انظر ميشال فوكو Folie et déraison باريس ١٩٦١ . الطبعة الامريكية **الجنون والمدنية** Madness and Civilization نيويورك ١٩٦٥ .

٤ ــ تيلار دي شردان ص‌ص ١٧٨ ــ ١٧٩ .

* نحن نتكلم هنا عن تاريخنا **نحن** ــ عن مدنيتنا التاريخية . ان كلود ليفي ــ شتراوس على حق تماما في قوله «... ان الناس ينسون ان كل مجتمع من عشرات او مئات الالاف من المجتمعات التي وجدت في هذا العالم او التي تتابعت منذ ظهور الانسان ، ادعى انه يحتوي على جوهر الكرامة ومعنى المجتمع الانساني كله ، وبالرغم من ان هذا المجتمع قد يكون مجرد جماعة بدوية او قبيلة مفقودة في اعماق الغابات يستقر في نظر نفسه على يقين معنوي حول هذا الامر ، يشبه ويمكن مقارنته بما نقوله نحن عن انفسنا . ومع ذلك فسواء أكان في حالتهم ام حالتنا فان قدرا كبيرا من التمحور حول الذات والبدائية ضروري للايمان بأن الانسان قد وجد الامان في شكل فريد من وجوده التاريخي او الجغرافي وذلك عندما تستقر الحقيقة من الانسان في نظام يجمع اختلافات البشر وسماتهم المشتركة في نفس الوقت» (**العقل المتوحش** ، شيكاغو ، ١٩٦٦ ، ص ٢٤٩) .

مبادىء معينة ومن اجل هذه المبادىء ايضا ، وهي التي تبدو عند النظر اليها من منظور تاريخي مجرد اختلافات لفظية وغير جوهرية . ولا يعني هذا انكار ان الممارسة كثيرا ما اختلفت بشكل واسع ، وانما من الملحوظ ان النزاعات قد شنت على اساس مزاعم تنافسية عن التفوق في ممارسة تطبيق القيم العالمية مثل الديمقراطية ، والخدمات الاجتماعية ، والكرامة الفردية ، والحرية الشخصية .

الاديان العالمية :

ان الانطلاقة الحيوية في تطور وعي الانسان بنفسه على مستوى عام جاءت مع الاديان الكبرى ـ وهي التوليفة العالمية الاولى التي وسعت رؤية الانسان افقيا وراسيا في الوقت نفسه : راسيا لكي يعرف بمقاييس موسعة ومعقدة علاقة الانسان بإله لم يكن إله مجموعة صغيرة وحدها ولكن **اله الكل** ، وافقيا لكي يفصل سلسلة من الامور المتباينة التي حكمت التزامات الانسان للانسان على اساس ان الجميع يتقاسمون الشرارة الالهية . وهكذا برزت العالمية حالة من حالات العقل حتى عندما كان الانسان لا يزال محليا ومعزولا في حجرات اجتماعية ثقافية محكمة .

ومن ثم ، يمثل ميلاد الاديان العالمية ظهور الانسانية **بصفتها انسانية** . ان التأكيد على مساواة الانسان امام الله روحا وضميرا ونفسا ارسى الاساس للاهمية المتوارثة بعد ذلك للكائن الانساني وللتأكيد الذي جاء بعد فترة طويلة على المساواة بين الناس في البعدين السياسي والاجتماعي . بهذا المعنى تكون المسيحية التي نشرت على نطاق عالمي التقاليد اليونانية واليهودية المحدودة ، قوة ثورية خاصة ، وقد نظر اليها باعتبارها كذلك من السلطات الموجودة بالرغم من التمييز الذي تم بين المساواة امام الله وبين طاعة القيصر على اساس شروط القيصر . فلئن جاز القول بأن التاريخ الانساني يشمل الصراع والتطور في اتجاه التحرير المستمر للانسان ،فإن تحقيق المساواة امام قوى الغيب (ما فوق الطبيعة) كان هو الخطوة الاولى الكبرى على هذا الطريق .

ولكن الانسان الاول لم يكن ليستطيع ان يسيطر لا على نفسه ولا على بيئته ، ولا ان يفهمهما . كلاهما كان سرا في جوهره ، عطاء مقبول بغض النظر عما قد تكون عليه آلام الحياة . وبالتالي اصبح المستقبل البعيد الموضوع الذي يستأثر بالاهتمام الكبير اكثر من الحاضر المباشر . ان عدم القدرة على المواجهة الفعالة للامراض والطاعون ووفيات الاطفال وقصر العمر والكوارث الطبيعية كالفيضانات والبوار ، دفعت الانسان الى اللجوء الى تعريفات كلية لواقعه . وقد ادى هذا بدوره الى تبرير جزئي على الاقل للرأي القائل بأن جهد الانسان عقيم والى ضرورة القبول بقدرية ما يحصل . وباللجوء الى مستقبل مستقل بعيد سماوي اراح الانسان نفسه من الالتزام بالصراع بشدة مع الحاضر في ظل ظروف لم يكن معدا لها لا فكريا ولا عمليا .

حتى النزعة الى «الارادة الحرة» ــ وهي احد المكونات المركزيــــة لاكثر المنشطين في الديانات الكبرى كالمسيحية ــ حتى تلك النزعة قد اشتملت علــى فعل ضمير داخلي ضروري لحالة الرضا بالنعمة بدلا من ان يكون نقطة انطلاق لفعل خارجي ذي دوافع معنوية . لم يكن هناك اي تشديد على النضال من اجل تحسين الظروف الخارجية ، لان الافتراض الضمني كان انه لا يمكن تحسين هذه الظروف جوهريا . كان التركيز على الانسان الداخلي ، بتحويل انتباهه الـــى المستقبل العالمي والسماوي ، وان الانسان قادر على السيطرة على حاضره باهماله فحسب . وكان الفعل الاجتماعي القليل جدا يتم بأعلى درجة من الالتزام بالغيب.

ولكي يمكن للمعتقدات الدينية ان تلبي الحاجة المركزية للاتســـان في ذلك الوقت وهي اساسا ان تزوده بشاطىء أمان ثابت في عالم لا يستطيع ان يفهمه ، ولكي يمكن لهذه المعتقدات ان تحقق سيطرة حازمة على نفس الانسان ، تبلورت في افكار جامدة (دوغما) ونظمت في مؤسسات * . وكلما ازداد طلب الافراد للدين ارتفعت درجة المأسسة ** (لقد شجع ذلك عددا من الباحثين على محاولة ايجاد التشابه بين الاسلام والمسيحية من جانب والشيوعية من جانب آخر) (٥) . ومع المأسسة جاء تنشيط اكثر (الحملات الصليبية والحمـــلات المقدسة في الاسلام) وتشغيل للعضلات من جانب المنظمات الدينية في البيئة المحيطة . وتم التأكيد على القوة ، لكي توسع من السيطرة على النفس لا لكي تحقق تغيرا اجتماعيا . وبذا جمعت مأسسة العقائد بين وظيفتين : انها كانت آلية الدفاع المتعصب عن النفس

---

* لست أقترح ــ ولا اظن انني مؤهل لذلك ــ بان اشترك في الجدل القائم بين الماركسيين والفرويديين واليوغيين والمتعلق بمشكلة التطور الديني ودوره وحركته الذاتية . ان اهتمامي هنا منصب على ظهور اطار مؤسسي ومفهومي لتعريف علاقة الانسان بواقعه .

** يعد اصرار الكنيسة الكاثوليكية على التبتل (عدم الزواج) مثلا صارخا على ذلك . وقد لاحظ احد الباحثين ان «التبتل يؤمن لها ولاء مطلقا من المنتمين اليها وهو ما لم يكن متاحا للمؤسســات الدينية الحديثة الاخرى . بل لقد ساهم ذلك في مقدرتها المثيرة في مقاومة السلطـــة العلمانية . ومن المجدي ملاحظة ان الكنائس التي سمحت بزواج القساوسة سواء كانت لوثرية او انجيلية او من الروم الارثوذكس (والاخيرة سمحت بالزواج للقساوسة من المراتب الدنيا فقط) لــم تستطع ان تواجه السلطة العلمانية بمثل ما استطاعته الكنيسة الكاثوليكية. لقد اصبحت الكنائس البروتستانتية والاورثوذكسية خدما وفروعا للسلطة العلمانية على نحو نموذجي . نادرا ما استطاعت هذه الكنائس مقاومة السلطة . واحد اسباب ذلك كان بالدقة الانغماس العميق لرجال الكهنوت فيها في شبكـــة الحياة الاجتماعية المدنية» (لويس ا. كوثر ، منظمات شرهة ، **المجلة الاوروبية لعلم الاجتماع** مجلد٧ ، ١٩٦٧ ، ص ٢٠٦) .

٥ ــ انظر على سبيل المثال ، جول مونـــيرو ، **علم الاجتماع وعلم النفس في الشيوعية** ، Sociology and Psycho- logy of Communism بوسطن ١٩٦٠ .

ضد المحيط غير المؤمن ، وانها كانت اداة التبشير المستمر الذي كان مخططا ليس فقط لكسب مؤمنين جدد ، ولكن ايضا للتغلب على المقاومة الكامنة بين الجماهير التي كانت لا مبالية بشكل كبير للاحتياجات الروحية (٦) .

وبالرغم من ان المسيحية كانت اكبر منشط بين الاديان الكبرى وارست بذلك الاساس للحركات العلمانية الثورية التي تلتها والتي سادت التاريخ الغربي ، مالت عملية المأسسة — ومن ثم بروز جانب الديانة المنظمة كأنه مربوط بوضع راهن — الى إسكات صوت الرسالة الراديكالية للمفهوم المسيحي للتاريخ باعتباره حركة نحو الانعتاق « على الارض كما في السماء » . وهكذا تحولت الكنائس المسيحية تدريجيا بالممارسة الى قبول التقسيم الاجتماعي بل والى الاستفادة منه (كما في امريكا اللاتينية) ، بل ان بعض الاتجاهات اللوثرية قد وصلت الى حد تحريم عدم المساواة العرقية بمفاهيم جامدة لانها تتعارض الى اقصى حد مع ثورة المساواة الاولى التي مثلتها العلاقة المسيحية الجديدة بين الله والانسان .

ولقد كانت الاديان الكبرى الاخرى اكثر سلبية في الممارسة وفي النظرية . فالبوذية لا تحتوي على تشريعات تأمر بالتغيير الاجتماعي وانما هي تقدم الانعتاق من الواقع . ولذا وعلى عكس المسيحية لم تؤد النرفانا دور نقطة الانطلاق الى تنشيط دنيوي . وبالمثل الاسلام وفكرة القدرية المسيطرة فيه قد وقفت ضد وجود عنصر التوتر بين «السلم الابدي» و«الجنة على الارض» على الاقل ، وهو ما يوجد بشكل قوي في المسيحية وما شجع نشاطها المكبوت (٧) .

الشخصية القومية :

مع نمو قدرة الانسان في الغرب على السيطرة على محيطه ، برزت العقلانية المصحوبة بدرجة اكبر من ادراك التعقيد الاجتماعي ، وكذلك بانهيار الهيكل القائم للولاء الديني ، وتحدت في ذلك الديانة المأسسة . لقد كان الولاء الديني يقوم على ضيق الافق الانساني وعالميته في نفس الوقت : الضيق ينبع من جهل وأمية مطبقة ورؤية محدودة بالمحيط المباشر بسبب محدودية الاتصالات ، وعالمية جاءت من القبول بفكرة ان مصير الانسان هو في جوهره بين يدي الله وان الحاضر المحدود ليس الا عتبة نحو مستقبل لا محدود . ولقد تحدت العلمانية في ظهورها كلا

---

٦ — في هذا المجال يقدم جاك توسير بيانات مثيرة في le Sentiment religieus en Flandre à La Fin du Moyen âge ، باريس ١٩٦٣ .

٧ — «ان الكاتب لا يعرف واقعة معينة في جنوب آسيا اليوم حيث حرك الدين عملية تغيير اجتماعية» (ميردال ، ص ١٠٣) . انظر ايضا تيلار دي شردان ص.ص ٢٠٩ — ٢١١ ، وكذلك حول مناقشة سلبية الاديان الشرقية ، وكافالام م. بانيكار ، **المجتمع الهندوسي على مفترق طرق** Hindu Society at Cross Roads ، بومباي ١٩٥٥ .

البعدين ، وهي بفعلها هذا احتاجت من اجل التصوير الخارجي لشخصية الانسان الى بؤرة ولاء وسيطة ، شيء ما بين المباشر واللانهائي . وكانت الدولة ــ الامة والقومية هي الاجابات على ذلك .

ان مذهب السيادة خلق الاساس المؤسسي لتحدي السلطة العلمانية للديانة القائمة ، وهذا التحدي بدوره مهد الطريق الى ظهور المفهوم المجرد للدولة ــ الامة. السيادة المتمثلة في الشعب جذريا هيكل السلطة في الغرب * ، بدلا من السيادة المتمثلة في الملك ، كانت هي خلاصة العملية التي غيرت في القرنين السابقين على الثورتين الفرنسية والامريكية ، ومهدت الارض ، لسيادة المفهوم الجديد عن الواقع . لقد اصبحت الدولة ــ الامة في نفس الوقت تجسيدا للالتزامات الشخصية ونقطة الانطلاق لتحليل الواقع . وكان هذا التطور مميزا لبداية مرحلة جديدة في الوعي السياسي للانسان .

لم تسع القومية لتوجيه الفرد نحو اللانهاية ، ولكن لتنشيط الجماهير عموما في سبيل اهداف قريبة مباشرة . وانه لامر متناقض ان هذه الاهداف الملموسة قد استخلصت من الهدف المقدس الجديد الذي لا يزال غير واضح وغير ملموس ماديا الا وهو ، الامة . لقد اصبحت الامة مصدر التأثر الجمالي والفني وكانت هي العلاقة العاطفية العالية التي رمزت اليها الاناشيد (المارسيلياز)، والاعلام، والابطال، وهي التي نشطت الشعب . واتخذت الاهداف الملموسة شكل الاهتمام العميق بالحدود ، وبالاراضي المقتطعة ، و«بالاخوة» التي يجب استعادتها من الاسر الاجنبي ، وبشكل اكثر عمومية بقوة ومجد الدولة بصفتها التعبير الرسمي عن الامة . لقد اصبحت الدولة بذلك هي الشكل المؤسسي للعقيدة الجديدة السائدة، مع الزعم بالانفراد بالتزام الانسان النشط بها هذا الانسان الذي اصبح يوصف الان اولا وقبل كل شيء ، بأنه : المواطن .

---

* كان معنى المذهب الجديد للسيادة ، سواء أكانت في شكلها الديني ام العلماني ، عند فيلمر او عند هوبز هو الطاقة المطلقة من الرعية للملك . ولقد ساعد كلا المذهبين في التحديث السياسي بأن شرعا مركزة السلطة وتركيزها وحطما النظام السياسي التعددي للقرون الوسطى . كان هذان المذهبان هما نظريات القرن السابع عشر التي تقابل نظريات اليوم الخاصة بدور الحزب القيادي (تفوق الحزب) وبالسيادة القومية ، وهي النظريات التي تستخدم اليوم لتحطيم سلطة الهيئات التقليدية المحلية والقبلية والدينية . في القرن السابع عشر كانت المشاركة الجماهيرية في السياسة ما تزال في باطن المستقبل ، لذا كان معنى ترتيب السلطة هو تركيز القوة والسلطة في ملكية مطلقة . اما في القرن العشرين فان توسيع المشاركة وترتيب السلطة يحدثان في نفس الوقت. لذا يجب تركيز السلطة إما في حزب سياسي او في شخصية قيادية شعبية مسيطرة ، فكلاهما قادر على تحريك الجماهير وكذلك على تحدي المصادر التقليدية للسلطة . ولكن في القرن السابع عشر كانت الملكية المطلقة هي المعادل الوظيفي الواحد في القرن العشرين» (هنتنغتون ، ص ١٠٢) .

ان تسمية «الانسان المواطن» ترمز الى علامة طريق اخرى في تطور الانسان بصفته كائنا اجتماعيا . وقد ادى ذلك الى تقوية فكرة المساواة امام الله بفكرة المساواة امام القانون ، وتدعمت المساواة الروحية بالمساواة القانونية . ومن الجدير بالملاحظة ان المساواة القانونية قد نصت عليها الثورة الامريكية التي ارفقت تأكيدها على المساواة امام القانون بارتباط قوي بالقيم الدينية — ومن المؤكد انها استمدت الاولى من الثانية ، وكذلك نصت الثورة الفرنسية على المساواة امام القانون بأن بنت فكرتها عن المساواة الانسانية برفض صريح للاتجاه الديني . وفي كلتا الحالتين صورت المساواة القانونية للمواطن بمبدأ عالمي ، وبذا مثلت خطوة عملاقة اخرى في اعادة تعريف طبيعة الانسان ومكانه في عالمنا .

في ظل القومية ، اهتز الخط الفاصل بين الانسان الصوفي المعني بعلاقته بالله والانسان الخارجي المعني بتشكيل بيئته . فالقومية كايديولوجية كانت اكثر تنشيطا ، فقد تم تجسيد العلاقة الخارجية بين الانسان والانسان بنماذج قانونية لا تعتمد على الوعي الذاتي للشخص المعين كما هي الحال في علاقة الانسان بالله ، ومع ذلك ففي الوقت نفسه يرتكز تعريف الانسان «كقومي» بشكل كبير على مكونات مجردة ومحددة تاريخيا وعاطفيا لدرجة عالية . وقد اشتملت هذه النظرة على قدر كبير من الغموض بل واللاعقلانية عند استخدامها كإطار مفاهيمي يمكن بداخله فهم العلاقات بين الامم والتطورات داخل الامم . لقد ادت القومية جزئيا الى ازدياد ادراك الانسان لنفسه ، لقد عبأت الناس بشكل نشط ولكنها فشلت في تبيين كفاءاتهم الحيوية . لقد كانت كعربة كبيرة عامة تحمل النوازع الانسانية وتلهبها خيالا ، اكثر منها اطارا مفاهيميا يجعل من الممكن تشريح واقعنا ومن ثم اعادة ترتيبه باراداتنا .

العالمية الايديولوجية :

ذلك ما جعل الماركسية تمثل مرحلة اكثر حيوية وابداعا في عملية انضاج النظرة العالمية للانسان . ان الماركسية هي في ذات الوقت انتصار للانسان الخارجي النشط على الانسان السلبي الداخلي ، وهي ايضا انتصار للعقل على الايمان ، انها تركز على قدرة الانسان على تشكيل مصيره المادي المحدود والمحدد باعتباره الواقع الوحيد للانسان ، وهي تصور قدرة الانسان المطلقة على فهم واقعه كنقطة انطلاق لتحركاته النشطة من اجل تشكيل هذا الواقع . ولقد اعطت الماركسية الاولوية بدرجة اكبر من اي تفكير سياسي سابق على الفحص الدوري الصارم للواقع المادي وعلى ارشادات النشاط المستخلصة من هذا الفحص .

وبالرغم من انه يمكن القول ان هذا المنهج الفكري الصارم قد انقلب الى ضده في النهاية بسبب الايمان الدوغمائي الذي يلعب دورا قويا في تشكيله . بالرغم

من ذلك نشرت الماركسية وعيا ذاتيا شعبيا لايقاظها الجماهير الى درجة من الاهتمام المكثف بالمساواة الاجتماعية وبتزويدها الجماهير بالتبرير التاريخي والمعنوي للاصرار على هذه المساواة . والاكثر من ذلك مثلت الماركسية في وقتها اكثر المناهج تقدما وانتظاما لتحليل دينامية التطور الاجتماعي وتصنيفه وفي استخلاص مبادىء معينة من خلال ذلك تتعلق بالسلوك الاجتماعي . ولقد فعلت ذلك بطريقة جعلت من السهل ترجمتها الى مبادىء شديدة التبسيط تسمح حتى للذين هم غير متعلمين نسبيا بأن يشعروا بأن درجة فهمهم للظواهر قد توضحت بشكل اساسي وان سخطهم واحباطهم وآمالهم الغامضة يمكن ان توجه في أفعال تاريخية ذات معنى .

ولذلك جذبت الماركسية غرائز الانسان العقلانية والاخلاقية والبروميثيوسية . لقد جذب الجزء الاخلاقي منها ، والذي تعززه عواطف الانسان التراث اليهودي المسيحي اليه ، بينما استجاب الجزء العقلاني الى رغبة الانسان المتزايدة لفهم ديناميكيات بيئته المادية فهما اكثر انتظاما ، اما الجزء البروميثيوسي فهو المسؤول عن «ايمان الانسان بقواه ، وفكرة ان التاريخ يصنعه الشعب وان لا شيء يمكن ان يعوقه عن بلوغ الكمال» (٨) .

بهذا المعنى أدت الماركسية دورها كاحدى آليات «التقدم» الانساني حتى لو ان تطبيقها قد فشل غالبا عن بلوغ مثلها . ويلاحظ تيلار دي شردان انه «حتى لو انها كالوحش ، اليست الشمولية الحديثة فعلا هي تشويه شيء رائع ، وبالتالي قريبة جدا من الحقيقة ؟» (٩). وفي مكان آخر يلاحظ انه «على كل الشعوب لكي تظل انسانية او تصبح اكثر انسانية فانها مسوقة بطريقة لا راد لها لتشكيل الآمال والمشاكل الحديثة على الارض بنفس المعايير التي شكلها الغرب بها» (١٠) والذي لم يقله هو انه بالنسبة الى الكثيرين الذين هم خارج التأثير المباشر للغرب ولتقاليده المسيحية كانت الماركسية هي التي لعبت دور تحريك العقل وتعبئة الطاقات الانسانية نحو اهداف محددة .

وبالاضافة الى ذلك ساهمت الماركسية بشكل حاسم في المأسسة السياسية وفي تنظيم الجهد الارادي من اجل التعريف بطبيعة عصرنا وعلاقة الانسان بالتاريخ في اي مرحلة من مراحل التاريخ . ولقد ادى التركيز على هذه المسألة الى التشكيك بالاهمية النسبية لقوى التغيير المختلفة ، وبوزن البدائل التاريخية المختلفة الاشكال وعلى الاقل محاولة الحكم التجريبي ، وبالاضافة الى ذلك استثارت

---

٨ ــ خ. مومجان ، **القرن العشرين الديناميكي** the Dynamic Twentieth Century موسكو ، ١٩٦٨ ص ٢١ .

٩ ــ تيلار دي شردان ص ٢٥٧ .

١٠ ــ المصدر السابق ص ٢١١ .

الماركسية سلسلة من الاسئلة الفرعية كلها تساعد على الاعتراف بالتغيير ، وتفرض التصحيحات عليه : ما هي المراحل التي يمكن اكتشافها في عصر معين ؟ هل هناك مرحلة معينة تتسم بالتوتر الدولي او باستقرار اكبر ، او بتحول مواقع النزاع المحلي ، او بشبكة جديدة من التحالفات ؟ من هم اعداؤنا الرئيسيون الحاليون ذاتيا وموضوعيا ؟ من هم الان حلفاؤنا ؟ ما هي مصادر الاخطار الرئيسية والثانوية والفرعية ؟

ان الفحص الدوري الشكلي الهادف الى مثل هذه القضايا يؤدي الى عملية جس منتظم للمسرح الدولي . ولا يعني ذلك ان نقول ان الشيوعيين المعاصرين كانوا ناجحين على الدوام في فهم معنى الظواهر الدولية الجديدة فهما صحيحا . من المؤكد ان قناعتهم بأن ادواتهم التحليلية التي تؤدي الى مرشد لا يخطىء للمعنى الداخلي للاشياء ، قد قادهم غالبا الى الضلال . انهم برفضهم القبول بفكرة نسبية الحقيقة وتغيرها الظاهري المحير قد طوروا افكارهم الذاتية الجزئية الحتمية الى افكار جامدة مطلقة واختصروا قضايا معقدة الى تبسيطات كلية مفرطة في البساطة .

ومع ذلك فلتعريف الشيوعية ــ وهي التعبير المؤسسي للماركسية ــ بأنها اساسا «مرض الانتقال من الحالة التقليدية الى الحالة الحديثة».(١١) او للتأكيد على ان «الماركسية هي في الواقع لا شيء سوى ظاهرة مصاحبة للتطور التقني ، ومرحلة من الزواج المؤلم بين الانسان والتقنية» (١٢) . ان التعريف بمثل ما سبق معناه يتجاهل ما قد يتبقى من المساهمة الكبرى التي ساهمت بها الماركسية ، ومن نفوذها الثوري المتسع الذي فتح عقل الانسان على آفاق كانت متجاهلة وجسّد اهتمامات كانت مهملة من قبل ، وقول ذلك لا يعني تجاهل الاثر المترتب على الماركسية المأسسة ــ خصوصا وهي في السلطة ــ الا وهو الاستعباد ، ولا عدم قدرتها التحليلية على مواكبة المشاكل في عالم القرن العشرين المتقدم انه للتأكيد على انه عبر التطور التدريجي لنظرة الانسان تمثل الماركسية مرحلة مهمة وتقدمية مثلها مثل ظهور القومية والاديان الكبرى .

وفي كل الحالات الثلاث ــ الدين والقومية والماركسية ــ كان هذا التقدم المفاجىء له شواهده قبل حدوثه ولم يأت فجأة نتيجة لعبقرية خلاقة تعمل وحدها تماما . لقد اكد ماركس على الانجازات الفكرية لاسلافه المباشرين الذين كانت

---

١١ ــ روستو ، **مراحل النمو الاقتصادي** the Stages of Economic Growth ص ص ١٦٢ ــ ٦٣ . انظر ايضا ص ١٥٨ حيث وصفت الماركسية بأنها «نظام مليء بالتصدعات ولكنه مليء ايضا بالمفاهيم الجزئية الصحيحة ، وهي مساهمة رسمية كبرى للعلوم الاجتماعية ومرشد ضخم في السياسة العامة» .

١٢ ــ جاك ايلول ، **المجتمع التكنولوجي** ، نيويورك ، ١٩٦٥ ، ص ٢٩٠ .

الاشتراكية عند بعضهم لها أسس دينية قوية * . وبالمثل كانت القومية والاديان الكبرى توليفة متداخلة من الامزجة والمواقف ودرجة تقبل اجتماعية معينة نضجت عبر فترة طويلة جدا من الوقت . وفي كل الحالات الثلاث ايضا تبع هذا التقدم المفاجىء في الفهم انتكاسة في الممارسة : الحروب الدينية ومحاكم التفتيش ، والكراهية القومية التي أدت الى مذابح جماعية لم يسبق لها مثيل ، والارهاب الوحشي وحملات التطهير واخضاع العقل والجسم للشمولية باسم ايديولوجية « انسانية » .

ومع ذلك وفي كل الحالات الثلاث اذا اتسعت الآفاق الفكرية للانسان لا يمكن ان تضيق ثانية .ان المساواة امام إله عالمي واحد والتاكيد على الوعي الفردي ، والمساواة امام القانون مع الالتزام بشخصية اجتماعية اكبر من الشخصية المباشرة، والمساواة الاجتماعية مع اهتمام بالتشريح التحليلي لديناميكية اندفاع التاريخ ، كل ذلك قد راكم وساعد على تنقيح وتوسيع الوعي السياسي والاجتماعي للانسان. وانطلاقا من الدور المسيطر للغرب المنشط في تشكيل نظرة زمننا هذا ، نجد الان، وفي النصف الثاني من القرن العشرين ، كل واحد تقريبا ـ حتى وان لم يدر بذلك ـ لدرجة ما مسيحيا وقوميا وماركسيا .

اضطراب داخل العقائد المأسسة

بالنسبة الى المؤسسات تزداد يوما بعد يوم صعوبة التاكيد الجامد على الطهارة الاولى للعقائد التي تزعم تبنيها . ينطبق ذلك على الكنائس المسيحية كما ينطبق على الاحزاب الشيوعية . وفي بعض البلاد الاكثر تقدما تشمل هذه الصعوبة ايضا ازمة الولاء لاساليب الديمقراطية الليبرالية خصوصا من جانب الشباب .

فالعلاقة اليوم بين الافكار والمؤسسات مضطربة : فالمؤسسات تقاوم الافكار خشية ان تؤدي الى التغيير الذي يمكن ان ينسف المؤسسات ، وأنصار الافكار يتمردون على المؤسسات بسبب القيود الفكرية التي يقال انها ملازمة لوجودها .

هذا التطور هو جزء من العلمنة التقدمية لحياتنا ، ويلعب دورا هاما في هذه العملية الطابع المتغير للاتصالات المعاصرة التي تسمح بانتشار سريع للافكار والصور وتحتاج الى اعتماد أقل على الجهد المنظم للتبشير . واليوم تتعرض شعوب اكثر للتأثيرات التي تتميز بكونها اكثر تطايرا وسلاسة من ذي قبل . لم يعد هناك حاجة الى مواجهة المقولات الجامدة والتقليدية ببدائل اكثر جاذبية ولا الى التغلب

---

* كان بيار ليرو (١٧٩٧ ـ ١٨٧١) من بين اوائل الذين حللوا تعبير «الاشتراكية» وحددوا مفاهيمها واستعملوه في كتاباتهم . كان يرى ان الاشتراكية هي تحقيق الضرورات الدينية الملحة .

على الخمول الاجتماعي بتعبئة منظمة للجهود . كل ذلك يضع المعتقدات الماسسة في موقع الدفاع: وتزداد يوما بعد يوم جهودها لاستعادة الولاء الايجابي بين انصارها ولمواجهة التأثيرات المعادية للمعتقدات الماسسة بدرجة عالية ، والرسمية ، وذات الهياكل المبنية .

ولقد لاحظ ماركس منذ قرن تقريبا انه حتى الان كان من المعتقد ان نمو الاساطير المسيحية في فترة الامبراطورية الرومانية كان فقط لان الطباعة لم تكن قد اخترعت . العكس صحيح تماما .

فان الصحافة اليومية والبرق وهو ما ينشر الاختراعات في لحظة على كل الارض تصطنع اساطير اكثر (يؤمن بها القطيع البرجوازي وينشأ عليها) في يوم واحد مما كان من الممكن حدوثه في قرن كامل من قبل» (١٣) . فان اضفنا الى الصحافة والبرق الدور العالمي المعاصر للراديو والتلفزيون وأضفنا الى الدين الايديولوجيات المعاصرة فان ملاحظات ماركس تصبح اكثر انطباقا .

وهناك عامل آخر بالاضافة الى التطورات المتعلقة بوسائل انتشار وسرعة التغير الاجتماعي بسبب التكنولوجيا . فمن وجهة نظر اناس معنيين كثيرين ، وبشكل خاص بين الاجيال الاصغر سنا ، قد ادى التحام الديانات او الايديولوجيات مع المؤسسات الى جمود بيروقراطي وكذلك الى تشويه القيم . ان التقليد الطويل الخاص بتركيز الاديان المأسسة على الانسان الداخلي قد ادى الى سلبية اجتماعية ولا مبالاة في الواقع بالمشاكل الانسانية الاساسية وذلك على الرغم من الالتزامات المعلنة بالتوجه الانساني . كما ان الاهتمام الايديولوجي المعاصر بتعبئة الانسان الخارجي قد انتج انظمة سياسية تناقض في الممارسة المغزى المعنوي لاهدافها الانسانية التي ادعتها . فان كان التطور الروحي للانسان في الحالة الاولى قد سمح بحرمانه الاجتماعي فلقد ادى تأكيد الانسان على الاولوية الاجتماعية في الحالة الثانية الى انحطاطه الروحي .

الماركسية الماسسة :

وبالاضافة الى ذلك يشعر العديدون بانه سواء اكان ذلك على المستوى الخارجي ــ البيئي ام على المستوى الداخلي ــ التاملي للوجود الانساني ، فان العقائد المأسسة الحالية لم تعد قادرة على تقديم اجابات ملائمة للمشاكل المعاصرة. فبالرغم من التقدم الفكري الذي تمثله الماركسية في تفكيرنا ، نجدها ليست كافية لتكون اساسا وحيدا لفهم شامل معقول لواقعنا . ان الاكتشافات في العلم

---

١٣ ــ كارل ماركس ، كتب في ١٨٧١ ، كما نقل عنه لويس س. فوير ، «كارل ماركس وعقدة برميثيوس» انكونتر ، ديسمبر ــ كانون اول ١٩٦٨ ، ص ٣١ .

الحديث والتقدم في دراسات النفس الانسانية وحتى التطورات الاجتماعية ـ الاقتصادية المعاصرة لم يعد من الممكن التعبير عنها بشكل مرض بالاعتماد الكلي على الاطار الماركسي . وفي الوقت نفسه اهمال العنصر الروحي وتجدد البحث حول الطبيعة الحقيقية للانسان الداخلي ـ وهو بحث يزداد الحاحا بسبب التطور العلمي المتعلق بطبيعة المخ البشري والشخصية البشرية ـ كل ذلك قد ادى الى مزيد من كشف محدودية الماركسية كأساس وحيد لتعريف معنى الوجود الانساني.

وتزداد هذه المحدودية بالربط بين الافكار الماركسية والمؤسسات على شكل احزاب شيوعية بيروقراطية جامدة . ويمكن الجزم بان الماركسية-كجسم من الافكار وكمنهج اجتماعي اقتصادي-وقد اصبحت جزءا من التراث الغربي الفكري ، فان حيويتها الفكرية ، واهميتها السياسية (التي يعبر عنها بمقياس بالاثر الذي تتركه في البرامج الاجتماعية) ، لم تعد تعتمد على تنظيم من الطليعيين . ان تلك التنظيمات كانت مطلوبة من اجل التبشير والاستيلاء على السلطة والاحتفاظ بها. ولقد ادت الظروف الروسية الخاصة الى الصياغة اللينينية للفائدة التاريخية لمثل هذا الحزب وللضرورة المطلقة لاخضاع الفرد له .

ولقد ترتب على ذلك ان العناصر البيروقراطية التي لم يكن هناك مفر من سيطرتها على التنظيم بمجرد وصولها الى السلطة ، مالت بشكل طبيعي لان تضع أولوية كبيرة للتنظيم اكثر مما للافكار التي كان من المفترض ان يرفعها التنظيم وكان من المفترض ان يغذيها .

وبالنتيجة انتهى وجود الاحزاب الشيوعية لان يكون عائقا مؤثرا فعالا امام المزيد من تقبل وتطوير الفكر الماركسي . ان تنظيم الاحزاب البيروقراطي واهتمامها بالتبعية بمصالحها المؤسسية المكتسبة ـ ولو على حساب العقيدة الماركسية التي يقال انهم يؤمنون بها ـ وخوفهم من الريادة الفكرية كل ذلك ادى بالتراكم الى ظهور المعارضة في الخارج والعقم الايديولوجي في الداخل .

والنموذج المميز لهذا العقم هو الحقيقة المذهلة في ان الحزب الشيوعي السوفياتي لم يقدم مفكرا ماركسيا واحدا خلاقا وذا تأثير في خمسين عاما منذ استيلائه على السلطة سنة ١٩١٧ . وبالاضافة الى ذلك فان مناراته الفكرية القيادية ، وبداياتها الخلاقة السابقة على ١٩١٧ تم تصفيتها جسديا في ظل الحكم السوفياتي . انه امر جدير بالملاحظة ـ باعتبار الاهمية المعلنة رسميا عن قدرة الماركسية اللينينية «الخلاقة» ـ في اول حزب شيوعي وصل الى السلطة . اما الفلاسفة الماركسيون البارزون ذوو النفوذ في البلاد الاخرى مثل جورج لوكاش وارنست بلوخ وآدم تشاف ولسزك كولاكوفسكي فانهم بدرجة او بأخرى إما انتهى بهم الامر الى صدام حاد مع النظام الحزبي او انتهوا الى الطرد من الحزب .

وطالما كانت الماركسية مدرسة تفكير معزولة فان الحزب كان يلعب دورا مؤثرا في نقل هذه الافكار الى الجماهير واصبح بشكل عام وكيل التاريخ الذي عين نفسه لذلك ، هذا التاريخ الذي تدعي الماركسية انها قد حددت اتجاهه بشكل صحيح . ولكن ما ان اصبحت الماركسية جزءا من التيار التاريخي الرئيسي

للعالم ، فان الاصرار على شخصيتها المؤسسية المنفصلة الفريدة كان معناه التقليل من تأثيرها وتعويق قدرتها على الخلق . ومع ذلك فهذا هو ما تفعله باستمرار الاحزاب الشيوعية ، بل ان الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي قد وسع هذا الزعم بتأكيد حقه في تحديد صحة او عدم صحة تطبيقات الاحزاب الاخرى .

والنتيجة كانت ازدياد اللامبالاة بالعقيدة بين الاعضاء العاديين ، وازدياد السخط بين اكثر المفكرين الماركسيين قدرة على الخلق . لا يعني هذا القول ان الافكار الاشتراكية قد فقدت مصداقيتها ، على العكس من ذلك حتى في اوروبا الشرقية حيث على الشيوعية ان تنافس القومية المعادية للسوفيات ، نجد البيانات التي سمح بها وهي محدودة والبيانات القليلة المتناثرة المتاحة عن مواقف الرأي العام تشير الى ان الاشتراكية — ومفهومها الواسع انها محاولة لخلق مجتمع اكثر عدالة من خلال الخدمات الاجتماعية العامة والتسهيلات العامة للتعليم والشؤون الاجتماعية والملكية العامة لوسائل الانتاج الرئيسية والمساواة الاجتماعية — تتمتع بدعم شعبي واسع بينما الشيوعية كمعتقد مؤسسي ليس لديها هذا الدعم * .

---

* البيانات على ذلك مأخوذة من استطلاعات الراي التي جرت داخل بلد معين وبين المسافرين من اوروبا الشرقية الى الغرب . وهكذا ، نجد في استطلاع تم في ١٩٦١ بين طلاب الجامعة في وارسو ان ٢ بالمئة عرفوا انفسهم بأنهم «قطعا ماركسيين» في نظرتهم العامة ، و١٦ بالمئة بأنهم «بشكل عام نعم» . ويمكن للمرء ان يفترض ان هاتين الفئتين تمثلان الحد الاعلى لرغبة الطلاب في قبول الايديولوجية الرسمية بالرغم من ان كثيرين من بين ١٦ بالمئة يفترض انهم سيتمردون على زيادة ارثوذكسية الحزب . وقال ٢٧ر٥ «قطعا لا» و٣١ بالمئة «بشكل عام لا» ، وذلك اجابة على سؤال «هل تعتبر نفسك ماركسيا ؟» ومع ذلك في الوقت نفسه عبر ٢٨ر١ بالمئة عن رغبتهم في ان يروا العالم «يتطور نحو شكل من اشكال الاشتراكية» و٤٤ر٥ بالمئة اجابوا انهم «بشكل عام نعم» وذلك من بين ٧٢ر٦ بالمئة اجابوا انهم يفضلون بشكل عام الاشتراكية (**اوروبا الشرقية** ابريل — نيسان ١٩٦٦) .

ان الفجوة بين القبول بشكل عام بالاشتراكية وبين التعريف الذاتي بأنهم ماركسيون هو مقياس جيد للتمييز الوارد آنفا .

وبالمثل من بين عينة من الزوار البولنديين الذين زاروا الغرب في ١٩٦٠ وعددهم ٤٩٠ (وهم اناس كانوا سيعودون الى بولندا ثانية ذكر ٦١ بالمئة ان الشيوعية هي «فكرة سيئة نفذت بشكل سيء» بينما شعر ١٤ بالمئة انها «فكرة جيدة نفذت بشكل سيء» . ومع ذلك ابدت اغلبية كبيرة اعجابها ببرامج ما بعد الحرب والخاصة بدولة الرفاهة العامة والتعليم للجميع والاصلاح الزراعي وتأميم الصناعة الثقيلة (**بعض جوانب الجو الاجتماعي والنفسي والسياسي في بولندا** ، عرض ابحاث المستمعين ، راديو اوروبا الحرة ، ميونيخ ، ١٩٦١ ، ص ٢١ و٢٤) . واظهر استطلاع مماثل بين ١١٩ مجري ان ٧٣ بالمئة هم من اصحاب الراي الاول و٨ بالمئة من اصحاب الراي الثاني ، كما كان هناك تقدير كبير ايضا للاجراءات التي تمت بعد الحرب العالمية الثانية . (**المواقف والآمال السياسية لـ ١١٩ مجري** ، المستمعون ص.ص ٣٨ و٤٣) .

وبالمثل في الغرب ، حيث اكثر الاحزاب بعدا عن الاشتراكية يقبل الان بمجتمع الرفاهية امرا مرغوبا فيه وطبيعيا بالرغم من انه ليس ضروريا ان يحتاج الى تأمينات ضخمة . ولقد عبرت الكنيسة الكاثوليكية عن نفس الرأي تقريبا في البيان البابوي المشهور Mater et Magistra (١٩٦١) .

ومن ثم فإن «الماركسية المؤسسية» او الشيوعية لم تعد تواجه واقعا فكريا معاديا لا لطموحاتها الاجتماعية ولا حتى لافتراضاتها الاساسية . انها لم تعد تواجه عالما يرفض الماركسية فكريا ، اي ارض بكر يجب مهاجمتها ببعثات طلائعية منظمة تنظيما جماعيا . وبنفس الطريقة يمكن القول ان الوظيفة التاريخية للحزب المغلق من الطراز اللينيني تبدو الان انها لمساعدة الشيوعيين الذين هم في السلطة لكي يبقوا في السلطة . ان المفكر الماركسي بالنتيجة لا يمكنه ان يستمر شيوعيا اذا اراد ان يستمر مفكرا .

ان الرابطة اللينينية بين الافكار والسلطة — مع كل ما لها من كوابح وقيود وما تمهد له من جمود عقائدي تحتويه — تبعد عن الشيوعية المفكرين «الباحثين عن الحق» و«الباحثين عن الفعالية» (١٤) . فالمجموعة الاولى وهم الفلاسفة والانسانيون والكتّاب — يتصرفون برد فعل مضاد للاهتمام الزائد بالانسان الخارجي النشط ، انهم يسعون الى الحفاظ على الاهتمام بالمعنى الداخلي للحياة وتجديد هذا الاهتمام ، ولمواجهة الظواهر الاجتماعية — النفسية كالاغتراب . كما انهم يرون تعارضا اساسيا بين البحث عن الحرية الشخصية التي يقال ان الماركسية تؤمن بها ومؤسسة الماركسية بمثابة سلطة . ولقد جاءت اكثر الادانات للنظام نشاطا وترابطا من بين هذه المجموعة . وفي غير البلدان الشيوعية ، تضم هذه المجموعة ايضا ما اصطلح على تسميته غالبا «باليسار الجديد» وهو الذي يهتم فكريا بالقضايا «الاكبر» المعنية بالفرد . لقد اختص كوهين — بانديت وهو الزعيم الراديكالي الفرنسي للطلاب الفرنسيين في ١٩٦٨ ، اختص الحزب الشيوعي الفرنسي بأكثر ملاحظاته حدة بشكل مميز (١٥) .

ويشكل التحدي الموجه من المثقفين «الباحثين عن الفعالية» تهديدا آخر للرابطة بين الايديولوجية والمؤسسة ، وهؤلاء هم الاقتصاديون والعلماء والمديرون الجدد . انهم يهتمون في الاساس بالفعالية الاجتماعية — الاقتصادية ، وهم يرون في تبني الافكار الجامدة وفي اخضاع الافكار للمؤسسات وما ينتج عن ذلك من جمود محافظ ، عائقا كبيرا على طريق التغيير الاجتماعي الايجابي . وهم لكونهم اقل

---

١٤ — هذه التعابير استخدمها جيمس هـ. بالنغينتون ، «القوة والقوة المضادة في اوروبا الشرقية» **مجلة الشؤون الخارجية** ، اكتوبر — تشرين اول ١٩٦٨ ، ص ٣٤ .

١٥ — دانيال وغبريال كوهين — بنديت ، **اليسار علاج مرض عقم الشيوعية** Le Gauchisme remède à La Maladie Sénile du Communisme باريس ١٩٦٨ .

اهتماما بالانسان الداخلي واكثر انشغالا بتلبية احتياجات الانسان الخارجي لا يشكلون تحديا مباشرا للنظام . ولكن ولأن هجومهم يأتي من طرف خفي ، ولأن المهاجمين انفسهم يزدادون عددا ولا يمكن لمجتمع صناعي الاستغناء عنهم اجتماعيا، يصبح من الصعب قمع التحدي الذي يقومون به . أن الباحثين عن الحقيقة يواجهون مباشرة ، وقد نجحوا احيانا في حالة الانظمة الضعيفة والاقل تنظيما ، ولكن ليتم سحقهم فيما بعد على يد قوة اعظم . اما الباحثون عن الفعالية فانهم لا يواجهون ، انهم يسعون ويتسللون ويفتتون . لذا فان نجاحاتهم وهزائمهم ــ التي تشاهد في دورة الاصلاحات الاقتصادية الشيوعية وما يتلوها من تراجعات ــ هي اقل ظهورا واقل حجما ولكن ربما كانت ملموسة اكثر .

ومع ذلك عند نقطة معينة حتى المجموعة المؤمنة بالفعالية ستجد ان عليها ان تواجه بنفسها القضايا الاكثر جوهرية والمتعلقة بطبيعة الانسان بغاية الوجود الاجتماعي . والى ان تفعل ذلك هناك دائما احتمال مرجح في ان تنجح النخبة الحاكمة على الاقل مؤقتا في جعل الوسط العلمي مغلقا ومعزولا ، وفي استخلاص مواهبه وفي افساده بنظام من المكافآت ، محتفظة طوال الوقت بحق تحديد الاهداف الكبرى .

ولقد اتجه الفلاسفة الماركسيون المعاصرون لوعيهم بهذا الخطر وكرد فعل ضد الاتجاه البيروقراطي الجامد ، اتجهوا الى التأكيد على اولوية الضمير والعقل الانساني قبل المصالح التنظيمية المكتسبة ، ولاظهار المحدودية التي لا مفر منها لاي اطار ايديولوجي يمكن ان يطبقه الانسان على الواقع . لقد عكس لسزك كولاكوفسكي في كتاباته في ١٩٥٦ جوا عاما واسع الانتشار عندما هاجم الفكرة المتفسخة عن «الماركسي» بأنها لم تعد تعني «الشخص الذي يعترف براي محدد معقول عن العالم ، وانما اصبحت تعني شخصا ذا واجهة فكرية مصنوعة محددة يتميز باستعداده للاقرار بآراء تشكلت في المؤسسة» (١٦) . لقد اكد كولاكوفسكي وهو يرفض «الماركسية المؤسسية» ان تدخل الحزب في المهن العلمية هو بالتحديد غير ماركسي طالما يتناقض هذا التدخل وروح الماركسية التي هي : البحث الارادي العلمي العقلاني الذي يهدف الى الاقتراب اكثر ما يكون الى الحقيقة . وفي نفس المجرى انصبت آراء الفلاسفة اليوغسلاف الذين يعملون في مجلة زغرب الفلسفية المسماة براكسيس ، ــ وهي مجلةمعروفة باصرارها على ان «الماركسية» و«الحقيقة المؤسسية» هما معياران متعارضان ــ انصبت آراؤهم تتفه آراء فيلسوف سوفياتي اكد فيها «ان لجنة الحزب المركزية قد صاغت افضل الحلول لاهم القضايا النظرية بما في ذلك القضايا الفلسفية . وفي رأيه ان اهم مهمة فلسفية

---

١٦ ــ لستزك كولاكوفسكي ، «المعنى الدائم والمؤقت للماركسية» ، الثقافة الجديدة Nowa Kulturd ، عدد ٤ ، ١٩٥٧ .

اليوم هي دمج كل القوى داخل المعسكر الاشتراكي» . وقد لاحظ فيلسوف يوغوسلافي ردا على الراي السوفياتي ان «القرارات التي اتخذتها اللجنة المركزية ليست فلسفية على الاطلاق» (١٧) .

ويظل التحدي الاكثر جوهرية هو تحدي الفكرة القائلة بأن الماركسية بصفتها علما من علوم التاريخ تزودنا بارشادات عملية واخلاقية للمستقبل . ولقد تحدى المراجعون الاكثر تشددا والمعارضون المشهورون لالتحام الفكر الماركسي بالحزب ذي الطابع اللينيني ، تحدوا هذه المقولة كما عبر عنها بوجه خاص وبأسلوب بليغ كولاكوفسكي حين قال :

> ان اي فلسفة عن التاريخ جديرة بالاعتبار تصف فقط ما هو قائم والماضي ولا تصف المستقبل الخلاق للعملية التاريخية . لهذا السبب فاولئك الذين يريدون ان يخضعوا اشتراكهم في العمليات المستقبلية للمقولات المعلنة لفلسفة التاريخ كالسواح الذين يكتبون على جدران المدن المهجورة القديمة . ان كل انسان يستطيع اذا اراد ان يفسر نفسه تاريخيا وان يكتشف العوامل المقررة التي خضع لها في الماضي ولكنه لا يستطيع ان يفعل ذلك بالنسبة الى الذات التي سيكونها . لا يمكنه ان يستخلص تطور مستقبله الخاص من احكام فلسفة التاريخ التي يؤمن بها . فمعنى ان يصنع هذه المعجزة هو ان يرجع الماضي ذاته وهو لا يعود ، اي ان يعبر نهر الموت الذي قال عنه الشاعر ان احدا لا يراه مرتين (١٨) .

حتى المفكرون الماركسيون الارثوذكس نسبيا مثل آدم تشاف الذي دافع بحماسة عن التحام الافكار مع المؤسسات ، كان عليه اخيرا ان يختار بين الخضوع الفكري للولاء للمؤسسة وبين التكامل الفكري على حساب موقع جيد في الحزب . وعندما اختار الخيار الثاني بعد تأخر طويل اقر تشاف بحرية ان تفكيره لم يعد يمكن ان يتواءم مع التعريف المحافظ الجامد ـ ومن ثم المؤسسي ـ للماركسية وان عليه الان ان يعترف ان فهمه الاكثر تطورا لعلم الاجتماع الماركسي يتطلب الاعتماد على مفاهيم ورؤى غير ماركسية (١٩) . ومنذ عقد واحد فقط كان تشاف لا يزال واحدا

---

١٧ ـ **براكسيس** ، مايو ـ يونيو / ايار ـ حزيران ١٩٦٧ ص ٤٣١ .

١٨ ـ كولاكوفسكي ، «الامل ونسيج التاريخ» الثقافة الجديدة ، عدد ٣٨ ، ١٩٥٧ . انظر ليوبولد لابتز ، «كولاكوفسكي ، والماركسية وما بعدها » **انكونتر** ، مارس ـ اذار ١٩٦٩ ، ص‌ص ٧٧ ـ ٨٨ وذلك من اجل تحليل شديد العمق لفكر كولاكوفسكي .

١٩ ـ انظر آدم تشاف ، **MarxSizm a Jednostka Ludzka** وارسو ١٩٦٥ ص ٥٦ وص ٢٨ وما تلاها حيث ينوه بأنه مدين للبروفيسور اريك فروم في تصحيح مفهومه من الماركسية وقد طرد تشاف من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البولندي في ١٩٦٨ .

من اكثر النقاد الارثوذكس نشاطا ضد الآراء التي اعلنهـا زميله البولنـدي كولاكوفسكي والتي اعلنها الالماني الشرقـي ولفغانغ هاريش والمراجعـون اليوغوسلاف * .

ولقد ذكر آنفا ان الماركسية وقد تم نشرها على مستوى شعبي فـي صورة الشيوعية ، تمثل تقدما كبيرا في قدرة الانسان على صوغ علاقته بعالمه ضمن مفاهيم معينة . لقد انهت مرحلة في تاريخ الانسان يمكن ان نسميها بمرحلة اللاوعـي التاريخي . لقد اعطت الانسان شعورا بالدينامية الاجتماعية وحفزت اهتمامـه الواعي بها وبالرغم من حتميتها المادية فقد حملت رسالة اخلاقيـة حيوية ، كانت مصدرا لقدر كبير من جاذبيتها . لقد فعلت ذلك على اساس عقيدة اكدت انهـا مستخلصة من منهج اختبار عقلاني تماما . وقد ساعد نجاحها على استثارة رد فعل ضد الحقائق المستخلصة من المعتقدات التي تبدو غير عقلانية وضد المؤسسات التي تؤكد على احتكار الحقيقة،ولكن ما كان ضروريا للمساعدة على انهاء عصر اللاوعي التاريخي خصوصا على مستوى شعبي اصبح معرقلا للانتاج في عصر العلـوم والانتشار السريع والتغير المتسارع .

بداية ، ان الايديولوجية ذات القاعدة الضيقة والضعيفة والطبقة المثقفة المعزولة نسبيا التي طمحت الى امتطاء التاريخ والجماهير الشعبية ، هذه الايديولوجية التي هي الماركسية المأسسة قد اصبحت العقيدة الرسمية لبيروقراطيين غير مثقفين تدعمهم الملايين (١٠ بالمئة تقريبا من السكان البالغين في معظم البلدان الشيوعية) الذين تعبر العضوية الرسمية بالنسبة اليهم عن تصلب اجتماعـي محافظ او انتهازية مهنية اكثر مما تعبر عن التزام ايديولوجي او فكري . وفي سبيل دعم مؤسسة يتزايد خروج العنصر المثقف الخلاق منها ، احتمى الرسميون المشرفون على هذه المؤسسات اكثر فاكثر في قومية الدولة كرابط مبدئي عاطفي مـع الجماهير . والنتيجة هي جعل الشيوعية في السلطة تعتمد اكثر فأكثر علـى العوامل الانفعالية غير الواعية التي ساد الظن ان الماركسية قد ابطلتها وهي عقدة تاريخية تناقضية وقاسية (٢٠) .

المسيحية المنظمة :

وبنفس القدر من المأساوية ، مع اختلاف المضمون ، نجد المشكلة التـي

---

* للحصول على مثل آخر من بين امثلة عديدة ، انظر عدد ديسمبر ـ كانون اول ١٩٦٨ من مجلة بارتلت (جريدة الحزب المجري) التي تضمنت بيانا عن طرد عدد من الفلاسفة المجريين من المعهد الفلسفي في بودابست اعلن بعضهم عن تبنيه لمفهوم «التعددية» في الماركسية .

٢٠ ـ هذه النتيجة تذكرنا ايضا بالفاشية . انظر مقالتي «اشتراكية ديمقراطية ام فاشيـة اجتماعية ؟» ديسنت . صيف ١٩٦٥ . انظر ايضا لمزيد من النقاش الفصل التالي .

تواجهها اليوم الاديان المستقرة وخاصة المسيحية . فعلى عكس الشيوعية لم تعد المسيحية المعاصرة نظاما للسلطة . كما ان سلطتها الدنيوية ليست فقط محدودة وانما آخذة في الانكماش . ومن جانب آخر لا تزال نظاما للعقائد ، ومؤسسة، وبوجه خاص في صورتها الكاثوليكية . ان التوتر بين المعتقدات والمؤسسات هو تاريخ قديم ومؤلم غالبا للكنيسة ، ولكنها اعطيت بعدا جديدا بالجهود التي بدأها البابا يوحنا الثالث والعشرون والبابا بولس السادس ، والتي عبَّر عنها المجلس المسكوني الثاني (الفاتيكان الثاني) لاعادة تنشيط الكنيسة (٢١) . هذه الجهود تتم على ارضية تشتمل على اهتمام لم يسبق له مثيل من جانب المسيحيين المعنيين (ليس فقط الكاثوليك) وعلى ادلة واسعة الانتشار على ازدياد اللامبالاة بالاشكال الدينية المحددة سلفا ، في نفس الوقت . وبكلمات اخرى هناك انغماس ضخم في عملية التغيير مما يعني ان الحراس الرسميين للمؤسسة لا يمكنهم السيطرة عليها، وايضا حالة من عدم اليقين حول افضل الطرق لجعل الكنيسة جهازا ملائما للعصر فعلا مرة اخرى دون اذابة شخصيتها الروحية .

ان المشكلة الجوهرية التي تواجهها الكنيسة حسبما عبَّر عنها اونامونو هي «ان الكاثوليكية تتذبذب بين التصوف الذي هو تجربة باطنية للرب الحي في المسيح ، وهي تجربة غير قابلة للنقل ، تكمن خطورتها في انها تذيب شخصيتنا الخاصة في الله ، وهكذا لا تحفظ لنا تشوقنا الحيوي – بين الصوفية وبين العقلانية التي تقاتل ضدها . انها تتذبذب بين العالم المتدين والدين العلمي (٢٢) واختيار احدهما يعني الحرمان من الآخر . ومع ذلك لا يمكن لأيهما ان ينجح منفردا ، فالصوفية ستعني الانسحاب من العالم المعاصر والعلمية ستعني الذوبان فيه .

هذه مشكلة قديمة امام الكنيسة ، ولقد طرحت من قبل واجيب عليها بطرق مختلفة في مراحل تاريخية مختلفة . ويمكن النظر الى «Mater et Magistra» والفاتيكان الثاني – وقد ظهرا في زمن تشكله النزاعات الايديولوجية والتجديد العلمي واليقظة الشعبية العامة والانفعال السياسي والسكون الديني – يمكن النظر اليهما كمجهود بذل لتلبية اهداف ثلاثة عريضة : الاول هو تحديث البنية المؤسسية للكنيسة حتى لا تكون عائقا في طريق حيوية العنصر الايديولوجي (وذلك استخداما للتعبير المستعمل في هذا الفصل) حتى تصبح المعتقدات المأسسة

---

٢١ – حول مشكلة المسؤولية والشرعية في الكاثوليكية المعاصرة انظر جورج ن. شوستر وآخرين ، **الحرية والمسؤولية في الغرب** **Freedom and Authority in the West** نوتردام ، ١٩٦٧ خاصة المساهمة التي قدمها المرحوم جون كورتيني موراي .

٢٢ – ميغويل دي اونامونو ، **المعنى المأساوي للحياة** **the tragic Sense of Life** نيويورك ، ١٩٥٤ ، ص ٧٧ .

حرية القوى تلك معنى لبعدي الحياة الانسانية الداخلي والخارجي . والثاني انه من الافضل تركيز طاقات الكنيسة ككل على المشاكل الاجتماعية التي تتراوح بين الفقر الفردي والظلم الاجتماعي الى عدم المساواة الدولية . واخيرا لكي تعالج الانشقاقات العقائدية داخل المسيحية وان تنهي مرحلة التعصب الاعمى بين المسيحية والاديان غير المسيحية .

ولقد ادى هذا الجهد ـ لانه حرك الكنيسة بعض الشيء في الاتجاهات المطلوبة ـ الى ضغوط جديدة في العلاقة بين الافكار والمؤسسات . فلقد حرك الاصلاح المؤسسي ، الذي تم في وقت تزايدت فيه الضغوط من اجل التصحيحات الكهنوتية التي جاءت من جانب الاكليروس نفسه (تماما كما حدث في الشيوعية ان هذه الضغوط غالبا ما تأتي من الاطراف لا من المركز ، والدور الذي مثلته يوغوسلافيا بالنسبة الى الكرملين اصبح الدور الذي لهولندا بالنسبة الى الفاتيكان) حرك ازمة عميقة للسلطات البابوية . فلقد ادى تأكيد البابا بولس على الخطر المفروض على منع الحمل بوسائل صناعية (في «الحياة الانسانية ١٩٦٨»)، والذي صدر بعد وقت قصير من تبني الفاتيكان لمفهوم الزمالة والمشاركة في شؤون الكنيسة ، الى استثارة ردود افعال سلبية شديدة من مجالس اسقفية وطنية عديدة . وقد ادت ردود الأفعال هذه بدورها الى ان يحذر الحبر الاعظم من «المواقف التي تبتعد كثيرا عن العقيدة التقليدية للكنيسة والتي تهدم النظام في عقر دار الكنيسة نفسها» ✱ (٢٣) .

الفاتيكان مع ذلك لم يتمكن من كبت هذا القلق اللاهوتي . ولقد ادان اللاهوتيون الكاثوليك وكأنهم يرددون مطالب الفلاسفة الماركسيين بحوار ماركسي غير مقيد ، (في بيان علني صادر في ديسمبر ـ كانون اول ١٩٦٨ من اربعين من اللاهوتيين البارزين) الجهود التي تبذلها دوائر الفاتيكان لتسوية القضايا اللاهوتية باجراءات ادارية . واكدوا حقهم في الحرية الكاملة في البحث والتي لا تخضع لاي حدود مؤسسية مهما كانت .

وادى التاكيد المتزايد على القضايا الاجتماعية ـ التي امتزجت بالرحمة والشفقة في بيان «Mater et Magistra» ـ الى تحد آخر مختلف . فلقد ادى الانغماس الشديد في شؤون العالم ، وبوجه خاص في النضال ضد الظلم الاجتماعي الى تركيز انتباه الكنيسة على الانسان الخارجي ، وغالبا ما وضع الكنيسة في منافسة مباشرة مع الحركات الاشتراكية والشيوعية . ووجد الكاثوليك الشباب

✱ لم يكن البابا وحده هو الذي واجه هذه الورطة . فلقد ذكرت جريدة نيويورك تايمز في ١٦ يناير ـ كانون ثاني ١٩٦٩ ان الدكتور يوجين كارسون بليك الامين العام لمجلس الكنائس العالمي قد ناقش «ازمة السلطة» مع البابا بولس السادس . ونقلت عن الدكتور بليك قوله «لقد وجدنا انفسنا نواجه نفس القضايا في المجلس العالمي وفي الكنائس الاعضاء» .

٢٣ ـ رسالة الى الكاردينال كونيغ اسقف فيينا ، ١٤ـ١ـ١٩٦٩ .

الاكثر انغماسا من الناحية الاجتماعية ، في هذه المنافسة وخصوصا في امريكا اللاتينية الانعتاق الممكن الوحيد لدور الكنيسة . وخشي المحافظون من تحول الكنيسة الى مجرد دنيوية راديكالية اخرى . وكان النزاع مريرا بشكل خاص عندما كان ذو علاقة مباشرة بالواقع كما هو الحال في شمال شرقي البرازيل (٢٤). فهناك كما في اماكن اخرى شعر المحافظون بان ما يمكن ان تكسبه الكنيسة على المدى القصير قد يكلفها كثيرا على المدى الطويل : فالصلات الاجتماعية سيكون ثمنها خسارة الشخصية المستقلة . وبشكل عام فقد ادعوا ان النجاح الاجتماعي — وهو ليس سوى نجاح اقتصادي — قد يكون ضارا بالقيم الروحية . ويمكن الافتراض انه من وجهة نظرهم لم تكن تجربة البروتستانية في الولايات المتحدة مطمئنة * .

ولقد حركت المسكونية ايضا توترات مؤسسية وعقائدية. وخشي التطهريون ان تؤدي الى الاسراع باذابة المحتوى العقائدي وتحويل الكنيسة الكاثوليكية في البلدان الاكثر تقدما الى تنظيم اخلاقي غير محدد منشغل جنبا الى جنب مع تنظيمات اخرى مشابهة في الاعمال الاجتماعية الخيرية . والامر الذي اربك التطهريين اكثر من غيرهم كان ظهور حوار «مسكوني» بين المسيحيين والشيوعيين حيث يشارك الكاثوليك فيه بدور نشط . وكان مجرد ظهور مثل هذا الحوار حتى وان لم يحظ الا بانتباه قليل نسبيا ، دليلا على المدى الذي وصلت اليه مزاعم الانفراد بالحقيقة المطلقة — بالرغم من انه رسميا لم يتخل عنها اي جانب — وكيف انها لم تعد تسود لا العقل الغربي ولا حتى تلك المؤسسات التي كانت هي ذاتها الاتجاه المانيوي ** .

---

٢٤ — للحصول على تقييم متعاطف بشكل عام مع وجهة النظر المحافظة انظر ، اوليس فلوريدي، **الكاثوليكية الراديكالية البرازيلية** Radicalismo Cattolico Brasiliand . روما ، ١٩٦٨ . ولمزيد انظر ارنست هالبرين ، **القومية والشيوعية في التشيلي** Nationalism and Communism inchile كمبردج ، مارس — اذار ١٩٦٥ ، ووليام ف. دانطونيا وفريدريك ب. بايك ، **الدين والثورة والاصلاح** Religion Revolution and Reform نيويورك ١٩٦٤ .

* «البروتستانتية ، اصبحت تتلازم بشدة مع النجاح الاقتصادي والسمعة الجيدة وفضائل الطبقة الوسطى لدرجة انه يبدو ان اعدادا كبيرة من رجال الدين وجمهور المؤمنين سواء بسواء قد ضلت عن الاهداف الروحية الاساسية» ، (جرهارد لينسكي ، **العامل الديني** ، منشورات جاردن سيتي ، نيويورك ١٩٦٣ ص ٣٥٢) .

** «بدوننا نحن ، الشيوعيين ، اخشى ان حبكم المسيحي ، مهما كان جميلا ، سيستمر في كونه غير فعال ، وبدونكم انتم المسيحيين نضالنا مهدد بأن يدور في أفق بلا نجوم» (روجيه غارودي — عن لوموند الاسبوعية ، عدد ٥-١١-١٩٦٦) . هذه كلمات احد المنظرين الشيوعيين الفرنسيين البارزين الذي كان فيما مضى ستالينيا متعصبا وعضوا في المكتب السياسي ، والكلمة القيت في ندوة مشتركة من الشيوعيين والمسيحيين نظمها الكاثوليك وتعكس مدى المرونة التي =

ومع ذلك سيكون من الخطأ تفسير هذا الحوار بأنه انطلاقة جوهرية في العلاقة العقائدية بين المسيحية والماركسية . فالمشاركون في هذا الحوار كانوا افرادا ، هم بحكم اهتماماتهم الفكرية ، يعكسون التوتر بين المؤسسات والافكار. وهم بالضرورة يرفضون الجهود المؤسسية للحد من مجال البحث الفلسفي . كلا الجانبين إذن مثلا الاطراف الفكرية وليس المراكز الفعلية للسلطة البيروقراطية . ولقد اظهرت المراكز نفسها بعض التحرك المضاد ، ليس حيال الاجتماعات - التي تحملوها لاسباب سياسية تكتيكية جزئية - ، ولكن حيال درجة الاختلافات بين نظامي التفكير والتي قيل انها اغفلت على لسان بعض المتحدثين البارزين * .

= تتمتع بها اليوم آراء كانت بالامس متحجرة . ولعل ابرز الاجتماعات المعقودة بين المسيحيين والماركسيين هي تلك التي نظمها باولوس غيزيلشفت والتي بدأت في سالزبورغ عام ١٩٦٥ وتلاها اجتماعات في هيرنشيمسي عام ١٩٦٦ (حيث القيت الكلمة التي وردت اعلاه) ثم في ماريانسك ولازن في تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٧ . وقد ضم الاجتماع الثالث ٢٠١ ما بين فلاسفة ماركسيين وعلماء لاهوت وعلماء ماركسيين ومسيحيين من ١٦ دولة اوروبية والولايات المتحدة (وامتنع الاتحاد السوفياتي من الحضور) .

كان موضوع الاجتماع الثالث «الابداع والحرية في المجتمع الانساني» (وكانت مواضيع الاجتماعين الاول والثاني هي «المسيحية والماركسية اليوم» و«انسانية المسيحية والماركسية الانسانية») عبّر الطرفان في الاجتماع الثالث عن وجهة النظر القائلة بأن الشخصية الانسانية لا يمكن ان تتطور الا ضمن اطار من الحرية . وبأن على كل من الماركسية والمسيحية ان يعيد تنشيط وتوسيع اطره ومؤسساته بالاضافة الى معتقداته ، وبان الشخصية الانسانية لا يمكن فهمها كليا على المستوى الوجودي وخصوصا على المستوى المادي ، وبضرورة حياد الدولة في ميدان المشكلات الفلسفية والاخلاقية وبان على الماركسية الانسانية ان تضمن التعددية شرطا مسبقا للحرية الانسانية . وختاما ان كلا من المسيحية والماركسية مستغرق في بحث مستمر لا ينتهي من اجل التحقيق الكامل للحرية الانسانية (هذه المقتطفات هي من الاستنتاجات التي توصل اليها شارل اندراس في بحثه حول «المسيحيين والماركسيين في ماريا نسك لازن» ١٠ يوليو - تموز ١٩٦٧ ، وقد احتوى هذا البحث على افضل تحليل وايته لهذا الاجتماع . انظر كذلك البحث القيم بقلم كيفين دفلين تحت عنوان «الحوار الكاثوليكي الشيوعي» ، **مجلة مشكلات الشيوعية** مايو - يونيو / ايار - حزيران ١٩٦٦ وبوجه خاص الاضافات الخاصة بأمريكا اللاتينية والواردة في الطبعة الاسبانية . كذلك انظر شارل اندراس ، «الحوار المسيحي الماركسي» ، **مجلة اوروبا الشرقية** ، مارس - اذار ١٩٦٨ .

كان احد افرازات هذا الحوار مجلدا صغيرا مثيرا يتناول مشاكل العصرنة الفلسفية والاجتماعية اعده بشكل مشترك زعيم في الحزب الشيوعي الفرنسي وعضو في جمعية يسوع (روجيه غارودي وكوينتن لاور ، **الحوار المسيحي الشيوعي** ، نيويورك ١٩٦٨) .

* عقب الاجتماعات صدرت عن الطرفين تأكيدات بأن الحوار لا يمكن ان يفهم منه اي تغيير في المفاهيم العقائدية الاساسية ، صدر ذلك عن الحزب الشيوعي الفرنسي وعن مجلس الاساقفة =

هذه القيود بغض النظر عن النقاشات التي ستستمر وتتوسع بلا شك ، لها دلالة كبيرة فهي تشير الى الصعوبة المتزايدة لحصر البحث من اجل رؤية عالمية اكثر معقولية داخل اطر مؤسسية محددة ، طالما تعتمد هذه المؤسسات بوجودها ذاته على المحافظة على شخصيتها المتميزة المنفردة . لذلك مـــا يبدو على السطـــح محدودا وبسيطا هو في الواقع خطوة كبرى بعيدا عن وجهة النظر الغربيـــة التقليدية التي ترى مثل هذه الحوارات امرا ملعونا (٢٥) .

ان الاصلاحات والحوارات داخل الكاثوليكية قد اعطت اكلها في كثير مـــن نواحي الحياة الشخصية بأن حل محل سلطة المؤسسة حكم الضمير الفردي . (ذلك مثلا كان رد فعل كثير من الاساقفة والكاثوليك العاديين في قضية تحديد النسل). فبالنسبة الى انسان روحاني الدوافع ، يمكن للضمير ان يكون معلما اكثر صرامة من السلطة الكنسية ، ولكن بالنسبة الى معظم الناس يؤدي الاعتماد على الضمير قطعا الى ان تصبح الكنيسة بشكل متزايد لا علاقة لها بالامر . كانت تلك هـــي المشكلة التي قادت يوما بعد يوم البابا بولس السادس لتبني موقف دفعته اليـــه الحاجة الى الدفاع عن المؤسسة بالرغم من التزامه السابق بالتحديث : «اليوم كما يمكن لاي انسان ان يرى فان الاورثوذكسية بمعنى طهارة العقيدة لم تعد تشغل المكان الاول في التكوين النفسي للمسيحيين . كم من الاشياء ، كم من الحقائق تخضع الان للتساؤل والشك ؟ اي قدر يطلبونه من الحرية في التعامل مع التراث الاصيل للعقيدة الكاثوليكية ، ليس فقط من اجل ... شرحها بشكل افضـــل للانسان في عصرنا هذا ، ولكن في بعض الاحيان لاخضاعها لتلك النسبية التـــي تسعى بها الافكار الدنسة ... لان تعبّر عن نفسها من جديد ، او لاعـــادة صياغتها ... طبقا للذوق المعاصر وقدرة استقبال العقلية الحديثة ؟» (٢٦) .

لقد كان البابا محقا في ملاحظته ان «الارثوذكسية ... لا يبدو انها تشغل المقام الاول في التركيب النفسي للمسيحيين» . ليس هذا صحيحا على المستوى الرسمي من الطاعة العلنية لطقوس معينة ثابتة فحسب وانما حتى بالنسبة الـــى

= الفرنسي وعن الناطقين باسم الفاتيكان . ولقد أكدت هذه البيانات على نحو ما النقطة التي اشار لها احد ابرز الكاثوليك المشاركين في الندوةوهي ان الحوار الحقيقي لا يمكن ان يكون ممكنا حتى يتخطى كل جانب موقفه التقليدي حول «وحدانية المعتقد» التي تضع كلا من المجتمع الكهنوتي والحزب في مركز التاريخ (الاب جيليو غيراردي من جامعـــة سلسي — روما عن **اللوموند الاسبوعية ٥—١١** مايو — ايار ١٩٦٦ ، ولقد كرر نفس الآراء في ماريانسك لازن (اندراس ، «الحوار المسيحـــي الماركسي» ، ص ١٣)) .

٢٥ — هاتان الكلمتان هما عنوان كتاب لغارودي **De l'anathème au dialogue** ، باريس١٩٦٥ ، الذي يناقش الحوار المسيحي الماركسي .

٢٦ — كما نقلتها الواشنطن بوست ، ٧—١—١٩٦٩ .

المضمون الاساسي للايمان وذلك كما هو ظاهر في جدول -٨- المأخوذ من استطلاعات غالوب سنة ١٩٦٨ . ان المستوى المنخفض نسبيا لعدد الذين يترددون على الكنيسة بانتظام - بينما يكشف عن عدم الاهتمام المتزايد بالطقوس الاكثر اساسية وان تكن الاقل ضرورة - لم يكن كاشفا بقدر ما كانت تلك الفجوة المثيرة بين اولئك الذين يؤمنون بالله والذين يؤمنون بالحياة بعد الموت . أن جوهر الايمان المسيحي هو ان الاولى تضمن الثانية . والله بدون الاعتقاد بالحياة بعد الموت شيء يختلف تماما عن الاله المسيحي .

جدول -٨-

	هل تؤمن بالله ؟ نعم	هل تؤمن بالحياة بعد الموت ؟ نعم	هل تذهب الى الكنيسة مرة كل اسبوع ؟ نعم
الولايات المتحدة	٩٨بالمئة	٧٣بالمئة	٤٣بالمئة
اليونان	٩٦	٥٧	٢٨ (اثينا)
اورغواي (مدن)	٨٩	٤٢	٢٤
النمسا	٨٥	٣٨	٣٨
سويسرا	٨٤	٥٠	٣٠
فنلندا	٧٣	٥٥	٥
المانيا الغربية	٨١	٤١	٢٧
هولندا	٧٩	٥٠	٤٢
بريطانيا العظمى	٧٧	٣٨	—
فرنسا	٧٣	٣٥	٢٥
النرويج	٧٣	٥٤	١٤
السويد	٦٠	٣٨	٩

ان بيانات هذا الاستقصاء بالرغم من كونها مفتتة وسطحية الا انها تلقي ضوءاً كاشفا على مشكلة معينة . فمن ناحية يشير الاستقصاء الى ازمة في الايمان المأسس . ومن ناحية اخرى مع ذلك يعني الاستنتاج بأن انخفاض عدد الذين يترددون على الكنيسة وعدم الايمان بالحياة بعد الموت حالة عدم تدين عامة هو استنتاج خاطيء . على العكس تشير النتائج الى ان عدم التدين الحقيقي - بمعنى الرفض العميق لفكرة وجود واقع بعد النهاية - ليس موجودا او على الاقل لم

يصبح بعد موجودا . ان الايمان بإله لا يمكن للانسان ان يحدد كنهه قد يكـــون مجرد استمرار من مجتمع تقليدي سابق في اطار التاكيد على الحياة المباشرة ، ولكنه قد يعكس ايضا البحث عن علاقة شخصية جدا وداخليـــــة ومباشرة بين الفرد والله .

تحويل الايمان الى امر خاص :

في الواقع ان انحسار الكنيسة كمؤسسة يمكن ان يكون علامة على تقويـــة التدين . لقد كانت الكنيسة وسيطا ضروريا بين الله والانسان في مرحلة فقـــر الانسان الروحي وعدم الادراك التاريخي . ولقد قدمت نظاما جامدا للسلــــوك والمحرمات المأسسة (وهي التي تدهورت تدريجيا في تشددها كلما ازداد تنظيم الانسانية على اساس تعايش اجتماعي على مستوى اشخاص لا على مستوى دولي) كما كانت الكنيسة هي الصلة بالحياة الابدية .واذ تذوي الكنيسة سيرى البعض في تحلل قيودها بلا شك اذنا بالانحراف ، وبالنسبة الى كثيرين سيكون ذلك امرا لا اهمية له ولكن بالنسبة الى آخرين سيكون ذلك بداية لعلاقة اكثر مباشرة وشخصية وأقل طقوسية مع الله .

وقد يعني هذا ، ظهور استجابات دينية تعددية الى درجة كبيرة من النحـل والحلقات وجماعات المؤمنين ، كل منها لها شكل مختلف في التعبير عن ايمانها ، ناهيك عن شكل من القداسة اكثر خصوصية حتى داخل الكنيسة الكاثوليكية (٢٧). وبالنسبة الى معظم الناس ستستمر الكنيسة المنظمة في ان تكون المرفأ الرئيسي ولكن بالنسبة الى الكثيرين سيتم التعبير في العلاقة مع الله بشكل اكثر فردية بكثير مع الاحتفاظ باحتياجاتهم الفكرية والنفسانية الخاصة . ان شعبية تيلار دي شردان هي مثلا احدى العلامات على كيفية شعور عصرنا بالحاجة الى الجمع بين الصوفية والعلم ، الايمان الصوفي والمعرفة بالعلم المادي ✱ .

---

٢٧ ـ للحصول على وجهة نظر اخرى مشابهة انظر اميل يبن ، «دوافع السلوك الديني وانتقال مدنية ما قبل التقنيات الى مدنية تقنية» **التغيير الاجتماعي** Social Change المجلد ١٢ ، ١٩٦٦ .

✱ يطرح مفكر فرنسي هذا الموضوع بشكل اقوى مؤكدا على الاعتماد المتبادل بين العلم والتصوف فيقول : «يجب ان نستنتج من ان تطور ظواهر التصوف الى اقصى درجة في اعلى المجتمعات تقنية لم يكن مصادفة . ولا بد من توقع ان هذه الظواهر ستستمر في الزيادة . وهذا ما يشير على الاقل الى خضوع حياة الانسان الدينية الجديدة للتكنولوجيا . كان الاعتقاد في الماضي هو ان الدين والتقنية امران متعارضان يمثلان تركيبتين مختلفتين تماما . كان يقال ان تطور مجتمع مادي بحت سيؤدي الى ظهور صراع حتمي بين الآلة والاقتصاد من جانب وبين الاديان والفنون والثقافة القائمة من جانب آخر . ولكننا لا نستطيع ان نستمر بهذا الراي البالغ التبسيط ان التصوف خاضع =

ان التخمر الحالي في المسيحية هو إذن جزء من الكراهية العامة للايمان الممأسس الذي يتسم به عصرنا . هذه الكراهية تعكس طبيعة اسلوبنا الفكري وطريقتنا المفتتة الانطباعية التي اصبحنا بسببها ضعافا امام الواقع ، كما تعكس ايضا الشعور الغريزي بأن الافكار تكون ذات شأن فقط عندما يمكن ان ترتبط بنجاح مع واقع ديناميكي . ان مأسسة اي فكرة معناها عرقلة قدرتها على التهيؤ للتغيير . عندئذ يصبح التطور المقبل للفكرة معتمدا لا على مقدرة العقل في ادراك سرعة واهمية التغيير ولكن على معدل التغيير داخل التنظيم البيروقراطي الذي احتوى الفكرة . لذا تصبح مصالح السلطة المكتسبة اكثر اهمية من الالتزام الاخلاقي او الفكري .

ان ازمة المعتقدات المأسسة هي المرحلة الاخيرة في عملية العلمنة التقدمية للحياة ، اي في انفصال الوجود الاجتماعي للمرء من اطار المعتقدات . لقد انفصل العمل واللعب ، وتنفصل الان بشكل متزايد عملية تأمل الذات ، انفصلوا جميعا تدريجيا عن الايمان المسيحي الرسمي (٢٨) . وقد بداوا في الانفصال عن الماركسية في ظل الشيوعية كذلك .

لقد كان من الاسهل تكوين ايمان مؤسسي في عصر العزلة الجغرافية والحضارية ومن ثم النفسية ، وكان من الممكن ان يزدهر التعصب الديني في ذلك النطاق . وكان للحروب الدينية معانيها المعنوية . ولقد ادى الارهاق المادي (بعد حرب الثلاثين عاما ومعركة فيينا في ١٦٨٣) وكذلك نمو مذهب الشك ، الى ان تصبح الحروب الدينية غير ملائمة . وفي زماننا اصبحت الشيوعية آخر الافكار الجامدة المطلقة لانها تستطيع ان تستعمل القوة لتؤمن الانفراد . ولم يكن مصادفة ان الصين المعزولة قد اصبحت مؤخرا اكثر انصارها تهوسا ، – ولا ان الاتجاه الايديولوجي المحافظ في الدول الشيوعية تصحبه عادة جهود تبذل لعزل المجتمع عن الاتصال بالعالم الخارجي باستخدام اجهزة التشويش الاذاعي والاجهزة الاخرى * . ان

= لعالم التقنيات وفي خدمته . والتقنية في اهم مستوياتها تجمع بين نبضات الانسان الفوضوية غير الاجتماعية في المجتمع . هذه النبضات تمارس نفوذها وتتلقى ردود الافعال عليها بشكل محدد عبر تشغيل الوسائل التقنية . ان الظواهر الصوفية للنفس الانسانية تنتشر في العالم كله ولم يكن ممكنا ان تصل ذلك بدون الوسائط التقنية بل كانت ستبقى بدون تأثير على الاطلاق» (اللول ص ٤٢٣) .

٢٨ – انظر هارفي كوكس ، **المدينة العلمانية** the Secular City ، نيويورك ١٩٦٥ .

* ومع ذلك فوسائل السيطرة الخارجية هذه تقل قدرتها باستمرار في اخفاء النقص الواضح في الالتزام داخلها . ومن المفيد ملاحظة انه في ١٩٦٨ عندما ادت حملة التطهير المعادية للمثقفين والمعادية للسامية في بولندا الشيوعية الى اضطرار بعض المثقفين الشيوعيين الذين كانوا حتى تلك اللحظة ارثوذكس في ولائهم ، اضطرارهم لمغادرة البلاد ، فان عددا منهم قد توجه على الفور الى الولايات المتحدة «الرأسمالية» باحثا عن عمل في المؤسسات المختلفة المتخصصة في دراسة الشيوعية والتي ينظر لها في الغرب انها معادية للشيوعية قلبا وقالبا .

الاحتقان العالمي ـ بالرغم من انه ليس بالضرورة مثيرا للتفاهم المتبادل ـ هـــو ببساطة معادٍ للمؤسسات وللايديولوجيات التي تعتمد على الاقناع القسري .

مثاليا ، في هذا الوضع يجب ان يسعى الانسان نحو الانجاز الكامل وذلك بالجمع بين تأمل الذات روحيا وبين الضرورة المعنوية للعدالة الاجتماعية . ويناقش هارفي كوكس هذا الامر في كتابه العميق ويقول «اذا كان الناس ، لا الاشبـــاح الوهمية ، هم حمَلة معنى الحياة الفعلية ، إذن فمن الممكن تفهم اهداف اي انسان حتى وان كانت غير الاهداف التي تتبناها مجموعة انسان بعينه ، وذلك بدلا من رفضها وادانتها .

ان تنوع النظرات العالمية واستقلالها عن بعضها يوفر فرصا مؤاتية ، لا للتدمير المتبادل ، وانما لصياغة اطار مجتمعي يمكن من خلاله تشجيع وتغذية هذا التنوع . مثاليا ، ان المدينة العلمانية هي هذا المجتمع . انها تقدم وضعا يمكن ان يزدهر فيه خليط من الاهداف الانسانية والمشاريع لان كلا منها يعترف بأنه محلي ونسبي. ان العلمانية الاصيلة تحتاج الى الا يسمح لاي راي عالمي أو تقاليد أو ايديولوجية لان تصبح الرأي العالمي الرسمي المفروض بالقوة حيث لا يسمح لاي آراء اخـــرى بالوجود . هذا بالتالي يحتاج الى مؤسسات اجتماعية وسياسية تعددية» (٢٩) .

ان تشكيل مدينة علمانيةمثالية يتطلب نضجا ومسؤولية اجتماعية ضخمة . كما انها تستدعي التعمق الفلسفي وشيئا من الضوابط طالما لا يسهل التحول من تقاليد الفكر الجامد الى حالة التنوع . ان التنوع في المعتقدات هو بالتأكيد من المتطلبات الضرورية للحرية ، ويمكن ان تكون ملازمة لعملية الخلق (بالرغم من ان العصور الوسطى وكذلك الشرق يقفان ضد ذلك) . ولكن السير بفكرة التنوع حتى نهايتها ـ الى حيث يصبح التنوع ذاته هو مضمون الايمان ـ يخلق اخطـــاره الخاصة . فرد الفعل الصحي ضد العقائد المأسسة لا يكتمل الا اذا اشتمل على صياغة مبادىء بديلة للعقد الاجتماعي وآراء بديلة لدور الفرد . ان الافكار غـــير المتماسكة والهشة والمفتتة لا يمكن ان تؤدي الى رؤية دائمة ولا الى اساس متماسك للنشاط . ان الافكار الشعبية التي تنتقل مع الريح يمكن ان تعكس بشكل صحيح الخلفية النفسية والتوترات الاجتماعية في واقعنا السريع التغير ، ولكن هل يمكن ان تقدم اساسا متماسكا لفهم هذا الواقع او للسيطرة عليه ؟ ان النسبية الفكرية ربما لا تكفي لمواجهة تحدي النشاط الذاتي الذي لا يمكن قبوله ابدا لانه قائم على معايير شخصية بحتة في تقييم الواقع .

هذه المشكلة لا تنشأ فقط في الانظمة التي تلعب فيها المعتقدات الرسمية دورا حاسما ، انها تواجه ايضا الدول الغربية الديمقراطية الليبرالية . فهذه الـدول ايضا تعتمد على توليفه من الافكار والمؤسسات،بالرغم من انها اقل رسمية بكثير،

---

٢٩ ـ المصدر السابق ، ص ٦٩ .

ويطرق اكثر وضوحا . ان الاضطراب الذي يعم الشيوعية والمسيحية ظاهر ومباشر حيث الافكار القلقة تواجه المؤسسات غير المستسلمة . اما ازمة الولاء للديمقراطية الليبرالية فانها تدعو الى حيرة اكبر ولكنها ليست أقل واقعية . ان التشغيل الفعال لدولة ديمقراطية ليبرالية يحتاج الى الجمع بين التفاني الاجتماعي نحو فكرة مجردة عن الديمقراطية والتقيد الحرفي بالقانون في الممارسة وهو ما يمكن اجهاده في ظروف الضغوط والازمات . وبالاضافة الى ذلك من الصعب بالمقارنة مع افكار كالثورة والظلم والحرية ، تجسيد العملية الديمقراطية . وبدلا عن ذلك تتطلب بكلمات اكثر تحديدا درجة عالية من الالتزام الاجرائي : اي الاهتمام بالوسائل وكذلك الاهتمام بنهاية العملية . وما لم يتم حقن الالتزام الاجرائي بمحتوى معنوي جديد لا يكون كافيا في المواجهة مع القضايا التي تطرح كمطلقات والتي يقال انها تحتاج الى العواطف اكثر مما تحتاج من اجراءات لكي تحل .

احتفالات تمثيلية والتاريخ يتحول

«نحن نرفض العالم ، نحن لم نعد حتى «خونة» طالما يؤدي ذلك الى صلة بيننا وبين ما نخونه . نحن فيتكونغ الفكر ... ان فلسفة الغد ستكون ارهابية : ليست فلسفة عن الارهاب ولكن فلسفة ارهابية متحالفة مع سياسة ارهاب نشطة» (٣٠) . هذه الكلمات لفيلسوف شاب من السوربون تعكس لنا الدرجة التي يحل بها الانفعال محل العقل نتيجة رد الفعل لما يشعر الكثيرون بأنه فشل العقلانية في النشاط . ان «رفض» العالم هو في جوهره رفض اساليب التفكير السائد وإحلال للصوفية والنشاط في خدمة مفهوم مجرد عن الثورة . وما كان بالامس «هروبا من الحرية» له ما يعادله اليوم في الهروب من العقل .

الهروب من العقل :

هذه الحالة المزاجية في اقصى اشكالها ـ وقد تجسدت باحداث الشغب الطلابية في كاليفورنيا وجامعة كولومبيا وكل من فرنسا وبرلين الغربية ولندن وروما وبلغراد ووارسو وطوكيو وبشكل مميت جدا في جامعة مكسيكو (حيث قتلت اعداد من الطلاب في نهاية عام ١٩٦٨) بالاضافة الى المحاولات المشابهة التي لم تحظ الا بقليل من الاعلان عنها في اماكن اخرى ـ قد رفعت النشاط من اجل النشاط الى مستوى المبدأ المعنوي . وقد زعم آبي هوفمان زعيم اليبز الامريكيين:

---

٣٠ ـ بيار تروتينيون في مجلة لارك ، L'Arc ، باريس عدد ٣ ، ١٩٦٦ ـ ١٩٦٨ ، كما نقلها وايموند آرون ، «على الحواجز» انكونتر ، اغسطس ـ آب ١٩٦٨ ، ص ٢٣ .

«أن النشاط هو الواقع الوحيد ، ليس فقط الواقع وانما المعنويات ايضا» (٣١) ولقد ردد كلماته هذه بفعالية اكبر وبوجدانية حماسية اعلى مثيله الالماني دانيال كوهين ــ بإنديت زعيم اضراب الطلاب الفرنسيين في ١٩٦٨ الذي اعلن «ان العنف هو السعادة» (٣٢) وقد شرح اثنان من المراقبين المتعاطفين مع الحركات الراديكالية الجديدة امر المتمردين المعاصرين «بأنهم يفكرون في أن رجال الابراج العاجية الذين يقدمون الافكار قد خدعوهم وكذبوا عليهم وان النشاط والخبرة العفوية ستظهر لهم الحقيقة» (٣٣) .

من هذا الموقف استخلص الراي القائل ان العقل في ذاته مشكوك فيه وانه يجب ان يدعم بالعواطف ، وانه اذا كان لا بد من الاختيار فالعاطفة مرشد افضل من العقل . واذ راوا في العالم المحيط بهم النفاق وفشل العقل ــ حيث العقل في خدمة الشر الذي إما ان يجعله عبدا للايديولوجية او يوظفه كأداة علمية لتحسين قدرة صنع الحرب ــ ادانوا ومعهم حتى المنشقون المعتدلون ، الليبراليين المعاصرين لافتقارهم الى الانفعال * . لقد شاهدوا بعقل بارد ، لا بمجرد غياب للتذمر المعنوي ، التزاما **بالوضع الراهن** وعزما على القيام بتغيير هامشي فقط واصرارا على تجنب مواجهة القضايا المعنوية الاكثر اساسية ** .

---

٣١ ــ آبي هوفمان ، **الثورة وجحيمها** Revolution for the Hell of it ، نيويورك ١٩٦٨ .
ان افضل تحليل لايديولوجية الثورة الطلابية هو في المقالة التي كتبها ليوبولد لابتز بعنوان «الطلاب والثورة» **مجلة سرفي** Survey (لندن) يوليو ــ تموز ١٩٦٨ .

٣٢ ــ كما نقلها ن. مولتشانوف ، «تمرد الطلاب في الغرب : المغزى والاسباب والاهداف» **المجلة الادبية** Literaturnaya Gazeta ، ٦-١١-١٩٦٨ .

٣٣ ــ بول جاكوبس وسول لاندو ، **الراديكاليون الجدد** the New Radicals نيويورك ١٩٦٦ ، ص ٧ .

* في ديسمبر ــ كانون اول ١٩٦٨ وفي مؤتمر دولي كبير عقد في برنستون حول موضوع مستقبل امريكا كان احد الاتهامات التي ساقها زعيم طلابي هو ان المشاركين الليبراليين المستقرين يميلون الى الاعتماد على العقل على حساب الانفعال . هذه التهمة دفعت بآثر شليسنجر الى التعليق قائلا «ان العقل بدون انفعال عقيم ، ولكن الانفعال بدون عقل هستيريا . ولقد افترضت دائما انه يجب توحيد العقل والانفعال في اي شكل من الاشكال الفعالة للنشاط العام . لا يمكنني ان اتخيل اسوا بالنسبة الى مجتمعنا من رفض الشباب للتحليل العاقل . فان نجحنا في تدمير نظام العقل وان جعلنا السياسة تنافسا في الانفعال ومنافسة في العواطف وتنافسا في اللاعقل وفي العنف فان النتيجة الحتمية ستكون هزيمة اليسار» .

** هذه التهمة وجهت ضد الباحثين العاملين في مجال الدراسات عن المستقبل ، وفسرت «مستقبليتهم» من جانب النقاد باعتبارها هروبا اخلاقيا من المشاكل الاجتماعية القائمة في الوقت الحاضر . ولقد ادى ذلك الى مواقف طريفة من غير قصد كذلك الموقف الذي حدث في مؤتمر برنستون الآنف الذكر عندما هاجم راديكالي مليونير «المستقبليين» لاغفالهم دور الثروة في المجتمع الامريكي ، والح وهو يتخلى عن اناقته ويرتدي زي الثوار المفتوح الصدر ، الح على المجتمعين ان «يختاروا المساواة ويتخلوا عن الجشع» .

ان الاعتماد على الانفعال والنشاط لديه الميزة الاضافية من انه لا يحتاج الى مشاريع معدة سلفا ومبرمجة . فان الايديولوجيات القديمة بالمقابل تقدم نقـــدا للحاضر ومسودة للمستقبل وبذا تعرض نفسها للنقد على المستويين : عمليا (هل يمكن تحقيق احلامهم ؟) ، وخلال الاداء (لماذا لم تتحقق احلامهم ؟) . ان سياسة التصوف لا تحتاج الى برنامج لتولد النشاط ، لذا لم يضطرب انصارها كثـــيرا عندما واجهوا النقد الذي قدمه اليسار الاشتراكي القديم والاحزاب الشيوعيـــة المستقرة بانهم فارغون من ناحية البرامج * . على العكس ردوا بأنه ليس من خلال الاصلاحات المؤسسية الواردة في البرامج يمكن الحصول على الحرية الحقيقيـــة وانما من خلال خلق مجتمع من العواطف. وبخلق هذه الدولة العاطفية كان متمردو اواخر الستينات يأملون في التغلب على الكبت الجنسي وبقيمة «البعد الواحد» في المجتمع الصناعي الحديث . ولقد زودهم كتاب هربرت ماركو **الانسان ذو البعد الواحد** بإطار فكري للرجوع اليه (تماما كما فعلت كتب فرانز فانون التي اثـارت العنف العرقي في ثوار بعض مناطق العالم الثالث) بالرغم من ان نصيحته وبرنامجه كانا محدودين : «لان البديل الملموس في اللحظة الراهنة لا يزال هو النفـــي فحسب » (٣٤) .

ان الدعوة من اجل «الحرية الحقيقية» تسمح بقلب الحرية التقليدية ، وهنا يكمن احد التناقضات الاساسية للحركة . ولقد لاحظ ليوبولد لابدز ، ببصـــيرة ثاقبة التشابه المثير بين الفوضوية الرومانسية لثورة الطلاب المعاصرة وآراء ماكس سترنر الذي اكد في ١٨٤٥ ان «شعبا ما لا يمكن ان يكون حرا الا على حســـاب الفرد» (٣٥) ولذا يمكن للثائر ضد «الحرية القمعية» للغرب ان يسحب تحديداته على حرية اولئك الذين لا يشاطرونه مثل الحرية الحقيقية وأن يبدي لامبـــالاة نسبية لكبت الحرية في الشرق . وبالاضافة الى ذلك يمكن انكار حق الكتابة او الكلام بحرية ، ومنع ممارستهما بالعنف ، طالما يحرك العنف الالتزام العاطفـــي

---

* تحدث ماكس استمان بلسان كثيرين من الاشتراكيين القدامى واوضح انه «يشعر بنوع من الاسى تجاه هؤلاء المتمردين الشباب هذه الايام ... لديهم عاطفة لا تختلف عن عاطفتنا ... يريدون ان يصنعوا الثورة ولكن ليس لديهم هدف نهائي، ان لدي قدرا من التعاطف العاطفي معهم ولكنهم يثيرون الشفقة لانه ليس لديهم خطة انهم يريدون الثورة بهدف الثورة فقط» (نقلا عن نيويورك تايمز ٩ يناير ــ كانون ثاني ١٩٦٩) . اما المتحدثون الشيوعيون فقد عبروا عن آرائهم بشكل اكثر حدة وادانوا طموحات الثوار الجدد باعتبارها «كعكة نيئة عليها بهارات من الجنس والمخدرات» (مجلـــة تريبيونا لولو ، ٩ مايو ــ ايار ١٩٦٨) .

٣٤ ــ خطاب في ١٩٦٧ في الجامعة الحرة في برلين الغربية ، نقلها لابتز ، «الطلاب والثورة»، ص ٦ .

٣٥ ــ المصدر السابق ص ٧ .

بالحرية ، ثم هو مخصص لتأكيدها . انتعريف الحرية عندئذ يشتق من قناعة داخلية ذاتية وهي ان المرء على صواب وليس من انماط خارجية للعلاقات تضمن الاختيار والحماية للفرد بغض النظر عن آرائه .

ان الخطورة الفكرية لهذه الظاهرة — وان لم تكن خطورة اجتماعية — قد خففت فيما بعد ببعض التصنع عند مستوى التعبير السياسي . فبالرغم من ان كل ثورة اصيلة لا مفر من ان تكون لها بعض صفات الماضي ، تكتسب صفاتها وأسلوبها والفاظها المميزة بالذات لانها ثورة : اي قطيعة حادة مع الماضي . في هذه المجالات اختلفت كومونة باريس عن الثورة الفرنسية ، والكومونة بدورها لم تتكرر في الثورة البلشفية . ومع ذلك وفي السنين الاخيرة اتخذ قدر كبير من كتابات الطلاب ورموزهم وسلوكهم الشخصي شكل الوعي بالذات في احتفال تمثيلي يراد به اعادة تمثيل ما حدث في التاريخ .

في بعض الاحيان بدا ان الثورة الفرنسية هي التي تقدم السيناريو — خصوصا في فرنسا — ولكن غالبا ما كانت بتروغراد وهافانا هي التي يعاد تمثيلها . لقد تخيل زعماء الطلاب انفسهم شخصيات تاريخية ، ولكنهم في تقليدهم هذا غالبا ما انجرفوا الى العبثية . ففي ازمة ١٩٦٨ في جامعة كولومبيا اصدر زعيم الطلاب المناضلين كتيبا يحمل عنوان كتاب لينين «ما العمل ؟» واعلن الطلاب الذين احتلوا احد الابنية انهم «كومونة» . وكانت قيادة مناضلي برلين الغربية تدعى «سمولني» . وكانت اللحى الثورية (من نمط لينين حتى كاسترو وماركس) وبذلات القتال على طريقة غيفارا هي الرداء الالزامي امام ديكور من الاعلام الحمراء او السوداء .

حتى العنف كان مسرحيا اكثر منه حقيقيا . فقد اتخذ في طوكيو شكل المعارك التي تدور بأسلوب محدد حيث المقاتلون المدرعون يستخدمون الدروع والحراب اما في باريس فان اتفاقا ضمنيا بين البوليس والطلاب جعل الاسلحة مقصورة على اسلحة العصر الحجري الحجارة واحجار الطرق والعصي ✶ . فقط في مكسيكو كان العنف حقيقيا بمعنى ان كل الوسائل المتاحة قد استعملت تماما كما في الثورات الحقيقية ✶✶ .

✶ في كل فرنسا — وبالرغم من الانهيار المؤقت الظاهر للسلطة في مايو — ايار ١٩٦٨ — مات شخص واحد فقط وكان ذلك بشكل عرضي الى حد ما .

✶✶ ولكن وبالرغم من ان أسلوب وشكل التمرد الطلابي كان مستحدثا وطموحاته كانت غير ممكنة التحقيق بشكل مقصود (احد اشهر شعارات مايو — ايار ١٩٦٨ في باريس كان «كن واقعيا واطلب المستحيل !») ، الا ان فتوته على الاقل كانت اصيلة . لا يمكن قول نفس الشيء عن المعجبين بالمناضلين وهم متوسطو العمر ، والذين بالرغم من انهم كانوا سلبيين من الناحية الفعلية قد ارهقوا انفسهم بما بذلوه من جهد لكي يشربوا ثانية من نبع الشباب ولكي يلتحقوا مرة اخرى بحيوية الشباب . كانت وسائلهم في التوحد مع حركة الشباب في اغلب الاحوال وسائل لفظية . ومع ذلك فقد اتهم احد الباحثين الامريكيين هؤلاء النقاد الذين انتقدوا مساوىء بعض المناضلين بأنهم =

ولكي يمكن تعريف الاهمية التاريخية لهذه الاحداث من الضروري البحث فيما وراء العنف والشعارات ، فيما وراء التشابه السطحي بين الانتفاضات التي عمت مدنا عديدة في اجزاء عديدة من العالم في مثل هذا الوقت القصير . ان التحليل الاعمق يكشف مباشرة عن تمييز هام : بعض الجوانب في التظاهرات كانت بوضوح سياسية في طابعها وهدفها ، والاخرى ـ بالرغم من ارتباطها بالسياسة وبالرغم من مشاطرتها قدرا معينا من الطموحات العالمية ، وبرغم ان لها قاعدة عاطفية عريضة ـ كانت اجتماعية نفسانية في مصدرها وذات غموض معنوي واخلاقي في محتواها . ولقد ادى الربط بينهما الى ان تميل كل منهما الى تغطية الطابع الخاص بالاخرى .

البعد السياسي :

ان التمييز بين المجموعتين مهم لفهم العوامل والقوى المشتركة وفهم ما تنذر به الاحداث . ان المظاهر السياسية اسهل في بعض جوانبها في التشريح والتحليل. وبشكل عام يمكن القول انها تنقسم الى صنفين . في الغرب وبالذات في الولايات المتحدة اعتمد المناضلون ذوو الدوافع السياسية التراث الايديولوجي لليسار القديم في هجماته على المجتمع الراسمالي ، والشعور الاحدث بالغضب

= «يشنون حربا ضد الشباب» وقارن هذه الحرب بحرب فيتنام . ودعا «الى ثورة ثقافية» في امريكا (ريتشارد بواربر ، «الحرب ضد الشباب» ، **الاطلنطيك** اكتوبر ـ تشرين اول ١٩٦٨) .

ولم تكن بعض الحالات الخاصة بحماسة متوسطي العمر ظواهر معزولة وكما اوضح لابدز «لا شك انه في حالات عديدة نجد ان الاباء البشعين هم اسوأ من الاطفال البشعين . لقد تحول بعضهم من الثورة ضد «الفقر» بين الوفرة في الثلاثينات الى ثورة ضد مجتمع الوفرة في الستينات ، في الوقت الذي انتقلوا فيه هم انفسهم من الفقر الى الوفرة ، لممارسة الاغتراب مع خمسين الف دولار دخل في السنة الواحدة . ان المؤسسة الثورية في نيويورك ولندن اهتزت بالآفاق الثورية وكشفت عن ماوية ـ **الصالونات** الفردية واضافة طقوس في الادعاء على موجة اليوتوبيا المعاصرة . فقبل ان يسأل الناطقون الرسميون باسم «حركة السلطة السوداء» الطلبة المتجمعين في كلية الاقتصاد بلندن ليشكلوا اتحاد الطلاب الثوري الاشتراكي ، قبل ان يسألوهم ما اذا كانوا يعرفون كيف يصنعون قنبلة كازية ، كانت مجلة نيويورك ريفيو اوف بوكس (مجلة نيويورك لعرض الكتب) قد نشرت رسما توضيحيا وموجزا عن الكوكتيل مولوتوف على غلافها . ولم يمنع كتابها السياسيون من ان يأسفوا للعنف الامريكي . اما في فرنسا فقد وصل الاحتقار للذات بين التقدميين الاكبر سنا الى قمته خلال ثورة مايو ـ ايار . وفي اجتماع ضم جان بول سارتر والطلاب في السوربون صاح ماكس بول ـ فوشيه بأسى يليق بالمناسبة (لانك تمثل جيلا قد سقط فاني أطالبك بألا تسقط)» . (ليوبولد لابدز ، «الطلاب والثورة» **مجلة سرفي** (لندن ، يوليو ـ تموز ١٩٦٨ ص ص ٢٥ ـ ٢٦) .

الشديد بسبب الحرب في فيتنام . وقد كانت الولايات المتحدة بصفتها المجتمع «الامبريالي» و«الراسمالي» الاول دون منازع ، الهدف الاكبر . وقد لعبت الحرب دور المحفز للعواطف ، دور اساس الوحدة الدولية بين المناضلين الشباب ، والرابطة بين اليساريين القدماء والجدد والرابط بين ذوي العقلية السياسية وذوي الاهتمامات الاخلاقية * .

ولقد ظهر ان اولئك الذين كان دافعهم الاهتمامات السياسية فحسب هم اقلية صغيرة نسبيا بين الشباب القلق ، ولكنهم وفروا لهم قيادة ذات نفوذ . لقد كان اصحاب العقلية السياسية هم الذين اعادوا إحياء النقد الفوضوي للمجتمع المنظم ، واحيوا من جديد الشعار التروتسكي عن الثورة الدائمة ، كما كانوا هم الذين صاغوا الاهداف السياسية الاكثر تحديدا (مثل الدعوة الى الانسحاب المباشر للولايات المتحدة من فيتنام) . وعندما اكتسبت الحركة قوة دفع ذاتية واتسعت جاذبيتها ، تم توسيع الاهداف السياسية واصبحت اكثر غموضا ومطالبا ، وربما كان ذلك استجابة للاحتياجات النفسية والاخلاقية الاقل تحديدا بين الانصار . ولم يعد الامر امر انهاء سياسة حكومية معينة ، ولا تحقيق اصلاح معين ، لان النظام الموجود هو راسمالي في طبيعته لذا فهو غير قابل للعلاج جوهريا — يجب القضاء عليه قبل ان يمكن تحقيق اصلاحات حقيقية . وظلت المواضيع المحددة غامضة بينما تراوحت لغة البرامج من كوهين بانديت وحثه على النشاط — ورفض الشيوعية ** — الى ترديد مبسط للهجة الماركسية ***

---

* وهكذا قامت الحرب بنفس الدور الذي قامت به الحملات السابقة ضد القنابل النووية وذلك باعطاء فرصة للتعبير عن اهتمامات ذات طابع معنوي اساسا بتبني موقف سياسي معاد للولايات المتحدة . ذكر فرانك باركن في كتابه راديكالية الطبقة الوسطى : ان الاساس الاجتماعي للحملة البريطانية لنزع السلاح النووي (مانشستر ١٩٦٨) قد اظهرت كيف عبأت هذه الحملة دعم الطبقة الوسطى المنحدرين من بين اولئك ذوي الاهتمام التقليدي بالاخلاق ، في حملة ضد «الشر» لقد اعتمدت الحملة بشكل كبير على لمحات رمزية صغيرة مثل الملابس الغريبة واللحى وغير ذلك من اشكال المسلكية المتميزة .

** لذلك شبه يوري زوخوف وهو من كتاب البرافدا المعروف بفجاجته شبه كوهين بانديت بأنه الذئب المجنون او المستذئب (برافدا ٣٠ مايو — ايار ١٩٦٨) .

*** الفقرة التالية تصلح مثالا : «ان الماركسية تصبح اكثر فاكثر القاسم المشترك لكل الحركات الطلابية في شمالي امريكا وأوروبا الغربية ، حتى في اتحاد الطلاب اليساري الجديد في الولايات المتحدة S.D.S . واعتقد ان هذا امر لا مفر منه ويتعلق بازدياد تعقد ونضج اليسار الجديد الطلابي العالمي ، وذلك على اساس ان الماركسية هي الفلسفة الاكثر تطورا وتماسكا وبلورة او انها النظرة العالمية اليوم التي يمكن باعتبارها نظرية اجتماعية منتظمة ان تتناول الواقع الموضوعي للمرحلة الرأسمالية ، كما انها تطرح امام الحركات الطلابية مهمات يتطلب تحقيقها ان يتحالفوا مع الطبقة =

ربما كان الدعم الشيوعي متورطا في المراحل الاولى من الحملة ضد حرب فيتنام ـ احتكاما الى البيانات الشيوعية التي ابدت موافقتها ـ ولكن الموافقة الشيوعية ذوت بسرعة عندما ازداد وضوح طابع الحركة المعادي للمؤسسات . ففي نظر العديد من المناضلين السياسيين ان النظام الشيوعي يمثل ايضا الاتجاه المحافظ البيروقراطي طالما اصبحت مثله الثورية الاصيلة كالحفريات داخل المعتقدات المؤسسية . وتحول الاعجاب الشيوعي تدريجيا نحو النقد ثم الادانة ، ووصف كاتب سوفياتي آراء اليسار الجديد المناضل بأنها «مامية ، تجمع افكار ماركس وماركوز ، وماو ، وهو جمع مصطنع تماما» (٣٦) .

وبالرغم من ان المظاهر السياسية في مكسيكو ومدريد وبراغ ووارسو قد شاطرت الحركة نفس رد الفعل ضد المعتقدات المؤسسة كما ركزت بالمثل على بعض الضغوط الاخلاقية والنفسية في المجتمع الحديث ، كانت اكثر نوعية في جوهرها ، وأقل ميلا تجاه العواطف وأكثر ميلا للمدخل السياسي المبرمج . وفي كل الحالات الاربع كانت مطالب المتظاهرين معنية بالتخفيف من القيود السياسية المباشرة ، ولم يكن زعماؤها في حاجة الى بناء مقولة مصقولة عن «انسان البعد الواحد» لكي يثبتوا ان الديمقراطية الليبرالية يمكن ان تكون قمعية ايضا وان تسامحها هو في الحقيقة شكل مقنع من القمع (٣٧) . وبالنتيجة فعلى الاقل على المستوى السياسي اتخذت مطالبهم الشكل المعتاد في رفض الديكتاتورية السياسية السافرة ، والغاء الرقابة . وحق الاجتماع الحر ، وحرية السفر . والديمقراطية السياسية . والتخلي عن الاحتكار الايديولوجي وقمع الشرطة السريه . ان التشابه بين المطالب السياسية المتعلقة بالحرية التي قدمها الطلاب في هذه المدن الاربع تشابه مثير (٣٨) .

كما يجب ملاحظة ان الطلاب الذين طالبوا بحرية سياسيةمباشرة نشطوا ضمن اطار بيئة سياسية اكثر عدائية بكثير . بينما الطلاب المناضلون في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية واليابان قد نعموا فعلا بالعلانية : صور في الصفحات

= العاملة من اجل انجاز تحول اجتماعي ضروري لتحطيم سلطة راس المال الاحتكاري وخلق نظام اجتماعي جديد غير قمعي وحر فعلا» . (ستانلي غراي ، «راديكالية الطلاب : مستورد امريكي ؟» كلمة ملقاة في مؤتمر كوشيشنغ في ١٩٦٨ ، مجلة **مكغيل نيوز** نوفمبر ـ تشرين ثاني ١٩٦٨ ، ص ٢٢) .

٣٦ ـ مولتشانوف .

٣٧ ـ انظر روبرت ب. وولف ، وبارينغتون فورد الصغير ، وهربرت ماركيوز في **نقد التسامح** A Critique of Pure Tolerance ، بوسطن ، ١٩٦٥ .

٣٨ ـ قارن على سبيل المثال المطالب التي تقدم بها طلاب وارسو في مارس ـ اذار ١٩٦٨ مع المطالب التي تقدم بها طلاب المكسيك في سبتمبر ـ ايلول من نفس العام (**سرفي** ، يوليو ـ تموز ١٩٦٨ ، ص ١١٤ . **النيويورك تايمز** ٢٨-٣ و ٩-٩-١٩٦٨) .

الاولى ومقابلات تلفزيونية ومساعدات حماسية من المؤيدين متوسطي العمر وملاحم تخلد اعمالهم وكتب سجل كل منها المواجهات المختلفة التي خاضوها كتابة وصورا ✱ . ففي ظل الطبيعة التعددية للمجتمعات الغربية والطابع التنافسي لوسائط الاتصالات فيها كان النضال بين الشباب مرضيا للانا ــ ومن ثم معديا .

يجب اخذ هذا العامل في الحساب عند تحليل ديناميكيات الاحداث في الغرب ، وعند المقارنة بينها وبين الاحداث في المجتمعات الاقل تعددية (٣٩) . فهناك ، كان موقف وسائط الاعلام هو تجاهل التظاهرات او ادانتها . اما زعماء الطلاب فقد اضطهدوا او القي القبض عليهم . وكانت الاتصالات بين المؤسسات ــ ناهيك عن المدن ــ تحتاج الى جهد شخصي كبير وتضحية ومخاطرة . ولم تكن نضالية الشباب مجزية بالمقاييس الاجتماعية ، فقد كانت استجابة مدريد ووارسو هي عقوبة السجن للزعماء والطرد من الجامعة للمشاركين .

لقد ساعدت البيئة السياسية بوضوح على تشكيل مدى مطالب الطلاب وما ركزت عليه . ففي ظل حكم استبدادي صارم كان محتوى المطالب هو عن الحرية السياسية . وفي بيئة اكثر تسيبا واكثر تعددية تركزت المطالب إما على شؤون جامعية مباشرة او اتخذت شكل النقد الاجتماعي الواسع ، ومن ثم كانت بالضرورة غامضة الى حد ما . تبعا لذلك شكل الطابع المحدد والخاص بالحرية للمطالب التي قدمها زعماء الطلاب في الدول الاستبدادية قاعدة صغيرة لجبهة مشتركة مع مناضلي الغرب . وفي الحقيقة ، لا يبدو انه كانت هناك اتصالات فعلية وتنسيق كثير ، وذلك بالرغم من الادعاء خلال محاكمات الشباب السياسية في بولندا في اواخر ١٩٦٨ ، بأن قيادة الدولية الرابعة (التروتسكية) قد قدمت مساعدة ايديولوجية لبعض المنشطين البولنديين . فاذا كان هذا الادعاء صحيحا ، فربما كانت الرابطة التروتسكية هذه هي الصلة الوحيدة بين المنشطين السياسيين في الغرب والشرق .

✱ ان الدعاية التي حظيت بها ثلاث نساء من المناضلات الجامعيات كانت امرا ملحوظا (بيتر بابكوس ، مقابلة مع نساء الثورة ، **نيويورك تايمز ماغازين** ، ٩ فبراير ــ شباط ١٩٦٩) . لم تحظ الفتيات العاملات في فيالق السلام او في الحرب ضد الفقر باهتمام مماثل . ومن المفيد في هذا الخصوص ملاحظة مدى الرضا الذي يشعر به المناضلون وهم يشاهدون انفسهم في برامج التلفزيون او في البرامج الوثائقية الخاصة . ولقد ادت الدعاية المحيطة بالمناضلين الى ضغوط اجتماعية كبيرة على اولئك الذين لم يحظوا على نفس القدر من الدعاية .

٣٩ ــ شرح هذه النقطة جيدا البروفيسور ز. بومان وهو عالم اجتماعي معروف من وارسو طرد من بولندا في ١٩٦٨ بعد الانفجار الطلابي في مارس ــ اذار ، وذلك في مقدمته لكتاب وثائقي خاص عن هذه الاحداث نشر في باريس من معهد الاداب **Wxdarzenia Marcowe** ١٩٦٨ ــ ١٩٦٩ .

ويبدو ان الحركتين كان لكل منهما قيادة مستقلة وان دوافعهما كانت طموحات سياسية مختلفة اختلافا عميقا . والاتصال المباشر القليل الذي كان بين القادة من كل منهما انتهى لان يكون بدون ثمرة . ففي ١٩٦٨ وخلال مناقشة في اذاعة لندن B.B.C عن التمرد الطلابي ،هاجم زعيم المناضلين الانكليز المتحدث باسم الطلاب اليوغسلاف بينما استقبل رئيس طلاب برلين الغربية S.D.S استقبالا باردا من طلاب براغ الذين وجدوا ان آراءه السياسية بدائية ✶ (٤٠) .

ومع ذلك من الواجب ايضا تسجيل أوجه الشبه الهامة بين حركات الشباب السياسية هذه . ففي كلتا الحالتين تمت قيادتهما بالطلاب الاكثر مقدرة والذين جاءوا بشكل عام من عائلات مستقرة اجتماعيا اكثر من غيرها . وطبقا لدراسة تمت في جامعة كاليفورنيا كان الطلاب الجامعيون والثانويون المقبوض عليهم بشكل عام ممن يحصلون على درجات افضل بكثير من المتوسط ، وكثيرون منهم كان لهم منح دراسية او منحهم الخاصة (٤١) . وفي بولندا اقر تعليق رسمي بولندي بقسم كبير من هذه الحقيقة وهي ان المنشطين جاءوا من اسر موظفين ميسورين نسبيا ، وقد اكد بعض اساتذة الجامعات هذه الحقيقة (في الحديث مع الكاتب) وهي ان افضل طلابهم كانوا متورطين . وبعد ان قمعت التظاهرات اتخذت الاجراءات التي تسهل قبول ابناء العمال والفلاحين في الجامعة . حتى في رومانيا حيث تم قمع القلق الطلابي بسرعة نسبية أكد رد الفعل الرسمي على حقيقة ان «المجرمين» الشباب كانوا بشكل رئيسي ابناء مديري مشاريع الاسكان واساتذة الجامعات والعازفين في الفلهارمونيك اوركسترا والاطباء والمهندسين والعمال ذوي الياقات البيضاء وقيادات الميليشيا (٤٢) .

وكما في الغرب ، كانت القيادة السياسية للشبيبة القلقة في كثير من الحالات من بين ابناء المنشطين اليساريين السابقين ، اي ليسوا عصاة ضد جيل اكبر وانما

✶ من المفيد كذلك ملاحظة ان الحركات الطلابية ذات التوجه السياسي الصارم في المكسيك او اسبانيا او بولندا قد تحاشت مثل تلك المظاهر «كالالفاظ الخارجة» التي تطورت في كاليفورنيا في أعقاب الازمة ، وكالافتتان بالمخدرات والتبني الارادي للمسلكية الاجتماعية المنحرفة كما حدث مع الهيبز . ومن المؤكد ان مثل هذه الاعراض هي ايضا من نتاج الظروف الامريكية الخاصة ولكن ظهورها بكونها احد نتائج التمرد الطلابي اصبح ممكنا بسبب طابع هذا التمرد الاقل تركيزا والاقل تعرضا للقمع .

٤٠ ـ انظر ملفين لاسكي ، «يوميات الثورة» **انكونتر،** اغسطس ـ آب ١٩٦٨ . ص‌ص ٨٨–٨٩ .

٤١ ـ **اليسار الجديد** ، مذكرة معدة للجنة العدل ، مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة ، واشنطن ، ١٩٦٨ ، ص ٢٣ . كما نقلت ايضا بيانات من جاك نيوفيلد ، الاقلية **التي تدعي النبوة** A Prophetic Minority ، نيويورك ١٩٦٦ .

٤٢ ـ «سفاحي ساحة السلم» مجلة Scinteia Tineretulûi ٥–٧–١٩٦٨ .

هم شباب يشاطرون آباءهم مثلهم ، ولكنهم يشعرون ان هذه المثل قد افسدت في الممارسة على يد النخبة الشيوعية الحاكمة . في بولندا كان ابرز الطلاب المتمردين من ابناء موظفي الحزب الكبار ، بينما في الولايات المتحدة شكل ابناء اليسار القديم نسبة عالية بين زعماء المنشطين في كولومبيا وبركلي . وفي كل من الشرق والغرب جاء قادة التمرد من بيئة لم تكن لا مبالية وانما ذات اهتمامات ايديولوجية .

وهناك تشابه آخر بين المناضلين الطلاب في الغرب وفي الشرق الا وهو غموض اهدافهم البعيدة المدى . فبالرغم من ان الاهداف المباشرة والمحددة للطلاب في الانظمة السياسية الاكثر قمعا كانت اكثر تحديدا «كانت مطالبهم» نادرا ما تذهب ابعد من الشكوى المباشرة . ومن المؤكد ان تحويل ديكتاتورية بوليسية الى ديمقراطية متعددة الاحزاب او على الاقل الى شيء يشبه النموذج اليوغوسلافي كان هدفا اكثر تحديدا ــ مع وجود امثلة عملية متاحة ــ من مطالبة الطلاب الغربيين بديموقراطية تقوم على المشاركة . ومع ذلك مالت التفريعات الاكثر تحديدا والخاصة بالانظمة السياسية والاجتماعية المطلوبة الى الغموض في الشرق كما في الغرب * .

وبالرغم من ان ذلك قد يعد ضعفا من وجهة النظر السياسية البحتة ــ كما ذكر نقاد المناضلين ــ الا انه ساعد على تشكيل جسر عريض بين القيادة السياسية محددا جدا كان قد نجح في جذب الدعم العريض الذي ولده الهجوم غير المحدد ضد المؤسسة والمصالح المكتسبة والوضع الراهن والمعتقدات المأسسة . ان الاعتماد على العواطف بدلا من العقل وعلى الطموحات المحسوسة اكثر من البرامج الملموسة قد عزف على وتر حساس في الجيل الذي تأثر بشكل مباشر اكثر من غيره بسرعة التغير المعاصر ، وكان النتاج الخالص لهذا التغير .

---

* ان انتقادا واحدا من اكثر الانتقادات شمولية للنظام البولندي القائم كان قد أعده باحثان اجتماعيان شابان من وارسو هما ج. كورون و ك. مودزلفسكي ، وذلك قبل عدة سنوات من الانتفاضات الطلابية في مارس ـ اذار ١٩٦٨ (ولقد ارسل الكاتبان الى السجن على الفور) . اصبح هذا النقد وعنوانه «خطاب مفتوح الى الحزب» مصدر الكثير من الطموحات النظرية لدى القيادة المسيسة بين الشباب . فلكونه قد كتب من وجهة نظر ماركسية اصبح نقدا كاشفا لتفسخ الشيوعية البولندية، وتحولها الى قمع بيروقراطي مؤسسي ذي مصالح مكتسبة تضرب المساواة المثالية في الاشتراكية ومع ذلك فعندما حاول الكاتبان تقديم برنامج دعوا بالحاح الى ثورة جديدة يقودها العمال والمثقفون من اجل خلق نظام اجتماعي جديد ذي مؤسسات قليلة وحكم ذاتي للعمال ومساواة اجتماعية حقيقية. ولقد حكم على كورون ومودزلفسكي مرة اخرى بالسجن في اواخر ١٩٦٨ بتهمة تحريك احداث مارس ـ اذار بالتنسيق مع الدولية الرابعة (التروتسكيين) .

عدم الاستمرارية التاريخية :

في ايامنا هذه يمثل جيل الطلاب عاملا من اكثر عوامل التغيير الديناميكية . ان ازدياد عددهم وفي الوقت نفسه ازدياد عدد اجهزة الراديو والتلفزيون والتليفون (وكلها وسائل تؤثر في العلاقات الشخصية وتمكن وتشجع الانتشار السريع للافكار) قد ادى الى حالة مزاجية ذاتية ديناميكية تقف بشكل حاد في مواجهة معدل ابطأ نسبيا لسرعة التغيير في عدة قضايا ، كالدخل (القومي او بالنسبة الى الفرد) ، او الانتقال من العمالة الريفية الى العمالة الحضرية ، او انتقال السكان الى مراكز حضرية اكبر او متوسط عدد الاشخاص الذين يعيشون في غرفة واحدة . وكانت النتيجة العامة لذلك هي التناقض الذي لاحظناه في الفصل السابق بين سرعة التغيير في حالة العقل وسرعة التغيير في الواقع المادي (انظر جداول – ٦ – و–٧–) .

ولقد كتب طالب يدرس «التحديث» ان الانسان المعاصر – والامر صحيح خصوصا بالنسبة الى الاجيال الاصغر سنا – «يخضع بدرجة اقل لسيطرة بيئته.. وفي هذا المجال فهو اكثر حرية ، ولكن في الوقت نفسه اقل يقينا بالنسبة الى غرضه في الحياة ، وفي ظروف القلاقل الكبرى يكون على استعداد لان يسلم بحريته لصالح قيادة تعرف ما تريد» (٤٣) . في هذا الوضع الرجراج يصبح فهم الحاضر صعبا طالما لم يعد يعرف لا بالدين ولا بالقومية ولا بالمنظور الايديولوجي التاريخي (٤٤) .

ولقد كتب المؤرخ جوهان هويزنكا عن نهاية القرون الوسطى ، يصف عالما من عدم الاستمرار عالما يتميز بانهيار المعتقدات التقليدية ، وبالشك في الانعتاق في الملكوت الابدي وبانتشار التشاؤم وبالعنف الشديد . وفيه لجأ الكثيرون نفسيا الى النحل الصوفية بينما انقسم السلوك الفردي الى مجموعتين تتراوحان من التركيز على القدسية الى الانغماس في الفسق والوحشية . وكان الانتقال من هذا الطرف الى ذاك شائعا اذ كان الانسان يسعى يائسا للعثور على مستقر اجتماعي في نوع من الالتزام يستغرقه كلية (٤٥) .

ولقد ظهرت ازمة مشابهة تتميز بأشكال من التعبير اكثر علمانية بكثير ، ظهرت مرة اخرى في الغرب عندما اجتمعت القومية والتصنيع ليغيرا طابع المجتمع . واجتاحت النزاعات القومية والطبقية الضخمة وكذلك التوترات الاجتماعية

---

٤٣ – بلاك ، **ديناميات التحديث** ، ص ٣١ .

٤٤ – في هذا انظر ايضا كينث كينستون ، التغير الاجتماعي والشباب في امريكا ، في **تحدي الشباب** the challenge of Youth ؛ ايريك هـ. ايريكسون وآخرين ، نيويورك، ١٩٦١.

٤٥ – انظر جوهان هويزينغا ، **ذبول العصور الوسطى** Waning of the Middle Ages خاصة الفصل الاول حول «صوت الحياة العنيف» نيويورك ١٩٥٤ .

والنفسية الحادة كل الايديولوجيات الموجودة التي بدا في السابق انها توفر السلطة وتحدد الاتجاه . ولقد كتب تشيزلو ميلوسز في كتابه «العقل الاسير» عن طوفان الحرب العالمية الثانية ، كتب يصف بدقة وتبصر مثقفين من اوروبا الشرقية وهم ينتقلون من ايمان الى آخر باحثين عن الاستقرار الشخصي الذي عجزت بيئتهم عن توفيره .

ان الحالة النفسية العامة اليوم لها حالات مشابهة كثيرة، ولكنها مع ذلك تختلف اختلافا كبيرا في المدى والمحتوى . فلقد كانت الثورة الصناعية ناهيك عن الثقافة المسيحية في العصور الوسطى ، ذات حدود ارضية ، ولقد قفزت تدريجيا لتؤثر اكثر فأكثر في مجتمعات اخرى على مدى اكثر من قرن ونصف (٤٦) . ولقد صاحب ظهورها نهوض القومية والايديولوجيات العلمانية الاخرى ، حيث تقوت المفاهيم الواسعة بالمؤسسات التي تتبناها . وبالمقابل تحدث الازمة الحالية للمعتقدات المأسسة ضمن اطار الثورة التكنترونية وهي ليست ذات حدود ارضية ولكنها زمانية ــ مكانية .

هذه الثورة الجديدة تؤثر في الوقت نفسه تقريبا في كل العالم بحيث ان اشكال السلوك الجديدة والبدع تنتقل بسرعة من مجتمع الى مجتمع . وجيل الطلاب يعيش في عصر التكنترونيا الجديد هذا حتى وان لم تكن مجتمعاتهم المباشرة تعيشه في بعض الحالات . وعلى عكس العصر الصناعي ، الذي احتاج الى ان يمر مجتمع ما بعملية تصنيع صحمة قبل ان تتشكل الطبقة البروليتارية الجديدة وتصبح ذات اهمية اجتماعية ، فان الثورة التكنترونية الزمانية ــ المكانية تصل مباشرة الى اولئك الذين يتلقونها لان لديهم صلة بالاتصالات ولان حالة عقولهم تشكلها عوامل خارج اطارهم الاجتماعي المباشر . ان كتلة الطلاب المعاصرة هي بالدقة هذه المجموعة ولهذا كررت اشكال السلوك الخاصة ببركلي نفسها خلال عام واحد في اماكن اخرى (لقد ارتدى طلاب برلين الغربية الصنادل في طقس وسط اوروبا البارد في نوفمبر ــ تشرين الثاني !) . ولقد اتجه الطلاب المنشطون الامريكيون الذين يدرسون في الخارج ــ والذين ينتقدون انتقادا شديدا المجتمع الامريكي ــ الى لعب دور معبىء هام في هذه العملية وكانوا دليلا على المدى الذي بلغته امريكا وهي الاولى التي تعيش العصر التكنتروني كاملا في ان تحل محل اوروبا بصفتها المصدر الرئيسي للتغيير الاجتماعي .

لقد كانت المشكلة التي تواجه المتمردين منذ قرن ونصف من الزمان هي كيف يدمجون بشكل معقول التغييرات التي لم يسبق لها مثيل وغير المفهومة التي صنعتها الثورة الصناعية مع بعضها بشكل متكامل . نفس المشكلة تطرحها بداية العصر التكنتروني بتهديدها الواضح للقيم الانسانية وعدم خصوصيتها الشخصية

---

٤٦ ــ انظر بلاك ، **ديناميات التحديث** ، لتحليل وصفي منطقي .

وعقلانيتها الزائدة عن الحد ، وفي الوقت نفسه مضاعفتها للخبرة الفردية الشخصية ، وحضورها المباشر مع كل معاناة انسانية في اي مكان على ظهر الكرة الارضية . بالنسبة الى الكثيرين في القرن التاسع عشر ، وخصوصا اولئك الذين تأثروا اكثر من غيرهم بشكل مباشر بالثورة الصناعية او بما ترتب عليها (اي المفكرين والعمال) وفرت الماركسية الجواب الخاص بالدمج والتكامل ، فان البحث اليوم يدور حول مصدر جديد لمرساة فكرية . ولقد بدأ الباحثون برفض الاجابات القائمة من قبل .

ان الجيل الاصغر هو اكثر الاجيال تأثرا بشكل مباشر بالانتقال الى العصر الجديد ، وهو يحتوي على اكثر القوى المعارضة نشاطا ويضم اغلبية اولئك الذين يشعرون انهم ضحايا الثورة التكنترونية . انهم في اعتمادهم العاطفة والعنف يذكرنا الكثيرون منهم بجماعات محطمي الماكينات (اللوديون) في انكلترا في مطلع القرن التاسع عشر الذين كان الانفعال البدائي هو رد فعلهم على عصر الآلة فأخذوا يحطمون ذلك الذي لم يفهموه جيدا حتى يلجموه .

لقد كانوا جيدي التنظيم ذوي دوافع قوية وغالبا ما ايدهم الراي العام المحلي وهم يحطمون الماكينات ويصيحون في وجه المظالم الحقيقية فعلا التي ارتبطت بظهور الماكينات . ان الخوف والكراهية وعدم الفهم الحادث حاليا تجاه العقل التكنتروني بين بعض الناس يردد صدى الادانات الخاصة بآلات النسيج منذ قرن ونصف من الزمان * .

وكمثل اللوديين ، فان المعارضين المعاصرين للثورة التكنولوجية والاليكترونية يعبئون ، خصوصا في الدول الغربية الاكثر تقدما ، عن استجابة ما للاساليب الجديدة للحياة . لقد كان ما يهدد اللوديين هو الاهمال الاقتصادي لذا تحركوا ضده . واليوم فان القادة المناضلين الذين يقررون رد الفعل على الثورة التكنترونية ويقرون منظروهم ، غالبا ما يأتون من فروع العلم الاكثر عرضة لان تهمل اجتماعيا (٤٧) لذا نشاطهم السياسي هو مجرد رد فعل لخوف عميق من ان الايام تجري ضدهم وان عالما جديدا يظهر بدون مساعدتهم وبدون قيادتهم ** .

---

* في أوائل فبراير – شباط ١٩٦٩ عبر الطلاب المتمردون في مونتريال عن غضبهم على النظام بان حطموا بالفؤوس العقل الاليكتروني في الجامعة وقيمته مليون دولار .

٤٧ – في هذا المجال ، وللحصول على امثلة من الولايات المتحدة ، انظر مارك غيرزون ، **العالم كله يتفرج** **the Whole World is Watching** نيويورك ١٩٦٩ ، ص ص ٥٢ – ٥٤ ، ٧٣ ، ١٨٩ – ١٩٠ . ولمزيد من المعالجة لذا الموضوع بالنسبة للعالم الثالث انظر دونالدك ، اميرسون ، **الطلاب والسياسة في الامم النامية** **Students and Politics in Developing Nations** نيويورك ١٩٦٨ ، وهناك استنتاج مماثل في ص ٤١٤ .

** لقد كشف الاصرار على الحلول الكلية في نفس الوقت عما يميزهم بعدم الرغبة في ان يشتركوا في عملية تحقيق التحسينات الجزئية وهي الاكثر واقعية . ولا في التكيف التدريجي مع =

ان الجاذبية التي يشعر الان بها قطاع من الجيل الاصغر في العالم الاكثر تقدما ، تجاه الشعر والاغاني والعواطف ، واحتقارهم للعقل والمفاهيم الفكرية ، يمكن ان يكون دليلا لا على ان تقليدا يحل محل آخر بل على صدام بين العاطفة والضرورة. فمن ناحية نجد المشاعر والمواقف التي حركها انهيار المعتقدات المناسبة وقوتها الوسائط الجديدة في الاتصالات – وكلها تستثير او تخلق رغبة جامحة للهروب العاطفي او على الاقل للتنفيس العاطفي من خلال مشاعر ملموسة وجمعيات . ومن ناحية اخرى نجد الحاجة المستمرة الى السيطرة عن طريق عملية ضخمة لصياغة مفاهيم جديدة – على تقنيات العقول الاليكترونية والرياضيات وانظمة الاشراف وما شابه ذلك ، مما يعتمد عليها اتخاذ القرار في عدد من المشاكل الاجتماعية المعاصرة ✶ .

وبالرغم من ان هذا الصدام قد يكون عميقا الا انه من المشكوك فيه ان يكون جيل الطلاب ممثلا لطبقة ثورية جديدة في القرن العشرين . فالطبقة الثورية الحقيقية يجب ان تسيطر على التقنيات المعاصرة والتنظيم الاجتماعي المعاصر لا ان ترفضها . وربما كان من الصعب على «الطبقة الثورية» للطلاب أن تفعل ذلك ما دامت بالضرورة انتقالية الطابع وخاضعة للتغير المستمر . هذا لا يستبعد مقدما احتمال ان المناضلين الطلاب يمكن ان يهجروا المجتمع بشكل دائم وان يصبحوا – خصوصا بعد ان تصلبهم تجربة السجن – ثوريين محترفين ، وأن يحافظ

= التقنيات الجديدة ولانهم ان ينغمسوا فعلا في العالم . ولقد لاحظ جون ارداغ في كتابه **الثورة الفرنسية الجديدة** (نيويورك ١٩٦٩) هذا الوضع المناقض بالنسبة الى اليسار الفرنسي المثقف «فسارتر وأصدقاؤه يدعون لان يكون الادب منتميا – ولكنهم في الواقع يبتعدون دائما عن النشاط السياسي الواقعي ... لقد طالب سارتر وأصدقاؤه دائما باليوتوبيا والا فلا ... وهكذا سرق التكنوقراط ملابس السارتريين» (ص ٣٥٨) .

✶ قارن في هذا المجال بين هجوم نعوم شومسكي على الجيل الجديد من الخبراء المثقفين الامريكيين (السلطة الامريكية ورجال البلاط الجدد ، نيويورك ١٩٦٨) والهجمات التي شنت على افلاطون عندما أدين بخطيئة انه «يحول الواقع الى فكر» . هناك ايضا امثلة مشابهة مثيرة في اثينا القديمة . يقول احد كاتبي دراسة حديثة عن اثر فلسفة افلاطون في المجتمع في ايامه ان تعبير «فيلسوف» كان جديدا نسبيا وان افلاطون قد استخدمه للتعريف «بالرجل المستعد لتحدي قبضة الملموس على وعينا ولان يحل محل المجرد» (اريك أ. هافيلوك ، **مدخل الى افلاطون** ، كمبردج ، ١٩٦٣ ، ص ٢٨١) . ان التركيز على التجريد صاحبه ظهور أسلوب جديد في الاتصال الا وهو الكتابة التي دعمت في البداية التقليد الشفهي السابق ثم حلت محله (ص‌ص ٢٩٢ – ٢٩٥) . ان الملاحم الشعرية التي اعتمدت على القصص والتي حركت الانفعالات والتجارب المشتركة واعتمدت عليها المزيد من التصنيف المجرد للواقع اصبح ممكنا بعد اكتشاف الالفباء والكتابة ، وفتحت ابواب التاريخ امام عملية استخلاص المفاهيم وبنائها . ولقد دخلت المسيحية والماركسية من هذه الابواب .

التيار القادم من الطلاب الجدد على مشاعر القلق والتمرد حية . ومع ذلك ليس من المؤكد ان يتمكن الثوريون القدماء الذين كانوا طلابا في الابقاء على ارتباطاتهم بالجيل الجديد من الطلاب الاصغر سنا الذين سيزداد انفصالهم عنهم بحكم العمر . بذلك سيخاطرون بالتحول الى متمردين خارج «طبقة» ما . وكل جيل طلابي سيكون عليه ان يخلق قيادته الخاصة وطموحاته الخاصة وتقنياته الخاصة قبل ان يختفي هو ايضا من المسرح . ولعله ليس من قبيل المصادفة ان التاريخ هو في نهاية الامر مقبرة الحركات الثورية الشابة .

وبالاضافة الى ذلك قد تدخل الموجات القادمة من الطلاب بيئة تتحول تدريجيا لان تكون اكثر استعدادا لتقبل وجود كل الثقافات الفرعية المختلفة ولتقديم الدعم الاجتماعي حتى لاولئك الذين اختاروا ان يطلقوا المجتمع ومن المحتمل ان العديد من المتمردين الشباب المعاصرين ــ خصوصا اصحاب الدوافع المرضية اكثر من اصحاب الدوافع السياسية ــ ان يختاروا هذا الطريق . واخيرا فكلما ساهم التغيير الاجتماعي في انتشار المعرفة والتعليم اصبحت الصفات المميزة للطلاب اقل وضوحا ، اذ يصبح المجتمع اكثر تمرسا بالمعرفة ويصبح الطالب اكثر انغماسا في المجتمع ، وتضيق الفجوة بين حياة الطالب والمجتمع .

ومع ذلك ادى التحدي الذي ابداه جيل الطلاب ككل للهياكل الجامدة والمعتقدات المأسسة وللنظام الاجتماعي الخاص بالعصر الصناعي الى اعادة فتح ملف السؤالين الاكثر اساسية والمتعلقين بأهداف التنظيم الاجتماعي . ما هو التوازن الواجب بين الصفات النوعية للحياة الخارجية والداخلية ؟ ما هي العلاقة بين الحرية الشخصية والمساواة الاجتماعية ؟ هذان السؤالان يحتاجان الى معان جديدة ويتطلبان تعريفات جديدة كلما سادت ازمة تاريخية كبرى وسيطرت على وعينا بالواقع .

الافكار والمثل وراء الايديولوجيا

يمكن ان يقال ان القرن التاسع عشر يمثل التفوق الفكري لفكرة الحرية ، ولكن القرن العشرين يشهد انتصار المساواة . وبالنسبة الى معظم الناس قد وجدت الحرية تجسيدها السياسي بالامة ، وكانت بالنسبة الى عدد قليل من الناس مجسدة في الضمانات الاجرائية للفرد . لذلك كان القرن الاخير زمن القومية في الاساس ، بينما كانت الديمقراطية الليبرالية امرا ثانويا فحسب . ولكن البحث عن الاشكال التي يمكن ان تعبر من خلالها فكرة المساواة عن نفسها في الوقت الحاضر يشكل اقوى الدوافع وراء نشاطات طلاب الجامعات في الغرب والنقاد الشباب الذين يفتقدون امتيازات النخبة الشيوعية ، كما انه يوجه العلاقات بين السود والبيض في الولايات المتحدة وفي افريقية وبين البلدان الغنية والفقيرة .

لقد وصلنا إذن الى مرحلة في تاريخ البشرية حيث النزوع نحو المساواة اصبح قوة عالمية واعية لذاتها . والاكثر من ذلك ، لمّا لم يكن من المحتمل تحقيق المساواة على المستوى الموضوعي ، فقد يتم البحث عنها اكثر فاكثر على المستوى الذاتي ، ولما كانت المساواة الحقيقية مستحيلة تصبح المساواة من خلال العواطف هي البديل ، حيث النزاعات والعداوات الانفعالية تخلق وهم المساواة .

السعي من اجل المساواة :

ان النزعة للمساواة قوية هذه الايام لان عدم المساواة لم يعد لاول مرة في تاريخ الانسان معزولا بالزمان والمكان . لقد انتشرت القومية خلال قرن واحد وأصبح نصف السكان تدريجيا مسيسين كنتيجة غير مباشرة لتعلم القراءة والكتابة والتصنيع ولكن رفض اللامساواة داخل وبين الامم قد اصبح هو الحالة السائدة في فترة عقود قليلة . وفي هذا المجال كما حدث مع تمرد الجيل الاصغر سنا ، كان ظهور الاتصالات العالمية والجماهير المتعلمة مؤخرا العامل المثير الحاسم .

وبالتالي ان العلاقة بين العصر التكنتروني ونزعة المساواة — ان لم تكن فكرة المساواة نفسها — هي علاقة سببية . فمن ناحية عملية توليد الواقع الاجتماعي والسياسي ، انه لامر ذو اهمية كبرى ، ان «الفقراء يعيشون في محيط جديد من بيئة الخدمات الاعلامية العالمية التي تتكلف بليونات من الدولارات تماما كما يعيش الميسورون» (٤٨) . في الماضي كان من الضروري ان يكون القهر القومي والطبقي مباشرا وشخصيا قبل ان يولد رد فعل معاكس . اما اليوم فان الشعور بعدم المساواة يمكن ان يكون شعورا غير مباشر ومع ذلك قويا بدرجة غير عادية لانه من الممكن تضخيمه بشكل ابعد من مستوى الخبرة الشخصية .

ومع ان الالتزام بفكرة المساواة هو الذي يحكم الولاء بشكل كبير يظل تعريف المساواة غامضا . ففي الدول الشيوعية يشمل النضال من اجل المساواة السياسية الرغبة في الغاء امتياز حق الاقلية وحدها في الحكم ، مع الحق في القراءة والسفر بحرية كنوع من الامتيازات المهنية المقصورة على اولئك الذين هم في قمة النخبة الحاكمة ، والحق في شراء ما يريده المرء كميزة يتمتع بها فقط اولئك الذين تعينهم الحكومة في الخارج ، او الحق في الوصول الى المحلات الخاصة بالموظفين الكبار . ومع ذلك فإن زعماء الحزب الشيوعي الذين افترضوا منذ زمن بعيد ان القضاء على الطبقات المالكة سيؤمّن اوتوماتيكيا المساواة الاجتماعية اساسا للحرية الشخصية ، يجدون هذه الرغبة الخاصة بالمساواة في الحرية امرا من الصعب فهمه .

---

٤٨ — مارشال مكلوهان ، خط مارشال مكلوهان ، عدد ١ ، ١٩٦٨ ص ١٥ .

وفي الدول الجديدة والنامية فان صعوبة تعريف المساواة تتعقد بسبب حقيقة انه في معظم الحالات تأتي الشكوى ليس فقط من عدم المساواة الاجتماعية المباشرة وانما ايضا من شعور حاد بالحرمان بالمقارنة مع العالم المتطور . ويساعد صغر حجم كثير من الدول الجديدة على تقوية شعورهم بالعجز ويعقد مهمة اعادة البناء* .

ان اعتمادهم من الناحية الاقتصادية على اسواق سلعية غير مستقرة ورؤوس اموال اجنبية، يعني ان حريتهم نسبية وواهنة الى درجة كبيرة. والنتيجة هي حالة تبدو فيها الحرية وهي مهددة بسبب غياب المساواة الدولية .

ان الرغبة في المساواة هي التي جعلت معظم القادة في الدول الجديدة يتبنون الاشتراكية . فهم يرون في الاشتراكية سبيلا لتحقيق الاهداف التي يتشاطرون فيها : ازدهار حضاراتهم الخاصة المتميزة ، والتطور الاقتصادي القومي ، والقضاء التدريجي على حالة عدم المساواة الخارجية والداخلية . ان اشتراكيتهم تشاطر التحليل الماركسي نظرته للراسمالية والوصف اللينيني للامبريالية بالرغم من ان قادتهم يميلون الى التركيز على ان طريقهم الاقتصادي يتجنب اخطاء الشيوعية والراسمالية على السواء» (٤٩) . ولقد ادعى بعض القادة بالفعل ان اشتراكيتهم قادرة على ان تقدم للعالم بديلا اكثر انسانية من المادية العقائدية للشيوعية او اللامبالاة الاجتماعية للغرب الراسمالي وذلك لكونها اقل جمودا واغنى بالتقاليد المحلية» (٥٠) . «لقد اعلن توم مبويا عشية استقلال كينيا ، وهو يناقش المفهوم

---

* ان متوسط عدد السكان لكل الدول المستقلة قبل ١٧٧٦ هو اليوم ٢٣٫٦ مليون ، ولتلك الدول التي ظهرت بعد الثورة الاولى المعادية للاستعمار وتفسخ الامبراطوريات الكبيرة «(١٧٧٦ – ١٩٤٥) هو ٢٫٥ مليون ، ولتلك التي كسبت استقلالها في العقدين الاخيرين هو ٣٫٤ مليون فقط . وربما كان هناك قدر من الخلاف حول الحجم المناسب للدولة – الامة ولكن لا شك انها اكبر من ثلاثة او اربعة ملايين . ان الحجم في ذاته للدول الجديدة خصوصا في افريقية يجعل من الصعب عليها تحقيق طموحاتها في التحديث والقوة ، في العزة والكرامة التي يطالب بها زعماؤها» (دنكورت رستو، **عالم من الامم** واشنطن ، ١٩٦٧ ، ص ٢٤٧) .

٤٩ – انظر بول سيغموند وآخرين ، **ايديولوجيات الامم النامية** the ideologies of the Developing Nations ، نيويورك ، ١٩٦٣ ، خاصة ص‌ص ١٢ – ١٧ . ولتقييم منظم الجاذبية ومعنى مفهوم المساواة داخل امة جديدة ، انظر جيمس سي سكوت ، **الايديولوجية السياسية في ماليزيا : واقع ومعتقدات نخبة** Polotical ideology in Malaysia : Reality and the Beliefs of an Elite نيوهافن ، ١٩٦٨ ، ص‌ص ١٩٤ – ١٩٦ . ولمزيد من المعالجة انظر دافيد ابتر وآخرين ، **الايديولوجية والسخط** idelogy and Discontent غلينكو ، الينوي ، ١٩٦٤ . وكليفورد غيرتز وآخرين **المجتمعات القديمة والدول الجديدة : السعي للتحديث في آسيا وافريقيا** . Old Societies and New States: the Quest for Modernity in Asia and Africa نيويورك ١٩٦٣ .

٥٠ – على سبيل المثال انظر ليوبولد سنغور . **الاشتراكية الافريقية** African Socialism نيويورك ١٩٦٣ .

الافريقي عن الاشتراكية ، ان افريقيا هي التي في نهاية الامر «ستبين لبقية العالم المعنى الحقيقي للحرية» (٥١) .

ومع ذلك تبقى هذه الآراء بشكل جوهري غير منتظمة ولا مبنية . وبالرغم من ان بعض الباحثين قد وصفها كايديولوجية ، تميل الى الافتقار للطابع المنتظم المتماسك المتكامل الفكري للاشتراكية او للشيوعية ، كما ان هناك غيابا للعقائد الرسمية والتجسيد المؤسسي . وبالرغم من انهم يدعمون آراءهم بسلطة سياسية غير ديمقراطية ويصوغونها في عبارات مأخوذة الى حد كبير من الماركسية ، وبالرغم من انهم منشغلون بالضرورة بتحسين الحياة الاقتصادية للانسان يميل قادة الامم الجديدة الى التأكيد على أولوية الاخوة الاممية والاهمية الروحية للكائن الانساني. وينطبق هذا ايضا على المفكرين المحليين الجدد ـ اولئك الذين يأتون في المرتبة الاجتماعية مباشرة تحت الزعماء الحاليين للعالم الثالث الذين يميلون لان يكونوا اكثر راديكالية في نظرتهم ، وأكثر حساسية للاغراءات العرقية وعاطفيين جدا في مسلكهم (٥٢) . ان ماركسيتهم الانفعالية هي صيحة بعيدة عن اكاديمية ماركس او تنظيمية لينين ذات العقل الواحد .

وبالاضافة الى ذلك ان خبرة سنوات عديدة من الاستقلال لها تأثير يثير القشعريرة عند اولئك الذين رأوا في الاصل ان الامم الجديدة هي تعبير عن رؤيا اكثر انسانية ونموذج للآخرين . ففي عديد من الدول الجديدة حظرت النخب الحاكمة الحرية على اساس ان مثل هذا الحظر ضروري للحرب ضد اللامساواة بالقضاء على الامتيازات في جبهة الداخل وتعبئة الجهود القومية لتضيق الفجوة الآخذة في الاتساع بين الامة والعالم الخارجي (٥٣) كما ان نزعة المساواة قد حط من قدرها في بعض الاماكن لتصبح قومية عرقية عبرت عن نفسها في طرد ابناء القبائل غير المحليين (كالصينيين في اندونيسيا والآسيويين من شرقي افريقيا) . وبشكل أعم ، في رفض لكل ما هو اجنبي بل حتى عرقي للعالم الابيض المتطور بصفته المستغل الرئيسي . ولقد اظهرت النخب السياسية الجديدة نزوعا قويا تجاه الاستهلاك الفج على حساب وعيهم الاجتماعي .

ان مشكلة المساواة تطرح نفسها بشكل آخر مختلف في البلاد الاكثر نموا

---

٥١ ـ توم مبويا ، **الحرية وما بعدها** Freedom and After بوسطن ، ١٩٦٣ ، ص ٢٦٢ .

٥٢ ـ بين هؤلاء كان لكتاب فرانز فانون **المعذبون في الارض** the Wretched of the Earth (نيويورك ١٩٦٥) اوسع جاذبية . انظر ايضا ف.ج. مارسال ، «مثقفي امريكا اللاتينية ومشكلة التغيير» **البحث الاجتماعي** Social Research شتاء ١٩٦٦ ص ص ٥٦٢ ـ ٥٩٢ .

٥٣ ـ وهكذا اصبحت «ديمقراطيات حارسة» الرئيس ادوارد شيلز ، **التطور السياسي في الدول الجديدة** Political Development in the New States لاهاي ، ١٩٦٥ ، ص ص ٦٠ ـ ٦٧ .

وازدهارا . فهناك ، وبوجه خاص في الولايات المتحدة ، اتخذت شكل معارضة «الضخامة» في المؤسسات والمصالح المكتسبة ويحتج معارضو الضخامة بأن العملية السياسية خادعة لان قاعدة «رجل واحد صوت واحد» تحجب اللامساواة في السلطة بين الافراد والشركات المتحدة على سبيل المثال . وبشكل اخص اصبحت فكرة المساواة ــ اكثر من فكرة الحرية ــ قلب النضال من اجل الحقوق المدنية في الولايات المتحدة . ان «الحرية» الرسمية قد حصل عليها السود تدريجيا وبالمعاناة وذلك بصدور تشريعات الحقوق المدنية ، وبوجه خاص التشريع الذي يضمن حق التصويت ومع ذلك لا تكاد هذه «الحرية» تؤمّن المساواة للسود في امريكا ، ويناضل الرجل الاسود اليوم في سبيل الحصول على «المساواة» التي يحظى بها الرجل الابيض ان تعريف هذه «المساواة» هو بالدقة ما يربك رئيس الكلية او المدير في المدينة وهم الذين كانت الحرية بالنسبة اليهم تعني المساواة عادة.

ان التوترات الاجتماعية في العالم المتطور ــ وهي واقع ايضا بالنسبة الى بعض البلدان الاشتراكية كما لمعظم المجتمعات التعددية ــ تلقي الاضواء الكاشفة على صعوبة السعي من اجل المساواة على مستوى خارجي ومادي بحت . فبعد عدة قرون من التنشيط الاجتماعي اكدت الانسان الخارجي ــ فان الانسان المعاصر في البلدان الصناعية المتقدمة يواجه ازمة تعريف ذاته ويرى ان الايديولوجيات والاديان القائمة غير كافية للاجابة على تساؤلاته ومع التلاشي التدريجي للنوازع القومية والايديولوجية استسلم اليقين الداخلي والالتزام الخارجي لغموض داخلي وحيرة خارجية .

عقيدة توفيقية :

عندما اعلن ميشال فوكو «موت الانسان» كان يعبّر بعبارات نيتشيَة تقريبا عن التشاؤم اللازم لرد الفعل ضد الايديولوجيات البروميثوثية * ، وكان رد

---

* لخص روبرت بيلي في كتابه علم الاجتماع في مواجهة التشاؤم (لاهاي ، ١٩٥٨ ، ص‌ص ١١٦ ــ ١١٧) هذا التشاؤم في عشرة بنود تعكس الروح الاوروبية العامة منذ مئة عام بالمقارنة مع الروح الاوروبية العامة اليوم .

الروح الاوروبية العامة

منذ مئة عام	اليوم
١ ــ هناك تقدم .	١ ــ لا يوجد تقدم .
٢ ــ التطور الاجتماعي يسير في خط مستقيم .	٢ ــ التطور الاجتماعي يسير في حلقات .
٣ ــ المدنية الغربية تتجه باستمرار نحو آفاق اعلى من التطور الثقافي والاجتماعي .	٣ ــ المدنية الغربية هي مرحلة التفسخ والاضمحلال.
٤ ــ الانسان كائن عقلاني .	٤ ــ الانسان كائن غير عقلاني او ضد العقل . =

الفعل هذا بدوره يعكس التعقيد العلمي للمجتمع الحديث الذي اثار شعورا بالعقم والعجز لدى الفرد . وقد وصف احد النقاد آراء فوكو كما وصف مدرسة من التفكير تدعى «البنيوية» ، بأنها ايديولوجية التكنوقراطية المعاصرة ، لان فوكو يرى الانسان هدفا لعملية تحرمه من اي استقلال ذاتي وتحكمه دون ان تقيم معه علاقة شخصية وذلك طبقا لديناميكيات بنيوية (٥٤) . ان رفض التاريخ الواعي ــ وبالتالي الضرب في قلب المنهج الايديولوجي الديني الذي ساد التفكير الغربي ــ هو نفسه انعكاس للأزمة المعاصرة في القيم والافتراضات والمعتقدات ولانهيار كل اشكال التعبير التاريخية المتكاملة والهادفة في نفس الوقت * .

فمنذ قرون ، ايام الاديان الكبرى حدد الانسان النماذج والمعايير التي يجب ان ترشد العلاقات بين الناس . والآن ولاول مرة في التاريخ المكتوب يبدأ الانسان ــ بالرغم من انها مجرد بداية ــ في تحرير نفسه من النضال القمعي لكي يستمر في الحياة ككائن مادي . ولقد اثار ذلك من جديد اهتماما بجوانب الوجود المحيرة والاكثر روحانية ** كما خلقت حالة من الحركة الصاخبة ينهار فيها بشكل متزايد

=

٥ ــ المجتمع يتكون من أفراد هم بحكم كونهم عقلانيين او قدرتهم أن يكونوا عقلانيين يندفعون البشرية نحو مستويات جديدة من الانجازات .	٥ ــ المجتمع يتكون من جماهير هي بحكم كونها غير عقلانية وسريعة التأثر ستعود بالانسانية الى مستوى لا طعم له .
٦ ــ ان الحقيقةالعلمية والمعرفة مفيدتان للمجتمع	٦ ــ ربما كانت الحقيقة العلمية والمعرفة مضرتين بالمجتمع .
٧ ــ الخرافة والاوهام مضران .	٧ ــ ربما كانت الخرافة والاوهام مفيدتين .
٨ ــ ان المجتمع يمثل تناغما من المصالح ، مجتمع صالح .	٨ ــ ان المجتمع يتشكل دائما من المصالح المتنازعة .
٩ ــ ان المجتمع يحكم بموافقة الشعب .	٩ ــ ان المجتمع تحكمه النخبة .
١٠ــ الديمقراطية والقيم الانسانية الاجتماعية تعمل لحماية مصالح الافراد والتجمعات.	١٠ــ الديمقراطية والقيم الانسانية الاجتماعية هي من الاخطاء المؤسفة التي تحدث في حكم الجماهير غير المتعلمة .

٥٤ ــ انظر العرض البالغ الاثارة الذي قدمه جان ماري دوميناغ في مجلة **شهادات مسيحية** témoignage Chrétien عدد مارس ــ اذار ١٩٦٨ لكتاب ميشال فوكو : **الكلمات والاشياء** Les Mots et Les choses (باريس ١٩٦٦) .

* تشمل البنيوية ايضا نقدا لوجودية سارتر التي كانت بتركيزها على الاستقلالية المعنوية للفرد رد فعل على التأكيد الايديولوجي على توحد الفرد وخضوعه للجماعة ولصنع التاريخ الموجه لغايات محددة .

** جاء في كلمة احد المشاركين في برنامج جامعة هارفارد للتكنولوجيا والعلوم «مع حلول المجتمعات الصناعية ذات الوفرة تميل العلوم لان تحل محل الانتاجية الاقتصادية كهدف اجتماعي له =

الحوار المنتظم بسبب افتقاد الافتراضات المشتركة وطبيعي ان هذا الامر صحيح بشكل خاص بين التجمعات الفكرية بالرغم من ان رد الفعل هذا يوصل نفسه تدريجيا بالجسم السياسي العام . وقد ترتب على ذلك ان اغلبية الناس تبقى مع النظام السياسي الاجرائي طالما يعمل هذا النظام ، ولكنهم يصبحون في داخلهم اقل التزاما بهذا النظام (ان مسلك الشعب الفرنسي السلبي خلال مايو — ايار ١٩٦٨ وانهيار النظام السياسي هو حالة تندرج في هذا المقام) . وصحيح ان هناك نقاشات كثيرة اليوم عن الحاجة الى اعادة التأكيد على القيم الانسانية ولأولوية الانسان في مواجهة طغيان الاباطرة السياسيين او التكنوقراط الذين يجردون الانسان من انسانيته ، ولكن في زماننا وكنقيض للوضع في تلك العصور التي سادت فيها الاديان والايديولوجيا ، تبقى الوسائل والاشكال والدلالة الداخلية لهذه الاهداف غير محددة بشكل غير عادي . (فمثلا ساد المؤتمر الدولي للفلسفة المنعقد في فيينا ١٩٦٨ الراي القائل بأن الفلسفة المعاصرة يجب ان تكون في الجبهة الامامية «للنضال» ، **ولكن كيف** يمكن ان تساهم في ذلك ، هذا ما لم يحدد ابدا) .

لذا من المشكوك فيه ما اذا كان الاهتمام المتزايد بالمجرد والروحاني ، حتى دلائل الاهتمام الجديد بالتدين — بكلمات اخرى بكل الامور التي يمكن اختصارها بعبارة «قيمة الحياة» — يمكن في المستقبل ان يؤدي الى ظهور أديان وايديولوجيات رسمية جديدة . ان التعقيد العلمي والشك — المدعومين بالتأثيرات الانطباعية الناتجة عن زيادة الاعتماد على الاتصالات السمعية — البصرية (التلفزيون) — كل ذلك يعمل ضد تكوين نوعية منتظمة وعقائدية لاي ايديولوجية . بهذا المعنى يكون من الصحيح القول «بنهاية الايديولوجية» . لقد كان الدين والايديولوجيا جزءين من عصر كان الواقع فيه لا يزال يمكن ضغطه بشكل جامد في خانات فكرية . وكان كل منهما مدعوما بالرغبة الملحة لترجمة ما هو مثالي الى واقعي . ومن المرجح ان ما ينتظرنا هو التحول نحو محاولات اكثر شخصية واقل بنيوية وذات تعريفات اكثر ذاتية لتوليفة علمية وروحانية — بالرغم من انها لن تكون صوفية كتفكير تيلار دي شردان . وعلى اي حال يبدو ان هذا هو الاتجاه الغالب بين المسيحيين

= الاولوية . فكلما كان العلم قادرا اكثر فاكثر على تلبية الحاجات المادية بجهد انساني اقل ، **يصبح اكثر اهتماما بالحاجات الروحية والفكرية** . ولا بد له ان يطور اهدافا وطموحات جديدة حتى يمكن ان يظل قابلا للحياة كنظام اجتماعي .... ولقد حدث في مرات عديدة في الماضي ان اعتاد العلماء على ان كافة الاسئلة الهامة قد تمت الاجابة عليها وان المهمة الوحيدة الباقية هي استكمال التفاصيل وتنفيذ التفرعات كافة للبنية المفاهيمية التي تم تحديد اطارها الرئيسي تماما . ومع ذلك ثبت في كل مرة ان هذا التوقع خطأ . وكشف كل تقدم كبير جديد عن عالم جديد لم يكن متصورا وعن بناء مفاهيمي جديد كان في قلب القديم وهو جزء متميز منه» (هارفي بروكس ، «هل يمكن تخطيط العلم ؟ برنامج جامعة هارفارد للتكنولوجيا والعلوم ، ١٩٦٨» ، ص‌ص ١٣ — ١٤) ، [التشديد من المؤلف] .

والمفكرين الماركسيين المراجعين المعاصرين .

وبالرغم من ان ذلك يغني الفرد هناك خطر في ان يعمل هذا التطور ضد قدرة الديمقراطية الليبرالية على الاستمرار . كما ان الاضطراب الفكري وعدم الاتفاق السياسي ناهيك عن عدم الامان يمكن ان يحرك عملية البحث عن مصادر خارجية من اجل الاستقرار — وهذه قد تأخذ عدة اشكال كالكبت او وضع الثقة في شخصية مسيطرة. «أن مجتمعا — بالاضافة الى ذلك — يمضي بالانتفاضة الى الدرجة التي تصبح فيها الثقافة الكلية ، بل والوعي الفردي ايضا مجرد تجميع لعناصر لا رابط بينها سيجد انه من المستحيل صنع قرار جماعي حول ما يجب ان يصنعه الانسان بالنسبة الى الانسان» (٥٥) ويمكن عندئذ ان يصبح الزعيم بديلا لدور المجتمع في عملية الدمج والتكامل وهي العملية التي كانت تتم إما بايديولوجية مشتركة او بايديولوجية ضمنية * . وفي غياب الوعي الاجتماعي فان الحاجات العاطفية والعقلانية للمجتمع يمكن ان تلتحم في شخص فرد ينظر اليه وكأنه يحافظ على النظام الاجتماعي وفي الوقت نفسه يقوم بالتحديثات الضرورية — وتساعد اجهزة الاعلام على تسهيل انجاز ذلك . فاذا كان لا بد من الخيار بين الفوضى الاجتماعية والفكرية — ولا نعني بذلك مطلقا اي شيء قد يؤدي الى وضع ثوري — وقيادة فردية استبدادية ، فمن المحتمل جدا ان بعض المجتمعات قد تختار الثاني بما في ذلك بعض المجتمعات الدستورية والديمقراطية الليبرالية الحالية .

ان الميل الى اختيار الامان كبديل للتعقيد قد ينمو في السنوات المقبلة لان «نهاية الايديولوجية» لم تقلل من اهمية الافكار والمثل في السياسة ، وتحدث في عصر تصبح فيه مرة اخرى القضايا المجردة المتعلقة بمعنى الحياة الشخصية والاجتماعية ، قضايا مركزية وذلك بالدقة لكون المعتقدات المأسسة لم تعد تشكل اطار الحوار ولا تحتويه . وقد ادى ذلك الى ان يصبح الحوار اكثر حدة وابعد مدى . والنتيجة هي تجدد النزاع بين الافكار ولكن ليس بين الايديولوجيات المأسسة ، وتجدد الاهتمام بالتدين ولكن ليس بالاديان المنظمة .

في هذا الحوار الجديد والانفعالي تصبح التعبيرات القائمة والواسعة الاستعمال

---

٥٥ — فيكتور فيركيس ، ص ٢٤١ .

* وصف دانيال بل الوظيفة الاجتماعية للايديولوجيا بالعبارات التالية : «داخل كل مجتمع يعمل لا بد من وجود بعض العقيدة — مجموعة من المعتقدات والقيم والتقاليد والغايات — التي تربط بين الشبكات المؤسسية والطاقات العاطفية لاعضاء المجتمع في كل متداخل ومتشابك لا بد ان تكون هناك بعض الوسائل والسبل التي تجعل الافراد يتبنون هذه المفاهيم في داخلهم (من خلال القدوة) وأيضا ان يجعلوها واضحة للمجتمع — خصوصا تلك القيم التي تبدو مهمتها بشكل واع هي التغيير الاجتماعي . ان مهمة الشرح والتفسير هذه هي وظيفة الايديولوجيا» . «الايديولوجيا والسياسات السوفياتية مجلة سلافيك رفيد ديسمبر — كانون اول ١٩٦٥ ص ٥٩٥) .

من قبل عديمة الفائدة بشكل متزايد،أن تعابير مثل الراسمالية والديمقراطيــــة والاشتراكية والشيوعية حتى القومية لم تعد صالحة لتقديم وجهات نظر ملائمة. وفي المجتمعات التي تسودها الايديولوجية كالامم الشيوعية ، يعبّر عدم التوافق هذا عن نفسه اكثر فأكثر بهجمات علنية على الايديولوجية الرسمية . اما فـــي المجتمعات ذات القيم الاقل صرامة والضمنية فان عدم التوافق يدفع للبحث عن اطر مقبولة ملائمة . وفي كلتا الحالتين يدور الحديث عن الحاجة الى الجمع بين التأكيد السائد السابق على الانسان الخارجي والانتباه مجددا لحياته الداخلية . وفي كلتا الحالتين ــ كما كان الامر مع الماركسية في العصر الصناعي ــ هنـــاك حاجة محسوسة لتوليفة فكرية جديدة .

وانه لمن علامات عصرنا انه بالرغم من اضطرابه الشديد لم ينتج اي مفهوم ذي شأن عن الثورة : اي استراتيجية للعمل مصممة لكي تحل محل المؤسسات والقيم العاملة بمجموعة جديدة ، اي بمنهج للتغيير وبمادة هذا التغيير ايضا . لقد انتج العصر الصناعي مثل هذا المفهوم (الماركسية) ولقد طبق بعد ذلك في بلدان اخرى خلال عملية التصنيع ولا يوجد الان مثل هذه النظرية بالنسبة الى مجتمعات ما بعد الصناعية ، كما لم ينجح اليسار الجديد في تقديم نظرية كهذه . وبالاضافة الى ذلك بينما حدث في الماضي ان ايديولوجيات التغيير قد انتقلت بحكم الجاذبية من العالم المتطور الى المناطق الاقل تطورا مستثيرة موجة من تقليد العالم المتطور ، تظهر بوضوح الخلافات اليوم بين العالمين لدرجة انه من الصعب تقبل موجـــة ايديولوجية جديدة نابعة من العالم المتطور تحتل مكانها بسرعة في الامم المتخلفة .

لقد كانت الثورات الكلية الاندماجية ممكنة لان الايديولوجيات الاندماجيـــة وفرت اطارا للتغيير والبناء الكليين . وكانت الايديولوجية الاندماجية في ذاتهـــا انعكاسا لعصر قامت فيه السلطة على معتقدات ومؤسسات قائمة بوضوح . وبذا كان الحزب الشيوعي بما يدعيه من العصمة من الخطأ هو خلاصة عصر من الرؤى الكبيرة المتكاملة والمؤسسات الاستبدادية . لقد ادى التغير العلمـــي السريع ــ والانفجار التعليمي الضخم والانفجار الداخلي الشديد في مجال الاتصالات الى ظهور المعتقدات المتطايرة غير الثابتة وردود الأفعال ، وخلقت وضعا اصبحت فيـــه المشاعر الذاتية اكثر اهمية من الالتزام الجماعي بأي مشروع للنشاط او التنظيم الاجتماعي .

وتبعا لذلك وفي الوقت الحاضر ان توترات التفتيت والتوحيد التي استثارتها على المستويات السياسية والاقتصادية والفكرية الفجوة بين عصر التكنولوجيـــا والاليكترونيات واستمرار وجود المؤسسات والاشكال الاجتماعية النابعة من عصر آخر في هذا العصر الجديد ، تشير اي هذه التوترات الى زمن قادم من الاضطرابات اكثر مما تشير الى زمن تحدث فيه ثورة جوهرية . ان العالم الاكثر تقدما يواجه ازمة في مفاهيمه الليبرالية والديمقراطية العامة ، والعالم الشيوعي يجد مـــن الصعب عليه ان يوائم ايديولوجيته اما العالم الثالث فهو يسعى الى اطار يرتكـن اليه مكون من شكل مطور من الاشتراكية تحل فيه العواطف محل الارثوذكسية .

لقد عاش العالم في الماضي في بيئة موحدة وان تكن مقسمة ومستقلة : مجتمعات زراعية تتشابه اساسا في البنى الاجتماعية ــ الاقتصادية ولكنها تتمايز في الاديان والثقافات ومعزول بعضها عن بعض . اما اليوم فان الوقائع المتمايزة اجتماعيا واقتصاديا والموجودة ضمن الاطار الفكري للايديولوجيات والاديان المتهاوية ، هذه الوقائع تتداخل في الوعي والادراك . وهكذا يتخلى اليقين النفسي الذي كان قائما مكانه للتوتر النفسي ، كما تسلم الثقة بالصواب امام مشاعر الذنب ومركبات النقص الساخطة * . ومن المحتمل انه في هذه المرحلة الحاضرة للدوامة الفكرية هناك ولاول مرة بذور منظور عالمي ملائم . لقد كانت الايديولوجيات العالمية اليقينية في القرن التاسع عشر ، في الحقيقة ذات أصول قديمة جدا وهكذا التحمت بسرعة مع القومية (ولقد اتضح ان هذا صحيح بوجه خاص بالنسبة الى الشيوعية في ظل ستالين) . ان الافكار الذاتية والمثل التي تسيطر بطريقة غير مرتبة على الحوار الدائر ، تهتم في الحقيقة بالمشاكل العالمية للانسان وباعادة دمج الجانب الروحاني والمادي .

ان رؤيا الانسان لنفسه كانت في البداية بدائية جدا ومفتتة تعكس آلاف الثقافات الصغيرة . من هذه الثقافات ظهرت في نهاية الامر عدة اديان ذات طموحات عالمية بالرغم من ان كلا منها كان لم يزل محصورا من الناحية الثقافية والجغرافية. ولقد أدى عصر العلمانية الى رؤية سياسية اكثر حيث تم الجمع بين القومية (وقد تم رفعها الى مبدأ عالمي) والايديولوجيات النابعة من اوروبا بشكل كبير والتي فتحت الباب امام تطبيقات عالمية . وسواء كانت مرحلتنا هي مرحلة انتقالية او بداية لتفتت جوهري أعمق فانه من المرجح ان تتأثر كثيرا بما يدور في المجتمعين الاكبرين لعصرنا ــ الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ــ وبما يحدث للمنظورين المعاصرين الاكبرين في العالم الحديث:الليبرالية والشيوعية .

---

* وهكذا ، عندما كان المسيحيون والمسلمون في الماضي يكره كل منهما الاخر كانوا يفعلون ذلك بقناعة كاملة بصحة موقفهم . اما اليوم فقد يكره مواطنو العالم الثالث الامريكيين بسبب ثروتهم ولكنهم في الوقت نفسه يحتقرون شعورهم بالنقص بينما الامريكيون يشعرون بالذنب بسبب ثروتهم ولكنهم يستمتعون بالشعور بالتفوق التكنولوجي .

الجزء الثالث

الشيوعية:مشكلة التلاؤم مع العصر

لقد وفرت الماركسية وهي نتاج نهضة اجتماعية ادت اليها الآثار المجتمعة للثورات الصناعية والقومية ، اداة فكرية فريدة لفهم القوى الاساسية لعصرنا والسيطرة عليها . وكنتاج واستجابة لمرحلة من تاريخ الانسان اتسمت بالعنف بوجه خاص ، فقد وفرت الماركسية افضل منظور متاح للواقع المعاصر . لقد لحمت بين النشاط السياسي والعناصر الاخلاقية القوية ، وشكلت الاساس لهجوم مستمر على المؤسسات الاجتماعية القديمة السابقة على العصر الصناعي ورفعت راية الاممية (الدولية) في عصر سادته بشكل متزايد الكراهية القومية .

ولكون الاتحاد السوفياتي هو اول دولة وضعت النظرية الماركسية في التطبيق كان من الممكن ان يبرز باعتباره النظام الفكري الاكثر نفوذا في هذا القرن ، وكالنموذج الاجتماعي الذي يؤدي الى حل المشاكل الرئيسية التي تواجه الانسان الحديث . الشيوعية السوفياتية مع ذلك في هذه الايام هي مذهب محافظ وبيروقراطي.اما في الصين وهي مسرح اضخم تطبيق للمبادىء الماركسية وعلى اقصى حالة من التخلف الصناعي فان الشيوعية هي مزيج مثير للتساؤل من القومية الاتنية والايديولوجية المبداية . اما في البلاد الاكثر تقدما فان الشيوعية الغربية حية بالقدر الذي تنجح فيه في تمييع شخصيتها الايديولوجية بالتعاون مع

منافسيها الايديولوجيين السابقين والحاليين . وفي الشرق تتغذى نضاليتهـا الايديولوجية على توحد ارادي مع اكثر الانفعالات القومية تهوسا . باختصار قد ضحت الشيوعية المعاصرة بالالتزام الماركسي البروميتوسي بالانسانية العالمية .

ان تراجيديا الشيوعية كمنظور عالمي هي انها جاءت قبل وقتها بزمن كبير وبعد وقتها بزمن كبير . فلقد كان الوقت مبكرا جدا لكي تكون مصدر أممية حقيقية ، لان الانسانية كانت لم تكد تستيقظ لوعيها الذاتي بالقومية ولان الوسائل التقنية المحدودة للاتصالات والتي كانت متاحة لم تكن مستعدة لدعم منظور عالمي . ولقد جاءت متأخرة جدا بالنسبة الى الغرب الصناعي لان القومية والمفاهيم الليبرالية حول اصلاح الدولة قد اجهضت جاذبيتها الانسانية من خلال الدولة ــ الامة ، لقد كانت مبكرة جدا بالنسبة الى الشرق ما قبل الصناعي حيث لعبت دور المنبه الايديولوجي للجماهير النائمة محركة فيهم قومية راديكالية متزايدة .

ولانها كانت متأخرة جدا في الغرب ومبكرة جدا في الشرق وجدت الشيوعية فرصتها لا في الشرق ولا في الغرب ولكن في موقع وسط هو روسيا . لذا يجب النظر لنجاحاتها وفشلها وكذلك الى طابعها الخاص من محتوى الرباط المميز ذي الخمسين عاما بين ما كان مفترضا لان يصبح عقيدة عالمية وبين ما هو واقع قومي اوراسي متميز بدرجة عالية . الى اليوم فان الواقع العملي للشيوعية بالنسبة الى عالم اليوم هو في الاساس ما طبقته روسيا منها .

بالنسبة الى الانسان الحديث فان الشيوعية في الصين تعبّر عن نموذج ذي امكانيات كامنة ولكنه لا يقدم نموذجا ملائما . وبالرغم من ان بعض أوجه الشيوعية الصينية ــ تطهريتها المزعومة وما يبدو انه ثورة مستمرة وصداميتها الايديولوجية ــ يمكن ان تجذب المفكرين الغربيين العاطفيين والساخطين فانها كنموذج اجتماعي لا تفيد الا قليلا اولئك المعنيين بمشاكل المدنية الصناعية المتقدمة . فالصين التي ما تزال تكافح تخلفها الخاص ، والتي تعاني من عدم الثبات السياسي والغارقة من النزاعات مع جيرانها المباشرين والتي تحول الماركسية اللينينية الى نظرية صينية بشكل متزايد ، هذه الصين يمكن ان تكون رمزا ثوريا للبعض ، ولكنها بالكاد توفر مشروعا لمواجهة المشاكل الاجتماعية والسيكولوجية التي يطرحها العصر ما بعد الصناعي .

ومن المؤكد ان الصين يمكن ان تظهر بشكل مختلف بالنسبة الى بعض النخب الثورية في الامم الاقل تطورا . فالصين بالنسبة الى بعضهم تقدم نموذجا جذابا من الانضباط القومي والتفاني الايديولوجي ومن الجهد الاجتماعي الضخم للتحديث بالرغم من التخلف التقني . ولكن حتى على هذا المستوى النموذج الصيني ملائم فقط كنموذج للارادة والهدف وكمرشد للمستقبل ، لا كنموذج لاستجابة الشيوعية لمشاكل التحديث . ان تجربة الاتحاد السوفياتي تقدم الاجابة الوحيدة على هذا الاختبار الحيوي .

التناقض الستاليني

لقد سيطر رجل واحد على ثلثي التاريخ السوفياتي تقريبا ، وارتبط اسمه بنظام حكم وبطريق متميز لبناء الشيوعية . ولا يمكن لاي بحث في دور الشيوعية المعاصر في العالم ، ناهيك عن دورها داخل الاتحاد السوفياتي ، ان يتخطى دور ستالين وتراث ستالين . هذا التراث يتمثل بمؤسسات الدولة السوفياتية الحالية وبطرق التشغيل وبرغم مرور عقدين من الزمان منذ موت ستالين ما يزال اي نقاش سوفياتي عن الاصلاح يدور بشكل حتمي حول مسألة الانفصال عن الستالينية .

هذا امر مفهوم تماما . فالدولة السوفياتية والمجتمع السوفياتي اليوم قد خلقتها ثورة اجتماعية لم يسبق لها مثيل قامت بها النخبة السياسية لا يجب ان يخلط بين هذه الثورة العنيفة والمكلفة واستيلاء البلاشفة على السلطة عام ١٩١٧ ، لانها حدثت بعد اكثر من عشر سنوات . فخلال السنوات الحرجة من ١٩٣٠ — ١٩٤٠ التي أعيد تشكيل المجتمع السوفياتي خلالها لكي يصبح مرآة للطموحات الايديولوجية للحكام السياسيين ، استهلكت تلك الثورة ستة ملايين ونصف مليون نسمة على الاقل حتى اكتمل شكل الدولة السوفياتية الجديدة * . لقد كانت تلك الثورة هي التي افرخت النخبة السياسية الحالية في روسيا السوفياتية . وكانت تلك الثورة التي يقال انها بنت اول مجتمع اشتراكي قائم على الماركسية وأرست أسس انتقاله في النهاية الى الشيوعية . انها ايضا تلك الثورة التي طرحت السؤال عما اذا كان هذا الطابع الخاص **ضروريا** لتأمين التطور الصناعي الذي يصاحبه بشكل متكامل خلق المجتمع الجديد .

ضرورة الستالينية :

لا يجب الخلط بين مسألة «ضرورة» الستالينية وبين مسألة «حتميتها»

---

* ورد في كتاب الارهاب الكبير للكاتب روبرت كونكوست ، نيويورك ١٩٦٨ اكبر قدر من التفصيلات حول هذا الموضوع . ولقد استخلص انه قد تم اعدام حوالي مليون شخص في الفترة ما بين ١٩٣٦ — ١٩٣٨ (ص ٥٢٩) وان مليونين على الاقل ماتوا في المعسكرات خلال هذه السنوات (ص ٥٣٢) ، ويمكن للمرء ان يضيف اليهم ما لا يقل عن ٣ر٥ مليون شخص ماتوا خلال عملية تطبيق الزراعة الجماعية (ص ٥٣٣) وطبقا لحساباتي الشخصية فقد تم فصل ٨٥٠ الف شخص من مجموع اعضاء الحزب الحاكم البالغ عددهم ٢ر٤ مليون عضو خلال ١٩٢٧ — ١٩٣٨ فقط («**التطهير الدائم** ، كمبردج ، ماساشوستس ، ١٩٦٥ ، ص‌ص ٩٨ — ١١٠) . ويجب ملاحظة ان التقديرات التي قام بها آخرون كانت اعلى من ذلك .

وعندما نراجع الاحداث يكون من الاسهل دائما اكتشاف الحتمية فيما حدث بالفعل اكثر من اكتشافها فيما لم يحدث . ان الستالينية اصبحت «حتمية» لان السلطة الماركسية قد ثبتت قدمها اولا في بيئة روسية محددة شكلها تقليد سياسي استبدادي طويل واحباط فكري ونزعة شديدة نحو الاستشهاد المسيحي. وبالنتيجة فقد تدعمت أوجه معينة من الماركسية على حساب اوجه اخرى . لقد كانت مساهمة لينين ودليل عبقريته انه استطاع ان يوائم الماركسية لبلده الام روسيا ، واذ فعل ذلك خلق الايديولوجية الماركسية اللينينية والحزب البلشفي .

ان انتصار لينين على خصومه داخل الحركة الماركسية الروسية ، والأهم من ذلك استيلاءه على السلطة عند انهيار البناء الاستبدادي القديم ، ارسى الاساس لعملية ناجحة «للتقليل من غربية» الماركسية وهو انتصار للنوازع الشرقية المتأصلة على الاتجاهات الديمقراطية الغربية . ان تأكيده على العقيدة الجامدة والعنف والنشاط التآمري وعلى خضوع الفرد كلية تقريبا للحزب (Partiionst) وكذلك عدم قبوله لاي انشقاق وشكوكه المرضية (وكلها تقريبا تشبه الى حد ما سلوك ماركس نفسه) قد عكس ووسع الاتجاه الاستبدادي القاسي الذي عمل به.

يمكن القول إذن ان ظهور ستالين كالزعيم الاول ــ وبوجه خاص اسلوبه وميله الشرقي نحو الحكم المطلق (١) قد سهلها ان لم يكن قد فرضها مفهوم لينين عن الحزب كمجموعة نخبوية تشك في «عقلية النقابات» الخاصة بالعمل ومعاديــة لتردد الفلاحين وتوجههم المحافظ . ولقد سهل عدم السماح بالمعارضة ، والاصرار على طاعة الحزب ، ظهور دكتاتور ماهر بيروقراطيا قادر على استغلال هــذه الاتجاهات لشل من يمكن ان يكونوا معارضين او منافسين . ولقد كتب ليونارد شابيرو واسحق دويتشر كل منهما من منظور مختلف تماما ــ فمن المؤكد انهما لم يكونا ينظران الى اللينينية او الستالينية بنفس العين ــ ، كتب كلاهمــا يعكس الدرجة التي ساهمت بها اللينينية في جعل الستالينية ممكنة وذلك بالحد مــن المعارضة الفعالة داخل الحزب بالنسبة الى تجميع ستالين للسلطة بين يديه (٢) . فلو لم يكن لينين قد جعل ستالين حتميا لجعل على الاقل المعارضة الفعالة له داخل الحزب مستحيلة .

ان مسألة ضرورة الستالينية مع ذلك هي امر آخر . انها تعود الى مشكلة ما اذا كانت الاساليب الستالينية ــ وما نتج عنها من نظام ستالين ــ كانت ضرورية

---

١ ـ لمزيد من التأملات في شخصية ستالين ، انظر ميلوفان جيلاس ، **احاديث مع ستالين** **Conversation's with Stalin** ، نيويورك ، ١٩٦٢ . وانظر سفيتلانا اليلويفا : **عشرين رسالة الى صديق** **Twenty Letters to a Friend** نيويورك ١٩٦٧ .

٢ ـ انظر ليونارد شابيرو ، **اصل الاوتوقراطية الشيوعية** **the Communist Autocracy** لندن ، ١٩٥٦ . وانظر اسحاق دويتشر **the Prophet Octcast** لندن ، ١٩٦٣ .

لانجاح الثورة الاشتراكية وبوجه خاص التصنيع . حتى مع الافتراض بـأن الستالينية ـ وما نتج عنها من نظام ستالين ـ كانت ضرورية لانجاح الثـورة الاشتراكية وبوجه خاص التصنيع ،وحتى مع الافتراض بأن الستالينية كنظام سياسي كانت ضحية ، لا يعني بالتالي ان التضحيات الانسانية الضخمة التي اعتصرها ستالين من الشعب السوفياتي كانت ضرورية لتحديث وتصنيع روسيا والامم غير الروسية في الاتحاد السوفياتي . ربما كانت هذه التضحية ضرورية للحفاظ على النظام الستاليني * ولكن المضي بهذا القول الى نهايته معناه سحب الارض من تحت المناقشة وجعل القضية انه للحفاظ على السلطة الستالينية يجب استعمال الوسائل الستالينية . ولا فائدة من مثل هذا الجدل .

ان هذا مع ذلك لا يقدم اجابة على السؤال الخاص عما اذا كان لا بد من استعمال الوسائل الستالينية لتحديث وتصنيع روسيا والامم غير الروسية في الاتحاد السوفياتي . ان السؤال هام لان كل صرح الشرعية السوفياتية ـ وهي مسؤولية وسلطة النخبة السوفياتية الحالية ـ قائم على الادعاء بأن الماضي هو في جوهره ماض من الانجازات المجيدة والبطولية ، باستثناء خلل طفيف نتيجة سوء تصرف ستالين احيانا وبعض رفاقه ايضا . فبالرغم من كشف الحساب الضخم والمفصل بشكل غير عادي عن جرائم ستالين والذي اعلن لكل الشعب السوفياتي في المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي في ١٩٦٥ ، يميل زعماء ما بعد خروتشوف للتقليل من اخطاء ستالين وللتأكيد على انجازاته في الثلاثينات والخلاصة عندهم هي ان الحزب قد تصرف بشكل صحيح عموما لذا تستمد احقيته بالسلطة من القيادة التي لا تخطىء في الجوهر والتي قدمها الحزب في الماضي وفي الحاضر .

على هذا المضمون يقيم النظام السياسي السوفياتي الحالي على ادعاءاته الاخلاقية والعالمية ، واي نقاش عن شكل التحول في المجتمع السوفياتي معناه نقاش لشرعية الحكام السوفيات الحاليين ولو بطريقة غير مباشرة . والاكثر من ذلك معناه نقاش لمدى ملاءمة النموذج السوفياتي دوليا وبوجـه خاص تركيزه اللينيني ـ الستاليني للسلطة بين ايدي نخبة حزبية بيروقراطية صغيرة . ان الاحداث في تشيكوسلوفاكيا في ١٩٦٨ ، والهجمات السوفياتية على «الثـورة الثقافية» الصينية لانها نسفت المنزلة الاولى لمسؤولي الحزب الشيوعي ، والنقد السوفياتي الطويل لليوغوسلاف لتخفيفهم من تفوق الحزب ، كل ذلك يظهر الدرجة التي لا تزال النخبة السوفياتية تقدر بها نموذجها السياسي وتعتبره ذا اهمية اشمل . هذا الرابط بين المصالح المحلية والطموحات الخارجية يوضح الحساسية

---

* كانت النظرية الستالينية القائلة باشتداد الصراع الطبقي كلما تحقق تقدم نحو الاشتراكية ـ وهي نظرية تتناقض مع فكرة ان الصراع الطبقي يترتب على وجود طبقات معادية ، تبرر ازدياد الارهاب البوليسي ـ هذه النظرية كانت ملائمة عمليا لمصالح سياسات ستالين وسلطته .

السوفياتية تجاه الاقتراحات التي يقدمها الباحثون الماركسيون وغير الماركسيين والتي تقول بأن الطريقة الستالينية كانت مضيعة للجهد ووحشية ، والاهم من ذلك انها لم تكن ناجحة بشكل خارق ولا كانت ضرورية .

هل كان امام ستالين اي بديل آخر ؟ على الاقل هناك بعض الروس – ماركسيين وغير ماركسيين – قدموا تصوراتهم عن السبل التي كان من الممكن تحقيق التصنيع الروسي بها بطريقة اقل كلفة معنويا وماديا من تلك التي اتبعها ستالين ، وعلى نفس القدر من الطموح فحتى قبل ثورة ١٩١٧ كان الباحثون الروس يرسمون الخطط لتحديث بلادهم . ولعل اهم خطة كانت هي تلك التي احتوتها الدراسة التي قدمها في ١٩١٨ البروفيسور ف. غرينفتسكي مدير معهد موسكو للتكنولوجيا ، التي رسمت الخطوط العامة لبرنامج منتظم يستمر لعدة عقود لتطوير البلاد . وطبقا لتحليل بياني محض لهذه الدراسة «٣» اكد غرينفتسكي بالاضافة الى دور الدولة المخطط، اكد اكثر من المخططين السوفيات على مؤشرات الاسعار وبيانات الربح كوسيلة يمكن التوصل بها في معظم الحالات الى نفس الاولويات والسياسات . وحتى الخيارات الاستثمارية المحددة كتلك التي اختارها المخططون السوفيات عند رفضهم لتلك البيانات في خطط السنوات الخمس الاولى فانها تقترب جدا من تلك التي تصورها غرينفتسكي : الا وهي كهربة البلاد واعادة توزيع الصناعة والسكان نحو الشرق ، وتطوير الطاقة الكهرمائية وبناء القنوات وما الى ذلك «٤» . وبالرغم من الزعم السوفياتي المعتاد من ان التصنيع قد قام على «الاسس الفرانيتية للماركسية اللينينية» هناك ادلة كثيرة على ان المخططين السوفيات وبعضهم كان من زملاء غرينفتسكي السابقين ، قد اعتمدوا كثيرا على عمله وقبلوا اهدافه بالرغم من رفضهم الصيغة الاكثر مرونة التي اقترحها لعملية صنع القرار ، ولاعتماد اكبر وان لم يكن وحيدا على مؤشرات الاسعار وبيانات الربح .

كما كانت هناك ايضا داخل الحزب الشيوعي خطط بديلة للتصنيع ابرزها تلك التي قدمها بوخارين ومن سموا «بالمعارضة اليمينية» . فلقد دعوا ، الى حد ما مثل غرينفتسكي الى سياسة تلعب فيها الحوافز الايجابية دور تشجيع الفلاحين لزيادة انتاجهم ، وتجعل سكان المدن يشاطرون في تحمل بعض العبء الاجتماعي للتصنيع الذي يجب اطالة امد جدوله الزمني . لقد عارضوا بوجه خاص البناء القسري للمزارع الجماعية – اي الوسائل المستخدمة من ستالين – لاعتصار

---

٣ – ليون سيمولنسكي ، «غرينفتسكي والتصنيع السوفياتي» **سرفي** ، ابريل – نيسان ١٩٦٨ ، ص ١٠١ . انظر ايضا التعليق النقدي الذي كتبه اليك نوف على تحليل سيمولنسكي ورد سيمولنسكي عليه في مجلة **سرفي** شتاء – ربيع ١٩٦٩ .

٤ – سيمولنسكي ، ص ١٠٩ .

الفائض – من الفلاحين وفي معارضتهم هذه ساندهم فيما بعد تروتسكي الذي كان معارضا قويا لبوخارين في البداية . وفي ١٩٣٠ كان تروتسكي قد انتهى الى ان التصفية الجسدية لملايين الكولاك هو «وحشية» لااخلاقية بدات حلقة مفرغة من الاكراه والعنف كفيلة باغراق المجتمع ككل ولتشويه الشيوعية (٥) . وربما كانت آراء فلاديسلاف غومولكا وهو زعيم شيوعي بولندي اورثوذكسي موالٍ بشـــدة للسوفيات، ربما كانت ملاحظاته الاخيرة اكثر اضرارا من وجهة النظر السوفياتية. فقد تحدث في ٢٣ نوفمبر – تشرين ثاني ١٩٦١ وصنف عمليـــة بناء المزارع الجماعية كبداية عملية متنامية للخروج على القانون وانتهاك الشرعية الاشتراكية واقامة جو من الخوف ، وما نما في ظل هذه الظروف من نحلة عبادة الفرد وعبادة ستالين * .

كما يجب ايضا ملاحظة ان الستالينية قد وضعت حدا لمرحلة لم يسبق لهـا مثيل من القدرة الخلاقة في الفن المعماري والشعر والعلوم الروسية . فخـــلال

---

٥ – دويتشر ، ص‌ص ١٠٠ – ١١٥ .

* ان الفكرة القائلة بأن الزراعة الجماعية سهلت بسرعة التصنيع ما تزال محل جدال بين الاقتصاديين . ومع ذلك ليس من شك في ان طابعها الوحشي غير العادي قد ساهم في سرعـــة تدهور الموارد الزراعية التي كان من الممكن ان تساهم في مجال الاستثمار . «لقد هبط الناتج الكلي للزراعة من ١٢٤ في عام ١٩٢٨ (١٩١٣ – ١٠٠) الى ١٠١ عام ١٩٣٣ واصبح ١٠٩ فقط في عام ١٩٣٦ . بينما هبط انتاج الماشية من ١٣٧ في ١٩٢٨ الى ٦٥ في ١٩٣٣ ثم ارتفع ببطء الى ٩٦ في ١٩٣٦ . وطوال الثلاثينيات لم تتخط محاصيل الحبوب مستوى ما قبل ١٩١٣ بل كانت ادنى منه الى حد ما» (دويتشر ، النبي المنبوذ ، لندن ، ١٩٣٦ ، ص ٩٩) . وقد توصل احد المختصين فـــي الزراعة السوفياتية وهو يستعرض التقديرات السوفياتية التي صدرت مؤخرا عن تلك الفتـــرة المصيبة الى الاستنتاج بأن«بتوافر احتياطيات اكبر من الحبوب والنقد ووجود قطاع اشتراكي اكثر فعالية كانت حرية الحكومة في المناورة ستكون اكبر بكثير . ولم يكن صرح برنامج التصنيع كله قد انهار» وكان من الممكن تجنب التدهور المفجع في الماشية والحيوانات المنزلية وتجنب ضرورة تخصيص كميات ضخمة من الاموال النادرة لمجرد تعويض طاقة النقل وتجنب شغل القدرات الادارية الاكثر ندرة في جهاز الاشراف والارغام .

«وسواء أكانت الحكومة السوفياتية قادرة على ان تظل في السلطة بدون فرض الجماعية العامة في ١٩٢٩ – ١٩٣٠ ام لا ، فهذه مشكلة لا يمكن لاقتصادي ان يناقشها طويلا مع اقتصادي آخر ، لانه مضطر الى التفكير بأن حكومة سوفياتية غير ستالينية كانت قادرة على فعـــل ذلك ايضا» . (ج.ف. كارتز ، «افكار حول مشكلة القمح» **دراسات سوفياتية** ابريل – نيسان ١٩٦٧ ص‌ص ٤٢٩ – ٤٣٠) . وهكذا فبالرغم من ان نصيب السوق من الزراعة يمكن (او لا يمكن) ان يكون اصغر في واقع لا يطبق الزراعة الجماعية ، فانه من المعقول تماما الافتراض بأن النصيب الاصغر من الناتج الكلي الاكبر سيكون موردا اكبر بالمقاييس المطلقة .

عام ١٩٢٠ ؛ في مرحلة ما بعد الثورة مباشرة شهدت روسيا شعورا باليقظة بسبب الطاقة المتفجرة. لقد ولد الارهاب الجماعي والاورثوذكسية الايديولوجية للستالينية الحذر والامتثال . حتى في المجال الايديولوجي اختصر الفكر الماركسي الى تفقه فكري انكفائي شكّل كتاب ستالين **المادية الجدلية والمادية التاريخية** (١٩٣٨) مرجعه الشامل الكامل .

هناك مجموعة اخرى مختلفة من القضايا يطرحها السؤال عما اذا كانت التنمية السوفياتية ، بالرغم من كلفتها المعنوية والمادية ، قد حققت اهدافا لم يحققها اي مجتمع آخر ؟ وهذا طبعا له علاقة خاصة ليس فقط بالشرعية الداخلية التاريخية للنظام الحالي ولكن بوجه خاص بما كان يصلح نموذجا للمجتمعات الاخرى . هذا الادعاء رفضه ويرفضه بعض مؤرخي الاقتصاد في شرقي اوروبا وكذلك في الغرب . ومن بين الغربيين ، صاغ ولت روستو التحدي الاكثر وضوحا (وربما اثارة للجدل) للانجازات الستالينية في مجال التحديث . فهو يقول ان الشيوعيين «قد ورثوا اقتصادا كان قد انطلق» في عملية التنمية الصناعية في العقدين السابقين للحرب العالمية الاولى ، وان ستالين كان مهندس عملية اكمال التحديث لا عملية تحديث بلد مختلف (٦) . وبالاضافة الى ذلك يرى أوجه تشابه مدهشة في نمط وسرعة التصنيع الامريكي والروسي على السواء ، وان الاول بدأ حوالي سنوات ١٨٦٠ بينما بدأ الثاني في سنوات ١٨٨٠ فيما بعد » (٧) ✱ .

وبالمثل ، فقد ذكر سيريل بلاك في دراسته عن التصنيع الروسي بيانات متتالية تظهر ان «في مدى خمسين عاما من المحتمل ان المنزلة العالية النسبية للاتحاد السوفياتي في مجال المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية بالنسبة الى الفرد لم تتغير بشكل كبير . وفي حدود ما تسمح به الادلة المحدودة المتاحة للحكم ، لم يسبق الاتحاد السوفياتي او يتفوق على اي بلد على اساس معدل الفرد منذ ١٩١٧ ، ربما باستثناء ايطاليا . اما التسعة عشر او العشرون بلدا التي تبز روسيا اليوم في هذا المجال ، فانها كانت كذلك في سنة ١٩٠٠ و١٩١٩ . ان مجمل الدخل القومي بالنسبة الى الفرد في ايطاليا وهي التي تقع مباشرة تحت الاتحاد السوفياتي اليوم ، ربما كان اعلى قليلا منذ خمسين عاما» (٨) . ان مقارنات بلاك تضم بلدانا عانت كالاتحاد السوفياتي بشكل كبير من الحروب وكان عليها ان تقوم

---

٦ ـ روستو ، ص ٦٦ .

٧ ـ روستو ، ص ٩٥ . وانظر ايضا ص‌ص ٩٦ ـ ٩٧ لمزيد من الجداول المفصلة التي اعدها وارن نتر حيث يقارن التخلف الدائم في بعض مجالات الانتاج الصناعي الروسي مع الانتاج الامريكي.

✱ في مجالات مثل الصلب والفحم والبترول والكهرباء كان المعدل الامريكي الكلي اعلى الى حد ما ، بينما في مجالات الصناعات الخفيفة والنقل كانت الانجازات الامريكية اكثر اثارة للاعجاب بشكل ملحوظ .

٨ ـ بلاك ، «المجتمع السوفياتي : نظرة مقارنة» في **آفاق المجتمع السوفياتي** ، ص‌ص ٤٢ـ٤٣ .

بعملية تجديد اقتصادي ضخمة . ولقد حاول باحثون آخرون ممن يدرسون النمو الاجتماعي الاقتصادي المقارن ، ان يتوصلوا الى نظام لترتيب البلدان وهم يوافقون بأن الاتحاد السوفياتي اليوم يقعترتيبه في مكان ما في العشرينات الثانية (٩) . وينتهي بلاك الى الاستنتاج الكلي بأن «المجتمعات الاخرى قد انجزت نتائج مشابهة بتكلفة اقل في الوقت نفسه» . وبذلك فهو يضع فرضية شوفينية كبرى حول ماضي السوفييت موضع التساؤل ✱ .

---

٩ — بلاك ، ص ص ٤٠ — ٤٢ ، يقدم موجزا مفيدا لنتائجه وكذلك الاساس الذي اقام عليه استنتاجاته .

✱ ان الانجازات السوفياتية في الفضاء والتسليح وفي مجمل النمو الصناعي ككل تثير الاعجاب. وبالاضافة الى ذلك قفز الاتحاد السوفياتي قفزات مؤثرة في مجالات التعليم والثقافة العامة والخدمات الاجتماعية وخلق قاعدة علمية صلبة وضخمة لمستقبل تطور البلاد . وهكذا يعد الاول بين الامم المتطورة بالنسبة الى عدد الاطباء لكل ١٠٠ الف من السكان ، وهو يقدم اعلى ضمانات اجتماعية سنوية للفرد (مكتب الاحصاءات للتجمعات الاوروبية ، **احصاءات اساسية** ، بروكسل ، ١٩٦٧ ، ص ص ١٣١ — ١٥٣) .

وفي نفس الوقت من المفيد ان نستعيد ان المجتمع السوفياتي هو في عديد من الوجوه مجتمع متوسط نسبيا فيما يتعلق بالتطور الاجتماعي — الاقتصادي . ان الدراسة التي اعدها بلاك وذكرناها من قبل تقدم جداول مفيدة عن الاتحاد السوفياتي بالمقارنة مع الدول الاخرى فيمجالات مثل التعليم (في المجموعة العمرية ٥ — ١٩ يأتي ترتيب الاتحاد السوفياتي التاسع والثلاثين من بين ١٢٤ بلدا توفرت المعلومات عنها في ١٩٦٠) وفي مجال الاتصالات (في ١٩٦٠ كان الاتحاد السوفياتي السادس والعشرين في مجال توزيع الصحف بالنسبة الى الفرد من بين ١٢٥ بلدا) وفي الصحة العامة (كان الاتحاد السوفياتي في مجال معدل المواليد الاحياء والمتوفين هو الثالث عشر بين ٧٩ بلدا) وهكذا. اما بالنسبة الى المؤشرات الدالة على العصرنة كدرجة توفر الاتصالات الجوية واجهزة الراديو والتلفزيون والسيارات والطرق العامة والعقول الاليكترونية فان الاتحاد السوفياتي يأتي في المراتب الدنيا بعد البلاد الاكثر تطورا . وهكذا بالمقارنة مع البلدان الواحدة والعشرين الاكثر تقدما (بما في ذلك بلدان السوق الاوروبية المشتركة وبلدان EFTA واليونان وتركيا وفنلندا واسبانيا والولايات المتحدة وكندا واليابان) يأتي ترتيب الاتحاد السوفياتي كالآتي : العشرين في عدد التليفونات ، والسابع في عدد اجهزة الراديو ، والعشرين في عدد سيارات الركوب .

كما ان تخلف السوفيات في المجالات الاكثر تعقيدا مثل مجال الكومبيوتر يثير الدهشة ايضا . فقد كان مقدرا انه سيكون لدى الولايات المتحدة في ١٩٦٨ حوالي ٥٠ الف الى٧٠ الف كومبيوتر في الخدمة العاملة ، من بينها حوالي ١٠ بالمئة في وزارة الدفاع و AEC وناسا NASA بينما عدد الكومبيوترات السوفياتية غير العسكرية في نفس الفترة سيكون حوالي الفين الى ٣٥٠٠ كومبيوتر او ما يوازي تقريبا الكومبيوترات العاملة في اليابان والمانيا الغربية او المملكة المتحدة على التوالي (انظر بول آرمور «الكومبيوتر في مجالاتالتعبير التكنولوجي والتسيير الذاتي والتقدمالاقتصادي»، =

وقد تأيدت هذه الاستنتاجات العامة من دراسة مقارنة للنمو في انتاج الصلب باعتباره المدخل الرئيسي في عملية التصنيع ويجب ملاحظة ان الاقتصاديين السوفيات وكذلك الزعماء السياسيين قد اعتمدوا مرارا على الصلب باعتباره المؤشر الاكبر للنمو الصناعي السوفياتي . لقد كتب ستيفان كوروفسكي مؤلف هذه الدراسة ، في بولندا الشيوعية مقدما مقارنات تفصيلية غير عادية تظهر انه في ظل ستالين لم يزد انتاج الصلب السوفياتي بخطوات اسرع بشكل كبير مما كان عليه الحال في المرحلة الاسرع من عملية التصنيع قبل الحرب العالمية الاولى . وان هذه المعدلات قد اقتربت من تلك التي حققتها بلدان اخرى ، وبوجه خاص اليابان خلال المراحل نفسها من التصنيع السريع» ✱ . وبشكل اعم يناقش كوروفسكي الامر اعتمادا على تحليل مقارن اكبر بكثير ويشمل حوالي ١٢ بلدا في الفترة ما بين ١٧٨٠ – ١٩٧٠ ، ويقول ان الانظمة الاجتماعية السياسية لها علاقة صغيرة بما يتعلق بتسارع انتاج الصلب والحديد وانه في تسارع الانتاج هناك طابع من التشابه الكامل راجع الى التحديث التقني «١٠» ولقد اثار هذا الاستنتاج بالطبع الغضب الرسمي «١١» ، لانه لمس القضية الاساسية في ماضي السوفيات .

= **نظرة في التغيير التكنولوجي والعمالة** ملحق المجلد الاول حول اللجنة القومية عن التكنولوجيا والتسيير الذاتي والتقدم الاقتصادي ، التكنولوجيا والاقتصاد الامريكي ، واشنطن ، ١٩٦٦ ، ص‌ص ٢٢٠ – ٢٢٢) . وانظر ايضا التقديرات الشاملة في كتاب ريتشارد ف. بركز ، التجديد التكنولوجي والتغيير السياسي في اوروبا الشرقية الشيوعية ، مؤسسة رند ، سنتامونيكا ، كاليفورنيا ، اغسطس – آب ١٩٦٩ ، ص‌ص ٨ – ٩) . ولمزيد من النقاش حول المشاكل المعاصرة للتجديد في الاتحاد السوفياتي انظر ص‌ص ١٥٥ – ١٥٩ من هذا الكتاب .

✱ يبين كوروفسكي باستخلاصه معدلات نمو قائمة على اساس معدلات ١٨٧٠ ان انتاج الصلب الروسي كان من الممكن ان ينمو بين ١٩١٤ الى ١٩٢٠ الى ١١ مليون طن . في ١٩٢٩ كان انتاج الصلب السوفياتي قد بلغ فقط مستوى ١٩١٤ ، و١٩٣٥ بعد الخطة الخمسية الاولى التي وضعها ستالين وبعد حساب السنوات الست المقابلة لتلك السنوات التي تفصل ١٩١٤ من ١٩٢٠ ، بلغ انتاج الصلب ١٢٫٦ مليون طن . (ستيفان كوروفسكي ، وارسو ١٩٦٣ ص‌ص ١٣٢ – ١٣٣) . وبالاضافة الى ذلك قارن كوروفسكي بتفصيل كبير بين معدلات النمو السوفياتية واليابانية في الفترة ما بين ١٩٢٨ – ١٩٤٠ والفترة ما بين ١٩٥٠ – ١٩٦٢ وأظهر انتظاما مذهلا في معدلات النمو (ص‌ص ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٧٥) .

١٠ – انظر الجدول الرائع في كتاب ستيفان كوروفسكي Historyczny Proces Wzrostu Gospodarczego وارسو ، ١٩٦٣ ص ٣٢٥ .

١١ – انظر مجلة تريبيونا لودا Trybuna Luda ، ٨–٧–١٩٦٣ ومجلة نوفي دروغي ، العدد –٨– ١٩٦٣ .

التهدئة الامبريالية :

وبالرغم من ان الستالينية من الممكن ان تكون تراجيديا لا ضرورة لها للشعب الروسي وللشيوعية كمثل عليا على السواء ، هناك رغبة فكرية مشوقة يمكن ان تعتبر انها كانت بالنسبة الى العالم نعمة مخفية كما سنرى . وذلك ان الاتحاد السوفياتي كان مقدرا له وهو الدولة التي تملك اكبر واغنى الاراضي والتي يسكنها شعب مطواع ولكنه خلاق جدا ، والتي تحمل اتجاها امبرياليا قويا ، وكمجتمع مدرب في شؤون الحرب وشؤون الدولة، بوجود ستالين او بغير وجوده كان مقدرا له ان يبرز الى الصفوف الاولى بين قوى العالم . وان يكون امامه قوة قارية اخرى فقط هي الولايات المتحدة وكندا . لذا من غير المحتمل ابدا انطلاقا من تقاليد ان روسيا ما بعد الحرب العالمية الاولى كانت ستظل لفترة طويلة ساكنة غارقة في مستنقع من العجز .

والسؤال الذي يثور عندئذ ، هو ما هو نوع روسيا التي كان من الممكن ان تظهر غير ذلك ؟ لا يبدو ان روسيا ديمقراطية سواء كانت ليبرالية او اشتراكية هي البديل الفعلي . فان ذلك كان يتطلب قفزة لم يسبق لها مثيل من الاوتوقراطية بدون مرحلة وسيطة من التخمر الديمقراطي ، ولسبب وضع الحرمان الاجتماعي الضخم والاضطراب والقلاقل الاجتماعية من الصعب ان نرى كيف ان روسيا ما بعد الحرب العالمية الاولى وقد مزقتها الصراعات القومية والنزاعات الطبقية والايديولوجيات الجذابة المتنافسة والبؤس المادي الواضح ، يمكن ان تمأسس بشكل فعال في نظام ديمقراطي ، في الوقت الذي فشلت فيه مثل هذه الانظمة في بلاد ذات تقاليد ديمقراطية اقوى وتعمل في ظروف افضل بكثير للنمو الديمقراطي .

فانطلاقا من اليقظة السياسية الضخمة للشعب الروسي التي اثارتها عملية التصنيع في العقود السابقة وبدايات انتشار القراءة والكتابة وخبرات الحرب يبدو ان البديل الآخر الوحيد كان هو نظام شوفيني واضح ديكتاتوري شديد الامبريالية . ان مثل هذه المرحلة في التطور السياسي لامم اخرى عظيمة كألمانيا واليابان والولايات المتحدة قد ادت عندما ارتبطت بالتوسع الاقتصادي ، الى امبريالية عدوانية دينامية ، ان القومية التوسعية قد وفرت الاساس للتعبئة الشعبية ولسياسة خارجية جازمة حتى عدوانية . وفي كل الاحتمالات كان من الممكن على الاقل ان تكون روسيا بفضل معونة الاستثمارات الاجنبية (الاستثمارات الاقتصادية في دول اصبحت معادية سياسيا هي من سمات عصر الراسمالية) * ،

---

* انظر كتاب انتوني س. سوتون ، **التكنولوجيا الغربية وتطور الاقتصاد السوفياتي** ، ١٩١٧ — ١٩٣٠ (ستانفورد ، كاليفورنيا ، ١٩٦٨) وذلك للحصول على ادلة بارزة على المشاركة الغربية في المرحلة الاولى من النمو الاقتصادي السوفياتي يقول الكاتب «ان التطور الاقتصادي السوفياتي في ١٩١٧ — ١٩٣٠ كان يعتمد بشكل اساسي على المعونة التقنية الغربية» (ص ٢٣٨) «وعلى الاقل ٩٥ بالمئة من الهيكل الصناعي تلقى هذه المساعدة» (ص ٣٤٨) .

وبقيادة ديكتاتورية شوفينية تعمل للتحديث كان من الممكن ان تحقق قفزة في الطاقة القومية الامبريالية التي تجعلها ايضا قوة عالمية ، ربما بكلفة محلية اقل ولكن بطريقة اكثر تهديدا للعالم .

تستحق هذه النقطة بعض التطوير . لقد حقق ستالين زواج الماركسية ــ اللينينية مع القومية السوفياتية، وبوجه خاص القومية الروسية . ان التركيز المتزايد على تقاليد الدولة الروسية العظيمة ، وعلى الحدود ، وعلى الطموحات القومية ، وعلى مهمة روسيا في نشر المدنية بين الامم السوفياتية غير الروسية ، وما شابه ، كل ذلك سار جنبا الى جنب مع عملية التحويل الفعلية للحزب الشيوعي السوفياتي من حزب تسوده مجموعة مختلطة من المفكرين الروس واليهود والبولنديين والبلاطقة والقوقازيين ذوي الافكار العالمية والامية ، الى حزب يسيطر عليه الفلاحون الروس اساسا ، والفلاحون الاوكرانيون لدرجة ما ، الذين تحولوا الى موظفين حزبيين . وبالنسبة الى هؤلاء الناس شكّل النظام السوفياتي في الوقت نفسه مصدر تقدمهم الاجتماعي وقوتهم السياسية . كان ولاؤهم لهذا النظام شبه ولاء كثير من الكهنة الفلاحين للكنيسة الكاثوليكية في المجتمعات التقليدية (الابناء الاصغر عادة الذين لم تترك لهم ارض) . انه ولاء مؤسسي اكثر منه فكري . لقد وفرت لهم الايديولوجيا المنظور الفكري التكاملي ولكنها لم تعد المصدر الرئيسي للدوافع والالتزامات كما كانت بالنسبة الى المفكرين ذوي العقلية الامية الذين سبقوهم .

وتبعا لذلك مالت النخبة السوفياتية الجديدة لان تكون محافظة وقومية ، حتى عندما كانوا يصدقون انفسهم باخلاص من انهم دعاة ايديولوجية اممية . لذا كان بامكانهم التصرف بطريقة تمليها اساسا مصالحهم الخاصة . ومع ذلك يعتبرون انفسهم امميين حقيقيين . وبالنسبة اليهم كان قول ستالين المشهور ان محك صدق الاممي هو درجة ولائه للاتحاد السوفياتي وهو الحل الامثل للتوتر الذي نشأ بين القومية السوفياتية والاممية الشيوعية . ولا عجب ان بريجنيف قد اعاد هذا القول الى الحياة عمليا في ١٩٦٨ ليشرح به احتلال تشيكوسلوفاكيا .

والنتيجة المترتبة على هذا الوضع كانت نمطا خليطا من الدوافع والسلوك تسيطر عليه منذ ايام ستالين الاعتبارات الخاصة بالدولة التي غالبا ويا للسخرية، ما استغلت الجانب العالمي الاخلاقي من الماركسية . ولكن هذا الجانب كان من الضروري ايضا ان يظل حيا حتى لو كان يتيح تعبئة التعاطف الخارجي من الاتحاد السوفياتي او لانه يلعب على مثالية الشبيبة السوفياتية ويسهل على النظام تجنيد الانصار ، وبالرغم من ان الاتحاد السوفياتي قد استغل بالفعل اقطاعياته في شرق اوروبا ، وبالرغم من ان معونته المالية والتقنية للصين لم تكن غير مشروطة ، يصدق الشعب السوفياتي فعلا (كما يتحدثون بذلك احيانا للزائرين) ان الاتحاد السوفياتي قد ساعد اوروبا الشرقية والصين كجزء من التزامه بالتضامن الشيوعي .

والعنف الداخلي بالاضافة الى ذلك الذي استخدمه ستالين ، والاثر التعليمي للايديولوجية الشيوعية - بالرغم من رفض الجماهير لها في البداية - كان له اثر كابح في القومية المطلقة العنان . ففي البداية اربكت التغييرات الاجتماعية التي أحدثها الارهاب والايديولوجية الستالينية ، الشعب وجعلته يشعر بالاغتراب ولقد ادت مذبحة ١٩٣٦ - ١٩٣٨ التي لم يسبق لها مثيل والتي قضت علـــى القيادة السوفياتية العليا السياسية والعسكرية والاقتصادية والفكرية بشكـــل حتمي الى التقليل من حيوية المجتمع السوفياتي . لقد هلك بالفعل خلال تلـــك السنوات مئات الآلاف من اكثر الناس موهبة وافضلهم تدريبا . وبالاضافة الى ذلك ، وبالرغم من ان مبدأ الاممية قد انتهك مرارا في الممارسة ،فقد كبح الانكفاء نحو القومية الروسية الكبرى ولو بفرض سلوك مقنع . محليا ، ساعد هذا المبدأ على الحفاظ على القوميات غير الروسية بالرغم من حملات التطهير التي قام بها ستالين ضد مفكريهم . دوليا ، ساعد هذا المبدأ على صياغة حالة من التفكير لدى الزعماء السوفيات وقفت ضد اشراك بولندا وفنلندا وربما دول اخرى من اوروبا الشرقية داخل الاتحاد السوفياتي (في احدى المراحل تطوع اليوغوسلاف انفسهم ليكونوا اعضاء في الاتحاد السوفياتي ، واقترح بعض الشيوعيين السلاف ومنهم جوستاف هوساك نفس الشيء بالنسبة الى سلوفاكيا) وقد كان هذا الاغراء قويا لدرجة ان القادة الروس الاكثر تعلقا بالقومية والمؤمنين بالقومية السلافية الكبرى، كان من الصعب عليهم مقاومته .

لذا كان وضعا متناقضا،انه برغم أن الايديولوجية السوفياتية قد دعمت فيما بعد بل ربما سيطرت عليها بشكل متزايد قومية الجماهير (وبوجه خاص منذ الحرب العالمية الثانية) ، فان الوظيفة التاريخية للشيوعية الستالينية ربما كانت هي كبح جماح ، واعادة تحديد ، مرحلة مر فيها الشعب الروسي عبر يقظة قومية شديدة بل امبريالية . لقد ارغمت هذه القومية الشاملة الجديدة على ان تكون فـــي خدمة التعاون الدولي والمساواة بين الشعوب ورفض العنصرية على الاقل لفظيا. ان الماركسية لم توفر لروسيا مذهبا ثوريا عالميا فحسب وانما حقنتها بمنظـــور عالمي نابع من اعتبارات اخلاقية لا تختلف كثيرا عن تلك الاعتبارات التي أثارتها في الغرب التقاليد الدينية والليبرالية .

وبالرغم من المآثر التي حققتها الستالينية ، افرغت لدى الروس معينهـــم الانساني والعاطفي ، لذا قد تدخل روسيا ما بعد ستالين في النهاية الى المجمع العالمي كقوة مستنفدة انهت مرحلة الامبريالية . وستالين اخيرا باقامته نموذجا للشيوعية متميزا في طغيانه ، وبالاصرار على ان تخضع كل الاحزاب الشيوعية الاخرى لهذا النموذج ، ليس فقط قد حرك عملية تفتيت الشيوعية ولكنه ايضا ضيع الكثير من جاذبية الشيوعية في وقت كان من الممكن فيه ان يؤدي ضعـــف الغرب الاكثر تقدما - وهي المنطقة التي رأى فيها ماركس اصلا انضج المناطق لعملية التغيير التاريخي - الى ان تكون الشيوعية القوة الحيوية المسيطرة فعـــلا في عصرنا .

ان للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي انجازا فريدا يضاف الى حسابه: لقد نجح في تحويل اهم مذهب ثوري في عصرنا الى ارثوذكسية اجتماعية وسياسية بليدة . هذه الارثوذكسية ثورية في كلماتها محافظة في الممارسة . ان بعض المواطنين السوفيات يرون في النظام السياسي الشديد المركزية والذي هو سير تطوره الذاتي نظاما يزداد انفعاله عن احتياجات المجتمع السوفياتي باستمرار، وقد تجمد عند موقف ايديولوجي كان رد فعل لعصر مختلف تماما . ان المجتمع السوفياتي ، حيث تجتمع عناصر من التحديث الحضري مع تخلف ريفي شديد ، لم تعد تحدث فيه تغيرات ثورية سريعة قادرة على تعبئة حماسة الشباب ويبدو انه بدلا من ذلك قد اقتصر الامر على مجرد اللحاق بمستويات الاستهلاك الاعلى في الغرب الرأسمالي .

في ظل تلك الظروف يصبح من الصعب ايديولوجيا اكثر فأكثر تبرير الشرعية التاريخية والكفاءة الاجتماعية لاستمرار خضوع المجتمع السوفياتي لنظام سياسي يغرق بشكل متزايد في مذاهب عقيمة من القرن التاسع عشر ومن المؤكد انه من السخرية المرة ان النظام السوفياتي السياسي ــ الذي دفع بروسيا الى منتصف العصر الصناعي ــ قد اصبح الان العائق الرئيسي امام المزيد من تطور البلاد . انه يحتفظ بروسيا في خلطة هي صناعية برجوازية من الناحية الاجتماعية وجامدة استبدادية من الناحية السياسية بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي ، فلكي يصبح مجتمعا حديثا حقا ، من الواجب تغيير افتراضات وهيكل الاشكال السياسية التي اقيمت للدفع بعملية التصنيع كما انه من المطلوب رؤية للغد اكثر صلة بالواقع من تلك التي وفرتها الايديولوجية الرسمية ، وذلك لمواكبة الاهتمامات الشخصية جدا والاهتمامات الاجتماعية الاوسع للعصر التكنتروني .

علاقة تجديدية :

في مرحلة معينة كان النظام السياسي السوفياتي ذا علاقة ثورية بالمجتمع . فلقد ارسى النظام السياسي بعد ان توحد ومن ثم اخضع لارادة رجل واحد ، ارسى اسس عملية تغيير جذري في المجتمع بالجمع بين التحديث (وذلك اساسا عبر تصنيع كبير وتعليم واسع) ومؤسسات وعلاقات اجتماعية جديدة نابعة من الايديولوجيا . وفي الواقع العملي تشبه وظيفة النظام السياسي في المجتمع السوفياتي ما وصفه ماركس بالدور الرئيسي للرأسمالي في التاريخ : «ان الرأسمالي وقد صمم بجنون لان يجعل القيمة توسع نفسها ، قد ارغم الجنس الانساني دون هوادة على ان ينتج من اجل الانتاج ، وبذلك قد فرض تطور قوى

الانتاج في المجتمع وخلق ظروف الانتاج المادية التي يمكنها وحدها ان تشكل الاساس الفعلي لشكل اعلى للمجتمع ، مجتمع يحكمه مبدأ التطور الكامل والحر لكل فرد » .

لقد اشبع التغير الثوري المحلي الحاجات الايديولوجية للنخبة الحاكمة دون ان يدفع تلك النخبة الى مغامرات ثورية خارجية كان من الممكن ان تنسق سلطتها. وكانت النخبة الحاكمة تخاف لئلا تؤدي الحماسة الايديولوجية غير الناضجة الى كشف مواقعها ، ومع ذلك كانت محكومة بايديولوجيتها ايضا .كانت الاشتراكية في بلد واحد ــ وهي اجابة ستالين المتهورة على ثورة تروتسكي الدائمة ــ انقلابا رائعا لانها لحمت بين الطموحات الايديولوجية الاصيلة عند الثوريين الملتزمين ومذاقهم للسلطة الذي اكتسبوه مؤخرا . لقد سمحت الاشتراكية في بلد واحد للحكام الجدد بأن يحتفظوا بصوابيتهم الايديولوجية وبمواقعهم .

والاكثر جوهرية من ذلك ، هو ان مفهوم «البلد الواحد» الجديد قد حدد دورا مميزا وتجديدا للنظام السياسي في علاقته بالمجتمع . لقد اصبح النظام السياسي المصدر الرئيسي لدينامية التغيير الاجتماعي مقررا الاهداف ومحددا الاولويات . وما ان اتخذ المجتمع الشكل المطلوب وبدأ يعكس الطموحات الرسمية للحكام السياسيين ــ الذين تحولوا في نفس الوقت الى رسميين بيروقراطيين ــ حتى اخذت قوة الدفع للتغيير الاجتماعي تذوي .

وفي أواخر ١٩٥٢ ، اشار ستالين الى ان من وجهة نظره لا تزال هناك حاجة لتحول اجتماعي مستمد من الايديولوجية وموجه سياسيا . وفيما بعد كافح خروشوف في عدة مناسبات لكي يحقن العلاقة بين النظام السياسي وبين المجتمع بمحتوى مبرمج جديد . وذات مرة اقترح عملية اعادة بناء درامية للريف السوفياتي فيما يسمى «المدن الزراعية» .

وفيما بعد حاول ان يحدد اهدافا ايديولوجية جديدة مرتبطة بانتقال المجتمع السوفياتي النهائي من الاشتراكية الى الشيوعية . وعندما ظهر ان هذا الجهد في التجديد الاجتماعي ــ وقد نص عليه ايديولوجيو الحزب في برنامج الحزب الجديد المقر في ١٩٦١ــليس الا قائمة من المزايا المادية الاضافية يمكن ان يتمتع بها الشعب السوفياتي في وقت ما في الثمانينات حول خروشوف اهتمامه الى الحزب نفسه وبدأ يلعب بفكرة اعادة تحديد دوره . وفي ١٩٦٢ اندفع في اصلاح كبير أدى عمليا الى شق الحزب الى قسمين منفصلين ، واحد متفرغ للامور الزراعية والآخر للمشاكل الصناعية . وكما شرحها هو «ان خط الانتاج هو الخط الرئيسي ... والشيء الرئيسي في التشييد الشيوعي هو الاقتصاديات والانتاج والنضال من اجل خلق منتجات مادية وروحية لحياة الانسان» (١٢) .

---

١٢ ــ خطاب ١٩ــ١١ــ١٩٦٢ .

وبالرغم من ان الاصلاح الذي قام به خروشوف خاطر بتحويل الحزب الى هيكلين منفصلين اداريين اساسا (ولهذا فقد الغاه على الفور خلفاء خروشوف بعد الاطاحة به في اواخر ١٩٦٤) فقد عكس بالفعل اعترافا بأن العلاقة بين النظـــام السياسي والمجتمع قد اصبحت غير فعالة ، ذلك انه اذا كف النظام السياسي عن تحديد اهداف ايديولوجية جديدة وعظيمة امام المجتمع ، فان النظام نفسه يجب ان يصلح لكي يستمر بتلبية الاحتياجات الروتينية والعملياتية للمجتمع السوفياتي، هذا المجتمع الذي اصبح في ذلك الوقت يملك الاساس التقني والصناعي من اجل مزيد من التقدم المستمر . وعندما شعر خروشوف ان الحـــزب يبحث عن دور جديد ، استعد لاجراء الاصلاحات الضرورية .

الارثوذكسية الدفاعية :

لقد رفض خلفاء خروشوف رأيه واختاروا بدلا عنه تصحيحات صغـــيرة نسبيا ـ اساسا في التخطيط والاشراف الاقتصادي ـ وفي الوقت نفسه اعادوا التأكيد على الضرورة اللازمة للارثوذكسية الايديولوجيـة ولعمليات التثقيـــف الايديولوجية الاكثر شمولا . وفي ظل نظام ما بعد خروشوف لم يعد هناك تعريف لاهداف ايديولوجية جديدة ولا اي تلاعب كبير بالهيكل السياسي . وكنتيجة لذلك لا تحتـــوي الآراء الرسمية حول وضع المجتمع السوفياتـــي وحول الشؤون الخارجية وحول مشاكل المستقبل وحول طبيعة الشيوعية المعاصرة الا على تحليل من الاعتراف بالمشاكل الجديدة التي تواجه الانسان ، سواء كان فيما يتعلـــق بظروفه الشخصية او بصفته عضوا في مجتمع عالمي آخذ في الظهور . ان المشاكل الصعبة يتم اخفاؤها ببساطة تحت بساط ايديولوجي .

ان الرأي الرسمي السائد في الجبهة الداخلية لا يزال ان الاتحاد السوفياتي وقد اكمل بناء الاشتراكية يرسي الان اسس المجتمع الشيوعي ، وان المشاكـــل القائمة هي مشاكل ادوات في الاساس مطلوبة لتحسين كفاءة نظام يعتبر رسميا في منطلقاته وتنظيمه الاساسي اكثر الانظمة تقدما وعدلا في العالم . ويفسر التأخر في النمو الاجتماعي الاقتصادي في بعض جوانب الحياة السوفياتية إما بسبب كوارث الحرب العالمية الثانية او بفشل النظام السابق على النظام الثوري . أما كتابات المفكرين المراجعين الماركسيين عن مشاكل الاغتراب الشخصية في مجتمع حضري متقدم ـ ناهيك عن العداء للسامية في مجتمع اشتراكي ـ فانها ترفض باعتبارها عدم توافق مع الظروف السوفياتية او باعتبارها لغوا حاقدا . ويقال ان الاتحاد السوفياتي ليست لديه مشاكل خاصة بالاجيال ، ولم تناقش جرائم المدن الا مؤخرا كظاهرة في ذاتها وليس مجرد تركة من عصر ما قبل الثورة .

ولقد تم الربط بين هذه الآراء وبعضها في اطار من الجهود المكثفة لاعـــادة التأكيد على التدريب الايديولوجي وتوسيعه (وبذلك يتم التعويض جزئيا عن تراجع

عملية الاكراه كأسلوب رئيسي في تحقيق التكامل بين المجتمع السوفياتي والنظام السياسي) ، وبالرغم من ان المجال الاجتماعي لهذه الجهود يتم توسيعه ، ظهر في السنوات الاخيرة اعتراف علني بحقيقة ان هناك اهتماما خاصا يتركز على المجتمع العلمي الجديد : «ان الحزب والشعب يريدان ان يريا في العلماء ليس فقط خالقي ومنظمي التقدم العلمي ـ التقني ولكن ايضا اناسا سياسيين ، مناضلين نشيطين من اجل قضية الشيوعية»(١٣) وبالاضافة الى ذلك كانت هناك تعبيرات تعكس الاهتمام الرسمي حول ما يدعي بأنه لامبالاة ايديولوجية بين العلماء ، والاسوأ من ذلك حول اتجاه في هذه الدوائر يعتبر التكنوقراطيين هم القيادة الطبيعية للمجتمع الحديث (١٤) ولقد تكرر تحذير العلماء (والتحذيرات نفسها تكشف عن مواقف العلماء السوفيات) الا يصوروا انفسهم «كإنسانيين فوق الطبقات» وانما يجب ان يتوحدوا بشكل وثيق مع النضال الطبقي والشعب (١٥) .

ويبدو ان قضية الانسانيين ذات حساسية خاصة . فالاتجاه الانساني وهو محل اهتمام مركزي ماركسيا يمكن ان يكون نقطة انطلاق لاي ناقد لكل من الستالينية والنظام السوفياتي الحالي . وبالاضافة الى ذلك اعطت القدرة الكامنة في العلم الحديث على الغاء الانسانية طابعا ملحا جديدا لمشكلة تعريف الانسانية في العالم الحديث . ان الراي الرسمي كما ورد بشكل مسؤول في سلسلة من المقالات الكبرى في المجلات الايديولوجية الرئيسية ، كان لا لبس فيه: «ان الاشتراكية هي انسانية بعمق لانها تقضي على استغلال الانسان للانسان». وبالتالي «انها ايضا انسانية عندما تقيم بناء مجتمع جديد ثمنه مصاعب غير عادية في النضال المستمر ضد القديم . انها ايضا انسانية لخلقها الظروف من اجل تطوير شامل للفرد ولكن المجتمع ما زال مضطرا للسيطرة على نشاط الفرد ونظام عمله‹وانه من داخل اطار كل المجتمع ومن اجل مصالحه ومصالح التعليم الشيوعي لفرد معين لا يسمح للافراد بأن يستخدموا الحريات التي منحتها لهم الاشتراكية استخداما سيئا ، ولا يسمح للناس ذوي الشعور المتخلف بالمسؤولية بانتهاك قواعد المجتمع الشيوعي ، كما انه يكبت معارضة القوى المعادية للاشتراكية ، الخ» (١٦)

---

١٣ ـ ن. سفريدوف «اهتمام الحزب بتنشئة مثقفين علميين ـ تقنيين» مجلة **كوميونست** ، العدد ـ١٨ـ ص ٣٨ .

١٤ ـ ب. ديميشيف «بناء الشيوعية واهداف العلوم الاجتماعية» مجلة **كوميونست** العدد ـ١٠ـ ص ٢٦ .

١٥ ـ أ.ج.ر. كوسولابوف و ب. سيمش ، «المثقفين في المجتمع الاشتراكي» البرافدا ، ٢٥ـ٥ـ١٩٦٨ .

١٦ ـ د.أ. تشيزنوكوف ، «اشتداد الصراع الايديولوجي والسياسي والمراجعة الفلسفية المعاصرة» **مجلة فوبروزي فيلوسوفي** العدد ـ١٢ـ هذه المقالة الهامة تناقش الحالة العامة للماركسية المعاصرة وكذلك مغزى المراجعة المعاصرة .

ولقد تدعمت هذه الحجج بالتأكيد على ان «ما يسمى بالقيم الخالدة ـ الحريـــة والديمقراطية والانسانية والكرامة الفردية ... هي سلاح بين ايدي البورجوازية تضل به الجماهير وتخدعها» (١٧) . وان قضية الستالينية لا علاقة لها بالامـــر اساسا * .

يتم التعبير عن مثل هذه الآراء في اطار تأكيد اوسع على الحجة القائلة بانه من الضروري بشكل مطلق استخدام منظور ايديولوجي بالنسبة الى الواقـع المعاصر وذلك حتى يمكن الحصول على تقدير صحيح لهذا الواقع ، وان الشيوعيـــــة العلمية ـ كما عرفها الزعماء السوفيات ـ تقدم المنظور الوحيـــد الصحيح . بالرغم من ان هذه الحجة الاخيرة ليست اقتراحا جديدا ، هناك شيء من الجدة في الدرجة التي تذكر بها في اكثر المجلات السوفياتية الاكاديمية صيتا ، وفي وسائل الاعلام العامة ، وهي مرتبطة بالهجوم على النظريات الغربية عن التآكل الايديولوجي وعن ظهور نمط عام للمجتمع الصناعي وعن الوجود الكلـــي الثابت للنخب السياسية البيروقراطية في كل الانظمة السياسية المتطورة . لقد اوضح النقاد السوفيات انهم يرون ان هذه النظريات ليست فقط خاطئة علميا ولكن ايضا ضارة سياسيا وربما كانت مصممه خصيصا لتدمير الشيوعية ** .

---

١٧ ـ د.١. تشيزنوكوف . . لمشاكل الحالية للمادية التاريخية» مجلة **كوميونست** العدد ـ٦ـ ، ١٩٦٨ ، ص ٤٨ . انظر ايضا ج. سميرنوف ، «الانسانية الاشتراكية» **البرافدا** ، ١٦ـ١٢ـ١٩٦٨ .

* «في الآونة الاخيرة تتم محاولات للتشكيك فيما تم خلال عملية بناء الاشتراكية واستخدام بعبع الستالينية . ان بعبع الستالينية يستعمل لاذلال الاشخاص غير المستقرين ولنشر الفكرة القائلة بأن الحزم والطابع الثوري في السياسه وعدم التهاون في الايديولوجيا والثبات في الدفاع عـــن الماركسية هي الستالينية (ر.١. نشزنوكوف ، «تزايد الصراع الايديولوجي والسياسي والمراجعة الفلسفية المعاصرة» مجلة فوبروزي فيلوسوفي ، العدد ١٢ ، ١٩٦٨) .

** انظر ل موسكوفيشاف ، نظرية الغاء الايديولوجية : المصدر والجوهر الاجتماعي ، مجلة ميروفياي ايكونوميكا ، العدد ١٢ ، ١٩٦٨ ، وذلك للحصول على نقد سوفياتي مرتب وموثق جدا .

من وجهة النظر السوفياتية ان كل المراجعين الماركسيين والمنظرين الغربيين الذين تناولـــوا التطوير الايديولوجي او التآكل الايديولوجي او نفي السمة الايديولوجية عن الماركسية السوفياتية، كلهم مشتركون في لعبة سياسية هدفها نسف الاسس الايديولوجية للسلطة السوفياتية . وقد تم التركيز بوجه خاص على كاتب هذا الكتاب بنقد خاص في هذا المجال . انظر على سبيل المثال مقال الاستاذة أ. موزرنسكايا «معاداة الشيوعية تتخفى في اسم التطوير» (مجلة الشؤون الدولية ، موسكو عدد ١ ـ ١٩٦٩) . والكاتبة ترى في الكتابات السوسيولوجية الغربية محاولة لتعبيد الطريـــــق الايديولوجي للتخريب ضد الاشتراكية . ومن بين هـذه النظريات : نظرية المراحل في النمـــــو الاقتصادي التي يدعو لها والت روستو (وهو سياسي وسوسيولوجي وجمي امريكي معروف) ونظرية المجتمع الصناعي الواحد واشهر من يدعو لها هو السوسيولوجي الفرنسي المتخصص في الشؤون =

لقد رفض الباحثون السوفيات بنشاط مميز نظرية التقاطع بين الانظمة السوفياتية والغربية وبوجه خاص الامريكية . فمن وجهة النظر السوفياتية ان العنصر الحيوي والمميز للنظام السوفياتي ـ الا وهو حكم الحزب الشيوعي كمعبر عن ديكتاتورية البروليتاريا ـ قد قلل المفكرون الغربيون من قيمته وركزوا بدورهم وبشكل سطحي على السمات الخارجية للمجتمع الصناعي الحديث دون ان يتعمقوا اكثر في مسألة جوهره الاجتماعي ـ السياسي . وبالرغم من ان بعض انتقادات السوفيات ليست خالية من المزايا (وهناك مسحة مثيرة من الحتمية الماركسية ـ الجديدة في بعض النظريات الغربية حول التقاطع) فمن المثير ان نرى كمية الجهد الفكري الذي بذل في التأكيد على السمة المميزة للنظام الشيوعي واثباتها . انها تكشف مرة اخرى عن الاهمية المتعلقة بفكرة ان الماضي السوفياتي مرتبط بمستقبل متميز قطعا وليس جزءا من تيار اعراض للتطور السياسي للانسان * كما تجعل من الممكن القول ان النظام السوفياتي لا يواجه مشاكل كتلك التي تواجه الانسان المعاصر في الاماكن الاخرى . كما تحل الشيوعيين السوفيات من مسؤولية الاشتراك في حوار ايديولوجي متبادل حول هذه المشاكل .

ويتميز التعريف السوفياتي الرسمي للمشاكل الخارجية بطابع مماثل من عدم المرونة الفكرية . ولا يعني ذلك ان نقول بأن القيادة السوفياتية والنخبة السوفياتية يجهلون الحقائق او التطورات الاساسية او ان لديهم معلومات خاطئة عنها . فلا شك ان مستوى جمع التقارير السوفياتيه السريه والعلنية حول الشؤون العالمية قد تحسن بدرجة كبيرة وان العرض الخاطىء للحقائق . والذي يستهدف ارضاء الافكار المسبقة قد تناقص . فاليوم تتخطى المجلات الاكاديمية السوفياتية المتخصصة حول افريقيا او آسيا ، والتحليلات السوفياتية عن السوق المشتركة ، او الجهود السوفياتية لتطوير دراسات منتظمة عن الولايات المتحدة، تتخطى حدود الصياغة الايديولوجية البحتة وتعكس الاهتمام للتوصل الى فهم اعمق للتطورات الاقليمية . ويمكن مقارنة المجلات السوفياتية حول الشؤون

= الشيوعية في جامعة كولومبيا ...

«ان السمات الرئيسية لنظرية التطوير هذه برزت في كتابات برجنسكي في السنوات الاخيرة... واحد ابرز سمات هذه النظرية واكثرها تمايزا هو الرغبة المتولدة من اجل التغيير من الايديولوجيا الى السياسة المؤدية الى التغييرات في النظام الاجتماعي ـ الاقتصادي وليس العكس ، من التغييرات الاقتصادية الى التحولات السياسية المترتبة عليها كما يريد انصار التقاطع» (ص ١٦٠) .

* يؤدي هذا التركيز احيانا الى صدور بيانات, تكاد تكون كوميدية مثلما حدث عندما كتب ف.أ. تشبراكوف ، في الازفستيا في ١٨ اغسطس ـ آب ١٩٦٨ في تحليل كبير عن مشاكل الثلث الاخير من القرن اكد فيه ان «لا ضرورة لان تتنازل الماركسية ـ اللينينية في مجال الافكار لكي تتوافق مع الحقائق» . ويضيف الكاتب بكل جدية انه طبقا للخط الحالي للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي قد ارتبطت كل الاحداث الثورية البارزة في القرن العشرين باللينينية .

العالمية (كمجلة ميروفيا ايكونوميكا وميزدونارودني اوتوتشينا) بأفضل مثيلاتهـــا الغربيات فيما يتعلق بالتغطية المنتظمة والتوثيق ودقة البحث . ومن الواضح انه تم الان استشارات اكثر لمعاهد البحث المتخصصة في مجال اعداد السياسة مثـــل معهد الاقتصاد العالمي والشؤون الدولية ، ويساهم ذلك بدون شك في مزيد من الدقة في عملية اتخاذ القرار .

ومع ذلك وبالرغم من هذا ، يبقى المفهوم السوفياتي عن الاطار الواسع للواقع المعاصر ، كما عبَّر عنه القادة الكبار وكذلك كما جاء في مجلات الابحاث ، جامدا في الجوهر . ان الفرضية الاساسية تستمر بكونها فكرة مانيوية حـــول الصراع الثنائي بين العالمين الاشتراكي والراسمالي (او بين الخير والشر) . وبالرغم من انه لم يعد يقال ان الحرب بين هذين العالمين هي «حتمية ومميتة» ومن ان القـــوة التدميرية للاسلحة النووية توجب ضرورة التعايش السلمي ــ وبالطبع يكون بعض الاحيان مرغوبا من الناحية التكتيكية تعاون اوثـق بسبب اعتبارات اخـــــرى (كالنزاع الصيني ــ السوفياتي مثلا) ــ فان الواقع القائم في زمننا ما يزال يقال انـــه التنافس بين النظامين : «ان نظامين اجتماعيين اقتصاديين هما اليـــــوم متخندقان ضد بعضهما في صراع لم يسبق له مثيل في المدى والعنف ، يؤثر في حياة المجتمع الانساني في المجالات كافة» (١٨) . ولا بد في النهاية ان يســـود احدهما ✱ ويثق المحللون السوفياتيون انهم يعرفون من هو المنتصر . هذه المقولة تجري كتيار متصل في كل الخطب الكبرى وتحليـــلات السياسة الخارجيـــة والتعليقات الاكاديمية حول الشؤون العالمية .

سيكون من الخطأ رفض ما سلف باعتباره مجرد فعل طاعة طقوسي للعقيدة ، او تصويره علامة من علامات النضالية المتهوسة الحاقدة . ان اهميتها تكمن فـــي مدى تأثير الاطار الايديولوجي في الاحكام السياسية الفورية التي تقوم على معلومات كافية . وبالرغم من انه لا يمكن اتهام القادة السوفيات بقصر النفس النضالي ، فان الاطار الايديولوجي يعوقهم بالفعل عن التفكير في التكيف والاستقرار باعتبارهما نهايات في حد ذاتها ، لان ذلك سيفتح الباب امام نفي وجهة النظر الشيوعيـــة التي تعتبر التاريخ عملية جدلية متدفقة . وبالتالي سيكون تحليل سوفياتـــــي

---

١٨ ــ ج. خروموشين ، «ازدياد حدة الصراع الايديولوجي العالمي» **مجلة الشؤون الدولية** ، **International Affairs** (موسكو) العدد ــ١٢ــ ، ١٩٦٨ .

✱ وهكذا يؤكد باحث سوفياتي في محاولة طموحة لتحليل شؤون العالم المعاصرة ، ان «نتيجة المنافسة تقضي على المصادفة. النصر والهزيمة ضرورتان اي لا يمكن تجنبهما، وهما محكومان بالقانون. والهزيمة في هذه المنافسة تحدث مرة واحدة فقط . لن تكون هناك مباراة ثانية ولا اعادة للمشهد السابق ولا فرصة للثأر» (خ. مومجان ، القـــرن العشرين الديناميكي ، موسكـــو ، ١٩٦٨ ، ص ص ١٠٧ ، ١٠٨) .

رسمي للقضايا التي جاءت في الفصلين الاولين من هذا الكتاب كما يلي : «ان العصر الحالي يسيطر عليه ظهور النظام العالمي الاشتراكي . ان ظهوره هو قوة حاسمة في التغيير ، فهو ليس فقط يسرع بخطى الثورة الاشتراكيـــة وانما هو يردع الامبرياليين بنجاح عن اتخاذ الاجراءات المضادة . لذا لم تعد الحرب حتمية ، والمنافسة السلمية بين النظامين وبخاصة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة اصبحت ممكنة . فالنتيجة النهائية مع ذلك لهذا التنافس هي قطعا التفـــوق التاريخي الاكيد للنظام الشيوعي . وفي الوقت الحالي يجب البحث عن تعاون اكثر في مجالات عديدة حتى يمكن تجنب الحرب وتشجيـــع التطور الاقتصادي والاجتماعي في العالم الثالث . في بعض الاماكن تحققت الشروط السابقة علـى الانتقال السلمي للاشتراكية بالفعل ، وفي بعض البلدان الاقل تطورا سيكون من الضروري قيام ثورة عنيفة ، ولكن سيكون خطأ تكتيكيا اشعالها بسرعة (كما يلح في ذلك الماويون او الكاسترويون)» .

وبالاضافة الى ذلك قد ذكر محللون سوفيات مسؤولون انهم قد اكتشفـــوا علامات ازمة شديدة في الدول الراسمالية الاكثر تقدما . «ان الازمات السياسية تظهر الان اكثر بكثير مما كان عليه الامر منذ عشرة الى عشرين عاما مضت ، ولم تعد الاطراف وحدها هي التي تواجه الازمة وانما ايضا المراكز الرئيسية للامبريالية. ان الازمات الاجتماعية ــ السياسية تنتشر الان في ظل ظروف تفاقم الازمة المالية وتدهور الوضع الاقتصادي العام في المعسكر الامبريالي» (١٩) . ويقال ان عامـــلا هاما جديدا هو نمو الراديكالية بين المفكرين الغربيين واغلبيتهم ــ علـــى عكس اولئك الذين كانوا قبل الحرب العالمية الثانية ــ «يصبحون الان قوة تقدمية اكثر نشاطا» . ومن وجهة النظر السوفياتية يشير ذلك الى مزيد من اشتداد الازمة الداخلية في العالم الراسمالي المتقدم ، وانه عامل اهم من التغيرات بل من الهبات الثورية التي يحتمل ان تظهر في العالم الثالث .

بذا تظل المعادلة الحاسمة هي المنافسة الامريكية السوفياتية . ومن ثـــم السؤال العملياتي الحيوي ــ ولندع جانبا الاعتبارات التكتيكية المباشرة-ليس هو ما اذا كان طريق معين ما سيتقدم بقضية الشيوعية العالمية ولكن هو كيف سيؤثر ذلك الطريق في الميزان السوفياتي ــ الامريكي : هل هو لصالح الاتحاد السوفياتي او ضده . ان صانع السياسة السوفياتية لا يشعر بأي تناقض بين المصالـــح السوفياتية او مصالح الحركة الاممية، لذا هو لا يعاني من اي مضايقات ايديولوجية في مساعدة العناصر المعادية للامريكان برغم انها غريبة على الشيوعية ايديولوجيا ولا في سعيه للبحث عن التوافق مع الولايات المتحدة حول قضايا معينة . هذا

---

١٩ ــ ت. تيموفياف ، «القوة الثورية القائدة» البرافدا ٢٤-١٢-١٩٦٨ . تيموفياف هو مدير الاكاديمية السوفياتية لمعهد العلوم في حركة الطبقة العاملة الاممية وعضو مراسل في اكاديميـــة العلوم السوفياتية .

التوحد الذاتي الوثيق بين مصالح الدولة السوفياتية البحتة والقضية الايديولوجية وما ينتج عنه من مرونة في التكتيكات حسب الهدف ، تجعل من غير الممكن الحكم ببساطة بأن السوفيات متعصبون ايديولوجيا او انهم متهاونون ايديولوجيا .

فبالنسبة الى المواجهة الايديولوجية ، غامر الزعماء السوفيات باعلان الراي القائل بأن «المرحلة المعاصرة في التطور التاريخي تتميز باشتداد حدة الصراع الايديولوجي بين الراسمالية والاشتراكية» . ولقد اعلن عن هذا الاستنتاج رسميا عن طريق اللجنة المركزية السوفياتية في ابريل ــ نيسان ١٩٦٨ (٢٠) . ثم تبعه تطوير منتظم للاقتراح القائل بأن العالم يشهد «الدور الصاعد للايديولوجيا» وان المنافسة الايديولوجية في الشؤون الدولية تزداد اشتدادا . ولقد ادى الغزو السوفياتي لتشيكوسلوفاكيا في اغسطس ــ آب ١٩٦٨ الى مزيد من بلورة وصقل هذه المقولة بشكل خاص . وقيل صراحة ان التغيير الداخلي في تشيكوسلوفاكيا قد سببته السياسات الغربية الخاصة «بالمشاركة السلمية» ، والتي تهدف في النهاية الى تحويل الشيوعية الى اشتراكية ديمقراطية . واطلق الكتّاب السوفيات على هذه السياسة اسم الاستراتيجية الغربية الجديدة «للثورة المضادة السلمية » (٢١) .

ان التأكيد على المواجهة المستمرة بين النظامين الايديولوجيين المتصارعين ــ ومن ثم التأكيد على فكرة ان الواقع المعاصر يمكن فهمه بمقاييس هذه الثنائية ــ يتصل اتصالا وثيقا بتعريف الاتحاد السوفياتي لدوره الخاص في الشيوعية الدولية ولتعريفه للشيوعية المعاصرة نفسها . وبالرغم من التغيرات الضخمة التي حدثت في الشيوعية الدولية والتي سببها الخلاف الصيني ــ السوفياتي ، وتراجع السلطة السوفياتية ، وانهيار المعنويات الناتج عن غزو دولة شيوعية لدولة شيوعية اخرى ، بالرغم من ذلك استمرت الزعامة السوفياتية في رفع المفهوم الارثوذكسي حول الحركة الواحدة التي لا تزال تقودها موسكو . ومن ثم استمروا في الضغط من اجل «مؤتمرات الوحدة» التي تضم اكبر عدد ممكن من الاحزاب الشيوعية حتى لو ان النتائج غالبا ما تكون ضد الوحدة كما استمروا ايضا في التأكيد على التفسير الجامد للايديولوجيا وبالتالي كانوا مضطرين لمقاطعة اولئك الذين يختلفون معهم* .

---

٢٠ ــ **البرافدا** ، ١١ــ٤ــ١٩٦٨ .

٢١ ــ س. كوفاليف ، «حول الثورة المضادة السلمية وغير السلمية» **البرافدا** ، ١١ــ٩ــ١٩٦٨.

* هناك نظرية اجتماعية واحدة فقط ، تعاليم واحدة ، هي القادرة على التعبير بعمق عن محتوى واتجاه العمليات العالمية في عصرنا ــ تلك هي الماركسية ــ اللينينية . فلسفة واحدة فقط هي القادرة على ترجمة كل تناقضات المرحلة الحالية للتطور التاريخي ... لقد اعتبر الشيوعيون دائما ، وسيستمرون في ذلك ، ان اللينينية ليست عقيدة روسية بحت وانما هي مذهب ماركسي اممي» (ف. كونستانتينوف «الماركسية اللينينية : تعاليم اممية واحدة» **البرافدا** ١٤ يونيو ــ حزيران ١٩٦٨) .

ولم تكن النتيجة هي مجرد ترداد ادانة المراجعين او الشيوعيين الصينيين ، وانما كانت ايضا ازدياد عدم القدرة فكريا لتمثل الخبرات الثورية الجديدة في المذهب الفكري او التطوير التقدمي للشيوعية في السلطة . ان الموقف السوفياتي تجاه تمرد الشباب الغربي هو نموذج على ذلك . فما ان اصبح واضحا ان هؤلاء الشباب ليسوا مستعدين للقبول بالزعامة الشيوعية القائمة ــ وان منظريهم كانوا من نقاد البيروقراطية السوفياتية ــ اصبح الموقف السوفياتي عدائيا بشكل عنيف . ولقد هوجم ماركوز بشكل خاص بسبب تاكيده الزائد على دور الشباب والمثقفين على حساب المفهوم الكلاسيكي للثورة على يد الطبقة العاملة ✱ وفي الواقع فقد رفض المنظرون السوفيات ان يأخذوا بجدية في اعتبارهم المترتبات الثورية الكامنة في النهضة التعليمية في العالم المتطور .

وبالمثل ، عندما اتجهت الثورة الكاستروية في امريكا اللاتينية الى عمل عصابي مباشر ، اعترضت الاحزاب الشيوعية القائمة الموالية للسوفيات ، وساندتهم موسكو في ذلك . وهنا ايضا أعطيت الافضلية للنموذج الثوري البروليتاري المجرب ذي القاعدة المدينية والموجه من قبل الحزب . وعندما بدأ الزعماء السياسيون في تشيكوسلوفاكيا في مناقشة ان اللينينية وهي نتاج الظروف الروسية الخاصة ربما لم تعد المرشد الاكثر ملاءمة لمزيد من تطوير الشيوعية اليوغوسلافية ، كان رد الفعل السوفياتي هو الاتهام بالانحراف . وهكذا ، وبالرغم من الاعلان المتكرر حول تعدد الطرق الى الاشتراكية ظل الحزب السوفياتي ملتصقا بمفهوم العالمية الجامد ، وهو مفهوم عالمي بمعنى انه يرى الخبرة السوفياتية وحدها هي الملائمة عالميا في الجوهر .

نظرة نحو الغد :

هذا الجمود يحكم ويحد من التفكير السوفياتي حول المستقبل . لقد اصبحت الدراسات حول المستقبل هي الموضة الواسعة الانتشار في الغرب . وشملت

= ان الراي السابق يسمح للايديولوجيين السوفيات ان يؤكدوا ان «افكار ماوتسي تونغ الفلسفية هي هرطقة وانتقائية ــ فوضوية ــ مثالية لا شيء يربطها بالفلسفة الماركسية اللينينية». (أ. رومينتساف ، **مجلة الشيوعي** ، العدد ٢ ، ١٩٦٩) . يجب ملاحظة ان رومنتساف وكونستانتينوف ايديولوجيان سوفياتيان بارزان .

✱ هذه الهجمات تتخذ احيانا أشكالا غريبة مضحكة . وهكذا خصص معلق في راديو موسكو هو فالنتين زاخاروف ، برنامجا كاملا لمقولة ان ماركيوز وبريجنسكي كانا متورطين معا ــ وبالطبع لحساب ال سي.آي.اي ــ في تنظيم «الثورة المضادة في تشيكوسلوفاكيا» في ١٩٦٨ (راديو موسكو ١٩ اغسطس ــ آب ١٩٦٩) .

المحاولات المنتظمة للربط بين المشاريع التكنولوجية في المستقبل والتنبؤات الاجتماعية ، وكذلك بينها وبين النقاشات النقدية المعيارية . واصبحت التفرعات الفلسفية للاكتشافات العلمية خصوصا ما يتعلق بالانسان ، محل جدل شديد بشكل خاص . كما جذبت التطبيقات السياسية للتكنولوجيا انتباه الباحثين وبشكل متزايد انتباه الزعماء السياسيين . وانطلاقا من توجه الفكر الماركسي المستقبلي، قد يتوقع المرء ان الاتحاد السوفياتي سيكون في مقدمة جبهة الاستقصاءات والتحليلات هذه . ولكن هذا صحيح جزئيا فقط .

ان الجهود السوفياتية المنتظمة لدراسة المستقبل قد حركتها قرارات المستويات العليا التي اتخذت في المؤتمر الثالث والعشرين للحزب . وفي البداية تشكلت مجموعات دراسية خاصة لهذا الغرض في عدد من المعاهد السوفياتية ، مثلا مجموعة الاكاديمية السوفياتية للتوقعات الاجتماعية والتقنية . وبالاضافة الى ذلك تكونت عدة مجموعات غير رسمية تجمع الباحثين والمفكرين السوفيات معا. وتأسست نشرة سنوية خاصة خصصت كلية لمستقبل العلوم وذلك في ١٩٦٦ ، وتضمنت أعدادها الاولى مساهمات من باحثين سوفيات وغير سوفيات(٢٢) . كما قام الباحثون السوفيات ايضا باتصالات مفيدة مع مجموعات الدراسة والنشر المشابهة في الغرب بما في ذلك الولايات المتحدة .

ولقد قام الباحثون السوفيات بعمل مهم اساسا في مجال التوقعات التقنية ــ الاقتصادية . فمثلا في ١٩٦٤ بدات المجلة الفلسفية السوفياتية **فوبروزي فيلوسوفي** بنشر سلسلة من المقالات حول موضوع «الثورة العلمية ــ التقنية ومضاعفاتها الاجتماعية» . وبشكل عام كانت هذه المقالات جادة ومفيدة جدا في طرق معالجة مثل هذه المواضيع كمنهج التنبؤ والتوقع ، والمشاكل التنظيمية للعلوم في اطار الانفجار العلمي ، ودور السبرناطيقا ، والتحليلات المقارنة للتطورات والتصورات العلمية للولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، ناهيك عن التوقعات المستقبلية السوفياتية الاتجاه حول المستقبل التقني والاقتصادي بشكل محدد(٢٣).

وفي مقابل هذه الجهود كانت هناك ندرة مذهلة في الدراسات السياسية والايديولوجية والفلسفية المتركزة على الاثر المترتب في التغيرات المستقبلية

---

٢٢ ــ يعد تقرير الباحث السوفياتي أ. بستوزيف ــ لادا ، «دراسات عن المستقبل في الاتحاد السوفياتي» والمنشور في مجلة **Analyse et Prevision (Futuribles)**، ١٩٦٨ ، يعد مصدرا مفيدا حول الاراء السوفياتية في «علم المستقبل» .

٢٣ ــ انظر على سبيل المثال ، أ.د. سميرنوف ، «الاشتراكية والثورة العلمية ــ التقنية والتنبؤ البعيد المدى» مجلة **فوبروزي فيلوسوفي** العدد ٩ ، ١٩٦٨ . وانظر ايضا أ.ج. كوراكوف ، «التنبؤ بالتقدم العلمي التكنولوجي» ، و م.ك. بتروف «بعض مشاكل تنظيم المعرفة في عصر الثورة العلمية التقنية» ، مجلة **فوبروزي فيلوسوفي** ، العدد ــ١٠ــ ، ١٩٦٨ . و ف.ج. افاناسيف ، **Nauchnoe Upravlenie Obshchestvon** موسكو . ١٩٦٨ .

التقنية – الاقتصادية . ولا شك ان المفكرين السوفيات يدركون الرابط الحتمي بينهما ★ . ولكن المناقشات السوفياتية المنشورة اقتصرت اساسا على التقييمات النقدية للكتابات الغربية حول الموضوع . واقتصرت هذه «التعييمات» الفجـــة – وبالذات عندما تنشر في جريدة الحزب النظرية **كوميونست** – على الادانة ★★ . ولقد ظهرت تقييمات اكثر جدية في مجلات اخرى – وان تكن ما تزال سلبية في الاساس – وبالذات في مجلة معهد الاقتصاديات العالمي . ومع ذلك كان الاتجاه في كلتا الحالتين هو لانكار امكانية تطور السياسات الغربية لاشكال جديدة بعد – صناعية ، لم تعد تقررها مرحلة التصنيع الراسمالية ، او انكار مقدرة هـــذه الاشكال الجديدة على التغلب على ازمة اغتراب الفرد واحباطه الملازمة للنظـــام الراسمالي .

★ في مقالة خلت بشكل ملحوظ من الجوانب الايديولوجيه ، لاحظ احد العلماء السوفيات وهو روائي ايضا ان «المستقبل يحمل عبء كل انواع العواطف : التفاؤل ، والامل الاعمى اللامعقـــول والياس الاسود ان ما يهدد المستقبل هو النظرات الهستيرية والحسابات المحددة . هناك محاولات لتسميم المستقبل او للقضاء عليه ببساطة لاعادته الى الوراء ، للعوده الى الكهوف . ومع ذلك عاش. واليوم لدينا فرصة لان ندرسه بجدية وتفكير . اليوم وربما لاول مرة في التاريخ الانساني يعتمد المستقبل على الحاضر ويحتاج لمدخل جديد انه مشحون بالازمات التي لا يمكن لنا ان نعيمها اليوم . ازمات تتصل ليس فقط بمفهوم مختلف عن الحرية ولكن ايضا بفكرة مختلفة عن الفرد والفردية» (دانيال غرانين ، «وبعد ..» **مجلة اينوسترانيا ليتراتورا** [موسكو] العدد الاول ١٩٦٧) .

وعلى عكس ذلك ، ان البحث المؤلف من خمسة مجلدات بعنوان **الاشتراكية والشيوعية** والذي اعده معهد الفلسفة في الاكاديمية السوفياتية للعلوم في جهد شامل لتلخيص الشكل المحتمل للمجتمع السوفياتي في ظل الشيوعيه ، هذا البحث تحاشى اي تحليل للتوترات الاجتماعيه التي تحدثهـــا الثورة العلمية . ويقدم صورة نمطية بالغه السعادة عن المستقبل .

★★ انظر لمزيد من الامثلة عن الكتابات البدائية بوجه خاص كتابات ج. غراسيموف «مزيفـو المستقبل» **مجلة كومنيست** العدد –٢– ١٩٦٨ في نقده لارون وموراستي وآخرين . او مقالات يوري زوخوف المختلفة التي تهاجم مقالتي السابقة «امريكا في العصر التكنتروني» ان الذي اثار المعلقين السوفيات بوجه خاص كانت ملاحظتي الواردة في مقال «امريكا فـي العصر التكنتروني» بـــأن «العالم على شفا تحول اكثر درامية في آثاره الانسانية والتاريخية من تلك الآثار التي ترتبت على الثورة البولشفية او الفرنسية . ان النظرة الى هاتين الثورتين الشهيرتين من منظور بعيد يظهر انهما قد خدشا فحسب سطح الحالة الانسانية . ولقد شملت التغييرات التي احدثتها هذه الثورات تغيرا في توزيع السلطة والملكية داخل المجتمع ، ولم تؤثر في جوهر الوجود الفردي والاجتماعي . ان الحياة – الشخصية والمنظمة – استمرت كما كانت بشكل عام حتى بالرغم من ان بعض اشكالهـــا الخارجية (السياسية اساسا) قد تغيرت بشكل كبير . وفي عام ٢٠٠٠ سيكون مقبولا – وقد يبدو ذلك مذهلا للانصار المتحمسين – ان روبسبير ولينين كانا مجرد مصلحين» .

هذا ما جعل بعض الشيوعيين البولنديين يلاحظون ، برغم ولائهم للايديولوجية المشتركة ، منتقدين ان «لا بد من ان تقدم جواباً اكثر تحديدا على السؤال حول ماذا يحدث فعلا في الراسمالية الاحتكارية الحديثة وما هو تأثير الثورة التقنية فيها» . لقد لاحظوا ان النظرية الشيوعية ليس لديها مفهوم عن الانتقال من الراسمالية الحديثة الى الاشتراكية ، وانها لم تواجه المشكلة الخاصة بالاهمال التكنولوجي المتزايد في الاقتصاديات الشيوعية بالمقارنة مع اقتصاديات الغرب المتقدمة .. وانه ما زال عليها ان تواجه حقيقة ان الاشتراكية ــ بالرغم من انها قد اثبتت مقدرتها في التغلب على التخلف الصناعي ــ ما تزال عليها ان تثبت قدرتها على التجديد العلمي ، وانها لم تعط اي تفكير لمغزى النزاع بين الاجيال (٢٤) وفي حوار اعمق فكرا وابعد مدى كتب روماني شيوعي بصراحة يطالب بـ «نظرية ماركسية للثورة التقنية ــ العلمية» وقال انه «في السنوات الاخيرة اظهر الغرب اهتماما اكبر بالصياغة النظرية لجوهر الثورة العلمية ــ التقنية وما يتعلق بها اجتماعيا وانسانيا ... نحن لا يمكننا ان نتحدث حتى الان عن وجود نظرية ماركسية متماسكة وموحدة عن الثورة العلمية التقنية» (٢٥) .

ان الفكر السياسي السوفياتي باختصار قد فشل في تقديم اي تطوير منتظم للافكار المتعلقة بالتطور السياسي والايديولوجي المقبل للنظام السوفياتي نفسه ، او،وهو امر مهم ، للعملية الثورية العالمية في ظل ظروف تاريخية جديدة . ولم يكن ذلك فقط بسبب ان المعارضة الفكرية كانت محدودة في اشكال غير رسمية «وسرية» للتعبير ، ولكن اساسا لانه لم تكن هناك طريق مفتوحة امام الحوار السياسي الايديولوجي الخلاق بين الماركسيين السوفيات انفسهم . ان الايديولوجية السوفياتية لم تعد تشكل من خلال الفعل المتبادل بين الفكر النظري والممارسة ــ كما كان الحال حتى اصبحت سلطة ستالين هي العليا ــ ولكنها نتاج عملية بيروقراطية لوضع التعريفات ، عملية محتكرة كليا من جانب الرسميين الحزبيين الطامحين للحفاظ على مستقبلهم . ان الايديولوجية تخرج من مكاتب اللجنة المركزية حيث يتم اعدادها على اساس تقارير اللجان وابحاث الخبراء قبل ان تقدم الى المكتب السياسي للموافقة الجماعية . ان ايديولوجية يتقرر محتواها في عملية سياسية ليس من المتوقع ان تهتم بالقضايا التي تثير التأمل والتفكير ، ومن ثم قد تثير الشقاق . ان مثل هذه الايديولوجية ليس لها علاقة بالخلق الفكري الا

---

٢٤ ــ «نقاش : مشاكل وحدة الحركة الشيوعية» ، جريدة Zatnierz Wolnosci ٢١-١-١٩٦٩ ، وبوجه خاص مساهمات س. ترامبتسنكي . و ج. اوربان «الايدي على النبض» جريدة بوليتكا ، Polityka ، ٩-٦-١٩٦٩ .

٢٥ ــ ف. رومان في مجلة كونتمبورانول Contemporanul ، ٣-١ و ١٠-١-١٩٦٩ . رومان عضو في اللجنة المركزية ووزير سابق في الحكومة الرومانية واستاذ ومهندس بالتدريب . وهو مؤلف عدة كتب عن الثورة العلمية ــ التقنية .

قليلا ، بينما لديها الكثير مما يتعلق بالجبريات البيروقراطية .

والامر المتناقض هو ان العقم البيروقراطي في التفكير يؤدي الى التأكيد المتزايد على البلاغة الثورية والرمزية . ولان العقيدة التي كانت ثورية ذات مرة قد تداخلت بدرجة كبيرة مع المصالح المكتسبة لحراسها الذين هم حساسين جدا للمصالح القومية الروسية ، هناك ميل للجوء الى غطاء ايديولوجي يتضح في التأكيد المتزايد على الرمزية الثورية . هذا ما تظهره كل العقائد عند تراجعها الفكري : فكلما ازدادت الممارسة انحرافا عما هو مكتوب ، تكسب الرمزية والكلمات اهمية متزايدة والنتيجة مع ذلك هي تجميد صيغ ومزاعم معينة مما يجعل التجديد الفكري امرا اصعب ، حتى لو كان الخروج على الكوابح الايديولوجية يزداد على المستوى العملياتي .

والنتيجة هي حالة من التطور الايديولوجي الموقوف ، من التعفن الايديولوجي اكثر من التآكل الايديولوجي . ويبقى الفكر الماركسي حيا فقط خارج الاتحاد السوفياتي * . ان صورة الغد تختصر الى بيانات لا معنى لها متزايدة الغموض . مثل الاستنتاج الذي يقدمه التوقع السوفياتي الرسمي لما تبقى من هذا القرن : «ان القوى الثورية القائدة في العالم مسلحة بفكر الماركسية ـ اللينينية وممتلئة بالتفاؤل التاريخي ستمضي الى المستقبل» (٢٦) .

المستقبل السوفياتي

ان السؤال الحيوي اليوم هو : متى سيقطع السوفيات صلتهم بالتراث الستاليني ؟ فبدون ذلك سيظل من الصعب على القادة السوفيات ان يشخصوا مشاكل مجتمعهم بدقة وان يجعلوا الاتحاد السوفياتي فعلا وحقا على علاقة بالمشاكل الدولية والفكرية لعصرنا . ان قطع الصلة بالتراث الستاليني لا يتطلب بالضرورة التخلي عن الاشتراكية او الماركسية ، ولكن يتطلب تحويل نظام سياسي يعبّر اليوم ويتدعم بايديولوجية بالية بيروقراطية عن السلطة ، الى نظام اكثر قربا للحالة الانسانية والعالمية العامة الآخذة في الظهور في عصرنا . وليس من المبالغة

---

* هذا يكشف الطابع الفيكتوري والقائم لكثير من جوانب الحياة السوفياتية المعاصرة . لقد صاح لنكولن ستيفنس في اوائل العشرينات عندما زار الاتحاد السوفياتي «لقد دخلت المستقبل وها هو يعمل» اما اليوم فان اعدادا اكبر فاكبر من زائري الاتحاد السوفياتي يعودون قائلين «لقد كنا في الماضي وهو امر ممل» .

٢٦ ـ شبراكوف ، **الازفستيا** ، ١٨ـ٨ـ١٩٦٨ .

ان نقول ــ بالرغم من ان بعض اعداء الشيوعية سيصرون على عدم الاقرار بذلك ــ ان سلام الانسان يعتمد الى درجة كبيرة على عودة الاتحاد السوفياتي الى الاتجاه الماركسي الغربي الذي انحرفت عنه كثيرا اللينينية ــ الستالينية ، وليس بالضرورة التخلي عن الماركسية نهائيا .

ان التغيير الايديولوجي في الاتحاد السوفياتي سيكون ذا صلة حتمية وثيقة بالتغيير الاجتماعي ــ الاقتصادي ، ولكنه سيكون من الخطأ التصور بأن التغيير الاخير هو الذي سيفرض الاول . ان الاطار الماركسي للتحليل هو أقل الاطر ملاءمة لفهم السياسة الشيوعية حيث البناء الفوقي السياسي يسيطر عمليا على القاعدة الاقتصادية ان التغيير السياسي في الاتحاد السوفياتي سيتأثر بالضرورة بظهور نخبة اجتماعية جديدة اكثر تكنولوجية في توجهاتها ، ولكنها ستكون اكثر تأثرا بالتغييرات التي ستحدث في النظرة والطابع الداخليين حيال البيروقراطية الحزبية الحاكمة المهيمنة ، وبالدرجة التي يمكن لهذه النخبة ان تنجح بها في مواجهة المشاكل السوفياتية الداخلية .

المشاكل الداخلية :

من الارجح ان تنمو هذه المشاكل على مستوى الكفاءة الاقتصادية التكنولوجية، ومستوى الخلاف السياسي الايديولوجي . ولا شك ان الاقتصاد السوفياتي سيستمر في النمو في السنوات القادمة ، ولكن يظهر ايضا انه من الارجح ، باستبعاد بعض حالات النمو غير المتوقع في الولايات المتحدة او الاتحاد السوفياتي، فان الفجوة بين البلدين ستزداد اتساعا في مجملها * . لن يكون النمو عندئذ كافيا لارضاء الطموحات الايديولوجية للنخبة السياسية ، بل انه من الارجح الا يكون كافيا بدرجة أشد لارضاء الطموحات الاجتماعية الصاعدة . ومن المؤكد ان هذه الطموحات ستتصاعد مع المقارنة بالغرب،مما سيظهر اكثر فأكثر ان القطاعات الكبرى من المجتمع السوفياتي قد ظلت على حالها القديم بشكل غير عادي .

ان التخلف السوفياتي واضح بشكل خاص في الزراعة . لقد قفزت الانتاجية

---

* من الممكن تقدير ان الناتج القومي الكلي للولايات المتحدة يزيد بمعدل ٥ر٣ بالمئة في السنة وسيكون في ١٩٨٥ اكثر من ٥ر١ ترليون دولار . فاذا استمرت معدلات الستينات فسيكون ٧ر١ ترليون دولار في ١٩٨٠ . واذا زاد الناتج القومي الكلي السوفياتي بأعلى معدل وهو ٥ بالمئة فسيصل في ١٩٨٥ الى أقل من ٨٠٠ بليون دولار ، فاذا زاد بمعدل اعلى قدره ٧ بالمئة فربما وصل في ١٩٨٥ الى حوالي ١ر١ ترليون . وهكذا لن يضيق صافي الفجوة بل قد يتسع بشكل كبير بين ١٩٦٥ و١٩٨٥ .

في ١٩٦١ تبنى الزعماء السوفيات رسميا برنامجا حزبيا وعد الى جانب امور اخرى ، بأن يتفوق الاتحاد السوفياتي في ١٩٧٠ على الولايات المتحدة في الناتج الصناعي ومن الواضح ان هذا لم يحدث .

الزراعية خلال العقود الاخيرة في معظم البلدان المتطورة ، وقفزت مؤخرا حتى في عدد من البلدان غير النامية . وليس الحال كذلك في الاتحاد السوفياتي حيث تتراجع الانتاجية بشكل مستمر ولم ترتفع بعض الشيء الا مؤخرا . ان السكان الريفيين السوفيات يتميزون بعمالة ناقصة ، ومردود ناقص ، وانتاجية ناقصة . ويعتبر حل المشكلة الزراعية السوفياتية هو احد المشاكل الاكثر الحاحا على جدول الاعمال السوفياتي ، واكثرها حساسية من الناحية الايديولوجية ايضا . ان التخلف التكنولوجي في الزراعة السوفياتية يظهر في مجال توزيع قوة العمل الذي يجعل الاتحاد السوفياتي في موقع خلف القطاعات الاكثر تقدما في العالم بشكل كبير .

جدول ـ ٩ ـ

توزيع قوة العمل
النسبة المئوية للتوزيع في كل قطاع

المنطقة	الزراعة	الصناعة	الخدمات
الولايات المتحدة	٨	٣٩	٥٣
اوروبا الغربية	١٤	٤٥	٤١
جزر المحيط الهادي	٢٣	٣٤	٤٣
اليابان	٣٣	٢٨	٣٩
الاتحاد السوفياتي	٤٥	٢٨	٢٧
امريكا اللاتينية	٤٨	٢٠	٣٢

المصدر : مجلة العمل الدولي ـ يناير ـ كانون ثاني / فبراير ـ شباط ١٩٦٧ .

اما في القطاع الصناعي ، وهو الاكثر تقدما من الزراعي ، فقد غطت انجازات العلم السوفياتي الملحوظة في مجال تكنولوجيا الفضاء والاسلحة على وضع ما يزال بعيدا عن ارضاء مجتمع مصنع حديث . ولقد قدر ان الاتحاد السوفياتي (مع حساب الكلفة الفعلية) ينفق في الواقع تقريبا مثلما تنفق الولايات المتحدة على

البحث والتطوير (٢٧) . وبالاضافة الى ذلك تنمو الطاقة البشرية العلمية السوفياتية بمعدل كبير وتقترب الان من الولايات المتحدة . الى جانب ان الاعمال النظرية السوفياتية في عدد من الحقول وبالذات في الفيزياء كانت من الدرجة الاولى .

ومع ذلك ما تزال المزايا الاجتماعية ـ الاقتصادية للجهد العلمي السوفياتي ككل ضعيفة نسبيا . وبرغم ان القادة السوفيات اسرعوا في التركيز ايديولوجيا على نجاحاتهم الفضائية الاولى بالادعاء بأنهم أثبتوا تفوق الشيوعية (وهو تأكيد ترك يذوي في هدوء بعد الهبوط الامريكي على القمر) ظلت الحقيقة قائمة بأن الاتحاد السوفياتي ليس قادرا على انتاج منتوجات متقدمة تكنولوجيا قادرة على التغلغل الى اسواق العالم المجزية اقتصاديا في وجه المنافسة الغربية ، ولا كانت كافية لاكثر من الاحتياجات الضئيلة للاستهلاك المحلي . حتى في مجال صناعي بدائي نسبيا كانتاج السيارات كان الاتحاد السوفياتي مضطرا الى الاعتماد على المساعدة الخارجية (الايطالية حاليا) لانتاج سيارات اقتصادية يمكن تشغيلها (٢٨) . ان الفصل الجامد بين الابحاث العسكرية السرية وبقية فروع الاقتصاد وكذلك تركيز الباحثين العلميين السوفيات في معاهد بعيدة عن الصناعة كان معناه ان انجازات البحث إما لم تطبق ابدا او انها طبقت فقط لاغراض عسكرية او انها طبقت بعد تأخر ملحوظ * .

ان التخلف السوفياتي ظاهر جدا في مجال العقول الاليكترونية والترانزستور والبلاستيك ، وكذلك في المجالات المهمة الاخرى كتقنيات الادارة وعلاقات العمل وعلم النفس وعلم الاجتماع والنظرية الاقتصادية وانظمة التحليل ** .

---

٢٧ ـ انظر سي. فريمان و أ. يونغ ، **جهود البحث والتطوير في اوروبا الغربية وامريكا الشمالية والاتحاد السوفياتي** the Research and Development Effort in Western Europe, OECD, North America and the Soviet Union ، ص ٣٣ ، وكذلك الدراسة المضنية **السياسة العلمية في الاتحاد السوفياتي** OECD Science Policy in the USSR ١٩٦٦ .

٢٨ ـ للمزيد من الامثلة انظر **السياسة العلمية في الاتحاد السوفياتي** ، ص ٩٥ .

* قدر الاكاديمي السوفياتي ف. ترابيزنيكوف ان ٩٨ بالمئة من الباحثين السوفيات يعملون في معاهد بينما ٦٠ بالمئة من الباحثين الامريكيين يعملون مباشرة في الصناعات ذات العلاقة. وقدر ايضا ان نصف الاكتشافات البحثية السوفياتية تقريبا تصبح قديمة عندما يحين وقت تطويرها (**البرافدا** ، ١٩ يناير ـ كانون ثاني ١٩٦٧) . انظر ايضا المقابلة مع الاكاديمي ف.م. غلوشكوف المنشورة في **كومسومولسكايا برافدا** ١٥ مايو ـ ايار ١٩٦٨ حيث دعا الى تدريب سريع «لمديري الانظمة» وهي نوع من المهارات يشعر بأن الامريكيين برعوا فيها وليس لها مقابل في الاتحاد السوفياتي . كما الح على اعادة التدريب بانتظام للمديرين السوفيات مستذكرا السوابق الامريكية ايضا .

** «هناك قطاعات معينة تشمل بالطبع الفضاء وبعض مجالات البحث والتطوير العسكري وجزءًا =

ولتصحيح هذا الوضع بدات الحكومة في ١٩٦٨ سلسلة من الاصلاحات بغرض تحريك البحث والتطوير العلميين وتحسين نوعية الادارة . واصدرت اللجنة المركزية للحزب قرارا خاصا في اكتوبر ـ تشرين اول ١٩٦٨ «اجراءات رفع الكفاءة في عمل المنظمات العلمية والاسراع باستخدام الانجازات العلمية والتقنية في الاقتصاد القومي» انتقد بشكل كبير البحث والتطوير السوفياتيين وبدأ سلسلة من الاصلاحات هي في جوهرها رفع وضعية الباحثين العاملين مباشرة في الصناعة الى مستوى العلماء العاملين في المعاهد العلمية البحتة ، واقام مختبرات بحث في المنشآت الصناعية ، ومنح مكافآت وجوائز لتشجيع التجديد . وكما ذكر الاكاديمي ترابيزنيكوف «أن بندا هاما في هذا القرار هو اقامة المنافسة بين الافكار والاقتراحات العلمية ـ التقنية» (٢٩) .

ليس من المؤكد ان هذه الاصلاحات كافية لتوليد انطلاقة هامة خلاقة واجتماعية في مجال التجديد والتصحيح أن العلماء السوفيات يعترفون ان عملية الخلق تتطلب «جوا من حرية المناقشة والجدل والكشف عن الافكار حتى وان كان

= هام من صناعات الحديد والصلب متقدمة جدا تقنيا، ولكن كثيرا من الصناعات وبوجه خاص قطاع السلع الاستهلاكية هي أقل تطورا بكثير من الناحية التقنية عما هي عليه في البلدان الغربية الكبرى.

ان الانطباع الذي تعطيه كل من الدراسات السوفياتية والغربية هو ان الاتحاد السوفياتي هو اقل تقدما من الناحية التقنية عن الولايات المتحدة في الصناعات كافة الا في قلة من الصناعات ذات الاولوية ، وانه في عدد من الصناعات الكبرى لا يزال الاتحاد السوفياتي متخلفا من الناحية التكنولوجية عن البلدان المصنعة في اوروبا الغربية» (**سياسة العلوم في الاتحاد السوفياتي** ، ص ص ٤٧٦) .

والاتحاد السوفياتي طبقا لدراسة لوكالة الطاقة النووية الدولية هو الذي كان في ١٩٥٤ اول دولة استخدمت الطاقة النووية في الاستعمالات السلمية اصبح في ١٩٦٩ وقد تخطته الولايات المتحدة والمملكة المتحدة ، وسيكون في ١٩٧٥ وراء الولايات المتحدة والمملكة المتحدة واليابان وكندا والسويد والمانيا وستكون كمية الطاقة فيه مقدرة بالميغاوات اقل من الولايات المتحدة بـ ١٤ مرة (**مفاعلات الطاقة والابحاث في الدول الاعضاء**) .

يحدد بيركز ان «منحنى التطور التكنولوجي في الغرب له دلالة . فالالياف الصناعية والبلاستيك والطاقة النووية والترانزستور والآلات الحاسبة وآلات الطبع والنسخ والليدز تتبع احداها الاخرى الى ما لا نهاية . وكلما ازدادت التكنولوجيا الغربية تعقيدا ازدادت الفجوة الزمنية اللازمة لاعادة انتاج هذه التكنولوجيا في اوروبا الشرقية . ان الوقت المطلوب يتراوح ما بين عامين الى خمسةعشر عاما باحتمالات ٥٠ بالمئة لكل منها من ان المنتج بالمقاييس الغربية سيصبح وقد تخطاه الزمن عندما يظهر في السوق الشرقية لاول مرة . وفي مجال العقول الاليكترونية تتراوح الفجوة الزمنية المطلوبة للسوفيات (ناهيك عن اوروبا الشرقية) ما بين عامين الى عشرة اعوام» (بيركيز ، ص ٨٠) . انظر ايضا البيانات الموجودة في ص ١٣٣ خصوصا بما يتعلق بالعقول الاليكترونية) .

٢٩ ـ الازفستيا ، ٢٨ـ١٠ـ١٩٦٨ .

بعضها خاطئا جذريا» (٣٠) هذا العامل بدوره له علاقة بالتنظيم الايديولوجـــي والمؤسسي للمجتمع ككل ولا يمكن تصحيحه بمجرد اجراء بعض التصحيحـــات التنظيمية . وتدعم الدراسة التي اعدتها OECD بعنوان **السياسة العلمية في الاتحاد السوفياتي** (١٩٦٩) والتي تكشف بطريقة تفصيلية وموثقة بالاحصاءات عن عدم التناسب المذهل بين مدى الجهد السوفياتي وبين نتائجـــه الاجتماعية ــ الاقتصاديـــة الهزيلة نسبيا ، الراي القائـــل بأن المركزية الايديولوجيـة ــ السياسية تؤدي في احسن الاحوال الى سياسة علمية متقلبة ، وفي اســـوأ الاحوال الى سياسة علمية مدمرة * .

ولا يوجد شك في ان الاتحاد السوفياتي في الايام المقبلة سيحقق عددا مـــن الانتصارات العلمية الملحوظة وبوجه خاص في مجال ابحاث الفضاء المرموقة دوليا وفي المجالات العلمية المتعلقة بابحاث الدفاع . وستستمر تقنياته العسكرية ايضا في مقارعة التقنيات الامريكية بل ستتخطاها بدون شك في بعض المجالات . سيتم تحقيق ذلك ببرامج ساحقة تركز الموارد الاقتصادية والمواهب العلمية . ان الهيكلية التنظيمية السوفياتية تلائم بشكل ملحوظ مثل تلك البرامج . ولكن السؤال الحيوي هو ما اذا كان العلم السوفياتي والادارة الصناعية يمكن ان توفرا للمجتمـــع السوفياتي النمط المتفتح من التجديد العلمي الضروري لتأمين التقدم الداخلـــي والتقدم بالوضع الدولي للاتحاد السوفياتي .

ان القوى التي تعارض الابحاث العلمية والاقتصادية البعيدة المدى هي قوى لا يمكن المساس بها . انهم اولا نخبة الحزب البيروقراطية وبوجه خاص القطاعات الايديولوجية ، وبعض المراتب العليا في القوات المسلحة الذيـــن يخشون ان اللامركزية قد تعني ايضا نقل بعض معاهد البحث الرئيسية الى الاستعمالات غير العسكرية . ان المراتب العليا من الرسميين الحزبيين ما تزال بشكل عام من انتاج العصر الستاليني ، وكثيرون بينهم بدأوا حياتهم خلال حملات التطهير . وانه لامر متناقض على عكس التوقعات الغربية ان نجد النخبة من المديرين ايضا جزءا من المعارضة . ان جيل المديرين السوفيات الحالي مدرب على العمل في ظل هيكلية هرمية عالية الالتزام ، وهم ليسوا مؤهلين لتقدير الارتباكات الشخصية الكبيرة التي

---

٣٠ ــ الاكاديمي ب.ل. كابتزا ، **كومسمولسكيا برافـــدا** **Komsomolskaya Pravda** ١٩-١-١٩٦٨ .

* تعد قضية ليزنكو مثلا على هذه النتيجة الاخيرة بآثارها المدمـــرة في علم البيولوجيـــا السوفياتي . ولقد قدم العالم السوفياتي ز.ا. مدفيديف عرضا حيويا مفيدا بشكل غير عادي عن هذه القضية في كتابه بعنوان **قيام وسقوط .د. ليزنكو** ، نيويورك ١٩٦٩ . ولقد كتب كتاب مدفيديف في الاتحاد السوفياتي ولكن لم يسمح بنشره هناك .

يشتعل عليها بالضرورة نظام التنافس اللامركزي * .

ان الاقتراحات الخاصة بالاصلاحات الاقتصادية قد جاءت غالبا وبشكل ملفت للنظر من الاقتصاديين النظريين .

ان مشكلة الحرية الفكرية تثير عددا من الاعتبارات تتعلق مباشرة بالسياسة والايديولوجيا . ومن المستحيل الحكم على درجة الانشقاق الجوهري غير الارثوذكسي في الاتحاد السوفياتي الحادث في اواخر الستينات واوائل السبعينات ** ففي اواخر ١٩٦٨ خصصت مجلة **مشاكل الشيوعية** مقالين متتاليين للكتابات والعرائض والاحتجاجات السرية ونداءات المثقفين السوفيات المنشقين ، ولقد تضمنت قراءة حية وعميقة لبعض الوثائق التي نشرت بشكل مستقل اعتراض المثقفين الاوكرانيين على قمع بلادهم (٣١) . ولقد اشارت هذه المنشورات الى وجود مجموعة مثقفين نشطة ومترابطة تتركز اساسا في موسكو ولينينغراد ، وتتكون في بعض الحالات من بعض امتدادات النخبة السياسية السوفياتية ولكنها على الاغلب تتكون من ابناء شيوعيين بارزين هلكوا في ظل حكم ستالين . وبالرغم من ان عددا من هؤلاء المنشقين قد حوكم سرا وعلنا في موسكو

---

* وبالاضافة الى ذلك وكما ذكر جيريمي ازاوبل في كتابه **سلطة المديرين في السياسات السوفيتية** (كمبردج ، مارس ، ١٩٦٦) ، انه يجب الاعتراف بان «الشخصيات المهنية يمكن ان تحقق مستوى عاليا دون ان تؤدي الى تعددية سياسية او اجتماعية . فالمهندسون والمديرون يمكن ان تحكمهم على الاقل التزامات وظيفية متداخلة ايديولوجيا وسياسيا ، وكذلك بمصالحهم الموضوعية بحكم دورهم الاقتصادي المتنفذ . وان هذه المصالح يمكن تلبيتها بشكل كبير ان لم يكن كليا في اطار نظام سياسي لا هو ديمقراطي ولا تكنوقراطي . وان الرجال الذين يميلون نحو تحسين الخدمات الاقتصادية ، بالرغم من انهم بذلك يحتاجون لتضحيات هامة» (ص ١٧٥) .

** من المهم التمييز هنا بين الانشقاق الارثوذكسي الذي يستخدم اداة الانشقاق غير الارثوذكسي والجوهري . ان المراقبين من الخارج يخلطون بين الاثنين احيانا وتكون النتيجة ان المنشقين الذين يستخدمون الانشقاق يضخم دورهم باعتبار انهم واجهوا مخاطر ليست موجودة ويفسر موقف الحكومة منهم باعتباره علامة تخل اساسا بالتقليد اللينيني ـ الستاليني . والمثال النموذجي المعاصر على ذلك هو يفجيني يفتوشنكو . كان انشقاقه في البداية اداة في جوهره . كان موجها لجعل العلاقة بين النظام السياسي والمجتمع اكثر توازنا ، دون التعرض الى مسألة ما اذا كانت الحقيقة الاكثر اساسية هي ان المكونات الايديولوجية للنظام تحتاج الى اعادة التفكير والمراجعة . وبالمقابل وبالذات لان اعمال الكسندر زولشنتسن وباسترناك كان لها اثر اثارة التساؤل حول المكونات التاريخية السابقة للنظام السياسي بشكل اكثر تفحصا ، فانهما كانا هدف الغضب الرسمي الاكثر حدة .

٣١ ـ **مشاكل الشيوعية** ، problems of Communism ، يوليو ـ اغسطس / تموز ـ آب وسبتمبر ـ اكتوبر / ايلول ـ تشرين اول ١٩٦٨ . انظر ايضا ف. تشرنوفيل، **اوراق تشرنوفيل** the Chornovil Papers ، نيويورك ١٩٦٨ .

ولينغراد الا انهم لم يرتدعوا عن الاحتجاج وكرروه بمخاطرة شخصية كبيرة على اثر الاحتلال السوفياتي لتشيكوسلوفاكيا .

وفي الوقت الحاضر ولبعض الوقت ايضا سيظل المثقفون والارثوذكس المنشقون في كل الاحتمالات ، مجموعة صغيرة ومعزولة نسبيا . وكأسلافهم في القرن التاسع عشر لا يظهر في الوقت الحاضر انهم قادرون على كسب دعم شعبي اوسع . ان اغلبية سكان المدن في الاتحاد السوفياتي ـ الذين يفصل بينهم وبين أصولهم الريفية جيل واحد ـ يتميزون بأرثوذكسية اجتماعية قائمة على ايديولوجية داخلية تبسيطية وشعور بالرضا بتقدمهم الاجتماعي الحالي . والحزب ـ بالاضافة الى ذلك ـ بأصوله الاجتماعية وطرق تفكيره هو اقرب للجماهير مما هي عليه العلاقة بين الجماهير والمثقفين ✶ .

وهناك نوع آخر خاص جدا ومثير للحيرة بوجه خاص هو الانشقاق الذي تطرحه حالة القلق المتزايد بين امم الاتحاد السوفياتي غير الروسية . لقد تجاهل الباحثون الاميركيون في الشؤون السوفياتية طويلا الاهمية السياسية لهذه الظاهرة . ومع ذلك فحوالي نصف الـ ٢٤٠ مليون من سكان الاتحاد السوفياتي هم من غير الروس ، وكثيرون منهم لديهم شعور متميز بتراثهم الثقافي الخاص وبلغتهم وأرضهم وتاريخهم الخاص . ومثقفوهم وهم غالبا من نشأة سوفياتية كلية يميلون لان يكونوا حاسمين في مواقفهم وان لم يكونوا بالضرورة انفصاليين . لقد بدأوا يطالبون بنصيب اكبر في صنع القرار السوفياتي وكذلك بجزء اكبر من الكعكة الاقتصادية كما يتزايد تحسسهم من عملية الروسنة (نشر الطابع الروسي) . هذه الروسنة تفرضها موسكو اراديا الى درجة ما ، ولكنها ايضا النتيجة الطبيعية للتصنيع والتحديث . ان النقاشات الرسمية السوفياتية حول هذه المشكلة والهجمات على مخاطر القومية المحلية تشير الى ان القيادة السوفياتية آخذة في التنبه لها . ومن المؤكد ان عددا من المثقفين غير الروس قد حوكموا وحكم عليهم في السنوات الاخيرة . ولقد نجحت الحكومة السوفياتية الى الان في محاصرة الاتجاهات القومية بين قلة نسبية من المثقفين بينما يبدو موقف كادر الحزب غير

✶ «بالرغم من كل التحديثات ما يزال الاتحاد السوفياتي يضم كتلة ضخمة جدا من السكان «الملونين» الذين يطمحون للراحة البرجوازية من جانب ومع ذلك غارقون في اللغو الاشتراكي من جانب آخر . داخل هذه الكتلة من السكان هناك عامل قوي من الشعور بالحسد ـ وهو شعور بدائي وفظ وعميق الجذور ويبدو كقوة خرافية في مدى الاقتناع به ـ يصور كل الامتيازات باعتبارها فسادا وموجها ضد النخبة السياسية وكذلك نخبة المديرين في الحزب وضد المثقفين . هنا مع ذلك نجد ان المثقفين في وضع غير مؤات لانهم لا يزالون يحملون على كاهلهم العبء التقليدي بالشعور بالذنب تجاه الشعب وكما ان سبل التصرف هي في أيدي الحزب» (سدني موناس ، «مهندسون ام شهداء: الانشقاق وفئة المثقفين» ، **مشاكل الشيوعية** ، سبتمبر ـ ايلول / اكتوبر ـ تشرين اول ١٩٦٨ ص٥).

الروسي غير واضح . ومع ذلك فمدى المشكلة نفسه وكذلك حقيقة ان القومية امر معد، سواء اقمعت او قبلت ، يشيران الى انه في الاعوام القادمة قد يواجه الاتحاد السوفياتي بمشكلة قومية اسوأ من مضاعفاتها السياسية ومن المشكلة العرقية في الولايات المتحدة .

ومن المحتمل ان طنين عدم الرضا الايديولوجي داخل التجمعات العلمية هي التي تقلق الحزب اكثر من غيرها . ومن الواضح ان البيان الذي اصبح الان معروفا والذي اصدره العالم الفيزيائي النووي السوفياتي البارز اندريه ساخاروف ، والذي نشر في الغرب في اواسط ١٩٦٨ (٣٢) كان قد تم تداوله اولا بين العلماء السوفيات ثم راجعه مؤلفه على ضوء التعليقات . وتشير حقيقة ان رد الفعل السوفياتي على ساخاروف اتخذ شكلا غير مباشر ولم يذكر بالاسم ابدا، كما لم يدن بالطريقة المعتادة باصدار بيان علني بالادانة موقع من زملائه ، تشير هذه الحقيقة الى ان الحكومة قد قدرت انه من الافضل تحاشي المواجهة المباشرة والنقاش العام .

ان هذه الوثيقة وثيقة مرموقة ليس فقط لانها تتحدى حق الارثوذكسية الايديولوجية في الاستمرار وانما ايضا لمحاولتها تقديم رؤية بديلة حول المستقبل. واذ تفعل الوثيقة ذلك تعرض الواقع السوفياتي الى نقد مرير . ان فرضية ساخاروف الرئيسية وراء وثيقته هي كما لخصها تأكيده الجازم بأن «اي وعظ يقول بعدم قدرة الايديولوجيات العالمية والامم على التواؤم هو جنون وجريمة» . انه يرفض بصراحة اي قيد مهما كان على الحرية الفكرية ، ويدين «الجمود المتكلس للسلطة الفردية البيروقراطية وسلامها المفضل الا وهو الرقابة الايديولوجية» . واذ يرفض الخضوع الفكري لارادة «الجهاز المركزي للحزب ولرسمييه» يتساءل ايضا «من الذي يضمن ان هؤلاء الرسميين سيعبّرون دائما عن المصالح الحقيقية للطبقة العاملة ككل وعن المصالح الحقيقية للتقدم لا مصالح قشرتهم المتحجرة ؟» ✶ .

---

٣٢ ـ النص الكامل نشر في **النيويورك تايمز** ، ٢٢-٧-١٩٦٨ (المقتطفات في النص هي من هذه الطبعة) .

✶ يكشف ساخاروف في نقده للتخلف القائم في المجتمع السوفياتي ، وهي حالة تجاهلها الراي الرسمي المتبلد ، عن حقيقة غير عادية وهي ان حوالي ٤٥ بالمئة من السكان او ما يقرب من ١١٠ مليون من المواطنين السوفيات يعيشون في ظل ظروف سيئة . وهو يقارن هذا مع الولايات المتحدة حيث حوالي ٢٥ بالمئة من السكان هم على حافة الفقر . ومن ناحية اخرى الـ ٥ بالمئة من السكان السوفيات الذين ينتمون الى مجموعة المديرين لديهم امتيازات كالمجموعة المماثلة في الولايات المتحدة» مرتبا على ذلك وجود حالة بارزة من عدم المساواة الاجتماعية في الاتحاد السوفياتي .

ان ملاحظة ساخاروف هامة لان تحقيق المساواة الاجتماعية كان لوقت طويل الهدف السوفياتي الاكبر . وفي الحقيقة اكدت الاحصاءات السوفياتية ، الى جانب الدراسات الاجتماعية مؤخرا حقيقة انه بالنسبة الى التعليم العالي فلدى ابناء الموظفين ذوي الياقات البيضاء فرصا اكبر =

ان مقولته هي ان عصرنا يحتاج ويستلزم المزيد من التعاون الدولي ــ لكي نتحاشى الحرب النووية ولكي نتغلب على المخاطر التي تواجه الانسانية من الجوع وازدياد عدد السكان والتلوث ــ وان هذا التعاون سيأتي في النهاية من التقاطع المتزايد بين الانظمة السياسية والاجتماعية المتمايزة في الوقت الحاضر . وفي هذا الخصوص يؤكد بشكل خاص انه اعتبارا للطاقات الانتاجية الحالية في الاقتصاد الامريكي لن يكون قيام ثورة في الولايات المتحدة ــ على عكس هبة مماثلة في العالم الثالث ــ في صالح العمال . ان رؤيته البعيدة المدى لما تبقى من هذا القرن تشتمل على تطور من اربع مراحل : في المرحلة الاولى ستصبح البلدان الشيوعية وبالذات الاتحاد السوفياتي اكثر ديمقراطية ويتغلب على التراث الستاليني الخاص بدكتاتورية الحزب الواحد ، المرحلة الثانية ستشهد تحول الولايات المتحدة والبلدان «الرأسمالية» الاخرى على يد مصلحين سيحققون تغيرات داخلية ويتبنون سياسة التعايش السلمي ، وستشمل المرحلة الثالثة جهدا سوفياتيا ــ امريكيا ضخما لمواجهة مشاكل العالم الثالث ولتطوير نزع السلاح ، وستشهد المرحلة الرابعة هجوما على المشاكل العالمية الباقية يقوم على اساس تعاون دولي واسع .

ان آراء ساخاروف برغم انها طوباوية الى حد ما تستحق الملاحظة لانها تكشف كيف يتناقض راي بعض النخبة السوفياتية الفكرية ــ العلمية ، حول العالم مع المنظور الرسمي . ومع ذلك لا يجب المبالغة في اهميتها . ان آراءه لا تجد طريقها ببساطة لا الى اغلبية الشعب السوفياتي المتعلم ولا الى اغلبية المثقفين السوفيات . ويمكن الافتراض بأنه حينما توجد تركزات كبيرة من المثقفين (موسكو، ليننغراد ، كييف ، اكاديمغورودك ، اوبننسك) تتداول الآراء غير الارثوذكسية بشكل اوسع الى حد ما ، لكن حتى هناك يعتمد الكثير على الدرجة التي تكون فيها الحكومة مستعدة لاتخاذ ضغوط ادارية حتى تفرض ارثوذكسية رسمية على الاقل. واعتبارا لان الحزب يحتكر الاتصالات والجهود الضخمة لغرس الايديولوجية الرسمية ، وللتأكيد المتزايد على القومية ، ما تزال وجهة النظر الحكومية عن العالم والمجتمع السوفياتي هي المصدر الاساسي للمعلومات والتفسيرات لدى معظم المواطنين السوفيات .

= بكثير من ابناء العمال او المزارعين الجماعيين . فعلى سبيل المثال وفي اواخر الخمسينات كان ٧٥ بالمئة من طلاب جامعة موسكو هم من ابناء الموظفين ، و٢٠ بالمئة من ابناء العمال و٥ بالمئة من ابناء المزارعين الجماعيين . في هذه الفترة كان توزع السكان هو ٢٠ بالمئة و٤٨ بالمئة و٣١ بالمئة على التوالي (انظر المجلد الكامل **كولتورانيا ريفوليوتسا** ، موسكو ١٩٦٧ ، ص ١٥١٠) وهناك عدم تناسب كبير ايضا في مستويات المكافآت ، لان الحد الادنى للاجور السوفياتية مثبت في ١٩٦٨ عند حوالي ٦٥ دولارا في الشهر .

طرق بديلة :

على ضوء ما سبق من اعتبارات يمكن تقييم الطرق البديلة الممكنة للتطــــور السياسي السوفياتي . ولاغراض تحليلية تم اختصارها الى عدد يمكن استخدامه، وبالتالي ستركز المناقشة التالية على بدائل خمسة اوسع قبولا ، مع تركيز الاهتمام على دور الايديولوجية والحزب ويمكن تلخيص المتغيرات الخمسة الخاصة بالتطور كما يلي : ١ ـ **تعفن الاقلية المستبدة** ٢ ـ **تطور تعددي** ٣ ـ **تكيف تكنولوجــي** ٤ ـ **عودة الى الاسس النضالية** ٥ ـ **تفسخ سياسي** .

تعفن الاقلية المستبدة : سيشمل الحفاظ على الدور المسيطر للحزب والابقــاء على الطابع الجامد جوهريا في الايديولوجيا . اي في الواقع مزيد مما هو قائم . لن يكون الحزب ولا الايديولوجيا ذوي علاقة ثورية خاصة بالمجتمع ، وبدلا عن ذلك سيكون الاندفاع الرئيسي لهذه العلاقة اندفاع الحزب للحفاظ على السيطـــــرة السياسية على المجتمع بحيث لا يحاول فرض تجديدات كبرى . ستولي عملية التثقيف الايديولوجية تركيزا شديدا وكذلك عملية ادانة الانحرافات الايديولوجية. وقد تبقى القيادة الحزبية جماعية لان غياب اي محاولة تغيير ارادية مفروضة لا يحتاج الى خيارات كبرى . والنتيجة المحلية ستكون حكم البيروقراطية المتكلسة التي قد تتبع سياسة محافظة مقنّعة بشعارات ثورية .

التطور التعددي : قد يشمل تحول الحزب الى جهاز أقل وحدانية ، يشبه الى حد ما الحزب اليوغوسلافي ، ويشمل تآكلا ايديولوجيا للاتجــــاه اللينيني ـ الستاليني الجامد . وربما يصبح الحزب اكثر رغبة في ان يقبل في داخل صفوفه حوارا ايديولوجيا مفتوحا حتى تخمرا ايديولوجيا ، وقد يتوقف عن تصويــــر اعلاناته العقائدية وكأنها غير قابلة للخطأ . وقد يصبح دوره حافزا ايديولوجيــــا ـ معنويا اكثر منه حاكما ـ كما قد تصبح الدولة والمجـــتمع مصدرا اكثر اهمية للتجديد والتغيير . ولان قسما كبيرا من تاريخ الحزب كان على نقيض النمط المذكور آنفا ، وبالاضافة الى الضغط الاجتماعي المستمر من جانب المجموعـــات الاقتصادية والفكرية الرئيسية ، فإما ان يحدث انشقاق اساسي في قيادة الحزب، او وهو امر متناقض يكون من الضروري وجود زعيم قوي (مثل تيتو) يهيء موقف الحزب الرسمي وقبوله بمثل هذه التعددية السياسية والايديولوجية .

التكيف التكنولوجي: سيشمل تحويل الحزب البيروقراطي الجامد الىحزب من التكنوقراطيين . وسيكون التركيز الأولي على الخبرة والكفاءة والانضباط . وكما حدث بالفعل في المانيا الشرقية التي يحكمها اولبرخت قد يتكون الحزب مـــن الخبراء العلميين المدربين على احدث التقنيات والقادرين علـــى الاعتماد علـــى السبرناطيقا والعقول الاليكترونية لتحقيق السيطرة الاجتماعية ، والباحثين عن التجديد العلمي للحفاظ على الامن السوفياتي والنمو الصناعي . وقد تحل القومية محل الايديولوجيات الجامدة كمبدأ اساسي تكاملي يربط المجتمع بالدولة . وفي كل الاحتمالات سيفضل قادة المؤسسة العسكرية الاصغر سنا والذين لهم اهتمامات

تكنولوجية هذا النمط . وقد تبقى القيادة السياسية كما في الحالة الاولى، جماعية بالرغم من انها قد تضم تجمعـــا اوسع من الزعمـــاء الحزبيين ــ الحكوميين ــ العسكريين ــ الاقتصاديين .

العودة الى الاسس النضالية : قد تشمل جهد اعـــادة الحياة للحماســـة الايديولوجية المضطرمة ، والتي ستحتاج بدورها الى علاقة اكثر ثورية بين النظام السياسي والمجتمع . وقد يعطى لفكرة التقدم نحو الشيوعية مضمونا مبرمجـــا جديدا ، ومن ثم يكون ضروريا تحقيق تغيرات اجتماعية بقرارات سياسية . وفي كل الاحتمالات سيتطلب هذا التطور استخدام القوة للتغلب على المقاومة الحالية وعلى الركود الاجتماعي في حد ذاته . حتى لو لم يتطلب الامر تحقيق الاساليب الستالينية كاملة لاحتاجت الجهود اللازمة لهز جمود الهيكل البيروقراطي للنظـام السوفياتي الى قيادة جديدة مركزية ونضالية ايديولوجية وربما الى موقف اكثر عدائية للعالم الخارجي ولشيء ما يشبه «الثورة الثقافية» لماوتسي تونغ .

التفسخ السياسي: سيشمل الشلل الداخلي للنخبة الحاكمة وصعود مجموعات رئيسية مختلفة واثقة بذاتها داخلها ، وانشقاقات في القوات المسلحة وتململا بين الشباب والمثقفين وسخطا علنيا بين القوميات غير الروسية . وفي بداية التناقض المحتدم بين النظام السياسي والمجتمع قد تنشأ الازمة التي قد تصبح اكثر حدة بسبب النمو الاقتصادي غير الكافي وغير القادر على تلبيـــة المطالب الشعبية . وستكون الايديولوجية المتعفنة ــ والتي لم تعد النخبة تهتم بها جديا ــ غير قادرة على تزويد النظام بمجموعة متماسكة من القيم من اجل النشاط الاساسي .

فاذا نظرنا لما بعد عشر سنوات تقريبا واتخذنا من التوزيع الحالي للسلطة في المجتمع السوفياتي مرشدا لنا ، فسيتضح من طبيعة احدث المشاكل السياسية ــ الاقتصادية التي تواجه القيادة السوفياتية ، ومن النمط العام للتطور الاجتماعي السوفياتي الحالي ، ان القيادة السوفياتية ستسعى لتحقيق توازن بين المتغيرين الاجتماعيين الاول والثالث. ان الجمع بينهما يقترب جدا من تحقيق مصالح النخبة وجبريات الارثوذكسية وحاجات الاتحاد السوفياتي كمنافس عالمي للولايات المتحدة.

ولا يبدو مرجحا على المدى القصير ان يحدث اي تطور نحو نظام تعددي اكثر انفتاحا من الناحية الايديولوجية . بل ان سنوات ١٩٦٤ ــ ١٩٦٩ قد شهدت حركة في الاتجاه المعاكس . ولا يبدو مرجحا في المستقبل القريب ان يرفع النظام السياسي الى مركز القيادة رجلا لديه العزم والقدرة على اشاعة الديمقراطية في المجتمع السوفياتي ، كما ان هذا المجتمع يفتقر الى التماسك والى مجموعـــات الضغط اللازمة لتحقيق الديمقراطية من اسفل . ان عملية تحقيق الديمقراطية من اسفل كما اظهرت تجربة تشيكوسلوفاكيا لا بد لها ان تكون عملية عضوية تربط ما بين المثقفين والعمال والطلاب وبعض قطاعات القيادة في جهد ارادي لاصـــلاح الهيكل السياسي وكذلك لاصلاح الهيكل الاقتصادي . ان مثل هذه العمليـــة بالاضافة الى ذلك لا بد لها اما ان تسير على هدى تقليد ديمقراطي (كما كانت الحال

في تشيكوسلوفاكيا) او تخلق تقليدا مثل ذلك بقبول اولوية القواعد الشرعية على المنافع السياسية .

بالنسبة الى الشيوعية السوفياتية فربما كان ذلك مغريا لمفهوم جديد عن السياسة * .

وبالاضافة الى ذلك تعوق المشكلة السوفياتية مع القوميات غير الروسية اشاعة الديمقراطية : فالاغلبية الروسية العظمى ستخاف حتما من ان يؤدي تحقيق الديمقراطية الى اثارة رغبة الشعوب غير الروسية في مزيد من الحكم الذاتي اولا ثم في الاستقلال . وباعتبار اندفاع حركة التطور الاجتماعي السوفياتي ومصالح النخبة الحاكمة الحالية ، ليس من المرجح ان تجمعا فعالا لتحقيق الديمقراطية يمكن ان يظهر في السبعينات .

اما العودة الى الاسس النضالية في ظل ديكتاتورية رجل واحد برغم انها تبدو اكثر احتمالا على المدى القصير من التطور التعددي فان عليها ان تتغلب على حالة خمول ضخمة على المصلحة الجماعية للمجموعات المستبدة الحزبية التي تمنع اعادة ظهور حكم الواحد . ان الضغوط في اتجاه مثل هذا الحكم قد تتطور في مواجهة هبة محلية او تهديد خارجي كبير ، ولكن لا بد ان يتوفر زعيم سياسي فعال . ان البيروقراطية السوفياتية الحالية مشكلة بطريقة تمنع وتخنق المواهب الفردية . ولم يعد هو ذلك الحزب الثوري الذي تؤدي فيه الشجاعة الفردية والدهاء الى الترقي .

والبديل مع ذلك هو العودة الى الاسس النضالية وهذا لا يجب ان يرفض تماما خصوصا اذا اصبح البديل الوحيد للتفسخ السياسي الناتج عن تعفن النظام ككل. ان التحلل الداخلي الطويل الامد الناتج عن عدم قدرة القيادة على مواجهة المشاكل المعاصرة ، والفشل المستمر في اللحاق بالولايات المتحدة في المنافسة العلمية ، والتهديدات الداخلية للوحدة القومية ، كل ذلك يمكن ان يؤدي في اطار ازدياد اللامبالاة الايديولوجية وبالاشتراك مع تهديد امني دولي ، الى اطلاق موجة من العودة الى الاسس في قطاع من النخبة . وتتميز العقائد السياسية في حال تراجعها بمثل هذه التقلصات .

ويمكن ان تلعب حرب صينية ـ سوفياتية دور ترجيح البدائل الخاصة بالعودة الى الاسس او التفسخ . فمثل هذه الحرب ستفرض حتما ضغوطا كبرى على النظام السوفياتي . حتى اذا امكن للجانب السوفياتي كسبها بسرعة فانها

---

* وكما لاحظ باحث تشيكي في تعليقه على التجربة التشيكية مع الستالينية ، «ان احدى الوسائل الممكنة لمنع عودة المحاكمات السياسية بأي شكل هي تغيير مفهوم السياسة وما يرتبط بها من ميلاد لنظام سياسي جديد . ان لدي مفهوما للسياسة لا يحتوي على عناصر او اساس مضمون لممارسة الخروج على الشرعية بنفس الطريقة التي حدثت كثيرا في فترة المحاكمات السياسية» (ك. كبلان **افكار حول المحاكمات السياسية** مجلة نوفاميسيل العدد ـ٨ـ ، ١٩٦٨) .

ستترك وراءها ذيولا من الكلفة الاقتصادية الكبرى . وقد تشتمل على نشاطات من حرب العصابات الطويلة الامد فيما بعد الحرب . ان حربا طويلة الامد ستشكل بذاتها هزيمة مباشرة للنظام السوفياتي ، ومن المؤكد تقريبا ان النظام سيطاح به عن السلطة على يد العناصر الساخطة في الدوائر الحاكمة . ومهما كانت نتيجة الحرب ، فان حربا لها هذا الحجم الضخم لا بد ان تطلق مشاعر نضالية عالية ومتطايرة داخل الاتحاد السوفياتي مما يخلق ضغوطا على حكم الرجل الواحد او ببساطة يمزق النظام .

فان اخذنا في الاعتبار الظروف السائدة في اوائل السبعينات فان تعفن الاقلية المستبدة الحالية المشكلة من بيروقراطية الحزب العليا الطاعنة في السن (متوسط عمر اعضاء اللجنة المركزية كان في ١٩٦٩ فوق الستين مما قد يجعلهم اكبر الزعماء السياسيين عمرا في العالم باستثناء زعماء الفاتيكان وماو وجماعته) ومن مارشالات جيش الزمن الغابر (بعضهم اقدم حزبيا من الحكام السياسيين الاول) ومن منظري الحزب . ان هذا التجمع لا يمثل فحسب النخبة السياسية للاتحاد السوفياتي وانما ايضا قمة النخبة الاجتماعية فيه ، بمعنى ان قوته تعطيه امتيازات مساوية لتلك التي يحصل عليها امثاله في ظل الراسمالية ذات الغنى : الفخامة ، والراحة ، والمكانة . وتميل كأي طبقة حاكمة لان تكون محافظة وتقاوم التغيير الذي يهدد مواقعها . وبالاضافة الى ذلك — وهو اعتبار هام جدا — نجد الطبقة الوسطى السوفياتية طبقة شديدة البيروقراطية وتتشكل كلها تقريبا من موظفي الدولة الذين هم اقرب لان يكونوا محافظين في تقاليدهم السياسية والاجتماعية ولا يفصلهم سوى جيل واحد عن اصولهم البروليتارية او الفلاحية . هذه الطبقة لا تريد تغييرا سياسيا كبيرا رغم انها ترغب فعلا في المزيد من السلع المادية . انها توفر الاساس للاتجاه المحافظ لدى القيادة .

ومع ذلك اصبحت المرتبة العليا من النخبة المهنية والعلمية السوفياتية عريضة ومتعلمة بشكل جيد وطموحة قوميا لدرجة لم تعد ترضى بنمط لا يفعل الا انه يحافظ على الوضع الراهن . وبالرغم من انها ، اي هذه النخبة ، معنية بالاستقرار السياسي تدرك ايضا الضرورات المحلية والدولية التي تستوجب التجديد الاجتماعي والعلمي . ولقد كسبت هذه المرتبة في السنوات الاخيرة مزيدا من العلاقات بصانعي القرار وبذا تشارك بشكل غير رسمي في عملية للمساومة الجماعية وبوجه خاص في مجالات السياسة التي تحتاج الى الخبرة. ولقد لاحظ جهاز اكاديمية العلوم السوفياتية، ان عدد العلماء الذين استدعوا للمشاركة في عمل الجهاز الحكومي حتى على اعلى المستويات قد ازداد مؤخرا . ومن الواجب ان يدعوا بشكل اكثر من ذلك لتنظيم الانتاج وتوجيه التخطيط في المجال الاقتصادي» (٣٣) ان نفوذهم التجديدي بالاضافة الى التقدير السياسي الواسع

---

٣٣ — مجلة Vestnik Akademii Nauk ، العدد —٣— ، ١٩٦٦ ، ص ١٣٨ .

الانتشار والمتزايد لاهمية التجديد العلمي وللمشاعر القومية في المنافسة مع الولايات المتحدة وللطموحات القومية والامنية لدى القادة العسكريين الاصغر سنا والاكثر تعلقا بالعلوم ، كل ذلك يثير الان ضغوطا من اجل التحام المتغير الاول (تعفن الاقلية المستبدة) والمتغير الثالث (التكيف التكنولوجي) في محاولة لبناء نوع جديد من «الشيوعية التكنترونية» * .

ان مثل المانيا الشرقية في ظل اولبرخت قد يصبح ملائما بوجه خاص . فبالرغم من انه في رومانيا أدى اكتشاف اهمية الثورة العلمية لان يقترح بعض الشيوعيين ان هذه الثورة تحتاج اطارا نظريا جديدا يقوم على مبدأ العالمية (٣٤) ، قد حاول اولبرخت الجمع بين التجديد العلمي والالتزام الصارم بالاتجاه اللينيني ــ الستاليني الايديولوجي . فلقد بقيت القيادة السياسية شديدة المركزية كما كبتت بحزم الانشقاقات الايديولوجية . وفي الوقت نفسه أكد اولبرخت ، وربما كان بذلك اكثر من اي زعيم شيوعي آخر «ان تطور النظام الاشتراكي ، وفوق كل شيء تطبيق النظام الاقتصادي ككل هو بشكل متزايد مسألة تتعلق بالقيادة العلمية ... نحن نعوّد انفسنا على الاشراف العلمي الواعي على العمليات والانظمة المعقدة ، من الشعب والى الشعب نحن نستخدم السبرناطيقا بهذا المعنى » (٣٥) .

ولقد بذلت القيادة الالمانية الشرقية خلال النصف الثاني من الستينات جهدا مكثفا لترتيب الادارة الاقتصادية بحيث تجمع بين مستوى ادنى من الحوافز ونظام فعال للاشراف والتنسيق . ووضع مؤتمر الحزب السابع (ابريل ــ نيسان ١٩٦٧) امام نفسه مهمة تطوير مفهوم عام عن العلاقات بين الانظمة الجزئية المختلفة والنظام الاقتصادي ككل . وتستفيد المانيا الشرقية اكثر من اي بلد شيوعي آخر من

---

* هذه العملية قد توفر التعبير السياسي للنمو الكبير في العدد الكلي للمختصين العاملين في النشاط العلمي والخدمات (بما في ذلك الحاصلون على تعليم ثانوي متخصص) ، وفي عدد اعضاء النخبة السياسية ذوي الخلفيات الضخمة في المجالات التقنية والعلمية . فبين أعوام ١٩٥٠–١٩٦٦ زاد عدد المجموعة الاولى من ٧١٤ الف الى ٢٫٧٤١٫٠٠٠ (سياسة العلوم في الاتحاد السوفياتي، ص ٦٧٩) . وقد جمع جورج فيشر ادلة تظهر ان المجموعة الثانية آخذة في التحول لان تكون المجموعة السائدة بين الاعضاء الشباب في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي (النظام السوفياتي والمجتمع الحديث ، نيويورك ، ١٩٦٨ ، خاصة ص‌ص ١٢٥ ــ ١٣٤) . ان التنافس التقني واسع الانتشار بين النخبة السياسية السوفياتية تماما كالتنافس بين الخلفيات القانونية في النخبة السياسية الامريكية .

٣٤ ــ ف. رومان ، «من اجل نظرية ماركسية للثورة التقنية ــ العلمية» **مجلة كونتمبورانول** .

٣٥ ــ والتر اولبرخت «اهمية تعاليم كارل ماركس وقوتها الحيوية لعصرنا» ، كتيب ، برلين، ٢–٥–١٩٦٨ .

السبرناطيقا وبحوث العمليات وتشغيل البيانات الكترونيا . وبعد عامين اي في ابريل ـ نيسان ١٩٦٩ قال عضو المكتب السياسي كورت هاجر بفخر وهو يقدم تقريره للاجتماع الموسع للجنة المركزية ـ وقد كرر قوله هذا ـ ان المانيا الشرقية لم تكن متعافية ايديولوجيا فحسب وانما ايضا «مبرمجة بشكل صحيح» .

وفي سياق هذه «البرمجة الصحيحة» اكد الحزب على اهميـــة الخبرة بين اعضائه (٣٦) ، وتم اصلاح النظام التعليمي لكي يتم الربط بشكل وثيق بين العلم والصناعة * . وفي اواخر الستينات ، كانت المانيا الشرقية قد نقلت نفسها من مجتمع من اكثر المجتمعات التي دمرتها الحرب الى اكثر من دولة شيوعية متقدمة اقتصاديا وايديولوجياوذات توجه علمي . وبعد انقطاع خمسين عاما ادى الجمع بين الانضباطية البروسية والكفاءة العلمية الالمانية والايديولوجيـــة اللينينية ـ الستالينية الى ان تصبح شيوعية المانيا من جديد نموذجا لجيرانها الشرقيين .

ومع ذلك هناك في الاتحاد السوفياتي اعتبارات اخرى ستعوق في كـــل الاحتمالات خطوات اشاعة التكنولوجيا المماثلة في النظام السياسي السوفياتي . فمن جانب نجد ان الاتحاد السوفياتي هو بلد اكبر بكثير ، واصعب في مجـــال التكامل ولديه مجالات عديدة من التخلف الاجتماعي ـ الاقتصادي ليتغلب عليها . وبالاضافة الى ذلك طوّر الحزب الحاكم عبر الخمسين عاما الاخيرة تقاليده الخاصة وأسلوبه الايديولوجي الخاص ، وبالرغم من انه يحبذ ان يحصل موظفوه علـــى المهارات التقنية من المرجح انه سيستمر في مقاومة اي تطوير جوهري تقني يمكن

---

٣٦ ـ انظر بيترسي. لوتز ، Parteielite im Wandel ، كولونيا ، ١٩٦٨ .

* في ظل هذه الاصلاحات تحولت الجامعات والمدارس المهنية الى «تجمعات علمية» جديـــدة مرتبطة مباشرة بالمشاريع الصناعية . فعلى سبيل المثال تعمل الجامعة التقنية في درسدن بالاشتراك مع مصنع راديبرج للعقول الاليكترونية القريب منها ، كما ان معاهد تعليم اخرى قد ارتبطت مـــع الجهود الصناعية الاساسية في مدنها او مناطقها . ولقد بذل في ظل هذا الاصلاح جهد كبير للحصول على مشاركة الطلاب ويقال ان الطلاب قد قدموا عددا من الاقتراحات البناءة في هذا الاتجاه .

وفي نفس الوقت استمر التثقيف بالماركسية ـ اللينينية كأولوية اولى في العملية التعليمية، ولكن التركيز اصبح على ضرورة الجمع بينها وبين عملية التنبؤ والتحليل الاجتماعية العلمية : «من الضروري ان تقدم للشخصيات القيادية في الدولة الاشتراكية معرفة مركبة تجعلهم قادرين علـــى تنفيذ قرارات الحزب بكفاءة عالية . ويجب ان يتم ذلك على اساس التنبؤ الاجتماعي البعيد المدى، وضمن فريق عمل واحد مع معهد الإدارة الاقتصادية الاشتراكية ، ومعهد العلوم الاجتماعية وكليـــة كارل ماركس الحزبية والمعاهد الاخرى» (خطاب لاريك هونيكر عضو المكتب السياسي وأمين اللجنـــة المركزية للحزب الاشتراكي الالماني الموحد ، ٢٩ ابريل ـ نيسان ١٩٦٩) . لقد كان خطاب هونيكر مهما بسبب تأكيده على السمات التكنترونية للمجتمع الحديث واغفاله نسبيا للقضية الايديولوجية .

ان يسود اعضاءه طالما يخفف ذلك من الاهمية المعطاة للايديولوجيا (٣٧) . والاكثر من ذلك يميل دور عامل الامن في صنع السياسة ودور العسكرية في العملية السياسية الى الازدياد ، وربما تضاعف هذا الميل في السنوات المقبلة بسبب النزاع الصيني ــ السوفياتي . وبالتأكيد تصبح مشكلة الامن اكثر الحاحا وتظل القيادة السوفياتية جماعية ، فيصبح من الصعب بشكل متزايد رفض المشاركة العسكرية المباشرة في العملية السياسية لصنع القرار . وفي هذه الحالة سيشمل التحام المتغير الاول مع المتغير الثالث (الكفاح من اجل الجمع بين التصلب الايديولوجي والخبرة التكنولوجية) وايضا تحويل ديكتاتورية الحزب الشيوعي الحالي الى اقلية مستبدة امبراطورية شيوعية * .

مشكلة الحيوية :

السؤال اذن هو : هل يمكن لهذا التطور السياسي ان يسهل حل المشاكل الاقتصادية والسياسية التي تواجه الاتحاد السوفياتي ؟ والاجابة على هذا السؤال ستكون قطعا تقديرية اكثر من تشخيص المستقبل نفسه . فبشكل عام سيبدو مشكوكا فيه ان محاولة الجمع بين الارثوذكسية الايديولوجية والتجديد التكنولوجي والتي قد يدعمها الاعتماد المتزايد على القومية والعسكرية ، ستؤدي الى خلق وضع يبشر بالخير امام عملية الخلق الفكرية والعلمية . والاكثر احتمالا ان تؤدي مثل هذه المحاولة الى تناقضات داخلية يقف فيها الايديولوجيون والتكنوقراطيون على طرفي نقيض . وسيكون ذلك صحيحا بشكل خاص فيما يتعلق بالقضية المعقدة الخاصة باللامركزية الاقتصادية التي يتزايد الاعتراف بضرورتها لاسباب اقتصادية ولكن ما تزال يخشى منها لاسباب سياسية . والنتيجة ستكون إما مهادنات مؤقتة (مثل التي يتصف بها بريجنيف) او نقلات سياسية خطيرة من حين الى آخر . وسيؤدي التوتر المترتب على ذلك الى توسيع الفجوة بين النظام السياسي

---

٣٧ ــ انظر على سبيل المثال تحذير ب. ديميشيف ، «بناء الشيوعية واهداف العلوم الاجتماعية» مجلة **كوميونست** ، العدد ــ١٠ــ ١٩٦٨ ، ص ٢٦ . وانظر نقاشا مثيرا حول الاتجاه نحو مزيد من الالتحام بين خبرة البيروقراطية الحزبية والمنافسة التقنية ، جورج فيشر ، **النظام السوفياتي والمجتمع الحديث** The Soviet System and Modern Society نيويورك ١٩٦٨ .

* يتبنى هذا الراي ايضا بعض المراقبين اليوغوسلاف . كتب ف. ستانوفشيك في مجلة اللجنة المركزية اليوغوسلافية الاسبوعية **كوميونست** (٢٦ سبتمبر ــ ايلول ١٩٦٨) يقول ان النظام السوفياتي الحالي قد اثبت انه غير قادر بذاته على اشاعة الليبرالية تدريجيا وانه سيكون «من المنطقي جدا ان يتحول الى نوع من الحكم البونابرتي تقوم فيه مجموعات المديرين ــ العسكريين بدور راسمي الخطوط للمجتمع ومنظميه» .

والمجتمع ، وسيبدو النظام السياسي غير متجاوب مع المشاكل الداخلية وسيتولد ضغط اجتماعي متزايد من اجل اعادة تقييم جوهرية للطابع الايديولوجي والمؤسسي للدولة السوفياتية ومدى ملاءمته للعصر .

وتبعا لذلك يمكن توقع ان السبعينات ستشهد انتشار التقلصات المشابهة لما بدأ يحدث في اسبانيا ويوغوسلافيا والمكسيك في اواخر الستينات ، انتشارها في الاتحاد السوفياتي . ان عدد الطلاب السوفيات سيتضاعف في الستينات (زاد بمقدار ٧٧ بالمئة بين ١٩٥٨ و١٩٦٥) وليس من المحتمل ان يتمكن الاتحاد السوفياتي من تجنب الاضطرابات الطلابية تماما . وربما ستشهد اواخر السبعينات وصول الثورة الجنسية الى المراكز السوفياتية الاكثر حضارة ، ولن يجد ايديولوجيو الحزب الامر سهلا للتواؤم داخل الاعراف الرسمية السائدة . هذه العوامل قد تخلق قاعدة اجتماعية أعرض للمنشقين ايديولوجيا المعزولين في الوقت الحاضر وهي مع النمو المحتمل في الشعور بالذات بين المثقفين غير الروس ستؤدي الى توترات اجتماعية وسياسية اوضح . وباعتبار الواقع السوفياتي الاستبدادي القائم ، ان علما احمر يرفعه طلاب موسكو بشكل عفوي فوق جامعتهم سيكون له أثر رمزي سياسي أخطر بكثير مما لو رفرف نفس العلم فوق كولومبيا او السوربون .

ولكن دخول اول قيادة سياسية من عصر ما بعد ستالين الى المسرح السياسي لن يتم قبل بداية الثمانينات ان زعيما ملهما عمره خمسة وأربعون عاما في ١٩٨٠ يكون عمره ١٨ عاما عند موت ستالين و٢١ عاما عندما بدأت ازالة الستالينية فعليا في الاتحاد السوفياتي . وبالرغم من ان ابناء جيله قد يجدون طريقهم الى السلطة مسدودا بقيادات سياسية اكبر منهم بعشرة او حتى عشرين عاما (مثل بوليانسكي وشيليبين سميتا ستنزوتوليستيكوف اليوم) سيضغطون بممارسة التأثير عبر المجموعات الموجودة مباشرة تحت اللجنة المركزية ، وانطلاقا من الواقع المحلي والعالمي الاكثر تطايرا والذي سينضجون فيه ، ومن تعليمهم الاعلى ، ومن الطابع الاكثر مرونة للدول الاوروبية الشرقية المتصلة بهم ، فمن المحتمل جدا ان النخبة السياسية التي ستظهر ستكون اقل التزاما بفكرة ان التطور الاجتماعي يتطلب تركيزا شديدا للسلطة السياسية .

ومع ذلك حتى عندئذ من الارجح ان التطور الى نظام تعددي سيقاوم من جانب الاقلية المستبدة السياسية المتمرسة . ان مقدمة التعددية السياسية ستحتاج في وقت من الاوقات الى قرار ارادي لفتح الاتحاد السوفياتي امام الافكار المتنافسة ، وللسماح لكل مواطن سوفياتي ان يقرأ ما يريد ولتخفيض مستوى سيطرة الحزب الايديولوجية وللتخفيف من مركزية صنع القرار ، اي بمشاركة المجتمع في السلطة : في الواقع ، تحتاج الى تحول كبير في النظام ككل. ان المترتبات غير المقصودة للتصحيحات الاقتصادية التكنولوجية لن تكون كافية لإحداث تغيير سياسي هام . فكما في يوغوسلافيا او تشيكوسلوفاكيا قبل ١٩٦٨

عند نقطة ما يجب ان تقرر النخبة السياسية ان تنطلق في الاصلاحات السياسية الارادية .

وهكذا مع استبعاد اي هبة قد تنتج عن الشلل الداخلي ـ ويمكن ان تؤدي بشكل درامي إما الى ديمقراطية اجتماعية او وهو الارجح الى ديكتاتور قادر على السيطرة على الانشقاق الداخلي يعيد الحياة الى مجراها ـ فان النمط الاكثر احتمالا للثمانينات هو انتقالة هامشية في اتجاه الجمع بين المتغير الثاني (التطور التعددي) والمتغير الثالث (التكيف التكنولوجي) : اي تعددية اقتصادية ـ سياسية محدودة وتأكيد كبير على المنافسة التكنولوجية داخل اطار حكومة استبدادية تمثل تجمعا في المراتب العليا من المجموعات ذات المصالح الرئيسية قد يكون ذلك هو بداية العودة الى الاتجاه الماركسي الغربي ولكنها بداية بطيئة وحذرة في احسن الاحوال * .

لذا سيكون من التسرع ان نتوقع انه في المستقبل القريب قد تحدث مراجعة جوهرية في موقف الاتحاد السوفياتي تجاه العالم . سيكون هناك تغيير ولكنه سيكون بطيئا . وبالاضافة الى ذلك سيستمر عنصر المنافسة مع الولايات المتحدة الذي يعكس التراث الاثري للايديولوجية والذي تقويه قومية الطبقة الوسطى المدينية ، سيستمر سائدا على الارجح حتى لو تدخل في تشكيلة الاعتراف السوفياتي النامي بأن التعاون السوفياتي الامريكي المتزايد تفرضه المستلزمات الاساسية لاستمرار الحياة البشرية . كما يمكن ايضا ان يكون للنزاع الصيني ـ السوفياتي تأثير مزدوج ومتناقض : فبينما يقوي من حاجة السوفيات الى جناح غربي آمن وسلمي ، من المحتمل ان يرفع من اهتمامات السوفيات الامنية وبهذا يقوي الوضع الداخلي للعناصر الاكثر محافظة وقومية .

---

* ربما كان مناسبا في هذا المجال ان ندع جانبا التشبيه الشائع بين تطور الثورة الفرنسية الى ديمقراطية بورجوازية والنتائج السياسية المشابهة المزعومة لبرجزة المجتمع السوفياتي . ان هذا التشبيه يتغافل عن عدة خلافات هامة بين الثورتين . فالثورة الفرنسية تمت على ارضية شكلتها تقاليد المثقفين المثالية ، والعقلانية ، ذات النزعة المطلقة غير الفعالة . اما الثورة الروسية فقد سبقها ازدياد التعصب الفكري واليوتوبيا كرد فعل على واقع ذي نزعة مطلقة واستبدادي . لقد تأثرت الثورة الفرنسية بطبقة وسطى مهنية مثالية وغير منظمة لدرجة كبيرة ، بينما تأثرت الثورة البلشفية بحزب منظم على درجة عالية من الاحتراف والايديولوجيا . الثوار الفرنسيون لم يكن لديهم ما يكفي من الوقت خلال الفترة القصيرة نسبيا من وجودهم في السلطة لاعادة تنظيم المجتمع الفرنسي جوهريا ، بينما البلاشفة وبوجه خاص في ظل ستالين مزقوا النسيج الاجتماعي وأعادوا نسجه من جديد وهم ينفذون ثورة حضرية وصناعية بعيدة المدى . كانت الطبقة الوسطى الفرنسية طبقة مجددة غير مستقرة فكريا ، بينما الطبقة الوسطى السوفياتية الجديدة هي طبقة ذات طابع فيكتوري محافظ وأرثوذكسية . واخيرا وليس آخرا قد هزم مشروع الثورة الفرنسية وهو نابليون بينما ستالين قد انتصر .

هذا الجمع بين الايديولوجية المتآكلة والقومية المحتدمة يجعل من غير المحتمل ان يصبح الاتحاد السوفياتي قريبا منغمسا لا في عملية التقدم النضالي بقضية الثورة العالمية ولا في التطوير النشط لسياسة تعاون عالمية . والنتيجة الارجح هي نمط غامض تحدده منافع قصيرة الامد اكثر مما يحدده منظور واسع طويل الامد . وفي هذا الاطار وعلى وجه الدقة بسبب ان الاتحاد السوفياتي لا يبدو عليه انه سيمارس في المستقبل القريب مرحلة محلية من الابداع الفكري المفتوح ومن التجريب ، فإن جاذبيته كنموذج اجتماعي ـ اقتصادي للشيوعية المعاصرة ، نموذج قادر على ان يأسر خيال الانسانية فكريا ومعنويا سيستمر في الهبوط على الارجح.

الشيوعية الحلقية

ان اي حركة ايديولوجية عالمية في عصرنا لا يمكن ان تكون الا حركة تعددية . ولكي يمكن ان تكون تعددية ـ اي تستجيب للظروف العالمية المتميزة وللتغيير السريع ولما ينتج عن ذلك من مزاج فكري ـ فان محتواها الايديولوجي يجب ان يكون عاما لدرجة كبيرة ، واخلاقيا اكثر منه عمليا ، وانسانيا اكثر منه قوميا . ان شيوعية عالمية في الواقع لا بد ان تكون شيوعية تعددية بملء الارادة . وستولد الشيوعية التعددية الدولية بدورها ، وبشكل حتمي ، ضغوطا في سبيل احزاب شيوعية ذات تعددية داخلية .

لا وجود لشيوعية تعددية وليس من المحتمل ان تظهر . لقد سقطت العالمية الشيوعية ضحية الجمود الشيوعي . هذا الجمود الذي كان يتعايش مع العالمية طالما كانت الشيوعية محاولة لتعريف الظروف العالمية في المراحل الاولى من التصنيع وايجاد تعبيراتها السياسية بين مختلف مجموعات المثقفين الساعين الى السلطة . وما ان وصل هؤلاء المثقفون الى السلطة في مختلف الدول حتى بدأ الجمود العقائدي في الظهور بسبب ميل الحكام الجدد الطبيعي لرؤية العالم من منظار مصالح سلطتهم القومية الخاصة . ومن ثم سهل الجمود العقائدي الذي لم يعد يعمل على مستوى التجريدات العالمية انما اصبح يعمل على مستوى الممارسة القومية ، سهل تحول الشيوعية الى حلقية ـ حيث كل حلقة تصر على ان منظورها هو المنظور العالمي الصحيح وتقيم نظام الحزب الداخلي على هذا الاساس .

كان الاتحاد السوفياتي هو الاول في تحويل الشيوعية العالمية الى شيوعية حلقية ، ولكن العملية تطورت بشكل طبيعي بين كل الاحزاب الشيوعية في السلطة حتى بين الاحزاب الشيوعية الاكثر استقرارا خارج السلطة . وكنتيجة لهذه المزاعم المتنازعة والتحريمات المتبادلة ورقع التهادنات بين الحين والآخر والنزاعات النشطة والكامنة ، كنتيجة لكل ذلك تشكل الشيوعية المعاصرة لوحة من

الموزائيك متنوعة تنوع امم البشرية «٣٨» . ان الشيوعية الحلقية بعيدة كل البعد عن وضع حد للتفتت الفكري في العالم بل هي تضاعفه .

مراحل :

يمكن تمييز اربع مراحل عريضة في مجرى تطور الشيوعية كحركة دولية منذ قيام اول دولة شيوعية في الاتحاد السوفياتي . المرحلة الاولى تتصل بشكل عام بالعشرينات والثلاثينات ــ وبوجه خاص ــ بالثلاثينات التي شهدت اعادة البناء الايديولوجي للمجتمع السوفياتي ــ ويمكن تسميتها مرحلة الزرع . ففيها تم زرع مذهب غربي في الاساس كان تعبيرا عن ظروف خاصة بالتصنيع الغربي الراسمالي تم زرعه في الواقع الروسي واعيدت صياغته لتلبية احتياجات هذا الواقع وقد اشتمل ذلك على تحويل الايديولوجية المستوردة والمعاد تكييفها الى شيء محلي وعقيدة جامدة .

ان تحويل الايديولوجية الى ايديولوجية محلية كان معناه ان الصياغات المشتقة من الظروف الروسية الخاصة كما حددها لينين اولا ثم كما حددها ستالين قد اخذت تتغلغل بشكل متزايد داخل العقيدة ، وبالنتيجة تم تحويل اعتبارات أبوية تقليدية الى شيء عالمي عن طريق الجمود العقائدي . اما اشاعة الجمود العقائدي فقد كانت بشكل كبير نتيجة الواقع البدائي الاوتوقراطي الذي زرعت فيه الماركسية «٣٩» ، والسمات الشخصية التحكمية للايديولوجيين القادة ولاحتياجات السلطة التي واجهتها النخبة الشيوعية الجديدة وقد وجدت نفسها بدون ما تصوره ماركس اساسا للحكم الاشتراكي ــ الا وهو القاعدة البروليتارية الصلبة التي خلفها التطور الراسمالي في الغرب .

المرحلة الثانية هي **التعميم العالمي** النشط للخصوصية السوفياتية وهي تتصل تقريبا بالثلاثينات وبوجه خاص بالاربعينات . لقد شهدت هذه المرحلة تحول الاحزاب الشيوعية الخارجية الى احزاب ستالينية ، كما شهدت التصدير الاجباري للنموذج السوفياتي للشيوعية الى اوروبا الشرقية ، وشهدت التوسع العفوي للماركسية المكيفة على طريقة لينين الشرقية الى الصين وكوريا وفيتنام . ولان الشيوعية الدولية كانت محكومة بموسكو كمركز لها ، قلدت الخبرة السوفياتية بدون الاخذ بالاعتبار بالظروف السائدة داخل مختلف الامم . وبالتاكيد اصبح الاصرار السوفياتي على النمط العام المشترك اكثر شدة بوجه خاص بسبب الفجوة

---

٣٨ ــ انظر لعرض عام رائع ، ريتشارد لوونتال ، **الشيوعية العالمية : تفسخ عقيدة علمانية** World Communism: the Disintegration of a Seculur Faith، نيويورك، ١٩٦٦ .

٣٩ ــ انظر في هذا المجال المقالة الجيدة لهنري ل. روبرتس «روسيا والغرب : مقارنة ومقابلة» مجلة **سلافيك ريفيو** The Slavic Review . مارس ــ اذار ١٩٦٤ .

الكبيرة التي وجدت بين الايديولوجية والظروف المحلية .

لم يكن من الممكن ان يستمر واقع الحال هكذا وتعرضت المجموعات القيادية الشيوعية القومية لضغوط محلية متزايدة من اجل اجراء تصحيحات ، ومع الزمن بدأ القادة القوميون انفسهم يرون التباعد بين احتياجاتهم ومصالحهم الخاصة والوصفات والمطالب السوفياتية . وكانت النتيجة هي المرحلة الثالثة ، مرحلة التخصيص في الشيوعية الدولية خلال الخمسينات . لقد شهدت هذه المرحلة في المقام الاول تأكيد الذات الكامل من جانب القيادة اليوغوسلافية (الى حد كبير لانها جاءت الى السلطة بجهودها الخاصة) كما شهدت تأكيد الذات جزئيا لدى القيادة البولندية ، وبدايات ذلك لدى الرومانيين ، والاهم من الجميع ازدياد توجه القيادة الصينية الى ممارسة نمطها الخاص من الشيوعية والى تعميم اهمية تجربتها وملاءمتها للاحزاب الشيوعية الثورية الاخرى .

تبعا لذلك شهدت الستينات مرحلة جديدة في تاريخ الشيوعية الدولية . وهي مرحلة سادها التوتر المكشوف بين العملية التي جعلت العقيدة نسبية ، والعملية التي جعلت وجهات النظر الخاصة شيئا مطلقا . وفي سبيل الوحدة بدا في البداية ان القيادة السوفياتية عازمة على تقبل التنوع المتزايد وفي بداية الستينات تخلت رسميا عن مزاعمها في القيادة وعن اصرارها على الحاجة الى خط عام مشترك واحد (٤٠) . ومع ذلك فقد حدثت نقلة في الاتجاه المعاكس في النصف الثاني من الستينات ، نقلة ربما تولدت من الخوف من ان تحويل الايديولوجية الى امر نسبي هو المرحلة الاولى من تآكلها ، وان الوحدة المسكونية التي ستنتج عن ذلك ستكون بلا اي مضمون سياسي . وفي كل الاحتمالات: التطورات السياسية التشيكوسلوفاكية في ١٩٦٨ ، والتحدي الصيني الدؤوب كانا الحافزين اللذين جعلا القادة السوفيات يتحولون نحو الحلقية : اي اعادة التأكيد على العالمية المطلقة لقوانين معينة عامة ومشتركة ، اساسا كما عرفها القادة السوفيات انفسهم . وكان الثمن الذي لا مفر من دفعه هو ان تلك الاحزاب الشيوعية التي قد تؤكد على وضعها الخاص المتباعد ستفعل ذلك ، وعليها ان تفعل ذلك في اطار الادانات الايديولوجية المتبادلة . وبدلا من ان تكون الخصوصية مرحلة نحو العالمية فقد ترجمت خلال الستينات الى المرحلة الرابعة والحالية اي **الحلقية** .

---

٤٠ – انظر البيان في مجلة **كوميونست** ، عدد –١٥– ١٩٦٣ ، خاصة ص ٢٦ التي تهاجم المفهوم الصيني باعتباره خطا قاطعا في الحركة الامية ، ورسالة القيادة السوفياتية الى الزعماء الصينيين في يوليو – تموز ١٩٦٣ ، والتي ترفض صراحة مفهوم الخط العام للحركة الامية . هذه المرحلة حللتها في كتابي **الكتلة السوفياتية : الوحدة والنزاع** ، **The Soviet Block:Unity and Conflict** روجع ونشر ، كامبردج ، مارس، ١٩٦٧ .

وهكذا تخلو الوحدة الشيوعية في مطلع السبعينات من اي معنى مادي * . ان الاحزاب الشيوعية الغربية تقوي من محاولاتها الحصول على الدعم الشعبي بالانكار المتزايد لفكرة ان الاتحاد السوفياتي يقدم نموذجا ملائما . ومن المؤكد ان قادة الشيوعيين الايطاليين والفرنسيين قد تيقنوا اخيرا من ان احزابهم ستنجح بقدر ما ينجحون في اقناع ناخبيهم بأن حكومة شيوعية فرنسية او ايطالية ستكون مختلفة عن النموذج السوفياتي . وبالرغم من الضغوط السوفياتية الدؤوبة تستمر الاحزاب الشيوعية الحاكمة في اوروبا الشرقية في اجراء تصحيحات هادئة تلبي الضرورات المحلية ، واذ يفعلون ذلك يتزايد ابتعادهم عن النموذج السوفياتي . اما الحزب الشيوعي الصيني فهو لا يمارس نمطه الخاص من الشيوعية فحسب بل ينكر صراحة ان الحزب السوفياتي حزب شيوعي ، ثم انه يتهم الاتحاد السوفياتي بأنه يسير على طريق استعادة الراسمالية .

ولقد كان القرار السوفياتي في ١٩٦٨ للتخلص من عملية اشاعة الديمقراطية في تشيكوسلوفاكيا ، بوجه خاص مميتا للشيوعية الدولية . ولو ان القادة السوفيات سمحوا باشاعة الليبرالية في النموذج ذي الجوهر الستاليني للدولة الشيوعية التشيكوسلوفاكية لتحققت خطوة هامة كبرى وحيوية في عملية اشاعة الديمقراطية في الشيوعية الاوروبية . ان اشاعة الديمقراطية في يوغوسلافيا كان من الممكن ان يؤثر بشكل هام في الدول الشيوعية الاخرى بما في ذلك الاتحاد السوفياتي مولدا في نهاية الامر اتجاهات مماثلة داخلها . كان ذلك هو السبب الاول وراء القرار السوفياتي بالتدخل في تشيكوسلوفاكيا . وكان روجيه غارودي عضو المكتب السياسي في الحزب الشيوعي الفرنسي في ذلك الوقت محقا عندما صرح بأن القادة السوفيات خافوا بغريزتهم من اشاعة الديمقراطية في تشيكوسلوفاكيا لانهم على وجه الدقة كانوا ملتزمين جدا بالنموذج الستاليني للاشتراكية لدرجة ان اي محاولة لتصحيح الاشتراكية لتلائم ظروف المجتمعات الاكثر تقدما صورت تهديدا للاشتراكية نفسها . لقد كانت اشاعة الديمقراطية معارضة لكل تدريباتهم ونظرياتهم لذا لم يكن احتلال تشيكوسلوفاكيا خطأ ولكنه نتيجة منطقية للنظام الستاليني (٤١) .

ان منظر تشيكوسلوفاكيا ديمقراطية يحكمها حزب شيوعي يقبل الحرية

---

* ان الفشل في ادراك هذا الواقع يدفع بعض الباحثين المحافظين الغربيين للحديث عن «السياسة الخارجية للشيوعية» ولكي يوجهوا انتقاداتهم للراي القائل بأن الايديولوجية الشيوعية لم تعد قادرة على تعبئة مساندة عالمية موحدة . انظر هانز مورفنتان ، **سياسة خارجية جديدة للولايات المتحدة** ، نيويورك ، ١٩٦٩ ، ص ٣٢ . وربما أدى هذا السبب نفسه الى ان يعلن الاستاذ مورفنتان في ١٩٦٥ ان الحرب الفيتنامية ستجمع السوفيات والصينيين معا .

٤١ – روجيه غارودي ، **نحو نموذج فرنسي للاشتراكية** **Pour Un modèle Francais du Socialisme** باريس ، ١٩٦٨ ، ص‌ص ١٤٨ – ١٤٩ .

الفردية (حرية السفر والقول والصحافة) كان من الممكن ان يكون له تأثير عظيم في الاحزاب الشيوعية الغربية ، كان من الممكن ان يشجع هذه الاحزاب لكي تحقق اشاعة الديمقراطية الداخلية الخاصة بها بشكل اسرع ، وكان من الممكن ان يجعلهم اكثر جاذبية لناخبيهم على المستوى القومي. بل كان من الممكن ان تكون هذه نقطة تحول كبرى في تاريخ الشيوعية نفسها . كان من الممكن ان تخلق في الغرب الاكثر تقدما شيوعية ديمقراطية مهتمة بالقضايا الانسانية وتواجه التحدي التكنتروني ، كان من الممكن ان تؤدي الى شيوعية مناضلة اكثر ثورية تواجه بشدة التخلف والعجز الاجتماعي في الظروف السائدة في العالم الثالث. وهكذا فان عدم الاستعداد لتقبل تشيكوسلوفاكيا كان معناه ليس فقط ان الاتحاد السوفياتي سيستمر لفترة من الوقت في نمط متجمد شديد البيروقراطية ولكن ايضا انه ستكون هناك شيوعيات حلقية عديدة يزعم كل منها انها تعبر عن رسالة عالمية صحيحة ✶ .

شيوعيات مندمجة :

من المتوقع إذن ان تشهد السبعينات والثمانينات شيوعيات تزداد تنوعا ، تندمج مع الظروف المحلية الخاصة بينما تذوي كجزء من حركة (أممية) دولية وايديولوجية عالمية . وقد يعني هذا في شرقي اوروبا ظهور بعض الانظمة التي تليق بها تسمية «الفاشية الاجتماعية» بدلا من الشيوعية . اي ظهور احزاب حاكمة تدعم جمودها الفكري الخاص بأن تطرد من صفوفها اولئك الذين يميلون بأي شكل الى الخروج عن المألوف وستكون المراتب الوسطى والعليا من نخب هذه الانظمة

✶ ذكر متحدثون سوفيات احيانا ان تشيكوسلوفاكيا ديمقراطية كانت ستكف عن ان تكون تشيكوسلوفاكيا شيوعية ، وان الحزب الشيوعي سيبعد عن السلطة . هناك شك في ذلك بالرغم من انه لا يمكن اثباته او عدم اثباته . ومع ذلك ليس من المحتمل ان احزابا سياسية اخرى كانت ستظهر في تشيكوسلوفاكيا ، لانه لا الاساس الاجتماعي ولا الاشخاص اللازمون لذلك كانوا موجودين. صحيح ان الموقف السائد في ١٩٦٨ بين التشيك والسلاف كان مؤاتيا للعمل داخل حزب شيوعي اكثر ديمقراطية وتعددي ، حزب شيوعي ولكن بدون لينينية ـ ستالينية .

ان حجج السوفيات مع ذلك جديرة بالملاحظة لانها تكشف عن شيء آخر . فالاتهام يرتكز الى الاقرار بأن الديمقراطية والنسخة السوفياتية من الشيوعية لا تزالان غير متعايشتين . وهكذا يعكس الاتهام ليس فقط الشك البيروقراطي العميق الجذور بالارادة الشعبية وانما ايضا عجز الرسميين الشيوعيين السوفيات المتأصل عن التعامل بشكل معقول مع الاهتمامات المعاصرة بالمساواة السياسية والاجتماعية ، ومع البحث الحالي عن انسانية جديدة ملائمة للثورة «العلمية التكنولوجية» وهو ما يقر الشيوعيون انفسهم بأنهم قد اهملوها . (انظر ص ١٥٧) .

ذات المشاعر القومية الشديدة ، مشكّلة من الموظفين الرسميين الذين ينتمون الى طبقة الجيل الاول المحافظ اجتماعيا وسياسيا والذين حوّلوا بشكل غامض الايديولوجية الرسمية الى امر داخلي – خصوصا الايمان بسمو سلطة الدولة – والذين يحكمون متحالفين مع طبقة من الخبراء التكنولوجيين المحايدين ايديولوجيا، تزدري المثقفين الانسانيين من النمط القديم ، ومدعومة بالعسكريتاريا . ومن المحتمل ان المانيا الشرقية وربما بولندا وبلغاريا بالاضافة الى الاتحاد السوفياتي سيقتربون من التصنيف السالف الذكر الخاص «بالفاشية الاجتماعية» ✱ .

ومع ذلك ليس من المحتمل ان تكون هذه الانظمة مستقرة . فالنخبة الحاكمة تعاني من شكوكية متزايدة وتميل لان تتفتت بشكل متزايد وبذا تسيطر الزمر والنحل والامزجة الشخصية على العمليات السياسية الداخلية ، هذه العمليات التي لا تزال تفتقر الى اجراءات دستورية محددة . ان المجتمعات تصبح اكثر قلقا في ظل القيود السياسية القائمة وتخشى ان تكشف انظمتها عن عدم قدرة على التجديد في المجالات التكنولوجية . وبالاضافة الى ذلك بدأ جيل جديد من الطلاب اكبر من اي جيل سابق بترك الجامعات والسعي من اجل السلطة . ان انتفاضات ١٩٦٨ مرشحة لان تتكرر في السبعينات . فاذا ما ظهرت في مكان تمارس فيه اوروبا الغربية جاذبية اجتماعية في أعين ابناء اوروبا الشرقية المحبطين ، وحيث هناك ضعف سياسي وانقسام في موسكو ، فان الموجة التالية من قلاقل اوروبا الشرقية يمكن ان تكون موجة مفجرة على مستوى اقليمي وليس على مستوى قومي فحسب .

ان المصدر الرئيسي لحالة القلق من المستقبل في يوغوسلافيا هو احتمالات الانشقاق بين القوميات المختلفة خاصة بعد موت تيتو . وقد يؤدي هذا الانشقاق الى انقلاب عسكري يستهدف الحفاظ على الدولة وعندئذ لمن المرجح ان تلجأ القيادة السوفياتية الى بذل جهود ضخمة لتحسين العلاقات مع مثل هذا النظام اليوغسلافي الامبراطوري . فاذا امكن تخطي هذا الخطر – وهو خطر فعلي – بالجمع بين المهارة السياسية والنمو الاقتصادي المستمر ، فان يوغوسلافيا ستستمر في التطور تجاه نمط اكثر تعددية وستقيم علاقات أوثق مع الغرب ، ستتضمن بلا شك شيئا ما من الحالة المشتركة كما في السوق الاوروبية المشتركة . بل انها قد تبدأ في ممارسة انتخابات متعددة الاحزاب ومن المرجح ان تكون أقل عقائدية يوما بعد يوم بالنسبة الى القضية الكلاسيكية الخاصة بعلاقة

✱ من المهم والمناسب ان نلاحظ ان الفاشية في اوروبا الوسطى كانت تطورا حضاريا في الاساس . فمثلا في ١٩٣٧ كان ٥٠ بالمئة من اعضاء حزب الصليب والسهم المجري عمالا صناعيين و١٢ بالمئة مهنيين واصحاب حرف و٨ بالمئة فقط كانوا فلاحين . وفي الوقت نفسه كان اكثر من نصف السكان بقليل فلاحين (استيفان ديك «المجر» **في اليمين الاوروبي** . يوجين ويبر وهانز روغر، بركلي ١٩٦٥ ، ص‌ص ٣٩٦ – ٣٩٧) .

الدولة بالملكية الخاصة ✱ . لقد ناقش المنظرون اليوغوسلاف علنا مسألة ضرورة نظام تعدد الاحزاب لتجنب الاضمحلال السياسي اللازم لاحتكار الحزب الشيوعي للسلطة ولقد حذروا من انه «لا شيء يصل في لامعقوليته مثل النظام العقلاني المحكم الذي لا يسمح للافكار الاخرى وللآراء المعارضة بأن تعيش والذي لا يسمح بأي قلاقل فكرية» (٤٢) .

ان النموذج الذي ستقدمه يوغوسلافيا بهذا الشكل سيكون جذابا لدول شرقي اوروبا الاكثر تطورا مثل تشيكوسلوفاكيا والمجر وفي النهاية للعضو الاكثر تفتحا في الكتلة الشرقية في الوقت الحاضر ، رومانيا . ومن الارجح ان تستمر تشيكوسلوفاكيا والمجر في هدوء في طريق اشاعة الديمقراطية في الداخل ، وفي النهاية التوجه نحو الاستقلال . ومن المرجح ان تصلب رومانيا استقلالها بزيادة مدى المشاركة الشعبية في الحياة السياسية والاجتماعية للبلاد . والبلاد الثلاثة تزداد اعجابا بالتوجه الى احلال الاقتصاد المختلط محل النموذج السوفياتي الشديد المركزية . وبالاضافة الى ذلك نبه علماء الاجتماع التشيكوسلوفاك مؤخرا الى تحول مجتمعهم الى مجتمع يلعب فيه المثقفون «أسرع المجموعات نموا في المجتمع» دورا حاسما . ومن وجهة نظرهم يدفع هذا بالضرورة الى اعادة تعريف مفهوم «ديكتاتورية البروليتاريا» (٤٣) .

كما دعا علماء الاجتماع المجريون ايضا في مناقشاتهم عن الآثار المترتبة على اشاعة اللامركزية في نموذج الاقتصاد المجري وعن الزيادة المشابهة في عدد المثقفين المجريين ، الى اعادة تعريف الاشتراكية في اتجاه «اصلاحات اجتماعية شاملة تشمل قطاعات عريضة من الحياة الاجتماعية (وكذلك السياسية والثقافية) » (٤٤) .

✱ هناك الان بالفعل شعور قوي في الاجزاء الاكثر تطورا من يوغسلافيا لصالح توسيع القطاع الخاص في الاقتصاد . اما المجموعة التي تحمل اقوى مشاعر العداء للملكية الخاصة فهي مجموعة العمال ذوي الياقات البيضاء وأقل درجة من التعليم (انظر استطلاع الراي العام المنشور في مجلة فجسنك زغرب ٢٤ ديسمبر – كانون اول ١٩٦٨) .

٤٢ – د. زوسينجيك ، Knjizevne Novine ، ٢–٣–١٩٦٨ . وللحصول على موجز مفيد للآراء اليوغوسلافية حول نظام تعدد الاحزاب انظر ايضا ابحاث RFE ٦–١٠–١٩٦٧ و٢١–٥–١٩٦٨ وكلاهما يلخص تطور الفكر اليوغوسلافي في هذا الموضوع .

٤٣ – للحصول على بيانات عن نمو المثقفين التشيكوسلوفاك وللحصول على نقاش حول اثر هذا النمو انظر ز. فلنتينا ، «الطبقة العاملة والمثقفين» **مجلة نوفا ميسل** Nova Mysl فبراير – شباط ١٩٦٨ .

٤٤ – انظر النقاش العميق ل أ. هيغيدوس ، «بدائل التنمية الاجتماعية» و«الواقع والضرورة» مجلة **كورتارز** Kortars يونيو – حزيران ويوليو – تموز ١٩٦٧ . وللحصول على رد فعل محافظ على الراي السابق انظر ب. فاركوني «تطور المجتمع الاشتراكي ومشاكله» **كورتارز** ، نوفمبر – تشرين ثاني ١٩٦٨ . حتى هذا الراي المحافظ قد اقر برغبته في هذا النقاش والذي مضى الى ابعد من كل ما نشر مؤخرا سواء في الاتحاد السوفياتي او في الدول الشيوعية الاكثر محافظة .

جدول – ١٠ –

الاختراعات المسجلة / ١٠٠ الف من السكان

البلد	عدد الاختراعات
بلجيكا	١٦٤
النمسا	١٤٧
الدانمارك	١٣١
النرويج	١٢١
تشيكوسلوفاكيا	٥٢
المجر	٢٠
بولندا	١٠
رومانيا	٧

المصدر : بركس ، التجديد التكنولوجي والتغيير السياسي في اوروبا الشرقية الشيوعية ، ص ١٢٠ .

وبالاضافة الى ذلك تخشى دول اوروبا الشرقية ان يكون التخلف العلمي هو الثمن الذي عليها ان تدفعه للبقاء مرتبطة ارتباطا وثيقا بالكتلة الشرقية ولكونها مقطوعة الصلات الواسعة بالغرب . (هذه المخاوف ليست بلا اساس ، انظر جدول ١٠) حتى المانيا الشرقية تشاطرهم هذا الخوف وهي التي يدفع بها تطورها التكنولوجي بشكل متزايد في اتجاه اسواق الغرب ، بحيث ان النجاحات التكنولوجية التي يحققها النظام هي في حالة توتر مع توجهاته السياسية .

اما في الغرب فان الشيوعية العقيمة ايديولوجيا والبيروقراطية من النمط الستاليني ستستمر على الارجح في ان تفقد علاقتها بالحياة الاجتماعية والسياسية . لقد انتقل النموذج الثوري فعلا الى ايدي مجموعات التنشيط ذات الايديولوجيات الاكثر تطايرا وكنتيجة لذلك ستسعى الاحزاب الشيوعية القائمة على الارجح الى تحقيق ملاءمتها السياسية بالتقليل من ارثوذكسيتها والتأكيد على تقبلها للسبل الدستورية * . وستستمر مشكلتهم الاساسية وهي انه ليس لديهم

* او حتى المشاركة في مؤسساتهم القومية . ويتضمن مقال م.ا. ماكيوتشي ، رسالة من داخل الحزب الشيوعي الايطالي للويس التوسير ، ميلانو ، ١٩٦٩ عرضا حيا للجهود التي تبذلها مناضلة شيوعية من اجل اثارة حماسة موظفي حزبها للوفاء بالوعود المبذولة لجماهير نابولي ولحفزهم على اتخاذ موقف اكثر ثورية . ان الكاتبة تصف في يومياتها جهودها لكسب ثقة العمال ، ولجعل البيروقراطيين في الحزب يشعرون اكثر بظروف العمال السحيقة ، ولكن هذه الجهود كانت عقيمة .

نموذج جذاب لسلطة شيوعية حديثة ومركبة وتعددية لتقديمها نموذجا لناخبيهم. وبالاضافة الى ذلك تنخفض اهمية رسالتهم المبرمجة اكثر فاكثر بحقيقة ان الغرب قد سبق الدول الشيوعية في ممارسة الثورة الاجتماعية والتكنولوجية .

وهكذا اضطر الحزبان الشيوعيان الفرنسي والايطالي الى التخفيف من ارثوذكسيتهما في سبيل استغلال التوترات المتعلقة بالتحول من المجتمع الصناعي الى المجتمع التكنتروني ولتوفير الاساس لعمل سياسي فعال . ولقد اكد بعض منظريهم بالفعل على الحاجة الى اعادة تعريف الحزب الشيوعي كحزب جديد كلية يضم كل اليسار وليس حزبا ايديولوجيا بالمعنى الصارم للكلمة ، وليس حزبا لينينيا بهيكلة البيروقراطي ابدا . وبقدر ما يواجه قادة الحزب المحافظون هؤلاء الاصلاحيين بقدر ما تظل هذه الاحزاب الشيوعية في الغرب حلقية ومعزولة سياسيا ، وبقدر ما نجح الاصلاحيون في الحصول على دعم تحركت هذه الاحزاب الشيوعية الغربية تجاه التخفيف من تقاليدها الايديولوجية الخاصة بالقرن التاسع عشر ذات الرؤى الكبرى الجامدة فكريا المتكاملة المتفردة * هذه الرؤى لم تعد تحيط لا بالثورة العلمية الجديدة ولا بثورات الطلاب والمثقفين الذين حلوا محل الشيوعيين كمعادين لما هو قائم في عصرنا . ومهما كان رد الفعل ، فان الحقيقة تبقى انه في الغرب لم تعد الاحزاب الشيوعية لا مجددة ولا ثورية .

الصين والثورة العالمية :

بالرغم من ان الشيوعية جاءت متاخرة جدا الى الغرب جاءت مبكرة جدا للشرق ، وبشكل عام للعالم الثالث ككل . وبدلا من ان تكون القوة الاممية الانسانية التي تخيل ماركس ان الاشتراكية ستكونها ، نجد الشيوعية في الشرق هي في احسن الاحوال طموح لعملية تحديث قومية مكثفة او لمقاومة ثورية ضد الاستغلال

---

* كان الوضع الاول صحيحا بالنسبة الى الحزب الشيوعي الفرنسي ، وكان جورج ليشتيم على صواب كامل عندما اقر بأنه «اذا كان من الممكن تلخيص دور العقيدة الماركسية في فرنسا المعاصرة في صيغة واحدة ، يمكن ايجازها بالقول انه من منظور المستقبل الثوري قد تحولت الى تأمل نقدي للحاضر الخالد الذي يبدو غير قابل للتغير» (جورج ليشتيم ، الماركسية في فرنسا المعاصرة ، دراسة من معهد ابحاث الشؤون الشيوعية ، نيويورك ، ١٩٦٦ ، ص١٦٩) . والوضع الثاني ينطبق اكثر على الحزب الايطالي حيث المفهوم الاوضح للحزب الواسع الجديد قد تطور على يد واحد من منظريه ، وهو ج. امندولا في سلسلة من المقالات نشرت في نهاية ١٩٦٤ في الجريدة النظرية للحزب الشيوعي الايطالي ، **ريناسيتا** . ولقد دعا في هذه المقالات الى خلق حزب من اليسار لا يكون حزبا شيوعيا ولا حزبا اشتراكيا ديمقراطيا . لا تقيده الايديولوجية ولا يسيطر عليه كادر الحزب .

الاجتماعي . وفي اسوأ الاحوال هي الاساس للتعصب المترسخ والقمع الجماعي . وكما في الغرب تبرز محاسن الشيوعية غالبا عندما تكون خارج السلطة وعندما تشكل حافزا في النضال ضد عدم المساواة ، والظلم الاجتماعي ، والسيطرة الاجنبية . اما في السلطة فان الشيوعية اتجهت لان تصبح غاية في القمع والتعصب والقومية المركزة .

لقد اصبحت الشيوعية في الشرق ، اكثر مما هي عليه في الغرب قوة هامة متميزة في تحريك القومية الشعبية . وهو امر مفهوم تماما . فلقد حلت الشيوعية في العالم الثالث ولم تكن جماهيره قد استيقظت سياسيا بعد ، ونجحت فقط حيث اصبحت هي التعبير الخارجي والمضمون الداخلي للشعور الجديد بالشخصية القومية . واذ ركزت الشيوعية على عملية التصنيع باعتبارها الطريق لتحقيق طموحات الشعب على المستويين المحلي والخارجي فانها رسخت الشعور بالنقص تجاه الغرب الاكثر تقدما . ولا شك انه لهذا السبب اصبحت الشيوعية في العالم الثالث معرضة بوجه خاص الى ان تصاب بالعرقية العنصرية التي لم تفلت من اصابتها القومية الجديدة ، وذلك انطلاقا من المرارة المشروعة حيال امبريالية الرجل الابيض (٤٥) . والعنصرية مع ذلك هي احد اكثر الدوافع بدائية لاعقلانية، والايديولوجية الشيوعية المدعومة بالعنصرية سواء كانت في آسيا او في افريقيا لا يمكن الا ان تفقد عالميتها وعقلانيتها .

لقد واجهت الشيوعية ايديولوجيا ومؤسسيا على النطاق العالمي تحديا مختلفا كل الاختلاف بانتصار الشيوعية الصينية . فالشيوعية الصينية لم تكتف بتكرار مزاعم الشيوعية السوفياتية في كونها **الشيوعية** النقية في عصرنا ، ولكنها ايضا عازمة على دعم هذا الزعم بنشاط ثوري محلي. لقد صممت «الثورة الثقافية» في اواخر الستينات والتي تبعت القفزة الكبرى الى الامام في اواخر الخمسينات بعدة سنوات ، صممت لكي تتغلب على الاتجاه الخطر في الحزب الحاكم نحو الركود البيروقراطي والتفسخ الايديولوجي . ولقد اعلن الصينيون صراحة انه من وجهة نظرهم فان الحزب السوفياتي قد وقع ضحية مثل هذا التفسخ بالفعل . ان الثورة الثقافية (وهي المعادل الفكري للهزة الاجتماعية ـ الاقتصادية التي احدثتها القفزة الكبرى الى الامام) قد صممت لتكون التعبير المحلي الداخلي عن الثورة الحية المستمرة . ومع ذلك فقد كان اثرها الكلي هو ان احدثت في الحزب الشيوعي الصيني نفس الاثر الذي كادت اصلاحات خروتشوف التي لم تكتمل في ١٩٦٣ أن تحدثه في الحزب السوفياتي ، اي ان تفككه تماما هو والاقتصاد

---

٤٥ ـ انظر في هذا المجال الجدل الذي دار بين السوفيات والصينيين حول موضوع الدور الثوري للزنوج الامريكيين : و.١٠. ويمنفتون ، «الدور الثوري للامريكي الافريقي : تحليل للجدل الصيني ـ السوفياتي حول الاهمية التاريخية للزنجي الامريكي» مركز الدراسات الدولية MIT اكتوبر ـ تشرين اول ١٩٦٨ .

الصيني ايضا (٤٦) .

وكان حتما ان تفصل الشيوعية الصينية نفسها عن التيار الشيوعي التقليدي الرئيسي بعد إضعاف الحزب وما تلاه من تعزيز حكم ماوتسي تونغ الشخصي ودوره ، وذلك بالرغم من النظرية الصينية القائلة بأن المركز الجغرافي للقيادة الثورية قد انتقل عبر سنين من فرنسا الى المانيا الى روسيا والآن الى الصين. وبالاضافة الى ذلك واجه ماو على عكس ستالين الذي كان دوره في الحركة الشيوعية الدولية مدعوما بموقف شخصي عالٍ وبكونه زعيما للحزب الشيوعي الوحيد في السلطة ، عددا من الاحزاب الحاكمة الاخرى كلها تعارض مزاعمه بأنه ارثوذكسي وكلها تواق الى اظهار اخطائه العقائدية . وكانت نتيجة ذلك هو إضعاف مزاعم الصين الاممية لعالمية الايديولوجية ، وان خبا بريق المكانة الثورية للشيوعية الصينية وانجازاتها المؤثرة التي لا يمكن انكارها في الصراع من اجل التغلب على تخلف الصين (٤٧) .

ولقد تعقدت اكثر فأكثر امكانية ان تصبح الصين نموذجا للشيوعية وذلك بسبب الطابع الفريد للصين نفسها . لقد وصل الشيوعيون الصينيون الى السلطة لا في بلد واحد بل في مجتمع ضخم يمثل حضارة فريدة وشاملة ، هذه الحضارة لم تكن فقط شديدة التميز وانما كان لها ايضا ولوقت طويل مفهومها الخاص عن نظام عالمي تحتل فيه الصين تقليديا موقع القلب . وبالرغم من ان التصنيفات التاريخية والعالمية للفكر الماركسي قد تم تمثلها في الاطار الصيني واصبحت امتدادا له ادت التمايزات الثقافية واللغوية والعرقية للصينيين اوتوماتيكيا الى ان تصبح شيوعيتهم اصعب من ان تصدر او تضاهى .

وبالاضافة الى ذلك وعلى عكس الروس الذين كانوا غالبا ما يشيرون الى موسكو باعتبارها «روما ثالثة» ، فان الصينيين لم يظهروا اي حماسة كبيرة للتبشير . ان الفعالية في التبشير تحتاج للالتزام الشخصي والاستعداد الثقافي والفلسفي بل والاتني ناهيك عن تقاليد التجنيد . ولم يكن مصادفة ان المسيحية ذات الاساس الاوروبي كانت أقل نجاحا بكثير في الانتشار في آسيا من الاسلام النابع من الشرق الاوسط وذلك بالرغم من حماستها التبشيرية . وربما استطاعت الجاذبية العرقية ـ القائمة صراحة على اللون والمبررة ايديولوجيا بنعت الرجل الابيض بالامبريالية ـ ان تخلق جسرا بين الدعاة الصينيين والجماهير الاجنبية ، ولكن حتى هذه الجاذبية يمكن ان تكون فعالة في مناطق بعيدة بشكل كاف عن الصين

---

٤٦ ـ تنغ تسو ، «الثورة الثقافية والنظام السياسي الصيني» **مجلة الصين الفصلية** The China Quarterly ابريل ـ نيسان / يونيو ـ حزيران ١٩٦٩ .

٤٧ ـ الكسندر اكشتاين ، **النمو الاقتصادي والتجارة الخارجية في الصين الشيوعية** Communist China's Economic Growth and Foreign Trade ، نيويورك ١٩٦٦ .

بحيث لا تخاف من القومية الصينية ومن هيمنة الثقافة الصينية . لذا فان افريقيا لا آسيا هي التي يمكن ان تكون هدفا صينيا واعدا على المدى الطويل .

توحي هذه الاعتبارات ببعض الادلة على الحدود المحتملة لدور الصين الثوري في العالم . فلا التطرف الصيني اللفظي ولا حتى برنامج الصين الكاسح لاقامة ترسانة نووية (وهي المسألة القديمة عن النيات والقدرات) مهمين كحقيقة ان الصين قد اصبحت دولة ـ أمة ذات حضارة ـ منطوية على ذاتها ، الى درجة ما. من المحتمل ان تنمو القوة الصينية في الاعوام القادمة ، وتنمو معها قدرتها على تهديد جيرانها حتى تهديد الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة في النهاية (٤٨) . ولكن لا يعني ذلك ان الصين ستصبح عندئذ موجها منشطا لعمليات ثورية نضالية ذات طابع عالمي . على العكس من ذلك كلما غابت ذكريات الانجازات الثورية الصينية في الماضي تجد الصين انه من الصعب اكثر فاكثر ان تصور نفسها نموذجا ثوريا تاريخيا ملائما . وسيقبل المساعدة الصينية اولئك الثوريون المحتاجون ولكن من المرجح ان يكون من الصعب على الصينيين اقناع القابلين بمثل هذه المساعدة بأن للصين دورا عالميا .

كذلك ليس من المؤكد كما يقال احيانا انه في الاعوام القادمة ستقدم الشيوعية الى العالم الثالث نموذجا جذابا يجمع بين النمو الاقتصادي المستمر والتحديث الاجتماعي والاستقرار السياسي . حتى لو حققت الصين قفزات مثيرة في نمو الناتج القومي العام بمعدل ثابت هو ٥ بالمئة في السنة ، فستظل في عام ٢٠٠٠ بين الامم الافقر في العالم . وتظل الحقيقة ان عدد سكانها الى جانب كونه عامل قوة ، يضاعف من مدى مشاكلها الاجتماعية ـ الاقتصادية . ان ملاءمة التجربة الاقتصادية السوفياتية هي كذلك امر مشكوك فيه . وتحليل التجربة السوفياتية يشير بقوة الى ان التصنيع لا يحتاج الى ان يقوم على زخم تثيره وسائل قمعية غير عادية او الى تدمير لطبقة اجتماعية . وبالاضافة الى ذلك من المهم ملاحظة ان التصنيع السوفياتي قد تحقق في مجتمع له حوالي ثلاثين عاما من النمو الصناعي من قبل ، وهو نمو تدعمه مصادر طبيعية بكر وشعب منضبط ومجدّ في العمل (ولكن بدون زيادة سكان) ، وانه حتى قبل الحرب العالمية الاولى كان لهذا النمو الصناعي مزايا من توفر الاحصاءات المتماسكة والخبرات التقنية المدربة جيدا بشكل نسبي والخطط الاولية للتنمية في المستقبل . (انظر نقاشنا السابق حول التناقض الستاليني) هذه الشروط نادرا ما يمكن لبلاد العالم الثالث الآن ان تحققها في محاولتها تحديث وتصنيع نفسها . كما انه ليس من المؤكد ان تتمكن الصين

---

٤٨ ـ ا.ا. كلوب ، **صين القرن العشرين** ، Twentieth Century China ، نيويورك ١٩٦٤ ، ص‌ص ٤١٣ـ٤٢٤ . انظر ايضا بنغ ـ تي‌هو و تنغ تسو وآخرين، **ازمة الصين** China in Crisis شيكاغو ، ١٩٦٧ . وانظر ايضا لمناقشة اكثر عمومية ، ج.ك. فيربانك ، **النظام العالمي الصيني** The Chinese world Order كمبردج ، مارس ، ١٩٦٨ .

او كوبا من تقديم نماذج لنمو ثابت واستقرار سياسي ، علما بأن كوبا على اي حال كانت قد حققت نموا جيدا نسبيا عند استيلاء كاسترو عليها .

ومن بين البلدان التي وصلت فيها الشيوعية الى السلطة دون ان تكون مفروضة بتدخل خارجي (الاتحاد السوفياتي والصين وكوبا ويوغوسلافيا وفيتنام) نجحت يوغوسلافيا فقط في تحقيق نمو اقتصادي ثابت وتحديث اجتماعي واستقرار سياسي دون استخدام الارهاب الجماعي او ممارسة النزاعات العنيفة حول السلطة . ومع ذلك حتى يوغوسلافيا قد احتاجت الى معونات مالية خارجية ضخمة . بالاضافة الى ذلك وبرغم ان سجل النمو الاقتصادي في البلدان الشيوعية وبالذات في البلدان الاكثر بدائية من بينها ، هو سجل جيد ، لم تكن افضل من بعض البلدان غير الشيوعية . ومعظم الانظمة الشيوعية كذلك (باستثناء يوغوسلافيا وفيتنام وكوبا) اتسمت بحالات متفرقة من عدم الاستقرار السياسي وكان من الضروري في بعض الحالات ان يوضع لها حد بالتدخل السوفياتي . وهكذا يكون السجل العام هو في احسن الاحوال سجل مختلط ولا يكاد يكفي لتبرير القول بأن الشيوعيين وحدهم قد وجدوا مفتاح التحديث الفعال * .

كما انهم ، وهذا امر هام ، لم يجدوا الجواب على مسألة صنع الثورة بشكل فعال .لقد وصلت الشيوعية الى السلطة بطريقة طبيعية في بلد واحد فقط لم يكن قد دمر بحرب كبرى ، وهو كوبا . اما في بلاد اخرى عديدة فقد وصلت الشيوعية الى السلطة داخليا عندما التقط الشيوعيون القطع المتناثرة لهذه الامم بعد ان كانت قد مرت بحالة تدمير كامل الآلية الدولة ولاقتصادها خلال حرب كبرى . والى جانب ذلك كان السجل الثوري الشيوعي منذ ١٩١٧ سجلا للفشل المتكرر ** بينما في بولندا والمجر ورومانيا كان الجيش السوفياتي هو الذي اقام الشيوعية .

ومع ذلك من المحتمل تماما ان تصل في السنوات القادمة الى السلطة في

---

* في هذا المجال يمكن عقد مقارنات مفيدة بين البلدان التي يحكمها الشيوعيون والبلدان التي تحكمها نخبة غير شيوعية تسعى الى التحديث : بولندا ، اسبانيا ، ايطاليا ، او رومانيا ، يوغسلافيا ، اسبانيا ، او تشيكوسلوفاكيا ، السويد ، او المجر ، النمسا ، او كوريا الشمالية ، كوريا الجنوبية ، او فيتنام الشمالية ، فيتنام الجنوبية ، او الصين ، الهند وهكذا . تكشف هذه المقارنات عن سمات واحدة معينة اكثر مما تكشف عن خلافات ذات دلالة . ان الخلافات تكون اكثر حدة عندما تتم المقارنة بالبلدان غير الشيوعية وغير الساعية الى التحديث .

** تضم قائمة جزئية للجهود الثورية البارزة التي قام بها الشيوعيون : المجر ١٩١٩ ، بولندا ١٩٢٠ ، المانيا ١٩١٨ و١٩٢٣ ، الصين ١٩٢٧ ، فرنسا وايطاليا ١٩٤٧ ، اليونان ١٩٤٨ ، اندونيسيا ١٩٤٩ و١٩٦٥ ، بوليفيا ١٩٦٦ .

بعض بلدان آسية وافريقية واميركا اللاتينية احزاب شيوعية فردية مفرطة في القومية وربما عنصرية ، وذلك بجاذبيتها لمشاعر القومية الشعبية بين الجماهير ولرغبة المثقفين غير الصبورين لتركيز السلطة في دولة . لقد بيّن جون كوتسكي في دراسته «**الشيوعية وسياسات التنمية**» ان «قوة الحزب الشيوعي تكون في ادنى درجة عند ادنى مرحلة من النمو الاقتصادي وترتفع تدريجيا مع النمو الاقتصادي وتصل الى قمتها عند مستوى اعلى من هذا النمو ثم تتدهور بشكل حاد في المستوى» (٤٩) . لا يجب تطبيق هذا التعميم ميكانيكيا على العالم الثالث والوصول الى خلاصة تقول بأن الشيوعية ستذوي بمجرد ان تحقق التنمية تقدما ملحوظا . فمن الممكن ان يتم الاستيلاء على السلطة في مرحلة وسيطة مثلا .

ومع ذلك ليس من المرجح ان تقوم بالاستيلاء على السلطة في مثل هذه الحالات الاحزاب الشيوعية الرسمية الارثوذكسية التي اصبحت بالفعل في بعض البلاد متمثلة داخل المؤسسة الاجتماعية ، وبوجه خاص في اميركا اللاتينية . ان الثوار الذين سينجحون سيكونون بالرغم من تصنيف انفسهم شيوعيين ، سيكونون على الاغلب عبارة عن تحالفات ضعيفة التنظيم من مثقفي الطبقة الوسطى العجولين والضباط الشباب والطلاب . وهؤلاء بدلا من ان يكونوا من المؤمنين بالايديولوجية العالمية العقائدية المعروفة ، سيكونون على الاغلب رجالا تحركهم مشاعر غامضة غير متماسكة من الراديكالية والقومية حتى بعض العنصرية . ان الاحزاب الشيوعية برغم خبرتها في تنظيم المستغلين والعمال المحرومين وتحويل الفلاحين الذين لا ارض لهم المتحمسين قوميا الى جيوش ثورية ، غير قادرة حتى الان على ضبط الطلاب والمثقفين الذين تتخمر مشاعرهم في الجامعات الحديثة ذات البناء الحديث ، ضبطا تنظيميا او ايديولوجيا . ان فانون وبومدين او بوليفار وغيفارا بالنسبة الى هؤلاء هم الرموز الاقرب لهم من ماركس وماو او ماركس ولينين. لذلك لن تشكل الثورات التي ستأتي اي اضافة اوتوماتيكية الى «الشيوعية الدولية» ولن تمثل خطوة الى الامام نحو وحدة الانسانية فكريا .

ستكون السمة العامة لهذه القوى الثورية الجديدة المتطايرة ايديولوجيا والاقل انتظاما هي الاستمرار بالاتجاهات العريضة التي لاحظناها . ان الظروف في عصر الصناعة الاول دعت الى التكامل الفكري والتنظيمي ، ولكن الاحتقان الدينامي للمدينة العالمية لا يتوافق مع التنظيمات المنظمة المركزية العالمية التي تهدف الى تقويض نظام معين للفكر او للقيم وخلق نمط عالمي من النظام الاجتماعي على هذا الاساس . فالحقيقة ان التقارب يفرض بشكل متناقض التعددية لا النمطية .

ان الفرص المتاحة ، بالاضافة الى ذلك ، امام هبات ثورية حقيقية اي هبات راديكالية قادرة على تثوير القيم والمؤسسات الاجتماعية بسرعة ، ليست عالية

---

٤٩ – جون هـ. كوتسكي ، ص ١٨٧ .

بأي حال : ففي الازمنة الحديثة لا يوجد الا الثورات الفرنسية والمكسيكية والكوبية التي يمكن اعتبارها ثورات محلية حقيقية ، ثورات ذات اهداف داخلية تحققت بدون الاستفادة من التخلخلات التي احدثتها الحربان العالميتان . اما ما عدا ذلك فقد اظهرت اكثر الانظمة الاجتماعية والسياسية عجزا ، اظهرت تماسكها الكبير وصعوبة الاطاحة بها . وفي معظم الحالات وجدأن الخمول الاجتماعي الداخلي يمكن مواجهته فقط خطوة خطوة ، وان كل الجهود الراديكالية التي استهدفت التغلب عليها قد ادت الى ظهور مقاومة فعالة .

وذات مرة لعب المنظرون السوفيات بمفهوم الوطنية الديمقراطية كمرحلة انتقالية نحو ديمقراطية الشعب الشيوعية . ولكن الاطاحة ببن بيللا وغولار وقاسم وكيتا ونكروما وبابا بندريو وسوكارنو ارغم السوفيات على التفكير في عمليات ثورية اكثر تدرجا وأطول مدى . وفي الوقت نفسه تحرك الصينيون والكوبيون في اتجاه التأكيد على الاشكال المتنوعة لحرب الغوار في مواجهة الانتقاد العلني الذي ابدته الاحزاب الشيوعية المحلية وفي معظم الاحيان * . وفي كلتا الحالتين اقرار ضمني بازدياد عدم ملاءمة النظرية الثورية الكلاسيكية للواقع ، ونزول عن الخصوصية الاجتماعية التي اذا ما ربطت بالجمود العقائدي تعني الحلقية .

والحلقية هي نفي العالمية . وقد تصبح الشيوعية آخر العقائد الجامدة الكبرى التي تدعو الى الاندماج . وبقدر ما تتوجه بعض الاحزاب الشيوعية اليوم للالتحاق بمؤسساتها القومية بقدر ما تعيد تشكيل نفسها حسب الواقع بدلا من ان تشكل هذا الواقع . وبقدر ما تحتضن بعض الاحزاب الشيوعية اليوم العنصرية والقومية المتشددة في العالم الثالث بقدر ما تستسلم للواقع بدلا من ان تعيد تشكيله . وفي اي الحالتين تفقد الهوية الخاصة بها ، وهذه ان فقدت لا يمكن ان تستعاد. وهكذا حتى أن لم يكن المرء ماركسيا فليس مما يدعو للسرور ان يلاحظ ان الشيوعية — التي ساعدت في تنمية وعي البشرية الجماعي وفي تعبئة الجماهير من اجل التقدم الاجتماعي — قد فشلت في تحقيق هدفها الاصلي الا وهو ربط الانسانية بالاممية .

---

* القضايا المطروحة ، طرحها بحدة الامين العام للحزب الشيوعي الفنزويلي جيسس فاريا الذي ذكر في مقابلة له نشرت في جريدة الحزب الشيوعي المجري **بنزابدساج** (١٧ فبراير — شباط ١٩٦٨) «ان التجربة قد اظهرت ان الجماهير تبتعد عن النضال المسلح السابق ... ان اربعة ملايين من الناس يشاركون في الحملة الانتخابية ونحن نعتقد انه من الممكن تثقيف الشعب بطريقة افضل اذا ما شاركنا ايضا في هذه الحملة .. ان المجموعات اليسارية المتطرفة في فنزويلا التي لا تقدر الاستعداد النضالي للجماهير وتصر على شعار النضال المسلح بأي ثمن ترتكب خطأ تلو الآخر وتجد نفسها منعزلة اكثر فاكثر» .

الجزء الرابع

التحول الامريكي

هناك ما يتعلق ويربك بشأن مجتمع يمكنه في نفس الوقت ان يغير علاقة الانسان بالكون بأن يضع انسانا فوق القمر ، وأن يشن حربا خارجية يعارضها قسم كبير من شعبه ويمولها بـ ٣٠ بليون دولار في السنة ، وان يحافظ على اقوى قوة عسكرية تتحرك على اوسع مدى في التاريخ ، وان يواجه في الشوارع وفي الساحات ثورة في علاقاته العرقية الداخلية ، وان يقوم بكل ذلك في اطار انفجار التعليم العالي الذي يتوسع بسرعة ، وجامعاته التي تموج بالاضطرابات ، وفي مراكزه الحضرية المتعفنة ومؤسساته السياسية المهتزة وجبهاته الصناعية النامية باندفاع تحول الطريقة التي يعيش بها مواطنوه ويتصلون بها فيما بينهم . ان اي وجه من الاوجه السابقة كاف لتحويل قيم المجتمع وصورته الذاتية وقليل منها يكفي للاطاحة بنظامه . وكلها معا تخلق وضعا ينفي اي تشابه مع المجتمعات الاخرى ويلقي ضوءا كاشفا على الطابع الفريد للتجربة الاميركية المعاصرة .

ان اميركا المعاصرة هي المختبر الاجتماعي العالمي . فالمشاكل التي بدأ العالم الاكثر تقدما في مواجهتها ـ والتي يتفرج عليها العالم الثالث ـ تستغرق اميركا مباشرة وبشكل مؤلم في معظم الاحوال . ففي الولايات المتحدة تعبر المشاكل الحيوية في عصرنا عن نفسها باكمل شكل . وفي الولايات المتحدة تختبر اليوم بشكل حاد قدرة الانسان على السيطرة على محيطه وفي صياغة نفسه بشكل معقول في العلاقة مع هذا المحيط . هل يمكن للانسان ان يسيطر على العلم ليوجهه من اجل غايات انسانية جوهرية ؟ هل يمكن ان تتعايش الحرية والمساواة،

وأن يتم ذلك في وسط متعدد العروق ؟ هل يمكن ان يزدهر التقدم والانجاز بدون امتيازات خاصة ؟ هل يمكن ان تصبح التكنولوجيا خلاقة اجتماعيا دون ان يؤدي ذلك الى اشراف اجتماعي زائد عن الحد ؟ هل يمكن لمجتمع ذي عقائد متنوعة ان يتجنب عدم الايمان الكامل ؟ هذه القضايا كلها تسيطر على الحياة الاميركية المعاصرة — التي هي مركز انتباه العالم — كما تؤدي الى ظهور تقييمات متعارضة ونقدية في معظم الاحوال لمعنى التجربة الاميركية (١) .

وعلى عكس الحال في الاتحاد السوفياتي يظهر تحدي التغيير في اميركا واضحا جدا . ان مجتمع الاتحاد السوفياتي يشبه بركانا يغلي في باطن الارض يصطدم بالقشرة السطحية الجامدة للنظام السياسي . اما في الولايات المتحدة فان القوى السياسية والاجتماعية والاقتصادية الاكثر تطايرا تصطدم وتتغير وتتفاعل على جبهة عريضة علنا . والدوامة الناتجة عن ذلك خلاقة ومدمرة في آن واحد ، وتؤدي الى تغييرات متنوعة الاشكال في ذلك الخليط الفريد من النظام والفوضى المعروف باسم الولايات المتحدة .

ان عدد سكان الولايات المتحدة سيقترب في العشرين سنة المقبلة من ٣٠٠ مليون نسمة منهم حوالي ٨٠ بالمئة من سكان المدن وتقريبا ٥٠ بالمئة تحت سن العشرين . وسيكون في امكان المجتمع الاميركي المشبع بالعلم ان يسيطر سيطرة اكبر على المحيط الارضي والفضائي اكثر من اي مجتمع آخر . وفي الوقت نفسه سيكون قد مر بنزاعات اجتماعية حادة تسودها الاعتبارات العرقية وايضا الصراعات بين الاجيال التي ستصبح عبئا اساسيا ومؤلما . وفي كل الاحتمالات سيكون ايضا مجتمعا يواجه قلقا ثقافيا حادا وحالة من عدم اليقين بالنسبة الى معاييره العلمانية ويبحث عن قيم اندماجية عامة .

ان اميركا المعاصرة هي في حالة تحول من العصر الصناعي الى العصر الاليكتروني . وباعتبارها المجتمع الاول ما بعد الصناعي في العالم ، لم تعد الولايات المتحدة تشكلها نفس القوى التي حركت التغير الاجتماعي في البلدان المتقدمة منذ واجهت انكلترا الآلة . هذا التحول العريض يسبب ازمة في القيم والمؤسسات القائمة وبالذات بالنسبة الى تقاليد الديمقراطية الليبرالية ، واذ يقترب عيد الميلاد المائتين يستدعي ذلك اعادة صياغة النظام الاميركي .

ان الديمقراطية الليبرالية هي خليط خاص من التقاليد الارستقراطية والشرعية الدستورية والديمقراطية الجماهيرية . وعلى عكس الشيوعية لم تستخلص فكريا من تجربة تاريخية متداخلة ومؤلمة ، ولم تنغمس في حركة

---

١ — انظر على سبيل المثال ، رونالد سيغال ، **مستقبل اميركا المتراجع** America's Receding Future ، نيويورك ، ١٩٦٨ . اوفيوز ريما نيللي ، **ماساة اميركا** , Tragica America جنوا ، ١٩٦٨ .

تستمد حماستها والتزامها من التقاليد المانيوية العميقة الجذور . بل هي نتاج نمو بطيء ـ بالرغم من انه احيانا كان يسرع بسبب الهبـــات الثورية في انكلترا والولايات المتحدة وفرنسا ـ خلق بالتراكم تقاليد واسعة من المسلك الاجتماعي ومجموعة من القيم ذات الوضوح الجزئي واجراءات ومؤسسات شرعية محـددة بدرجة عالية . لقد ركز التقليد الارستقراطي درجة من الاولوية على التفـــوق والانجاز الفرديين بالرغم من انه مع الوقت قد تغيرت معايير التفوق واصبحت اقل تمايزا . اما الشرعية التي لعبت دورا لا شك فيه في الماضي لحماية المصالـــح القائمة فقد اكدت على انتظام وموضوعية العلاقات الاجتماعية وبذا توصلت الـى حماية الفرد . اما العامل الديمقراطي الذي حركته المعاناة العالمية فانه لم يخفف فحسب من العامل الارستقراطي وانما دعم الديمقراطية الليبرالية ايضا باهتمام قوي بالرفاهية الاجتماعية .

هذه المكونات قد اجتمعت بطريقة غير محكمة وفي بعض الاحيان غير سلسة ، ومن وقت لآخر كانت تتنازع وتصطدم . هذه الصدامات في التاريخ الاميركـــي كانت عنيفة بالرغم من انها كانت بشكل عام متفرقة. كانت الحرب الاهلية الاستثناء الوحيد وقد دمرت نتائجها بفعالية وسرعة العامل الارستقراطي في التقاليـــد الاميركية ، بينما كان تراجع الارستقراطية الاوروبية بطيئا . لقد خلقت الثـورة الصناعية توتراتها وعنفها ولكن سرعة النمو وتوافر راس المال الاوروبي والاسواق الخارجية خففت من آلام النمو حتى وهو يكبر ومن ثم قوت العامل الديمقراطي . وادت الثروة الاجتماعية والحريه الديمقراطية الى ان تصبح اميركا رمز الشكـل الجديد للتنظيم الاجتماعي . وهو شكل جذاب لان نجاحاته الخارقة حجبت عن الانظار تشويهاته الاجتماعية .

هذه المرحلة تقترب من نهايتها . لقد نزع القناع عن البريق الاجتماعي الذي جعل اميركا لا تشعر بنقائصها ، ودفعت سرعة وكثافة التغيير لزيادة حدة الادراك المؤلم بحقيقة عدم التوافق في المجتمع الاميركي . ان اميركا ، في ايجاز ، تعيش ثورة جديدة صفتها البارزة المميزة هي انها تضخم الى اقصى حد من قدرات اميركا وفي الوقت نفسه تنزع القناع عن كونها آيلة الى الزوال .

الثورة الاميركية الثالثة

من السهل حصر الثورة الفرنسية او المكسيكية او البولشفية او الصينية او الكوبية . كما انه ليس صعبا تحديد طبيعة الثورة الاميركية الاولى . فمن مستعمرة خلقتها الثورة امة ، واثمرت المعتقدات البسيطة والقوية: **اعلان الاستقلال والدستور** وكلاهما يجمع مبادىء جديدة للنظام السياسي والاجتماعي .

ويصبح التعريف التاريخي اكثر تعقيدا عند تناول الثورة الاميركية الثانية .

وبالتحديد متى حدثت وماذا فعلت ؟ وبالرغم من ان هذه الثورة لا يمكن حصرها بنفس الدقة كالثورة الاولى ، انها لحقيقة ثابتة ان مجتمعا ريفيـــا في الاساس وارستقراطيا بشكل جزئي وفيه حتى ملاك عبيد وله نظام سياسي تمثيلي محدود، قد تحول الى امة حضرية ـ صناعية ✱ وانتشرت المساواة النسبية القانونية ـ السياسية ـ الاجتماعية لتشمل شكلا على الاقل ٩٠ بالمئة من سكانها وحيث القيم العامة يسودها على الاغلب قبول واسع الانتشار بالرفاهية الاجتماعية التي يحققها التدخل الحكومي. وهكذا كانت ثورة حقيقية بالرغم من انها لم تكن مجددة مثل الثورة الاولى . لقد احتاج الامر الى الحرب الاهلية والى تصنيع البلاد والى التدفـــق الضخم للمهاجرين واخيرا الى السياسة الاقتصادية الجديدة (نيوديل) لتحويـــل المجتمع الاميركي . ولكي نطلق على ذلك كلمة ثورة معناه الموافقة على تعريـــف الثورة ، ولكن لا شك في ان المؤسسات والقيم في الولايات المتحدة قد تغيرت بعمق فيما يزيد قليلا على القرن .

اما الثورة الاميركية الثالثة فانها اصعب حتى في مجرد تحديدها وتعريفها لاننا الآن في منتصفها ولهذا لا نستطيع ان نتيقن مما سينتج عنها . ومع ذلك من الاسهل علينا أن نعرفها في احد جوانبها من الثورة الثانية لان اثرها وتأثيرها اكثر تركيزا من الناحية الزمنية . لقد بدأت الثورة الثالثة تجمع عواملها الدافعة بعد الحرب العالمية الثانية مع التحاق الجنود المسرحين بشكل واسع بالكليات ومع ما صاحب ذلك من انفجار في التعليم العالي والقبول المتزايد بالاولوية الاجتماعية للتعليم ، ومع ما رافق ذلك من وحدة القوة القومية والعلم الحديث المتوج ببريق الطاقة النووية وبروز الحكومة الفيدرالية كراع اكبر للبحوث العلمية ، ومع الميلاد المفاجىء للاتصالات القارية السريعة التي تراوحت من اكثر انظمة الطرق العامة في العالم حداثة وتطورا ، الى نظام التليفونات عبر القارات المباشر الفعال الفريد ، مرورا بالنقل الجوي السريع ، واخيرا مع شيوع التلفزيون علـــى نطاق الامة . وكذلك مع التحول في تقنيات الادارة التي هزها ظهور العقول الاليكترونيـــة والمخترعات الاليكترونية الاخرى التي هزمت التعقيد والمسافات حتى اختـــلاط المسؤوليات ، وكذلك بتراجع الصناعة كأهم مصادر العمالة بالنسبة للامريكيين . ان الثورة الثالثة مدفوعة بالتكنولوجيا وبوجه خاص بالاليكترونيات تغير المؤسسات والقيم الاساسية في المجتمع الاميركي ، وكما كانت الحال مع الثورات السابقة تولد ضدها المقاومة وتستثير العنف وتسبب القلق وتحرك الامل .

وهي في هذه العملية تخلق ثلاث اميركات في واحدة . هناك اميركا الجديدة الآخذة في الظهور والتي ترمز اليها التشكيلات المركبة الجديدة من التعليم والبحث

✱ في عام ١٨٠٠ كان تعداد السكان الريفيين في الولايات المتحدة يشكل ٩٤ بالمئة من مجموع السكان ، وفي ١٨٥٠ اصبح حوالي ٨٥ بالمئة ، وفي ١٩٠٠ اصبح ٦٠ بالمئة و١٩٥٠ اصبح ٣٥ بالمئة. ومن المقدر انه في عام ٢٠٠٠ سيبلغ عدد سكان الريف حوالي ٥٠ مليون من مجموع عدد السكان الذي سيبلغ ٣٠٠ مليون او ١٧ بالمئة . في ١٨٦٩ كان ٧٣ بالمئة من كل الاميركيين يعيشون على ١ بالمئة من الارض (مجلة تايم ، ٢٤ يناير ـ كانون ثاني ١٩٦٩ ، ص‌ص ١٨ و٣٠ ـ ٣٣) .

والتنمية والتي تربط مؤسسات التعليم العالي بالمجتمع وتخلق فرصا لم يسبق لها مثيل امام التجديد والتجريب بالاضافة الى الاهتمام المتزايد الذي لا حد له بالفنون الجميلة والثقافة كما هو واضح في المتاحف الجديدة ومراكز الفنون . ان اميركا التكنترونية موجودة في المختبرات الاليكترونية ومراكز التعليم على طول الطريق رقم ١٢٨ المحيط ببوسطن (٢) ، انها موجودة في التجمعات الاكاديمية ـ العلمية حول لوس انجلس وسان فرنسيسكو ، وهي موجودة في الصناعات المتقدمة الجديدة . ان الطبقة الوسطى التي تعيش بالضواحي تنجذب بشكل متزايد نحو اميركا هذه بالرغم من انها غالبا ما ترفض علميتها وتحن بشوق للمجتمعات المتآلفة وللاستقرار .

اما اميركا الصناعية ـ اميركا الثانية ـ فهي موجودة في ورش ومصانع الصلب في ديترويت وبتسبورغ حيث العمال المهرة ذوو الياقات الزرقاء ينسون بالتدريج آلام فترة الكساد العظيم وبدأوا بالتمتع بالامن والرفاهية ولكنهم يخافون ان تتهدد مواقعهم الاجتماعية الجديدة من اسفل . ذلك ان اميركا الثانية هذه تعيش بجوار الاحياء الفقيرة المتآكلة في المدن الصناعية الكبيرة ، التي يزداد عدد ساكنيها من الاقليات العرقية التي يصعب عليها امتصاصهم لان المجتمع قد تأخر في جذبهم نحو العصر الصناعي .

واخيرا هناك الاصل ، اميركا الاولى اميركا ما قبل الصناعة التي يشكلها الحصادون بالمشاركة هم والعمال المهاجرون من دلتا الميسيسبي وعمال المناجم القدامى من ابالشيا ، الذين هبط دخلهم تحت المتوسط الاميركي .

في اميركا هذه نجد ان السبيل الى التعليم اقل بشكل ملحوظ من اي مكان آخر في الامة كما ان التمييز العنصري علني (٣) . وتحاول اميركا هذه ان تدخل العصرين الصناعي وما بعد الصناعي وهي لكي تحقق ذلك لا بد لها من الحصول على مساعدة اميركا الجديدة التي لا تثق بل تشك في الغالب في قيمتها ومفاهيمها ونادرا ما تشاركها هذه القيم .

ان اميركا الجديدة هي الان في مرحلة التشكيل . «واليوم لا يواجه الطفل مجرد تمزق جذري حاد مع الماضي ولكنه ايضا لا بد من تدريبه على مستقبل مجهول . هذه المهمة تواجه المجتمع ككل» (٤) . كما يفرض التحول الحالي قضايا

---

٢ ـ هناك قدر كبير من المعلومات في المقالة التي كتبها هنري ليبرمان على صفحة كاملة من **النيويورك تايمز** ، ٨ـ١ـ١٩٦٨ . بعنوان «التكنولوجيا : ساحر الطريق ١٢٨» .

٣ ـ يمكن العثور على موجز رائع جيد التوثيق في **الجنوب يتقدم : آفاق ومشاكل الطاقة البشرية** ، The Advencing Sovth: Manpower prospects and problems نيويورك، ١٩٦٨ .

٤ ـ دانيال بل ، «قياس المعرفة والتكنولوجيا» في **مؤشرات التغير الاجتماعي** Indicators of Social change ، ايلانور شلدون ووليبرت مور وآخرين ، نيويورك ، ١٩٦٨ ، ص ١٤٩ .

فلسفية عميقة تتعلق بجوهر الوجود الاجتماعي طالما نتج عن توسع لا حدود له لسلطة العلم على بيئة الانسان وعلى الانسان نفسه * ان الدراسات حول التغيير (٥) تقوي شيئا فشيئا صورة مجتمع تحدث فيه ثورة بعيدة المدى تثيرها التكنولوجيا .

سرعة التقدم واندفاعه :

ان الحقائق المنعكسة عن التغيير في اميركا مألوفة ولهذا لا تحتاج الى الاشارة اليها بالتفصيل . فهناك في المقام الاول التوسع الضخم في ذلك القطاع من المجتمع المعني بالعلم والمعرفة ، وهذا يعني نموا كبيرا — اكثر سرعة من القطاعات الاخرى — في عدد العلماء وطلاب الكليات وبالطبع في المعاهد التي تحتضنهم ** .

---

* النقاش الوارد في القسم الاول من الجزء الاول من هذا الكتاب مناسب بشكل خاص لتفهم اميركا المعاصرة لانه يتناول الخلافات الاساسية بين المجتمع الصناعي والمجتمع التكنتروني .

٥ — بالذات بل المذكور آنفا ، والملمحات الاكثر عمومية والاقل توثيقا التي جاءت في التقرير السنوي الرابع لجامعة هارفرد : **برنامج حول التكنولوجيا والمجتمع** Program on Technology and Society; ، وفيكتور وفيركس الرجل التكنولوجي : **الحقيقة والخرافة** . وللحصول على موجز مفيد للغاية للاتجاهات الحالية في امريكا ، انظر **نحو تقرير اجتماعي** Toward a Social Report ، وزارة الصحة والتعليم والشؤون الاجتماعية ، واشنطن ، ١٩٦٩ . وللحصول على قدر مفيد ومثير عن تأثير كل ذلك على بعض الشباب ، انظر مارك غيرزون ، **العالم كله يتخرج** .

** يمكن ايضاح مدى هذا التغيير ببضعة ارقام قليلة . فقد زاد التسجيل في الكليات بنسبة ٤٥ بالمئة في سنوات ١٩٦٤ — ١٩٦٩ . وفي ١٩٦٥ كان اكثر من ٥٠ بالمئة من مجموع البالغين طلاب تعليم عال ، بينما كان نفس الرقم في ١٩٠٠ مجرد ١ بالمئة (لمزيد من البيانات انظر ا.ج. مارو بو ورز، و س.ا. سيشور ، **الادارة بالمشاركة** نيويورك ، ١٩٦٧) . وزاد عدد المدرسين من حوالي ١ر٣ مليون في ١٩٥٤ الى حوالي ١ر٢ مليون بعد عشر سنوات . وزاد عدد المهندسين من نصف مليون الى مليون تقريبا . وتبين دراسة OECD عن العلم الاميركي انه بين ١٩٦٣ و١٩٧٠ سيزيد عدد السكان المشتغلين بالعلوم في الولايات المتحدة من ٧ر٢ مليون الى ٤ ملايين ، مع ازدياد درجات الدكتوراه في العلوم من ٩٦ الف الى ١٥٣ الف وفي الهندسة من ١٠ آلاف الى ١٧ الف ، بينما في بداية الثورة الصناعية الاميركية ١٨٦٩ — ١٨٧٠ كانت الدرجات الممنوحة من معاهد التعليم العالي تبلغ في مجموعها اقل من عشرة آلاف بقليل ، وفي ١٨٨٩ — ١٨٩٠ اصبحت ١٧ الف وفي ١٩٣٩ — ١٩٤٠ اصبحت ٢١٦ الف وبعد عشر سنوات اصبحت ٤٩٧ الف ، وفي ١٩٦٣ — ١٩٦٤ اصبحت ٦١٤ الف . وفي الاعوام العشرين الاخيرة زادت الاستثمارات في مجال البحث والتطوير خمس عشرة مرة ، ومصروفات التعليم ست مرات بينما تضاعف الناتج القومي الكلي ثلاث مرات (انظر دانيال بل، «قياس المعرفة والتكنولوجيا» ص ص ٢٠١ ، ٢٠٦ ، ٢٢٨ . **وعرض السياسة القومية العلمية : الولايات المتحدة** ، OECD ، ص ص ٤٥ ، ٥٤) .

وبالنتيجة برزت الجامعة قلبا خلاقا لمركب ضخم للتعليم والاتصالات ومصدرا لكثير من التجديد المحلي والعالمي الاستراتيجي . وفي مجال المكانة والتأثير الاجتماعيين تحل الجامعة محل المؤسسات المشابهة لها في اميركا الاقدم الا .وهي الكنيسة والاعمال المالية الكبرى .

ان التأكيد على العلم والتعلم يمضي جنبا الى جنب مع اخضاع التقنيات للاستعمال وتقديم اساليب تدريس وادارة ومحاسبة ووسائط اتصال جديدة وكلها تغير الممارسات القائمة وتبدل الاساليب المستخدمة في تخزين واسترجاع المعرفة المتجمعة . ويتم الان بالفعل تطوير شبكة معلومات قومية ستدمج بنوك المعلومات الاليكترونية القائمة مع بعضها «٦» لتجميع معرفة الامة المتراكمة . ان المكتبات التي تزداد ازدحاما بالكتب قد تجد خلاصها في القريب بالتحول الى اسلوب البطاقات الصغيرة جدا جدا (Ultramicrofiche) ، هذا الاسلوب الذي بدأته NASA ناسا حيث امكن تقليص كتاب من الفي صفحة الى مساحة اصغر من صفحة كتاب متوسط وشفافة . ذلك سيجعل من الممكن لاي كلية صغيرة ان تقتني مكتبة صغيرة كأنها لا شيء «٧» . وبالرغم من ان منظري التعليم الاميركيين لا يوافقون على الدرجة التي يمكن لانظمة التعليم ان تستوعب بها التقنيات الجديدة، تكشف حواراتهم عن المدى الذي تسيطر فيه مشكلة التمثل التقني على تفكيرهم لا القضايا الفلسفية «٨» .

ونجد الاعمال المالية المعاصرة تعطي اولوية مماثلة للمعرفة ، ولسرعة التكيف مع التقنيات الجديدة . ويتطلب ذلك تجميع المصادر وجماعية الجهود التنظيمية واعادة التدريب المستمرة والمنتظمة للشخصيات القيادية والارتباط الوثيق بمراكز المعرفة . ان انظمة البرمجة ومعالجة المشكلات والعمل الجماعي المنسق ، والموقف المتعقد حيال العلاقات الانسانية وعلم النفس الخاص بالعمل ، كل ذلك يصبح الان من السمات السائدة للعمليات الادارية . وطبقا لما يقوله لورنس ابلاي رئيس جمعية الادارة الامريكية ارتفع عدد المديرين المشتركين في جمعيات ادارة مهنية والذين يعملون مع هيئات الاستشارة الادارية من عشرة آلاف في ١٩٤٨ الى اكثر من ٦٠.. الف في ١٩٦٢ «٩» ومن الناحية العملياتية تقل شيئا فشيئا صورة الاعمال

---

٦ ـ **مجلة التلفزيون الفصلية** ، ربيع ١٩٦٨ ، ص ٩٠ .

٧ ـ لنقاش اوفى انظر ، ناسا : **برنامج استخدام التكنولوجيا** NASA: The technology Utilization Program ، ١٩٦٧ ، ص ١٠ . وافتتاحية مجلة **ساترداي ريفيو** Saterday Review ، ١٩-٤-١٩٦٩ .

٨ ـ انظر انطوني ج. اوتنفر وسيما ماركس ، «التكنولوجيا التعليمية : وقائع قديمة وحزامات حديثة» (رأي وجواب عليه) ، **مجلة هارفرد التعليمية** The Harvard Educational Review خريف ١٩٦٨ .

٩ ـ كما نقلت في **الدودة الى المسؤولية** Return to Responsibility تقرير من مركز ابحاث توماس جيفرسون ، باسادينا . ١٩٦٩ ، ص ٥ .

المالية التي كانت تشبه تنظيما سياسيا او اقطاعية شخصية ، تحمل صورة اخرى تشبه اكثر فاكثر عملية علمية منتظمة لا تنتج فقط ما هو معروف وانما تسعى بانتظام للكشف عما هو آت ✱ .

لقد عدد دانيال بل وهو يلخص التحول الاجتماعي الذي فجرته التكنولوجيا ، عدّد خمسة مجالات رئيسية للتغيير : «١ ـ بانتاج مزيد من البضائع بتكلفة اقل اصبحت التكنولوجيا الآلة الرئيسية لرفع مستويات المعيشة في العالم ... ٢ ـ خلقت التكنولوجيا طبقة جديدة لم تكن معروفة من قبل في المجتمع قوامها المهندس والتقني ... ٣ ـ خلقت التكنولوجيا تعريفا جديدا للعقلانية واسلوبا جديدا للتفكير يؤكدان على العلاقات الوظيفية والكمية ... ٤ ـ ان الثورة في النقل والاتصالات التي ترتبت على التكنولوجيا خلقت شكلا جديدا من الاعتماد الاقتصادي المتبادل والتفاعل الاجتماعي الجديد ... ٥ ـ تبدلت بشكل جذري المفاهيم الجمالية وبوجه خاص بالنسبة الى الزمان والمكان» (١٠) .

✱ «ان الاسلوب الجديد للتعامل مع المستقبل ليس له اسم مقبول وشامل ، ولكن الاسماء التي عرفت بها تقنياته المتطورة اصبحت مألوفة في السنوات العشر الاخيرة لمعظم رجال الاعمال وموظفي الحكومة والعسكريين الكبار والعلماء والتقنيين . اما التقنيات ذاتها والتي يمكن ان يطلق عليها اسم «انظمة التحليل» او «انظمة التخطيط» فهي الان مستعملة على نطاق واسع سواء كانت بمساعدة العقول الاليكترونية او بدونها . ان تكلفة المزايا او تكلفة الفعالية وتحليلها تعتبر احد المكونات لهذه التقنيات الجديدة ، فهي تشمل طرق تحديد الاهداف والوسائل بحيث يصبح لدى صانعي القرار افكار اوضح عن الخيارات المفتوحة امامهم والطرق الافضل لقياس النتائج بحساب التوقعات والاهداف . ومن بين السمات المميزة للنمط الجديد : (١) اهتمام اكبر انفتاحا وترويا باختيار الغايات التي سيوجه نحوها النشاط المخطط ، وجهد لتحسين التخطيط بتحديد تعريف الغايات بدقة اكبر . (٢) تقدم اكثر انتظاما في المقارنة بين الوسائل والبيانات المشتقة من الاهداف المختارة. (٣) تقدير اكثر تحديدا وفعالية للنتائج ، يشمل عادة حفظ اتجاه التقدم نحو اهداف مؤقتة . وجنبا الى جنب مع ذلك تسير عملية قياس حساسية «السوق» للقيم المتغيرة والاهداف الجديدة المنبثقة . (٤) جهد فكري في الاساس لتعبئة العلم والمعارف المختصة الاخرى ضمن شبكة مرنة من المعلومات والقرارات حتى يمكن تحديد المسؤوليات المتخصصة في نطاق التنافس الاكبر . (٥) تأكيد على المعلومات والتنبؤ والمتابعة اكثر من السيطرة والارغام وذلك كعوامل اساسية في التنسيق بين العناصر المستقلة في جهد ما . (٦) مقدرة متزايدة على التنبؤ بالتأثير المشترك لعدة خطوط من النشاط تعمل في نفس الوقت ويؤثر بعضها في بعض ، وذلك يمكن من تعديل السياسة للتقليل من المضاعفات غير المطلوبة او لتحريك خطوط نشاط اخرى بهدف تصحيح هذه المضاعفات التي تم التنبؤ بها او تعويضها» . (ماكس وايز ، «الطريق الى ١٩٧٧» **فورتشن** يناير ـ كانون ثاني ١٩٦٧ . ص‌ص ٩٤ ـ ٩٥) .

١٠ ـ بل ، ص ١٧٥ .

لهذه المجالات الخمسة يجب ان نضيف الشعور الجديد بالوعي بالذات الذي ولدته قدرة المجتمع المتزايدة على رؤية نفسه في المرآة التي يوفرها التلفزيون ويدعمها الاعتماد المتزايد على التحليل الاحصائي * ويقويها اهتمام منتظم بادارة الحاضر بل والمستقبل ايضا . وبالاضافة الى ذلك بدا المجتمع الاميركي بتحقيق نظرة قومية حول امور كالعرقيات والفقر وذلك ربما كان لاول مرة في التاريخ ، وبذا لم تعد النواقص في احد القطاعات مسألة لا تهم نسبيا اقليما آخر او طبقة او اقلية اخرى . كل ذلك يحرك جهدا اراديا ومحددا للتعرف الى النواقص الاجتماعية ومن ثم يربط ما بين الغضب الاخلاقي على الظلم الاجتماعي واهتمام عملياتي اكبر بتحسين الاداء الاجتماعي ككل . لقد كان من الاسهل في ظروف تباعدت فيها العلاقات الانسانية ، قبول لاانسانية الانسان للانسان حيث كانت المصالح الطبقية منغلقة بعضها على بعض ، ولم يكن الظلم الواضح يستثير الضمير الاجتماعي الا نادرا .

ان النتائج المترتبة على ذلك ليست مجرد تقدم سريع لا يمكن انكاره في مجالات عديدة وزيادة في الادراك الاجتماعي لجوانب الاخفاق القائمة ،وانما ايضا زيادة حدة المشاكل القديمة وطرح تحديات جديدة . ان القاعدة الاقتصادية التي تقرر متوسط ما يحصل عليه الاميركي العادي ماديا قد اتسعت في السنوات الاخيرة بسرعة مما جعل معدل الناتج القومي العام الاميركي بالنسبة الى الفرد يزيد بمعدل اكبر من اي معدل في المجتمعات المتقدمة الاخرى او في المجتمعات التي هي في طور التقدم (١١) ولقد صاحب هذا التغيير في سنوات ٥٩ ـ ١٩٦٧ تحولات كبيرة بل متسارعة في توزيع الدخل وفي انماط العمالة (انظر جداول ١١ ـ ١٢) هذه التحولات تدل على تقوية المستويات الوسطى في المجتمع الاميركي ونمو يكشف لا عن مجرد حالة من المساواة الاجتماعية الاكبر ، وانما ايضا ذو علاقة ملحوظة بالجوانب السياسية للتحول الاميركي الحادث الان (وهو ما سنفصله فيما بعد). وبالاضافة الى هذه النسب المئوية الكلية لا بد من ملاحظة حقيقة انه في نهاية الستينات كان الاميركيون يملكون ما يقرب من ٧٠ مليون سيارة وان ٩٥ بالمئة من اصحاب البيوت الامريكيين كان لديهم تلفزيون واحد على الاقل و٢٥ بالمئة كان لديهم تلفزيونين على الاقل وان اكثر من ٦٠ بالمئة من العائلات الامريكية تملك منازلها (١٢) . وبالرغم من استمرار حالة الفقر قطعا في الولايات المتحدة يحقق المجتمع الامريكي وفرة لم يسبق لها مثيل تلحق كل الطبقات .

---

* من المفيد التذكير بانه منذ قرن كان المواطن نادرا ما يرى ، ان راي، جداول الاحصاء ورسوماتها البيانية وخرائطها وهي التي يقراها اليوم الاميركي المعاصر يوميا في صحافته وهي سمة عادية لاي تقرير او دراسة .

١١ ـ **نحو تقرير اجتماعي** ، ص ٤٣ .

١٢ ـ المصدر السابق ، ص ٤٢ .

جدول – ١١ – *

التغيرات في توزيع الدخل وفي العمالة

بالمئة للعائلات مع الدخل			التغيير		التغيير
	١٩٥٩	١٩٦٣	١٩٦٣-١٩٥٩	١٩٦٧	١٩٦٧-١٩٦٣
اكثر من ١٥ الف دولار	٣ر١	٥ر٤	٢ر٣+	١٢ر٢	٦ر٨+
٥ آلاف – ١٥ الف دولار	٥٢ر٣	٥٨ر٣	٦ر٠+	٦٢ر٧	٤ر٤+
تحت ٥ آلاف دولار	٤٤ر٦	٣٦ر٢	٨ر٤–	٢٥ر١	١١ر١–

* الجدول مشتق من «دخل المستهلك» **تقارير الاسكان الدورية** ، وزارة التجارة ، ٥ اغسطس – آب ١٩٦٨ ص ٢–٧ . البيانات في هذا الجدول على اساس الدخل فقط قبل حسم الضرائب . ومع ذلك يذكر التقرير «حتى بعد السماح بتغيير اسعار الاستهلاك قد ارتفع دخل العائلة ٥ر٣ – ٤ بالمئة في كل من الاعوام الاربعة الاخيرة» (ص ١٠) .

جدول – ١٢ –

التغيرات في العمالة بالمئة

	ياقات بيضاء	ياقات زرقاء	خدمات	زراعة
١٩٥٨	٤٢ر٦	٣٧ر١	١١ر٩	٨ر٥
١٩٦٧	٤٦ر٠	٣٦ر٧	١٢ر٥	٤ر٨

المصدر : **التقرير الرئيسي عن الطاقة البشرية** ، وزارة العمل ، واشنطن ، ابريل – نيسان ١٩٦٨ ص ٢٣٢ .

اما كون الفقر يقض مضاجع الملايين من الامريكيين فتلك حقيقة تم اثباتها بشكل كاف في السنوات الاخيرة ، كما تمت اثارة اهتمام الاغلبية بهذه المشكلة الى حد ما على الاقل . لقد تم تحديد خط الفقر في البداية بدرجة من التقريب والعشوائية الواسعة جدا باعتباره كل دخل اقل من ٣ آلاف دولار في السنة للعائلة المشكلة من اربعة اشخاص او ١٥٠٠ دولار للفرد . ولا شك ان مثل هذا المستوى يحمل متاعب حادة للاغلبية بل وسوء تغذية بالنسبة الى العديدين ولكن

الاكثر تعجيزا هو الشعور النفسي بالحرمان في العلاقة مع ثروة المجتمع ككل *
ومع ذلك هنا ايضا حققت سرعة النمو الاقتصادي مع بعض الجهود الاكثر تنظيما ، تقدما معينا : فمن ١٩٦١ الى ١٩٦٩ هبطت المجموعة الموجودة تحت خط الفقر كما هو محدد من وزارة التامينات الاجتماعية مع حساب الارتفاع في الاسعار ، هبطت من ٢٢ بالمئة الى ١٣ بالمئة من السكان (١٣) . وبالاضافة الى ذلك وطبقا لما جاء في تقرير مجلس المستشارين الاقتصاديين في مطلع ١٩٦٩ ، انه اذا استمرت معدلات ١٩٦١ – ١٩٦٧ لتخفيض عدد الاشخاص الفقراء ، فان «الفقر» يمكن القضاء عليه كلية في عشر سنوات . واذا استمر معدل ١٩٦٨ فسيختفي الفقر في اكثر من خمس سنوات بقليل بتكلفة مقدارها ٩ر٧ بليون دولار سنويا (١ بالمئة من الناتج القومي العام و٥ بالمئة من الميزانية الفيديرالية) .

لقد اصاب الفقر الاميركيين السود بوجه خاص ولكن ليسوا وحدهم . ففي ١٩٦٦ كان متوسط دخلهم على النطاق القومي هو ٥٨ بالمئة من متوسط دخل البيض ، وقد زاد الى ٦٠ بالمئة في١٩٦٨ (١٤) . ان السود هم الضحايا الرئيسيون للاسكانالفقير والمدارسالفقيرة والبطالة. كما انالأحياء الفقيرة الحضرية التيتسكنها نسبة من السود اكبر بكثير من البيض (والسود في الولايات المتحدة اليوم يسكنون المدن اكثر من البيض) ، تفرض ظروف معيشة تشبه اسوا مراحل عصر التصنيع – وهي غير مقبولة على الاطلاق لانها لم تعد جزءا من نمو اقتصادي بل اثرا يذكر بعصر تزداد اميركا ابتعادا عنه .

ومع ذلك هنا ايضا يؤدي النمو الاقتصادي وظهور قيم اجتماعية جديدة الى جعل التقدم المتسارع واضحا للعيان . ان الانجازات الواضحة تحققت على المستوى التشريعي في مجال الحقوق المدنية وبوجه خاص في التعليم والاسكان ، كما تحققت ايضا على المستوى الاقتصادي . في ١٩٦١ كان ٥٦ بالمئة من الامريكيين السود يصنفون فقراء ، ولكن في ١٩٦٩ هبط الرقم الى ٣٣ بالمئة . في ١٩٥٦ كان

---

* هذا البعد النفسي هو الذي يغفله بعض المعلقين الاجانب عندما يعلقون على تعريف الولايات المتحدة للفقر وفي تعليقهم لمسة من حسد . فمثلا «.. ترسم اميركا خط الفقر عندها عند مستويات تعتبر سخية في الخارج . ومن بين كل الاحصاءات الحزينة التي تتدفق عن الغيتوات من المفيد ان نتذكر انه في ١٩٦٧ كان حوالي ٨٨ بالمئة من كل العائلات الاميركية السوداء لديها جهاز تلفزيون» (الترليونير العصبي ، **الايكونومست** طبعة خاصة ١٠ مايو – ايار ١٩٦٩ ، ص ٥١) .

١٣ – مكتب التقرير الاحصائي ، نقلا عن **النيويورك تايمز** ، ٢٠–٨–١٩٦٩ .

١٤ – **تقرير اللجنة الاستشارية القومية حول المخالفات المدنية** Report of the National Advisory Commission on Civil Disorders ، واشنطن ، ١٩٦٨ ، ص ٢٣٧ . انظر لتوزيع الفقر تقرير اللجنةالرئاسية عن برامج المحافظة علىالدخل ، الصادر في ١٢–١١–١٩٦٩ . انظر ايضا **التقرير المشترك** لوزارتي التجارة والعمل ، نقلا عن النيويورك تايمز ، ٢–٢–١٩٧٠ .

٩ بالمئة من عائلات السود لها دخل يزيد عن ٧ آلاف دولار ، ولكـــن في ١٩٦٨ زادت هذه النسبة الى ٢٨ بالمئة واصبح متوسط الدخل للعائلة السوداء هو ٥٣٦٠ دولارا (١٥) . بين ١٩٦٠ و١٩٦٦ تضاعف عدد السود في الوظائف المهنية والتقنية والادارية وهبطت نسبة الاسكان المنخفض المستوى الذي يشغله السود من ٤٠ بالمئة في ١٩٦٠ الى ٢٤ بالمئة في ١٩٦٨ . وطبقا لاحصاءات معهد غالوب زاد عدد السود الذين عبروا عن رضاهم بأعمالهم من ٥٤ بالمئة عام ١٩٦٣ الى ٧٦ بالمئة عام ١٩٦٩ كما ان نسبة السود الراضين على ظروف اسكانهم ارتفعت من ٤٣ بالمئة الى ٥٠ بالمئة في نفس الفترة (١٦) .

هناك ايضا تغيير ضخم يحدث في حياة اميركا الثقافية ككل . فلقد ادت زيادة التعليم وازدياد اوقات الفراغ وربما رد الفعل غير الواعي للخطر الناجم عن تنمية التكنولوجيا للفراغ الثقافي ، كل ذلك ادى الى رفع درجة الاهتمام بالموسيقـــى والدراما والفنون المرئية . لم يشمل ذلك مجرد قفزة في تشييد مراكز الفنـــون وتجديد الحياة في المتاحف الاميركية وانما ادى ايضا الى تبن واسع للتقنيات الجديدة مثل الفديو والستيريو بحيث اصبحت المتع الثقافية التي كانت تتطلب في الماضي مصروفا كبيرا من الوقت والمال متيسرة في المنازل . وبالاضافة الى ذلك فتـــحت شركات التلفزيون المحلية الداخلية الباب امام فرص جديدة للجامعـــة المحلية حتى المنزلية او لتعليم الكبار باشراف المتاحف . اذن لقد كفت الثقافـــة والتعليم عن ان يكونا امتيازات ارستقراطية واصبحتا بشكل متزايد خيارا متاحا لاعداد اكثر فأكثر من الامريكيين ، وكذلك رمزا مثيرا للفخر بالوفرة الجديدة .

لقد ادى التقدم الاقتصادي ونهوض الآمال الاجتماعية الى فيضان نحو الكليات والجامعات من الشباب المنحدرين . فمن بين ٤ر٣ مليون طالب جامعي تعيلهم عائلاتهم في ١٩٦٦ جاء ٦٣ بالمئة من اسر لم ينه أربابها ابدا عاما واحدا في كلية من الكليات . والحقيقة التي تدهش اكثر من ذلك هي ان ٣٠ بالمئة او حوالي نصـــف الـ ٦٣ بالمئة السابقين انحدروا من أسر لم يحصل أربابها حتى على اربع سنوات من الدراسة في المدارس الثانوية (١٧) . وخلال الفترة من ١٩٦٣ – ١٩٦٩ زاد عدد الذكور السود الذين انهوا مرحلة التعليم الثانوي من ٣٦ الى ٦٠ بالمئة ، وتضاعف

---

١٥ – مكتب التقرير الاحصائي . ناثان غلازر ، «موقع الزنوج في مستقبل اميركا» مجلـــة **النيويورك تايمز** ، ٢٢–٩–١٩٦٨ ، ص ٣١ . **والايكونومست** ، ١٠–٥–١٩٦٩ ، ص ٥١ .

١٦ – **النيويورك تايمز** ، ١١–٥–١٩٦٩ . ومع ذلك يجب ملاحظة انه في ١٩٤٩ عبر ٥٩ بالمئة من السود عن رضاهم على ظروف اسكانهم ، وذلك ما قد يشير الى ازدياد الآمال والتوقعات فـــي ١٩٦٩ . انظر حول الاسكان **التقرير المشترك** (المذكور آنفا) .

١٧ – «صفات الطلاب وكلياتهم» ، دراسة من مكتب الاحصاء ، نقلا عـــن **النيويورك تايمز** ، ١٥–٦–١٩٦٩ .

تقريبا عدد اولئك الذين حصلوا على درجات جامعية في عامين فحسب من ٤بالمئة عام ١٩٦٣ الى ٥ر٧ بالمئة عام ١٩٦٥ (١٨) . اما بالنسبة الى اواخر الستينات فان ٨٣ بالمئة من الامريكيين السود البالغة اعمارهم من ١٦ ــ ١٧ سنة كانوا لا يزالون في المدرسة وكانت نسبة المتقدمين الى الكليات منهم اعلى من نسبة المجموعة العمرية ذاتها في اوروبا الغربية (١٩) .

وفي اطار ان التعليم العالي قد اصبح اهم وسائل التقدم الاجتماعي في امريكا نجد الارقام المذكورة آنفا دليلا على حركة صاعدة قوية بشكل ملحوظ * وهكذا بالنسبة الى سنة ١٩٦٩ نجد حوالي ٣٧ بالمئة من مجموع طلبة الكليات من عائلات من الياقات الزرقاء او الخدمات او عائلات فلاحية (٢٠) . ان الخلفية التعليمية ودرجة التحصيل العلمية ــ الفكرية تصبح بشكل متزايد مقياس المكانة الاجتماعية. ولهذا التطور اهمية خاصة في العلاقات بين الاجناس . فلا طريق الوصول القصيرة للبائع المتجول ، ولا قصة هوراشيو الجيد تقدم او تعد الملايين من الشباب السود بحوافز ذات قيمة ، ولكن التعليم الجماعي مع اتساع حاجات الاقتصاد يقدمان بالفعل طريقا واسعا لارضاء طموحات الافراد في مجال اجتماعي كبير . لذا يمكن ان يكون التعليم نقطة انطلاق لتحقيق المساواة الاجتماعية ولتحقيق مجتمع متعدد الاجناس ديمقراطي من الناحية السياسية . ان تحقيق مثل هذا المجتمع سيعد انتصارا تاريخيا للبشرية لان الحقيقة القاسية هي ان العلاقات بين الاجناس تُعد اكثر الامور عرضة للخطر بسبب الدوافع غير العقلانية لدى الانسان : وهي عملية الانتقاء الغرائزية القطعية بمجرد النظر وهي عملية اوتوماتيكية تقريبا في الساحة العرقية .

التقدم غير المؤكد :

ولكن يجب ان نضيف فورا انه قبل ان تصبح امريكا تماما ذلك المجتمع

---

١٨ ــ غلازر ، ص‌ص ٣١ ، ٩٠ . انظر ايضا **التقرير المشترك** .

١٩ ــ **الايكونومست** ، ص ٥١ .

* ان احد الجوانب المتعلقة بهذا التطور والمرتبطة به هو ازدياد دخول مجموعات عرقية واثنية لم تكن من قبل تشارك في الحياة السياسية في النخبة السياسية للبلاد . فلقد اخذ يظهر في الحكومة القومية وفي مستويات ومجالات نادرا ما شغلها من قبل غير «الواسب» اخذ يظهر يهود وزنوج وايطاليون وبدرجة اقل بولنديون ويونانيون : وبرغم انه ليس لدينا احصاءات مؤكدة قد يكون لهذه «النخب» الجديدة ــ والتي لا تزال امريكيتها جديدة وقوية ــ علاقة بعودة ظهور ذلك التوجه المنشط القومي الديناميكي الذي لاحظه دافيد ريسمان في مقاله «بعض الاسئلة حول دراسة الطابع القومي الامريكي في القرن العشرين» ، النشرة السنوية للاكاديمية الامريكية للعلوم السياسية والاجتماعية ، مارس ــ اذار ١٩٦٧ ، خاصة ص ٤٧ .

٢٠ ــ نحو تقرير اجتماعي ، ص‌ص ١٥ ــ ٢٧ . **التايم** ، ٣١ــ١٠ــ١٩٦٩ ص ٤٢ .

– وبالتاكيد لكي تصبح امريكا ذلك المجتمع – يجب التغلب اولا على ميراث امريكا الصناعية الذي لم يتمثل بعد ، وعلى المشاكل غير العادية التي تصحب التحول الامريكي الى المجتمع التكنتروني . لقد خلق الاعتراف الاجتماعي الواسع الانتشار المتزايد ، وان كان لا يزال في بدايته ، بحقيقة انه ما يزال علينا تسوية امر الماضي حتى ونحن نصوغ الجديد – خلق وضعا قابلا للالتهاب ، وضعا دق ناقوس الخطر ويمكن ان يزداد سوءا .

فلو ان ركودا اقتصاديا ما وقف في طريق الآمال الصاعدة لأدّى الى مترتبات مفجعة ، بوجه خاص بالنسبة الى استقرار النظام الاجتماعي الامريكي . ومن الواضح ان الكثير يعتمد على مقدرة الاقتصاد في التوسع لكي يمتص ويهدىء التوترات القائمة . ويبدو ان نموا اقتصاديا ذا استقرار نسبي ومعدل عالٍ بحوالي ٥ر٣ بالمئة في السنة مع السماح بتنوعات سنوية ، يبدو انه **الشرط الضروري** لاستمرار تطور المجتمع الامريكي نحو وضع تدعم فيه الحرية والمساواة كل منهما الآخر لا لأن يفسده . ينطبق هذا بشكل خاص على الفقر وعلى العلاقة بين الاجناس حيث لن يكون حتى للنيات الاجتماعية الحسنة اي قدرة على انجاز الكثير في حال اي تباطؤ اقتصادي ملموس . ان اول الضحايا لحالة الركود الاقتصادي سيكونون الفقراء والسود ، هؤلاء الذين يمتصون عادة نسبة عالية من المعاناة بسبب سوء دورهم الاقتصادي * .

ومن سوء الحظ انه لا يمكن التأكد من ان معدل النمو الاقتصادي القوي نسبيا الحادث في الستينات سيكفي للقضاء على ما لم يكتمل بعد في عملية تصنيع امريكا ، سواء كان بالمعايير المطلقة او النسبية لمعدل نمو المجتمع ككل ** . ومن

---

* ان ٢ر٣ بالمئة من المتعطلين في نهاية ١٩٦٨ يعني ان ٥ر٢١ بالمئة من كل الشبيبة السوداء كان متعطلا عن العمل (بالنسبة الى البيض الرقم في هذه الحالة هو ٦ر١١ بالمئة) . وان ٤ر٣ بالمئة من الرجال السود كان بلا عمل (بالنسبة الى البيض ٦ر١ بالمئة) .

** بمعدل نمو ٤ بالمئة للناتج القومي الكلي (مع تثبيت الدولار ويكون بذلك اعلى من متوسط النمو منذ ١٩٦٠) سيكون هناك على الارجح ما يقرب من ٢٧ مليون في مساكن فقيرة بالمقارنة مع ٢٦ مليون في ١٩٦٧ . من هؤلاء ستوجد اكثر من ٤ ملايين عائلة على راسها رجال عاملون غير مسنين بالمقارنة مع ١٠ ملايين عائلة في ١٩٦٧» (وزارة الصحة والتعليم والشؤون الاجتماعية **نحو تقرير خاص** ، واشنطن ، ص ٤٧) . «في ١٩٤٧ تلقى الـ ٢٠ بالمئة الافقر من السكان ٥ بالمئة من الدخل ، وظل هذا هو نصيبها في ١٩٦٤ ... والخمس الثاني التالي لهم حصل على ١٢ بالمئة في ١٩٤٧ و١٢ بالمئة في ١٩٦٤ . باختصار ان ٤٠ بالمئة من الشعب الامريكي ظل يحصل على ١٧ بالمئة من الدخل طوال فترة ما بعد الحرب . والـ ٥ بالمئة الموجودين في القمة حصلوا على نفس النصيب الذي حصل عليه الـ ٤٠ بالمئة» (ميشيل هارينغتون ، **نحو يسار ديمقراطي** ، نيويورك ١٩٦٨ ، ص ٢٦ .

المؤكد ان نتيجة تعايش الاقتصاديين الامريكيين المنفصلين ـ الاقتصاد الصناعي المتخلف بل والمتفسخ (والذي يتعرض بشكل متزايد لمنافسة اجنبية فعالة ومعرض بشكل كبير لتقلبات دورية ويستخدم العمال الافقر والاقل مهارة) والاقتصاد الكلتروني الآخذ في التوسع (والقائم على صناعات الفضاء والصناعات المتقدمة الاخرى والذي يستخدم عمالا افضل تدريبا وتعليما واجورا) ـ قد جعلت عملية تمثل القطاعات الافقر من المجتمع الامريكي والقضاء عليها عملية اكثر صعوبة .

هذه الفجوة تعقد الجهود المبذولة لخلق انسجام عرقي قائم على الحرية والمساواة . كان من الواجب ان يتم دمج الزنجي في المجتمع الامريكي خلال الثورة الصناعية الامريكية . ولسوء الحظ ان هذه الثورة قد جاءت قبل ان تكون امريكا، ان لم نقل والزنجي ايضا ، مستعدة للاندماج الكامل . فلو ان الامريكي الاسود كان يمثل مجرد ارث اقتصادي من عصر ما قبل الصناعة لربما كان من الممكن ان يندمج بفعالية اكبر في العصر الصناعي . ولكن التعصب العرقي حرمه من اكتساب المهارات الضرورية . المشكلة تتفاقم ،، واليوم تجد المناطق الامريكية الحضرية ـ الصناعية الاكثر تقدما ان من الصعب عليها استيعاب السود وهم اقلية عرقية وإرث امريكا الاقطاعي الوحيد ؛ لان هذه المناطق تتجه الى مرحلة جديدة اخرى اكثر تعقيدا تتطلب مهارات اجتماعية اكثر تطورا . والامر المتناقض ، انه يمكن القول ان الجنوب اليوم لديه فرصة اكبر لدمج السود دمجا كاملا : فالوعي الاميركي العام يتغير والسود قد استيقظوا والجنوب الاميركي بدأ يتجه نحو العصر الصناعي . وربما يمكن اذا تحرك بسرعة كافية ، ان يأخذ السود معه «٢١» .

يبقى السؤال الاكبر هو : هل تكون سرعة التطور كافية لمواجهة التحديات التي تطرحها العمليات الاجتماعية التي تقوي بعضها بعضا في نفس الوقت ، والتي اثارتها يقظة السود الامريكيين ونهاية أوهامهم عن النظام الامريكي ؟ لقد سجلت استطلاعات عديدة للرأي العام ازدياد قناعة الاسود انه لا خيار له الا ان يخرج من النظام السياسي وأن يعتمد على التمايز حتى على العنف باعتبارها الوسائل الاساسية للتقدم «٢٢» . هذه الحالة النفسية لم تكن في تجربة المجموعات المهاجرة البيضاء التي كانت بشكل عام تطمح الى دخول المجتمع الامريكي بأسرع ما يمكن، وعلى العكس من ذلك يرى الكثيرون من السود في التمايز وفي بناء مجتمع منفصل خاص الطريق الوحيد الى المستقبل ـ وهو مستقبل بالنسبة اليهم لم يعد يعني بالضرورة الاندماج في النهاية مع المجتمع الامريكي الاكبر .

---

٢١ ـ انظر لتصور وتقييم متشائم ، «جنوب امريكا المحبط» ، **الايكونومست** ١٤-٦-١٩٦٩ .

٢٢ ـ انظر التقرير الخاص «امريكا السوداء» **نيوزويك** ، ٣٠-٦-١٩٦٩ ص ٢٣ . ولتحليل اوسع ، انظر **سياسات الاحتجاج** (تقرير شولنيك للجنة القومية عن اسباب العنف والوقاية منه) ، نيويورك ، ١٩٦٨ ، خصوصا الفصل الرابع ، «النضالية السوداء» .

كما انه ليس مؤكدا ان دخول اعداد كبيرة من السود في الجامعات المندمجة سيساعد في تخفيف التوترات العنصرية . وبالرغم من ان هذا التطور ضروري لتشجيع المشاركة الكاملة للسود في الولايات المتحدة تشير عوامل عديدة قصيرة المدى الى زيادة التوترات العنصرية كنتيجة لزيادة فرص التعليم امـام السود . فأولا ، ليس من المؤكد ان طلاب الجامعات السود سيحصلون في الواقع علـى مواقع يشعرون انهم يستحقونها * . وثانيا من المرجح ان تتضخم هذه المصاعب بفعل موقف بعض السود الذين يصرون على برامج «دراسات سوداء» مستقلـة ليست خاضعة للمستويات الاكاديمية السائدة ، والتي ستؤدي حتما الى ازدياد اعداد طرف امريكي آخر محبط وسيء التعليم من اشباه المتعلمين فـي الاحياء المغلقة في المدن ، واخيرا من المحتمل انه كلما اكتسب الامريكي الاسود ثقة في نفسه وتحسن وضعه الاجتماعي يصبح مؤقتا اقل تجاوبا مع القول بأن تقدمـه يعتمد على التعاون مع البيض . ومن الارجح انه سيعبر عن ادراكه الحاد بالظلم الاجتماعي بموقف سياسي اكثر راديكالية لا يبالي بحساسيات البيض .

ان مشكلة العلاقات العرقية تضفي الحاحا آخرا على القضية الاكبر والخاصة بموقع العنف بالمجتمع الامريكي . ان المجتمع الابيض يمكنه ان يستمر في الادعاء بأن العنف لا يمكن أن يبني مجتمعا افضل ولكن السود سيستمرون في رؤيـة ظروفهم الاجتماعية الادنى كواقع اساسي . وطالما يولد العنف موجات من الاصلاح يقوم بها المجتمع الابيض لتصحيح بعض المظالم فان القول بأن العنف ضروري لتقدم السود يزداد قوة . ان هذا الاعتماد من ناحية اخرى على العنف يتجه الى اخفاء الخط المميز بين العنف السياسي والعنف الاجرامي وهو امر هام فـي عمل اي مجتمع (هل كان الدرديج كليفر مذنبا سياسيا او جنائيا ؟) كما يؤدي ذلك ايضا الى تقنين القمع الجماعي من جانب المجتمع ككل والى تنظيـم العنف من جانب القطاعات الاكثر ليبرالية وتعلما . واي النتيجتين من شانها تدمير قدرة المجتمع على التمييز بين ضرورة النظام والحاجة الملحة الى التغيير .

ان مقدرة مجتمع ما على صنع مثل هذه الاحكام خليقة بأن تتحطم بقدر ما يتعود بها هذا المجتمع نفسيا على معايشة العنف ، وعلى القبول بالعنف وسيلة لحل مشاكله . ان كون التاريخ الاجتماعي الامريكي وكذلك التاريخ السياسي الامريكي كان عنيفا هو امر لا جدال فيه . اما كون امريكا كانت مجتمعا اكثر عنفا من غيرها فهو امر محل جدال** ولكن مسألة العنف تتجاوز مسألةالاحصاءات حتى العلاقات

---

* تشير احصاءات مدينة نيويورك مثلا ان المتساقطين البيض لديهم فرص عمل افضل من طلاب التعليم العالي السود (دليل الزنوج ، نيويورك ، ١٩٦٧ ، الجدول على ص ٢٩٢) .

** تفيد اللجنة القومية حول اسباب العنف ووسائل منعه ، في تقريرها بعنوان «العنف في امريكا : منظور تاريخي مقارن» (نيويورك ١٩٦٩ : «بالرغم من ان النضال المدني قد تكرر فـي =

العرقية، انها تشمل النمط الاساسي لثقافة الامة* والطريقة التي يحل بها مجتمعما مشاكله .

واليوم تحتاج مشاكل الفقر او العلاقات العرقية الى حساسية نفسية مرهفة تلتقط الفروق والحدود الدقيقة في الموازنة بين عديد من المجموعات المتنافسة والمركبة المطالبة بحقوق الافراد والجماعات . هذه المسألة تغيب عن كثيرين من الاصلاحيين العجولين . ان تمثل مجموعة اثنية او عرقية متميزة في ثقافة الاغلبية ممكن فقط في اطار مؤسسات وقيم مستقرة تعبر عنها وسائل واجراءات منظمة. من الممكن تحقيق سيطرة الاغلبية بالعنف ، كما من الممكن قلب علاقات القوى بين الاجناس بالثورة العنيفة ، ولكن للوصول الى علاقات عرقية منسجمة يتوجب على المجتمع ان يكون مهيأ لقبول التغيير السلمي ولحل القضايا الاجتماعية بغير

= الولايات المتحدة فقد اتخذ اشكالا اقل تدميرا مما هو عليه في عديد من البلدان غير الغربية وبعض البلدان الغربية. ان الامة لم تشهد حروبا داخلية منذ الحرب الاهلية، ولم تشهد ابدا تقريبا ذلك النوع من التآمر الثوري المزمن والارهاب الذي سمم حياة العشرات من الامم الاخرى . وبالرغم من ان حوالي ٢٢٠ امريكيا قد ماتوا بسبب النضال المدني العنيف في السنوات الخمس السابقة على منتصف ١٩٦٨ نجد نسبة ١ر١ لكل مليون من السكان هي نسبة ضئيلة بالمقارنة مع المتوسط العام والبالغ ٢٣٨ وفاة لكل مليون ، واقل من المتوسط الاوروبي البالغ ٤ر٢ لكل مليون» (ص‌ص ٧٩٩ – ٨٠٠) . ومن ناحية اخرى يشير تقرير اخر لنفس اللجنة ان «المقارنة بين معدل جرائم العنف المبلغ عنها في هذه البلاد مع المعدلات في البلاد الاخرى الحديثة المستقرة تظهر ان معدل الولايات المتحدة في الاغتصاب هو في المقدمة بوضوح . كما ان معدل جرائم القتل عندنا يبلغ ضعفي معدل منافسنا الاقرب وهو فنلندا » ويبلغ من ٤ إلى ١٢ مرة اعلى من معدلات ١٢ بلد متقدم آخر تضم اليابان وكندا وانكلترا والنرويج» (كما جاء في جريدة النيويورك تايمز ، ٢٤ نوفمبر – تشرين ثاني ١٩٦٩) .

* بالرغم من ان المجتمع الامريكي المعاصر قد لا يكون اكثر عنفا من غيره من المجتمعات الا انه من الناحية النفسية مشبع بالعنف . ولا يرجع ذلك فقط – بل لا يرجع ذلك اساسا – الى حوادث الاغتيال الدرامية التي وقعت في الستينات . انها تتعلق فوق كل شيء بالتلفزيون الامريكي الذي تسيطر عليه تقريبا ثلاث مؤسسات تسعى الى الربح ولا تراقبه الحكومة القومية بشكل دقيق . في ١٩٦٩ جاء في تقرير اعدته كلية الاتصالات بجامعة بنسلفانيا بناء على دراسة بحثية معدة للجنة القومية حول اسباب العنف وطرق مقاومته ، انه خلال اسبوعين من مشاهدة الشبكات الثلاث الكبرى من الساعة الرابعة حتى الساعة العاشرة مساء كان عدد الاشخاص الذين قتلوا او اصيبوا في التمثيليات التلفزيونية (عبر نشرات الاخبار) ٧٩٠ شخصا وان هناك ١٥ فعلا عنيفا لكل ساعة من ساعات الارسال التلفزيوني (كما جاء في النيويورك تايمز ٦ يوليو – تموز ١٩٦٩) ويجب ان نضيف الى هذا التقرير المثير الافلام الوثائقية التي تخاطب الانفعالات مثل برنامج «المقابلة الخاصة» الذي تقدمه شركة N.B.C والذي اعلن عنه مقدما بشكل كبير وتم مع سرحان سرحان المدان باغتيال =

العنف * ولكن ذلك يؤدي اوتوماتيكيا الى تقوية القوى التي تعارض التغيير ، سواء كانت هذه القوى تمثل مصالح عميقة الجذور او كانت تمثل بشكل عام مواقف اجتماعية وعرقية راسخة . ان الوضع الاجتماعي الذي يصل فيه جزء كبير من السكان الى درجة التوحيد بين العنف والتغيير ، والخلط بين النظام وانتفاء التغيير هو وضع لا يمكن فيه تجنب تصعيد النزاع .

عقم السياسة :

ان تجاوب المؤسسات السياسية للحاجة الى التغيير هو امر عظيم الاهمية بالنسبة الى مستقبل امريكا .ان بعض المواطنين يرى النظام الامريكي الحالي غير قادر ليس فقط على تشجيع التغيرات الاجتماعية المطلوبة ولكن حتى على الاستجابة للضغط الذي يطالب بمثل هذه التغيرات . وفي مثل هذا الوضع تصبح الاجراءات والمؤسسات التي تعتز في ايام الاستقرار بترويها ، تصبح في ايام التغير السريع امثلة على التباطؤ وعدم الكفاءة بل والظلم الجوهري ** .

= روبرت كيندي، والذي صوّر (حسب اعلانات الشركة) «في اليوم التالي للحكم على سرحان بالاعدام».

من اجل مزيد من النقاش الاعمق لموقف عمالقة التلفزيون تجاه مسؤولياتهم العلمية ـ الاجتماعية انظر هارينغتون ، نحو يسار ديمقراطي ، ص‌ص ١٩ ـ ٢٠ .

* ليس هذا لانكار ان العنف قد لعب بالفعل دوراً اجتماعيا بناء في مراحل تاريخية مختلفة . لقد كان العنف هو مبضع التاريخ في اغلب حالات الاطاحة بالطغيان ورفض الاستغلال . ومع ذلك لا يجب ان نمضي بعيدا في تضخيم دور العنف التاريخي . يشير باريغتون مور في كتابه **الاصول الاجتماعية للدكتاتورية والديمقراطية** (بوسطن ١٩٦٦) ان التكلفة المادية للانظمة الثورية لا يجب ان تؤخذ عليها ، ذلك لان غياب الثورة كان من الممكن ان يكون اكثر كلفة . وهو لا يناقش امكانية ان الاصلاحات التي اتخذتها الانظمة الثورية بقسوة بالغة في اغلب الاحيان كان من الممكن ان تكون اقل كلفة من الناحية المادية لو انه تم اتباع انظمة اصلاح بديلة اخرى نفذت بنجاح في بلاد اخرى . ولا جدال في انه من الممكن القول ان اكثر العنف الذي قامت به الانظمة الثورية كان في الحقيقة معوقا للمهام الايجابية التي قامت بها هي ذاتها . ان المقارنة الفعلية اذن لا بد ان تكون بين التكلفة المادية بالطرق البديلة في تغيير المجتمع لا بين تكلفة عدم تغييره وتكلفة تغييره بوسائل عنيفة جدا .

ولندع الاحكام التاريخية جانبا ، تجدر ملاحظة ان الانسان العصري ما يزال يتلقى تعليمه في اشكال تحرك مشاعره العدوانية . في الغرب تؤكد الافلام والتلفزيون على العنف ، وتعليم التاريخ يؤكد على الحروب والانتصارات والهزائم والصراع بين الامم الخيرة والامم الشريرة . والغرائز العدوانية تعبر عنها ايضا لعب الاطفال وكذلك وسائل الكبار في التسلية . اما في البلاد الشيوعية فان الايديولوجية تحرك ايضا المشاعر العدوانية والعداء «الشر» وبذا تستمر بنفس الثنائية الاساسية التي جاءت بها الاديان .

** تعد العدالة الاميركية بشكل خاص مثلا واضحا على ذلك . فهي قديمة بقدر ما هي عبثية. ويبدو انها لم تستفد الا من الاصلاحات القانونية التي تمت منذ عقود في اوروبا لا من النمط الانكليزي =

ويزداد النظر الى الحكومة كتعبير عن الارادة القومية باعتبارها غير قادرة على توجيه وتنسيق عملية التغيير القومي بفعالية . وتبدو وكأنها غير قادرة على الربط بين الاهداف القومية او على تنمية الشعور بالاتجاه القومي . ويضاعف هذا الشعور الشك المحيط بالهدف القومي بسبب تراجع دور النخبة السياسية القائمة التي وجهت الامة منذ الحرب العالمية الثانية . ان النخبة السياسية التي تشكلت في البداية من رجال جاءوا من الساحل الشرقي وعلى صلة بالدوائر العليا القانونية والمالية والاقتصادية ، هذه النخبة قد وفرت شعورا بالاستمرار في اطار من الوعي الليبرالي البرجوماتي لطبيعة وطابع المجتمع الحديث . لقد عكس الاستقرار النسبي الذي ساد في أواخر الاربعينات والخمسينات هذا الوعي العام. وفيما بعد واجهت هذه النخبة تحديا متزايدا من النخبة الجديدة التي كانت اكثر توزعا من الناحية الجغرافية والمصالح الاقتصادية المرتبطة بالصناعات الجديدة للعلوم – والدفاع والصناعات المتقدمة ، وكذلك من قوى المثقفين الاكثر التزاما من الناحية الايديولوجية والذين اصبحوا اكثر نفوذا .

ان تحطم نخبة ما بعد الحرب يلقي ضوءا كاشفا على ثنائية الكفاءات الضرورية لكسب السلطة السياسية في الديمقراطية الامريكية والكفاءات الضرورية لممارسة القيادة الفعالة لهذه الديمقراطية . ان استرضاء الصحافة واجهزة الاعلام هو امر ضروري لسياسة رص الجماهير طالما كانت الجماهير ليس فقط بالجاذبية الشخصية المباشرة وانما ايضا من خلال «صورة» تعمل كوسيط ، هذه الصورة

= الذي تكون فيه العدالة مرنة نسبيا . ان اجراءاتها المرهقة غير العادية التي تسيطر عليها الالاعيب المسرحية والاستعراضية والتي تشمل الالتماسات الطويلة والمعقدة ، تؤدي الى تعطيلات بل واحيانا الى نتائج تتنافى مع اقصى المفاهيم الاولية في العدالة . ان محاكمة قاتل مارتن لوثر كينغ – التي تنافس خلالها محامو راي على بيع مذكراته – كانت مثيرة للسخرية . والاستعراض الطويل لسرحان في لوس انجلوس لم تكن تبرره حاجات العدالة المطلقة ، والبرامج «الخاصة» لقتلة شارون تيت التي كانت عالية الاجر ، كانت عارا . من المؤكد ان المحاكمات السرية السوفياتية هي امر يثير الاسى ولكن هل السيرك القضائي الاميركي مطلوب حقا لحماية المدعى عليه ولتحقيق محاكمة عادلة ؟

وفي الوقت نفسه تداخل المصالح الخاصة العامة والتي تمثلها المصالح الاقتصادية الخارجية لرجال الكونغرس وأعضاء مجلس الشيوخ بدعم اتجاه عديد من الامريكيين للابتعاد عن العملية السياسية التي تسيطر عليها مصالح محافظة تسعى الى الربح ولا تتجاوب اجتماعيا . فمثلا هناك ثمانية اعضاء من لجنة التجارة في البرلمان لهم مصالح مالية في السكك الحديدية والخطوط الجوية ومحطات الراديو وشركات السينما وكلها تخضع لاشرافهم التشريعي . و٩٠ من اعضاء البرلمان بما في ذلك ١٢ من لجنة البنوك لهم مصالح في البنوك وشركات التسليف والادخار او الشركات التي تملك بنوكا و٧٧ من الاعضاء بما في ذلك ١٩ من لجنة القضاء لديهم مكاتب محاماة خاصة . و٤٤ من الاعضاء لديهم مصالح في شركات الغاز او النفط وهكذا . (نيويورك تايمز ، ١١ مايو – ايار ١٩٦٩).

التي تساهم في بنائها وسائط الاعلام نفسها . ان الرغبة في الحصول على هذه الصورة تركز على اولوية الصورة الشعبية العفوية المباشرة اكثر من تشكيل اهداف اوسع بتركيز الانتباه على القضايا الفلسفية الاساسية المتعلقة بمعنى المجتمع الحديث . ولما كان الوعي الاجتماعي العام قد فتنته سرعة التغيير واصبح هيكل القيم في المجتمع امرا تكتيكيا بشكل كبير فان القضايا الاستراتيجية الكبرى تزداد بعدا عن الانظار .

ومما يزيد في الامر سوءا ان شبكة المؤسسات الاميركية لم تواكب سرعة التغير الاجتماعي . ومع التحول الضخم الذي حدث في البلاد من خلال النمو الصناعي وحركة الاتصالات اصبحت الترتيبات الفدرالية تفتقر بشكل متزايد الى التماسك الاقتصادي او الجغرافي . انما يحافظ على هذه الترتيبات حية المشاعر التقليدية المحلية والمصالح المكتسبة اكثر من دورها الوظيفي الفعلي . ولقد دفعت المدن الكبيرة الجديدة ثمن هذا الوضع لان الهيكل الدستوري لم يساعد كثيرا في نموها ومن ثم اصبح محروما من الوسائل اللازمة لمواكبة مشاكلها الكبرى .

كما وجدت الحكومة القومية بوجه خاص بسبب نظام الحزبين ، أن من الصعب عليها تطوير آليات الاجراءات المطلوبة لمواجهة القوى المنافسة الجديدة الكبرى على المسرح السياسي علنا ، وهي ، اي الحكومة القومية،ما تزال تعمل كأن «اللعبة» السياسية تدور حول التحالفين الضعيفين نسبيا بين مصالح المجموعات التي عكست بشكل كبير المشاكل الصناعية ـ الريفية في العصور السابقة . فبشكل عام كان ذلك الترتيب فعالا في التعبير عن الارادة الشعبية وجعلها ارادة معتدلة ، وفي تحقيق توازن بين الاستمرار والتغيير . ومع ذلك من المفيد ملاحظة انه في الماضي كان نظام الحزبين يتحطم احيانا امام الضغوط والخيارات الحادة ، وان يكن ذلك التحطم مؤقتا فحسب.وقد يبدو ان تحطم نظام الحزبين قادم مرة اخرى ، بالذات لان مشاكل البلاد قد ازدادت حدة بسرعة تغيير غير اعتيادية مع ما تثيره من اتساع الآفاق الخيارات التي لا يمكن تلبيتها .

وبالنتيجة لم يعد الاطار الصناعي ـ الريفي او الليبرالي ـ المحافظ منذ وقت طويل يحيط بكفاءة بالقوة السياسية المتنافسة : القلعة الزراعية ـ المحافظة ـ المعادية للشيوعية والتي لها قاعدة كبيرة في الكونغرس ،والتجمعات الجديدة الصناعية ـ العسكرية ـ العلمية والتي تتعاون بصعوبة مع المجموعة الاولى على أسس سياسية ـ ايديولوجية ولكنها تختلف معها في التوجه الاقتصادي ، والتحالف المفكك الآخذ بالظهور لانصار الرفاهية الاجتماعية ـ والحقوق المدنية من بين المثقفين والذين يشاركون المجموعة الثانية بعض تحركاتها الاجتماعية الاقتصادية ولكنهم على خلاف اساسي مع المجموعتين الاولى والثانية فيما يتعلق بالاولويات . لقد عملت المجموعتان الاخيرتان بشكل عام خارج المشاركة المباشرة في العملية التشريعية في البلاد وهذا ما يعكس مدى فشل الجوانب التمثيلية للديمقراطية

الامريكية في مواكبة التغيير الاجتماعي * .

وهكذا تتعايش عديد من الامريكات الفرعية بصعوبة ، وبالرغم من ان امريكا آخذة في التفكير في نفسها كشخصية واحدة تميل كل امريكا فرعية الى اسقاط رؤيتها الخاصة للواقع الامريكي على الجميع .

والعلاقة بين هذه الامريكات متوترة بهذا السبب ، وكل منها يسعى الى التعبير سياسيا عن نفسه بدلا من الاندماج في الكل الاكبر . لقد عبّر روبرت كنيدي في الحملة الرئاسية في ١٩٦٨ عن سياسات القلق التي تربط بانفعال بين مآسي المحرومين ، مع انه عبر ايضا عن مخاوف وشكوك الامريكيين المستقرين الذين رغبوا وشعروا بأهمية احداث تغيير كبير ولكنهم لم يعرفوا ماذا يجب ان يكون عليه هذا التغيير (٢٣) . وكان يوجين مكارثي الناطق باسم سياسات الحنين والشوق وهو يعد بأسلوبه الواهن بهدم الاسوار من حول حديقة البيت الابيض مستجيبا الى رغبة سكان الضواحي في الحياة الريفية والعدالة الاجتماعية ، فافترض ان العدالة الاجتماعية ستطبق ولكن بعيدا عنهم . وتحدث هيوبرت همفري واعطى بسياسة الاتفاق والتنازلات المتبادلة بين الطبقات والاجناس واثارت احاديثه الانفعالية من جديد جو النزاع الطبقي ايام السياسة الاقتصادية الجديدة (نيوديل) . وعبّر جورج دلاس عن سياسيات الغضب والامتعاض متحدثا باسم اولئك الامريكيين الذين شعروا بأن كثيرا من التقدم الاجتماعي والعرفي قد تحقق على حسابهم على أيدي امريكيين آخرين اكثر منهم استقرارا وراحة . ومارس ريتشارد نيكسون سياسات الحذر ولقد ربح لان عددا كبيرا من الامريكيين من عديد من الامريكات الفرعية اصبح خائفا من ان «امريكته» تتعرض للخطر ولم يكونوا واثقين مما تخبئه لهم امريكا الجديدة في مخازنها .

هذا الاتجاه بالتركيز على المصالح الشخصية عكس حالة العقم التي يشعر بها

---

* ان التمثيل الكثيف لمحامي المدن الصغيرة لامر له دلالة في هذه الحالة . فان الجمعية الوطنية الاولى للجمهورية الخامسة في فرنسا بالمقابل ضمت ٦٧ استاذا ومعلما و٤٢ طبيبا ، و٤٥ موظفا مدنيا مهنيا عاليا ، و٣٤ محاميا ، و٣٢ عاملا ، و٢٧ من رجال الاعمال ، و٢٥ من العلماء والمهندسين ، و٢٠ من الصحفيين وهكذا . من الواضح انه من الزاوية التمثيلية تعكس الجمعية الفرنسية طابع المجتمع الحديث نسبيا بشكل اكثر دقة . وفي بريطانيا بدايات للاقرار بمزايا التنافس العملي الاكبر في الهيئات التمثيلية في المجتمع : «ان مجلس العموم سيستفيد فائدة كبيرة اذا ضم حوالي ٥٠ مهندسا يمكنهم ان يضمنوا ان المناقشات البرلمانية ستكون اوثق صلة بالواقع التقني لايامنا هذه» ، انتوني ودجكودبن ، وزير التكنولوجيا ، **مجلة اخبار الهندسة** (وهي مجلته الاسبوعية) (نقلا عن اسوشيتدبرس ، ٢١ اغسطس ـ آب ١٩٦٥) .

٢٣ ـ غلوريا ستاينم «الرابط بين السياسات القديمة والجديدة» **مجلة ساترداي ريفيو** ، ٢ـ٨ـ١٩٦٩ ، ص ١٩ .

بعض الناخبين فيما يتعلق بصياغة السياسة القومية . لقد شعر كثير من المواطنين بالتغيير ولكنهم أحسوا بأن سيطرتهم عليه قليلة . وفي الظروف الاستمرارية النسبية كانت الانتخابات الرئاسية وانتخابات الكونغرس اسلوبا مرضيا ومقبولا للتعبير الشخصي عن الافضلية في المجال السياسي العام جدا . اما في ظروف عدم الاستمرارية وازدياد تفتت الوعي العام (٢٤) ، فان الحملات الانتخابية القومية تصبح اقل كفاءة في مجال التعبير عن الارادة الشعبية . لقد اصبحت الانتخابات الرئاسية بوجه خاص مع الاهمية التي يعطيها التلفزيون للمظهر والاسلوب الشخصيين ، اصبحت بالنسبة الى الكثيرين احتفالا على المستوى القومي اكثر منها ممارسة للخيارات الرئيسية التي تؤثر في اتجاه الامة . هذه الخيارات يتم تقريرها بالتفصيل عن طريق القرارات الادارية او لجان الكونغرس ، وطالما اصبحت هاتان العمليتان بشكل عام بعيدتين عن الرأي العام فانهما قد اصبحتا اكثر تجاوبا مع نفوذ المصالح الخاصة المختلفة من تجاوبها مع الناخبين . هذه المصالح المختلفة الخاصة غالبا ما تكون لرجال الادارة والكونغرس صلات وثيقة بها .

ويتعلق بهذا الوضع ما لاحظناه مرارا عن عزلة وتعقيد المؤسسات العامة والخاصة وافتقادها للطابع الشخصي . فعندما تقوضت العلاقات الاسرية التقليدية القديمة في المجتمع الزراعي انتج العصر الزراعي في مقابلها الاتحادات وجمعيات المهنيين . ولكن الاتحادات لم تعد مؤسسات حية (٢٥) ، كما تضاعف عمليات الادارة «الآلية الذاتية» للحياة الحديثة من شعور المواطنين بالعجز . وتبدو المؤسسات الاجتماعية عاجزة عن تقديم متنفس للمثالية الفردية او التجاوب السريع للمطالب الجماعية . والدولة او التنظيم الخاص الكبير ، بالاضافة الى ذلك، لا مفر له من ان ينظم المشاكل الاجتماعية الكبرى حتى يمكنه مواجهة تعقيداتها ، وبالرغم من ان هذا التنظيم يسمح بدرجة كبيرة من التجاوب ، غالبا ما يتعارض مع الابعاد التي يشعر معها الفرد حيال نفس المشكلة ، ومن ثم يحد من حرية الفرد عندما تفشل الدولة في التوصل الى الحل الامثل لمشاكله . وهكذا ، فكلما حاولت الدولة تقديم المساعدة ، اتجهت نحو تدعيم شعور الفرد بالعجز .

والنتيجة امر متناقض . فالوضع الذي وصفناه يثير اهتماما عاما حادا بالسياسة بينما يزيد من الشعور بعقم السياسة . انه يفتت الوعي القومي العام بينما يشجع ازدياد المطالبة بشيء من الشعور باتجاه قومي عام ، وهذا الوضع اخيرا يجعل الفرد في مواجهة اخطار التفتت واخطار الاشراف الزائد عن

---

٢٤ ـ لمناقشة مفيدة حول تفتت الثقافة السياسية في ظل الديمقراطية انظر ارند ليجفرت «رموز الانظمة الديمقراطية» ، **الدراسات السياسية المقارنة** ، ابريل ـ نيسان ١٩٦٨ .

٢٥ ـ جيمس تيلر ، **الضرورة السياسية** The Political Imperative ، نيويورك ١٩٦٨ .

الحد في نفس الوقت . ولا جدال في انه كلما توسعت الحكومة القومية (٢٦) تتعرض السياسة القومية للتفتت وبالنتيجة يشعر العديد من الامريكيين الان بأن حريتهم آخذة في التقلص .

هذا الشعور يبدو ذا علاقة بافتقادهم للهدف ، طالما تعني الحرية الخيار في النشاط والعمل ، والنشاط يحتاج الى الوعي بالهدف . فان لم يؤدِ التحول الامريكي الحالي نحو العصر التكنتروني الى انجازات ترضي المرء شخصيا فان المرحلة التالية قد تكون انسحابا مؤسفا من اي انغماس اجتماعي او سياسي ، هروبا من المسؤولية السياسية والاجتماعية عبر التراجع الداخلي والموقف الخارجي المحافظ .

وفي الوقت الحالي ما تزال الثورة العلمية والتكنولوجية وهي القائمة اساسا على العمل العقلي تتجه للتأثير في المجتمع الامريكي بأسلوب غير مخطط عموما ، تقرره قرارات ودفعات تعكس القيم والمصالح الخاصة بأمريكا السابقة . ان الطاقة الفكرية معبأة (للاجابة) على سؤال «كيف» ؟ وليس على سؤال «لماذا» ؟ ومن ثم تواجه امريكا خطرا بأن تصبح «مدينة مرتبطة بمطلب بالسعي لتحسين الوسائل من اجل بلوغ غايات لم تحدد بعناية» (٢٧) . وما يزال على النظام السياسي ان يطور آليات واجراءات عمله حتى يمكنه ان يرفع السؤال الثاني ويجيب عليه . ان الامور التي تؤثر في الاسلوب القومي للحياة مثل بناء طائرة تفوق سرعتها سرعة الصوت او التهديدات البيئية او البشرية كالتلوث الصناعي او الاشعاعي من مشاريع الطاقة الذرية ، هذه الامور كلها يتم تناولها بعملية صنع ـ قرار تحد من فرص التعبير الذكي عن الارادة الشعبية (طبقا للتقرير السنوي السابع عشر لمؤسسة العلوم القومية ، يعمل أقل من ٥ بالمئة من اكثر من ٢٠٠ الف عالم ومهندس في الحكومةالفدير الية عام١٩٦٧ كانوا معنيين بالانظمة الاجتماعيةوالنفسية. وبالاضافة الىذلك وحسب تقرير١٩٦٣ لمجلس المستشارين الاقتصادي، امتصت ابحاثالدفاع والفضاء والطاقة ما يقرب من ثلثي العلماء العاملين على جبهات الامة العلمية والتقنية . كذلك يقدم مجتمعنا موارد محدودة نسبيا من اجل الاهتمام المنتظم بالمشاكل الاجتماعية بينما يقدم موارد ضخمة للامور الاقتصادية والتقنية والعلمية . ويروي لنا جدول ـ ١٣ ـ جزءا من هذه القصة) . حتى التعليم العالي مهدد بأن يتحول الى لا تعليم عندما لا يركز على القضايا الاساسية بل يؤكد على

---

٢٦ ـ للحصول على تقييمات متناقضة بشكل مثير حول اثر هذا التوسع ، انظر ايمانويل ميشين ، «كيف ستشكل التكنولوجيا المستقبل» **العلوم** Science ١٢ـ٧ـ١٩٦٨ ، وفيه يؤكد ان دور الحكومة سيزداد قوة ، وفيركس ص‌ص ١٤٦ ـ ١٤٧ الذي يرى العكس تماما . ولنقاش اوسع ومثير انظر بيتر دروكر **عصر اللااستمرارية** The Age of Discontinuity ، نيويورك ، ١٩٦٩ .

٢٧ ـ من مقدمة المول ، **المجتمع التكنولوجي** ، بقلم روبرت ك. ميرتون ، ص «و» .

التقنيات ، وذلك بأن يخلق اعدادا كبيرة من المتعلمين الذين يظنون انهم يعرفون الاجابات المحددة بينما هم في الواقع لا يعرفون حتى القضايا الهامة الحقيقية (٢٨).

جدول – ١٣ –

الميزانية السنوية بملايين الدولارات

الصناعة :		الصحة :	
جنرال موتورز	٢٠ر٢١٠	المعهد القومي للسرطان	١٨٦
فورد	١٢ر٢٤٠	الجمعية القومية لامراض القلب	١٦٤
ستاندرد اويل (نيوجرسي)	١٢ر١٩٠	المعهد القومي لالتهاب المفاصل	١٤١
جنرال الكتريك	٧ر١٨٠	المعهد القومي للاعصاب	١١٩
كرايزلر	٥ر٦٥٠	المعهد القومي للحساسية	٩٠
موبيل اويل	٥ر٢٥٠	المعهد القومي لصحة الطفل	٦٦
تكساكو	٤ر٤٣٠	الجمعية الامريكية للسرطان	٥٩
يو.اس.ستيل	٤ر٣٦٠	الجمعية الامريكية للقلب	٣٧
اي.ي.ام	٤ر٢٥٠	الجمعية القومية للسل	٢٧

اجتماعية وعلم نفس

المعهد القومي للامراض العقلية *	٣١
معهد ابحاث ستانفورد *	١٨
مؤسسة مييننجر	٩ر٥
مؤسسة الابحاث والتخطيط *	٨
معهد البحث الاجتماعي	٥ر٥
المعهد الامريكي لابحاث العلوم السلوكية	٥
معهد بروكنغز	٥
مكتب ابحاث الموارد البشرية	٤ر٥
معهد ابحاث الصحة العقلية	٢

المصدر : مركز توماس جيفرسون للابحاث يونيو – يوليو / حزيران – تموز ١٩٦٩ ص ٥٠ .

* جزء تقريبي من الميزانية المخصصة للمشاكل الاجتماعية .

---

٢٨ – انظر نقاشنا السابق في الجزء الرابع ص ٢٠١ .

ان الثورة الامريكية الثالثة تلقي اضواء كاشفة على التناقض الحاد بين نجاحنا التقني واخفاقنا الاجتماعي ، وتثير قضايا اساسية تتعلق بالاشراف على وجهة التجديد التقني وتوجيهه . كيف تتحدد الخيارات ؟ لماذا نضع هذه الخيارات ؟ من الذي يحددها ؟ ما هي القيم التي تتضمنها هذه الخيارات وكيف يمكن بلورتها بحيث يمكن صياغة سياسة متماسكة ؟ هذه القضايا تقلق بشكل متزايد كل المجتمعات الحديثة لكن — وبسبب المجال الاجتماعي الضخم للعلم والتكنولوجيا الامريكيين المعاصرين — هذا التحدي هام بشكل خاص بالنسبة للولايات المتحدة لانه يؤثر بل ويحمل في باطنه تهديدا لاكثر أوجه الحياة الامريكية خصوصية .

وطالما يبدو صحيحا ان «هذا المجتمع قد اختار التركيز على التغيير التكنولوجي كأسلوب رئيسي له في التعبير الخلاق وكأساس للنمو الاقتصادي» (٢٩) فان ذلك يستتبع ان المهمة الاكثر الحاحا لهذا المجتمع هي تحديد اطار للمفاهيم يمكن للتغيير التكنولوجي من خلاله ان يكون له غايات انسانية ذات معنى . وما لم يتم ذلك فان هناك خطرا حقيقيا من انه اذا بقيت الثورة الامريكية الثالثة بدون اتجاه وهي حبلى بالامكانيات المتاحة امام قدرة الانجاز والخلق الفرديين فانها قد تصبح مدمرة اجتماعيا .

رد فعل اليسار الجديد

ان الثورة لا تنشىء اطفالها فحسب ، انها تطردهم ايضا . انه لأمر مفهوم ان المجتمع الذي يعطي الاولوية للتغيير ، والذي يجعل من المعرفة السبيل الاساسي للتجديد ، والذي يوسع بشكل ضخم مؤسسات التعليم المتقدم ، والذي يخلق لاول مرة في التاريخ طبقة كبيرة من الناس احرارا طوال سنوات مراهقتهم الاخيرة وسنوات نضجهم الاولى من اي قيود تترتب على عبء اعالة الذات ، والذي يشجع النشاط الفكري بدرجة عالية من المكانة الاجتماعية ولكن بدون قوة سياسية مباشرة، مثل هذا المجتمع يجب ان ينشىء المتمردين الذين هم نتاج الثورة ذاتها التي تمزقهم وتفجر طاقاتهم . ولعل اكثر ما يثير السخرية في تلك الظاهرة المفككة المتطايرة اجتماعيا — سياسيا للطبقة الوسطى الامريكية المعاصرة والمسماة باليسار الجديد، هو انها في ذاتها من خلق الثورة التكنترونية كما انها رد فعل ضدها .

ايديولوجية صبيانية :

---

٢٩ — دونالد ن. ميشيل ، **الجيل القادم** The Next Generation ، نيويورك ١٩٦٥ ، ص ١٦ .

ان اليسار الجديد وهي صفة مركبة ومحيرة مشكلة من تجميع مائع من الافراد المتعاطفين (وبالذات من بين الجماعات الادبية في مدينة نيويورك وبعض الدوائر المهنية) ومن مجموعة متناثرة من التنظيمات الجديدة اشتهر من بينها **تنظيم الطلاب من اجل مجتمع ديمقراطي** ★ هذا اليسار الجديد هو التعبير السياسي الايديولوجي لحالة من القلق الضخمة بين شباب الجامعات المنحدرين من الطبقة الوسطى الامريكية . وكما حدث في اواخر الستينات نجد ان العضوية في التنظيمات الاكثر نضالية كانت محدودة نسبيا ، لكن في لحظات الضغط (كلحظات المواجهة مع السلطات) نجحت هذه المنظمات تماما في تعبئةمساندة شعبية أعرض. وبالاضافة الى ذلك وفي اوقات مختلفة واستجابة لقضايا مختلفة كان اليسار الجديد قادرا على ان يجذب بعض الاتجاهات الشعبية الامريكية عميقة الجذور كحركة الكويكرز السلمية وحركات المهاجرين الاشتراكيين والشيوعيين الذين قدموا قبل الحرب العالمية الثانية بشكل عام . ان التوتر بين الاجيال الاغتراب السلبي الواسع شجعامحاولات التعبير عن التضامن التي خلقت في بعض الاحيان الانطباع بتطابق حركة الشبيبة الضخمة مع اهداف اليسار الجديد الاكثر نضالية ★★ .

لذا ليست الحدود الخارجية لليسار محددة وفي بعض الاحيان يمكن لاعضاء الحركة الاصلاحية الاساسيين في المؤسسة السياسية مثل روبرت كنيدي ويوجين مكارثي ان يفرغوا قدرا كبيرا من هذا الدعم المتطاير للشبيبة التي كانت قد جذبتها قبلهم الاتجاهات الاكثر تطرفا في اليسار الجديد . ومع ذلك كان اليسار الجديد نفسه اكثر نضالية في بياناته وأكثر حلقية في تنظيمه ، كما انه يضم بين صفوفه مثقفين اكثر مما تضم التحالفات الاعرض الاخرى التي تسعى الى صياغة «سياسات جديدة» في امريكا ويتميز عنهم عمريا ايضا . والاختلاف الرئيسي مع

★ Students for Democratic Society S.D.S.

★★ مع ذلك يجب ملاحظة ان عدد الطلاب المشاركين في المظاهر الاكثر علانية للنضال والكفاح محدود نسبيا . ففي فترة اكتوبر ـ تشرين اول ١٩٦٧ ـ مايو ـ ايار ١٩٦٩ وقعت خمس حوادث في ٦ جامعات كبرى هي بركلي وولاية سان فرنسيسكو ، وكولومبيا ، وهارفرد ، وجامعة ديسكونسن، وكورنيل . ومن بين كليات الامة البالغ عددها ٢٣٧٤ كانت هناك حوادث في ٢١١ فقط ، ومن مجموع الصدامات مع السلطة البالغ عددها ٤٧٤ تمت ٦١٥٨ حالة توقيف (حسب البيانات المتجمعة لدى مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة ونقلتها جريدة **الواشنطن بوست** ٢ يوليو ـ تموز ١٩٦٩) .

وقد قدر عدد دافعي الاشتراكات في الـ S.D.S بحوالي ٦ آلاف وعدد اولئك المتعاطفين الى حد ما مع بعض نداءات اليسار الجديد بحوالي ٧٠٠ الف . والعدد الكلي للطلاب هو حوالي ٧ ملايين (**مجلة فورتشن** عدد خاص عن الشباب ، يناير ـ كانون ثاني ١٩٦٩) وقد قدر عدد منشطي الـ S.D.S في اوائل ١٩٦٩ بما يتراوح بين ٧٠ الف و١٠٠ الف (الفاردیان ١١ يناير ـ كانون الثاني ١٩٦٩) .

ذلك كان هو نضالية اليسار الجديد ، وهي نضالية نابعة من الاعتقاد بأن الاصلاحات لم تعد تكفي .

ولقد قيل مرارا ان حالات التوحد التي تتم بين الحين والآخر بين القطاعات العريضة من الشباب واليسار الجديد المناضل تعكس مثالية شديدة ووعيا اجتماعيا لجيل الكليات الحالي الذي لم يعد يطيق صبرا على المادية الشديدة لمجتمعه ، والذي يحيطه تباطؤ النظام السياسي في التحرك ضد الظلم الاجتماعي. هذا ايضا ، قول مشكوك فيه . لقد كان الشبان نشطون في النضال من اجل المساواة العرقية ولقد تجاوبوا بحماسة في البداية لنداء الخدمة العالمية في صفوف فيالق السلام . واندفعوا للالتحاق بعديد من الجهود المحلية لشن النضال ضد الفقر والجهل في المناطق الحضرية . كما انه من الصحيح ايضا ان النظام القائم لم يواكب تماما هذه المثالية . فمثالية الشباب تحتاج الى احساس بالجهد القومي الارادي لكي يمكن تحقيقها ، ولم يكن الشباب وحدهم هم الذين رأوا ان هذا الجهد يبدو ناقصا . ومع تراكم الاحداث خلق الاحباط المتكرر اغترابا حادا ، اولا عن النظام السياسي ثم عن النظام الاجتماعي – الاقتصادي ككل . لذا انكر الشباب على النظامين شرعيتهما المعنوية . وخلق الجمع بين المثالية المحبطة والشك التاريخي ظروفا ملائمة لدعوات تقوم على الانفعال وعلى الرغبة في الوصول الى صيغة ثنائية بسيطة .

كان من بين القضايا الكبرى التي حفزت خيبة امل الشباب في الديمقراطية الليبرالية وقدرتها على الحسم وعلى مواجهة مشاكلها القديمة والجديدة ، كان من بينها حرب فيتنام ولامبالاة الاغلبية البيضاء تجاه مطالب السود بالمساواة . كلا الحافزين شجعا القول بأن النظام القائم كان مهتما بالحفاظ على نفسه لا بالتغيير، وان الاعتمادات المالية الفدرالية كانت توفر لقضايا بعيدة المدى ولا توفر لعلاج امراض امريكا المباشرة . كلاهما ايضا وفّر للشباب تبريرا مريحا يفسر اخفاقهم في التوصل الى التعقيدات الفكرية في عصرنا ، ولكي يديروا ظهورهم للمهمة الصعبة البطيئة التي لا مفر منها لاعادة التجديد الاجتماعي .

هذا النوع نفسه من التبرير الفكري المريح للذات والذي يقدم راحة مباشرة وموقفا عاطفيا مرضيا يقوم على النفي الكامل ، هو الذي يلعب دورا في تشكيل حالة القرف العريضة بين الطلاب التي يستغلها اليسار الجديد الاكثر نضالية . لقد اولت نظريات تفسيرية عديدة لحركة الطلاب النضالية تركيزا كبيرا على الابعاد النفسية لأزمة القيم في امريكا المعاصرة وعلى المثالية الاصيلة الملتهبة بين العناصر المنشطة . فعلى سبيل المثال قال روبرت ليبرت بشكل مقنع انه «من الضروري ان نفهم حياة هؤلاء المشاركين (في الحركات الطلابية) من ضمن منظور نفسي – تاريخي ... والنتيجة هي نوع من الحياة الهزيلة تظهر بشكل اعمق في جوانبها غير المدركة . وبشكل أخص قد زودتهم الحياة بدرجة من الالحاح على احداث

التغيير حتى يمكن ان تستمر» (٣٠) . وبالمثل ركز كيث كينتستون على انه في رفض المجتمع القائم يعبر الطالب عن «اشمئزازه» من فكرة الكمية وبالذات الكمية الاقتصادية والمادية ، كما يعبر عن تحول نحو مفاهيم المساواة .. ويتضمن هدفا آخر من الثورة الجديدة الانتفاض ضد النمطية والتسوية بين الاشياء وفرض النماذج والقضاء على التمايز ..» (٣١) .

كما اتجه المشاركون من الطلاب ايضا الى التاكيد على البعد السيكولوجي . واكد مارك كرزون في كتابه **العالم كله يتفرج** وهو كتاب متعاطف مع الحركة أعده واحد من شباب جامعة هارفرد ، اكد اولا على الجانب السيكولوجي ملاحظا انه في كلتا الجامعتين هارفرد وبركلي نجد ان «وحدات الامراض النفسية في الخدمات الصحية في الجامعتين ، وهي وحدات مشغولة جدا عادة ، وجدت ان عدد الطلاب المترددين عليها لطلب المساعدة قد انخفض بشكل ملحوظ خلال فترة النشاط السياسي المنظم .. وانه يمكن استخلاص ان الطلاب قد وجدوا متنفسا خارجيا لاهتماماتهم الشديدة وبذا اصبحوا أقل انغلاقا داخل عقولهم هم» (٣٢) لا يعني ذلك ان مشاكلهم الشخصية قد حلت ، وانما قد دفعت الى الوراء الى حد ما بالنسبة الى الطالب .. كما ذكر كرزون بيانات تظهر ان النضالية وتناول العقاقير المخدرة كانت اكثر انتشارا بين الطلاب الذين يدرسون العلوم «الناعمة» والذين كانوا اكثر انشغالا بعادة «تحليل الذات» وأقل استعدادا للمشاركة النشطة في المجتمع الموجه علميا بشكل متزايد (٣٣) .

هناك بلا شك مزايا عديدة في هذا التفسير النفسي للحركات الطلابية المناضلة . ان النظام القائم وبوجه خاص النظام الآخذ بالظهور قد أولى اهتماما كبيرا للمنافسة الفردية بحيث ان القلق يتولد في وقت مبكر من العمر . ان جانبا من التمرد ضد السلطة في التعليم يمكن ان يرجع الى الرغبة المفهومة لدى الشباب في التخلص من الهيكل التنافسي القائم حيث النجاح او الرسوب في مثل هذه السن المبكرة له تلك الآثار التي تدوم فيما بعد . وفي الوقت نفسه يخلق ضعف هيكل العائلة ضغوطا اخرى من اجل الحصول على مصادر لتعويض الطمأنينة السيكولوجية ، وبذا تصبح مجموعات الشبيبة المتقاربة العمر مهمة في تحديد

---

٣٠ ــ روبرت س. ليبرت ، «نحو نموذج مفاهيمي للشبيبة الراديكالية والمناضلة ، دراسة عن طلاب الثانويات في كولومبيا» مقدمة للجمعية الطبية للتحليل النفسي ، ١ـ٤ـ١٩٦١ ، ص ٢٨ .

٣١ ــ كينيث كينستون ، «يجب ان تنشأ في سكارسديل لكي تعرف مدى سوء الاحوال» **مجلة النيويورك تايمز** ، ٢٧ـ٤ـ١٩٦٩ ، ص ١٢٨ . هذا المقال يعكس آراءه في كتابه الاكبر ، **الراديكاليون الشباب : ملاحظات عن الشباب الملتزم** Founy Radicals: Notes on Committed Youth نيويورك ، ١٩٦٨ .

٣٢ ــ غيرزون ، ص ٢٦ .

٣٣ ــ المصدر السابق ، ص‌ص ٥٢ ــ ٥٣ ، ٧٣ ، ١٨٥ ، ١٩٠ .

انماط السلوك والمعتقدات المعلنة * .

ان مجتمعا ، بالاضافة الى ذلك ، على هذه الدرجة من العقلانية كالمجتمع الامريكي يتجه لان يكون مجتمعا مملا بدرجة خطرة . ولهذا السبب لا يجب التقليل من اعتبار الملل وحده مصدرا من مصادر الاغتراب ــ الذي غالبا ما يذكر في كل التفسيرات ــ لان هذا الملل هو سبب هام في حالة القلق والاضطراب . ففي مجتمعنا «نفتقد الى حد كبير شعور الاثارة الذي يسببه المجهول غير المتوقع وحالة العقل النشطة التي تنتج عن التنقل من السعادة الى الالم ومن الاتزان الى القلق . ان الثمن الذي يدفعه المرء عندما يكون مجرد مسمار في عجلة يمكن ان يكون هو الشعور بالملل والشعور بالتفاهة الذاتية» (٣٤) والهروب من هذه الحالة الى «حدث» ثوري يمكن ان يكون هو الحرية ، والنقاشات التي لا تنتهي والتي تثير رفض الانسان الشخصي للمشاركة في «المجتمع الآلي» ويصبح «اقتصاد الماكينات الصغيرة» والوفرة المفسدة شكلا من أشكال العلاج الجماعي .

هذه الحالة النفسية تستحث البحث عن مصادر جديدة للشعور وللمسؤولية وهي ما فشلت المؤسسات القائمة الاباحية غير الشخصية في نفس الوقت في توفيرها . انها تخلق حالة من التجاوب لتعبئة عامة عالية ضد **الوضع الراهن** . وتؤدي بشكل متناقض الى حالة كلما كانت فيها المطالب اكثر غموضا وأكثر طموحا ضاقت بسرعة الفجوة بين الواقع والامل ** .

---

* طبقا لتقرير «اللجنة الرئاسية حول تقويه القانون ووزارة العدل» (١٩٦٧) «في امريكا في الستينات يعيش الشباب البالغون في مجتمع متميز خاص بهم وربما اكثر من اي مكان وزمان آخر وليس من السهل بأي حال فهم هذا المجتمع او وصفه او حتى العيش فيه . انه مجتمع مادي بشكل كبير في بعض جوانبه ، وأعضاؤه منشغلون ، وربما تشبها بدون وعي بالكبار منشغلون بالاشياء المادية كالملابس والسيارات . وقد شجعهم على ذلك بالتأكيد المصانع والتجار الذين اكتشفوا كم هو مربح سوق الشباب هذا . وفي بعض جوانبه نجده مجتمعا حسيا بشكل كبير واعضاؤه مهتمون بالانفعالات التي يحققونها بالسباقات المجنونة او الموسيقى او المخدرات او التزلج على سطح البحر . وفي بعض الجوانب نجده مجتمعا اخلاقيا بدرجة كبيرة وأعضاؤه مهتمون بالاستقلالية والامانة والمساواة والشجاعة. بشكل عام هو مجتمع متمرد معارض مندفع تحت افتراض ان عالم الكبار عار . في الوقت نفسه هو مجتمع طيع ، فالشباب الذين يجدون انفسهم بدون خبرة وغير واثقين من انفسهم ولا حول لهم كأفراد يتكيفون للانماط العامة في اللبس وقص الشعر والكلام ربما بدرجة اكبر مما يفعله الكبار ، وهم يتصرفون بشكل مشترك في مجموعات ــ او عصابات» (**تحدي الجريمة في مجتمع حر** ، نيويورك ، ١٩٦٨ ، ص ١٧٦) .

٣٤ ــ ميشيل ، **الجيل القادم** ، ص ٤١ . انظر ايضا روبرت أ. نسبت ، «أفول السلطة» ، **الاهتمامات العامة** The Public Interest ربيع ١٩٦٩ .

** هنا نجد ايضا «الاتجاه الامريكي العام» بل ربما الاتجاه الانساني العام» للافتراض بأن الامور =

واخيرا يبدو ان هناك عاملا من الشعور بالذنب ومن الرضا على الذات في دوافع الشباب الذين يعانون من الاغتراب، ولا يجب اهمال هذا العامل. من المؤكد انه من السهل ادانة النظام الاجتماعي ككل ، من المشاركة في برامج VISTA او فيالق السلام . ان ادانة فيالق السلام باعتبارها امتدادا للامبريالية تصبح تفسيرا يخدم الاغراض الذاتية: فالمناضلون «الذين يشعرون بعدم الرضا بشكل عميق على انفسهم ويواجهون اضطرابا داخليا ويسقطون ذلك على مؤسسات الجامعة اولا ثم على مؤسسات المجتمع ثانيا اذ يلومونها على ضعفهم الداخلي» (٣٥) هذا الاعتبار هام بوجه خاص بالنسبة الى العديد من المناضلين الشباب المؤمنين اقتصاديا المنتمين الى الطبقة الوسطى . صحيح أن أسلوب حياتهم المدلل يناقض الى حد ما يمارسونه من معاداة للمادية ، خصوصا عندما يكون وجودهم المادي نفسه معتمدا على الدعم السخي نسبيا الذي يقدمه آباؤهم او زملاؤهم . ومن ثم نجد بعض أوجه الشبه بين طلاب الطبقة الوسطى الامريكيين القلقين والطلاب الثوار في امريكا اللاتينية الذين بالنسبة الى الهيكل الاجتماعي لمجتمعاتهم يمكنهم الركون الى حياة ناجحة ومجزية ماديا نسبيا بغض النظر عن نتائج دراساتهم .

ان نظرة الشباب المغتربين والمثاليين في نفس الوقت على عكس الايديولوجية السياسية للعناصر المنشطة في اليسار الجديد وهم أصغر عددا بكثير ، يمكن ان توصف بالصبيانية الايديولوجية فهم يعتمدون على علم النفس كمصدرهم الفكري ويستخدمون الشعارات السياسية السارية في العالم الكبير (الحرية والمساواة الخ) ولكنهم يتصرفون كأنما العالم هو احد الثوابت . فعلى سبيل المثال لا نجد في كتاب كرزون اي نقاش حول كيفية القضاء على المظالم العرقية ، وحول السبيل الذي يمكن للاقتصاد ان يخلق به الثورة المطلوبة او حول من يجب عليه ان يجعل الطائرات تطير والمستشفيات تعمل والنظام الاجتماعي يعمل . ومع ذلك يحتوي الكتاب على العوامل العاطفية المعتادة في اي نظام ايديولوجي : فالاعداء هم الكبار والتكنولوجيا وصوابية موقف الشباب المثالي يؤثر فيها مرارا، والنتيجة هي عقيدة تخدم الذات طالما كانت المهمة المملة الخاصة بتشغيل المجتمع متروكة للآخرين اما المستقبل فقد ترك غامضا ✶ .

= الان سيئة وانها كانت يوما ما افضل، وذلك بدلا من ادراك ان الامور الان يمكن ان تعد سيئة لسبب محدد هو انها آخذة في التحسن» (كريستوفر جنكز ودايفيد ديسمان ، «دور الثقافات الطلابية ، السجل» ، كلية المعلمين ، كولومبيا ، اكتوبر ـ تشرين اول ١٩٦٧ ص ١) (التشديد في الاصل) .

٣٥ ـ شهادة الدكتور برونو بتلهايم ، استاذ علم النفس والعلاج النفسي بجامعة شيكاغو للجنة النيابية الفرعية الخاصة عن التعليم ، ٢٠-٣-١٩٦٩ .

✶ ان التفسير النفسي يتناسب تماما مع بعض النقاط التي أثارها كونراد لورنز خلال فترة البلوغ وبعدها مباشرة ، يصبح لدى الكائنات البشرية اتجاه لا يمكن مقاومته للتحلل من التزامهم بالقيم التقليدية والنماذج الاجتماعية في ثقافتهم، مطلقين العنان لافكارهم لتلقي الشك على قيمهم =

ثوار يبحثون عن الثورة :

يمثل اليسار الجديد المتطرف ظاهرة تمرد الطبقة الوسطى ضد مجتمع الطبقة الوسطى . وهي ظاهرة جديدة بمعنى انها في استغلالها لحالة القلق النفسي لبعض الاجيال في الكليات يأتي قدر كبير من الدعم الذي تحصل عليه من مجموعة اجتماعية لم تنغمس بعد في عملية انتاج الثروة الاجتماعية ، ولذلك لا يمكن تقديمها مجموعة مستغلة . وبشكل عام نجد ان هذه المجموعة تتمتع بالامن المادي والاجتماعي ولكنها ليست مكتفية نفسيا ، ومحبطة ومملولة يرهقها الشعور بالذنب . ويبدو ان هذه هي نفس حالة بعض مؤيدي اليسار الجديد الاكبر في العمر ، وبالذات اولئك المنحدرين من تجمعات المثقفين الذين حصلوا مؤخرا على مكانة اجتماعية ومادية يهددها بشكل حاد الشعور بالعجز السياسي والخوف المتزايد من ان الزمن ، قد تخطاهم .

وترجع الصعوبة التي يواجهها اليسار الجديد المناضل في الوصول الى الجماهير الى الوضع الراهن في الولايات المتحدة. فخلال الثلاثينات كان للحركات الراديكالية قاعدة حقيقية لآمالها في تثوير الجماهير العاملة الامريكية ، هؤلاء الذين كانوا يعانون من الحرمان في فترة الركود الكبير قد بدأوا بالكاد تطوير وعيهم التنظيمي الخاص . كان هناك في الواقع امكانية توافق الايديولوجية الراديكالية مع الجماهير المفقرة المحبطة * .

اما اليوم فالوضع مختلف كلية بالنسبة الى كثير جدا من الامريكيين وان لم

= ولتبحث حولهم عن مثل جديدة وربما كانت افضل. قد يكون هناك في هذه المرحلة من العمر فترة محددة حساسة لعملية تثبيت جديدة تشبه في كثير من جوانبها عملية التثبت لدى الحيوانات والتي تدعي التطبع . فاذا اثبتت المثل القديمة في هذا الوقت الحرج من الحياة بعد فحصها بشكل نقدي دقيق انها زائفة .واذ لم تظهر مثل جديدة فان النتيجة ستكون ضياعا كاملا ومللا مرهقا هو الذي يتصف به الجانحون من الشباب . ومن ناحية اخرى اذا استطاع الديماغوجي الذكي المتخفي وراء اخطر فنون صنع الاوضاع غير العادية المثيرة ، اذا استطاع ان يمسك بهؤلاء الشباب بذلك العمر الحساس فسيمكنه بسهولة ان يوجه تثبتهم في اتجاه يخدم اهدافه السياسية . ان بعض الكائنات البشرية في سن ما بعد البلوغ يبدون وكأنهم مسوقون برغبة لا يمكن مقاومتها لتبني قضية ما ، واذ يفشلون على قضية تستحق يتثبتون على بدائل ادنى بشكل يثير الدهشة ، (**حول العدوانية** ، نيويورك ، ١٩٦٦ ، ص ٢٥٨) .

* ولكن ذلك كان كامنا فقط . فكما لاحظ بول بوهل محرر مجلة **راديكال امريكا** في مقالة نشرتها له الغارديان الاسبوعية الراديكالية (٢١ يونيو ــ حزيران ١٩٦٩) : «... ان اكثر السمات البارزة في المجتمع الامريكي بالمقارنة بالمجتمع في اوروبا كانت غياب حركة طبقية واعية مستقرة بروليتارية » .

يكن بالنسبة اليهم جميعا : فكما لاحظنا نجد ان ابناء الامريكيين الذين لم يحصلوا على اي تعليم عال (العمال ذوي الياقات الزرقاء في امريكا الثانية التي ما زالت صناعية) يتدفقون على الكليات ، كما يقوي المجتمع المعاصر من خلال انفتاحه الظاهري الشعور النسبي بحسن الاحوال الذي تخلقه انجازاته المادية ؛ امريكا الثانية هذه ترى بشكل متزايد ان يفتح امامها المجتمع العلمي ـ التكنولوجي الجديد طريق الفرص على المدى الطويل . انها ببساطة ليست مقتنعة بما يقوله اليسار الجديد من ان «المزيد من الفرص + المزيد من الديمقراطية = حرية اقل» (٣٦) . ان اليسار الجديد لا يملك الا القليل من الوعود لامريكا الثانية التي تميل الى التعبير عن اشكال قلقها المتنوعة باتجاه سياسي محافظ بل وبموقف ضد المثقفين .

هذا يبقي لمناضلي اليسار الجديد الذين ما يزالون يبحثون عن دعم جماهيري، يبقي لهم فقط امريكا الاولى أو امريكا ما قبل الصناعية ، امريكا التي تشهد نهايتها على يد الصناعة . ولكن المشكلة هنا تتعقد بحقيقة ان كثيرين من امريكا تلك هم من السود وان السود الامريكيين هم إما عازمون على الاستفادة من الفرص الاقتصادية الآخذة بالازدياد او يسعون لتحقيق شخصيتهم الاقتصادية الآخذة بالازدياد او يسعون الى تحقيق شخصيتهم الوطنية من خلال التمايز النضالي عرقيا . وفي اي الحالين يبدو اليسار الجديد للكثيرين منهم مثيرا للمشاكل وليس على درجة عالية من الجدية فيما يتعلق بتحول الطبقة الوسطى البيضاء ، وربما كان ذا قيمة هامشية في اقلاق وهز بعض المؤسسات القائمة البيضاء وفي تحريك بعض الوعي الابيض ، ولكن بشكل عام ينقصه التماسك والاستمرارية والاتجاه السياسي المحدد ✶ .

لقد كان من الممكن ان يصبح اليسار الجديد قوة سياسية اكثر جدية في الولايات المتحدة اليوم ، ومن ثم اكثر تدميرا ، لو كان انبياؤه قادرين فكريا على التحرك الى ابعد من راديكاليتهم الاوروبية او الى ابعد من اتجاه الهروب المعادي

---

٣٦ ـ انظر الراي الذي قدمه ادغارسي فريدنبرغ ، «تكلفة الفرص المخفية» **مجلة الاطلنطي الشهرية** Atlantic Monthly ، فبراير ـ شباط ١٩٦٩ ، ص‌ص ٨٤ ـ ٩٠ .

✶ في هذا المجال فان التقييم الذي كتبه دايفيد هيليارد رئيس حزب الفهود السود عن الـ S.D.S هو تقييم مفيد : «نحن لا نرى الـ S.D.S انه على درجة كبيرة من الثورية نحن نرى الـ S.D.S انه مجرد جبهة سلمية اخرى تحاول المؤسسة الفاشية ان تضفي عليها طابعا ثوريا حتى تثير الارتباك والاضطراب في الآمال وبحيث يؤدي ذلك الى اضعاف حزب الفهود السود..

«... سنضرب هؤلاء المخنثين الصغار ، سنضرب تلامذة المدارس الصغار على اردافهم اذا لم يحاولوا تصحيح سياساتهم. نحن نريد ان يكون ذلك معروفا لـ S.D.S واول ابن قحبة يخرج على النظام من الافضل ان يقف في الصف انتظارا لاجراءات تنظيمية معينة من حزب الفهود السود» (مقابلة في جريدة **بركلي بارب** ٤ اغسطس ـ آب ١٩٦٩ ، نقلا عن الغارديان ١٦ اغسطس ـ آب١٩٦٩).

للعقلانية الذي استحدثوه * . فعلى سبيل المثال يطرح المجتمع الحديث بوجه خاص مشاكل مركبة تتعلق بالمساواة وهي قضية ذات اهمية كبرى بالنسبة الى اليسار الجديد ولكن تلك المشاكل لا يمكن ان تحل باسترجاع انتقادات القرن التاسع عشر الموجهة ضد الراسمالية (٣٧) واذ فشل اليسار الجديد في تمثل جدة التحول الامريكي الحالي فكريا فقد جعل نفسه قوة سلبية في الجوهر وعفى عليها الزمن . ومن المؤكد ان اليسار الجديد وقد جمع بين البلاغة الماركسية واستثارة الانفعالات يبدو وكأنه قد صمم ذلك ليعدم المجتمع بدلا من ان يغيره . وادى ذلك

---

* ان الجذور الفكرية لكل من ماركيوز وشومسكي هي من الراديكالية الجامدة الاوروبية السائدة في القرن التاسع عشر (عن شومسكي والشيوعية انظر بشكل خاص التعليقات العميقة التي ذكرها سيمور مارتن لبست ، في كتابه «اليسار واليهود واسرائيل» مجلة انكونتر ديسمبر – كانون اول ١٩٦٩ ، ص ٣٤) .

وفي هذا المجال تنطبق التعليقات التي قدمها والتر لوكير بشكل خاص على التبريرات التافهة التي قدمها ماركيوز للنوع المفضل لديه من الديكتاتورية وللتفاهات السياسية التي يقدمها شومسكي : «ان حركة الشباب في امريكا بكل ما لديها من طاقات كامنة مثالية ضخمة قد خرجت بشكل سيء وربما لا رجعة فيه من الطريق السليم . وفي ذلك تقع مسؤولية كبيرة على اكتاف المتطرفين الذين قدموا التبرير الايديولوجي لهذه الحركة في مرحلتها الحالية ، هؤلاء المثقفون الذين يحاولون بعد ان خبت احلامهم اللامعة ان يستعيدوا عذريتهم الايديولوجية ... ان دكاترة حركة الشباب هم في الحقيقة جزء من مرضها . لقد ساعدوا على توليد قدر كبير من الانفعالات ولكنهم فشلوا في ان يقدموا فكرة جديدة واحدة هذا اذا نحينا جانبا الشعبوية المفرطة في التفاهة التي قدموها» . («أضواء على حركة الشباب» **مجلة كومنتاري** يونيو – حزيران ١٩٦٩ ص ٤) .

ان «الشعبوية التافهة» يعبر عنها بعض الكتاب (مثل أ. منديل في مقالته المبتذلة «الانسان الآلي والمتمرد» الجمهورية الجديدة ١١ يناير – كانون الثاني ١٩٦٩) بهروبية مانيوية شديدة وبمحاولات لتقنين الموقف غير العقلاني الذي يتخذه بعض الشباب باعتباره ثقافة جديدة دائمة (مثلا الجهد الفكري الاكثر جدية الذي قدمه تيودور روزاك ، صنع ثقافة مضادة ، نيويورك ، ١٩٦٩) . ان انفعالات الآباء السائدة تكشف عنها التعليقات المتعاطفة مع كتاب روزاك والتي ابداها استاذ الفلسفة روبرت وولف. فبعد ان لاحظ ان روزاك يقول بأن «المجتمع الصناعي الحديث بشكل عام والمجتمع الامريكي بشكل خاص هو مجتمع قبيح قمعي مدمر ويخرب كثيرا مما هو انساني فعلا» . يستمر وولف ويقول عن الفرضية السابقة «.. اني اوافق عليها ، ومن المقرر اليوم انها حقيقة بالنسبة الى كل رجل وامرأة عاقلة . وأي انسان ما يزال يتخيل ان الولايات المتحدة هي ارض الفرص وقلعة الديمقراطية مرشح لان يكون في مستشفى امراض عقلية او لان يصبح عضوا في وزارة ريتشارد نيكسون» . (نيويورك تايمز بوك ريفيو ، ٧ سبتمبر – ايلول ، ١٩٦٩ ، ص ٣) .

٣٧ – انظر ث.ب. بوتومور ، **نقاد المجتمع : الفكر الراديكالي في امريكا الشمالية** **Critics of Society: Radical Thought in North America** ، نيويورك ، ١٩٦٨ .

الى خلق وضع يأسف له حتى النقاد الراديكاليون في الولايات المتحدة المعاصرة ✱ وبالاضافة الى ذلك انتجت بلاغة اليسار الجديد الفياضة التي يضاعفها عدم النضج الايديولوجي للمناضلين الشباب والتخلف التاريخي لانبيائه ، موقفا برنامجيـــــا وحوارات أيديولوجية تصل احيانا الى حد التهريج ✱✱ .

✱ ادانت **الفارديان** مثلا الـ S.D.S لانه «تسم بالحلقية والجمود العقائدي واللغو الغامض والشعارات الفارغة التي تتغلغل في المستويات العليا من قيادته. فمثل هذا الوضع لن يؤدي الا الى مزيد من عزلة القيادة عن الاعضاء الذين لم يتلقوا ابدا اي برنامج تعليمي قومي جاد من شأنه القضاء على الفجوات في الوعي السياسي والقائمة على مستوى الفروع ... اننا نتساءل عن الاتجاهات التي تؤدي الى التطبيق الاعمى لمفاهيم هامة ومتداخلة مثل ديكتاتورية البروليتاريا وحزب الطليعة دون اي اعتبار للطبيعة الحالية للراسمالية الاحتكارية الامريكية ودون اي محاولة لاجراء التعديلات اللازمـة على هذه الصيغ حتى يمكن تطبيقها على البلد الصناعي الاكثر تقدما في العالم» . (**الفارديان** ٥ يوليو – تموز ١٩٦٩ ، ص ١٢) .

✱✱ مثلا جرى في الاجتماع القومي لـ S.D.S في ١٩٦٩ الحوار التالي : «المتحدث التالـــي تشاكا وولز مسؤول الاعلام في حزب الفهود السود في الينوي... بدأ بشرح دور المراة في الثورة قال: نحن نؤمن بحرية الحب وبسلطة الفرج» . عمت الصدمة المجتمعين وتجاوب الـ P.L بأنشـــــودة «حاربوا تعصب الرجال» وتجاوب وولز قائلا «لدينا بعض المتطهرين في صفوفنا» . والسوبرمان كان ديثونا لانه لم يحاول ان يضاجع لويس لين» .

وبدأ الـ P.L.W.S.A وكثيرون آخرون ينشدون انشودة «حاربوا تعصب الرجال» كان الغضب شديدا ونزل وولز عن المنصة تاركا اياها لجيويل كوك وهو متحدث آخر باسم الفهود . لم يفهم كوك ما هو الخطأ بمسألة «سلطة الفرج» وبسرعة زاد الامور سوءا ... قال كوك : «انه (اي وولز) كان يحاول فقط ان يقول لكنّ ايتها الاخوات وضع استراتيجي في الثورة ... منبطح» (الفارديـــــان ٢٨ يونيو – حزيران ١٩٦٩) R.L.W.S.A = التحالف الطلابي العمالي التقدمي .

وبالمثل تضمن البرنامج الثوري للجنة التحرير بركلي وهو برنامج مصمم لاقامة «نموذج ثوري لكل العالم» تضمن النقاط الثلاث عشرة التالية (**اوكلاند تربيون** ٥ يونيو – حزيران ١٩٦٩) :

١ – سنجعل شارع تلغراف افينيو والحرم الجنوبي منطقة استراتيجية حرة للثورة .
٢ – سنخلق ثقافتنا الثورية في كل مكان .
٣ – سنحول المدارس الى مواقع تدريب للتحرير .
٤ – سندمر الجامعة الا اذا خدمت الشعب .
٥ – سنناضل من اجل التحرير الكامل للمراة كجزء ضروري في العملية الثورية .
٦ – سنحمل المسؤولية الجماعية للاحتياجات الانسانية الاساسية .
٧ – سنحمي ونوسع ثقافة المخدرات الخاصة بنا .
٨ – سنحطم سلطة ملاك الارض الكبار وسنقدم مساكن جميلة لكل انسان .
٩ – سنفرض الضرائب على الشركات الكبرى لا على الشعب العامل .
١٠ – سندافع عن انفسنا ضد القانون والنظام . =

وشيئا فشيئا ربط اليسار الجديد بشكل مفكك بين الذين تخطاهم الزمن ، والذين سبق ان توقفوا عن النشاط والذين يرفضهم العصر التكنتروني ، ولكنه قدم أفقا صفيرا لتجاوب واقعي مع مشاكل هذا العصر . فاليسار الجديد لذا مهم باعتباره علامة على التغيير الاجتماعي اكثر من كونه رسالة مبرمجة . انه ظاهرة هروبية اكثر منه حركة ثورية ارادية ، انه يعلن رغبته في تغيير المجتمع ولكنه الى حد كبير لا يوفر الا ملجأ آمنا من هذا المجتمع ✱ . ان اليسار الجديد اذ يهتم بارضاء الذات اكثر من اهتمامه بالمترتبات الاجتماعية على أفعاله ، فانه يستطيع ان ينغمس في اكثر الصراعات اللفظية عنفا بدون اي اعتبار لحقيقة ان ذلك يؤدي الى اغتراب حتى اولئك الذين يمكن ان يكونوا مؤيديه . ان اليسار الجديد مهتم بخلق شعور بالانغماس الشخصي بين مريديه للتنفيس عن انفعالاتهم . انه يقدم صمام أمن نفسي لمناضليه الشباب وشعورا بالانجاز لدى معجبيه الاكبر سنا والاكثر سلبية✱✱.

=

١١- سنخلق اشتراكية مشحونة بالعواطف في بركلي .

١٢- سنخلق حكومة للشعب .

١٣- سنتحد مع الحركات الاخرى في العالم كله لندمر هذا النظام العنصري الراسمالي الامبريالي» .

✱ بالرغم من ان كينيث كانستون يقول بأن الشباب يشكلون المستقبل فعلا لم يبين بشكل ملحوظ كيف يشكلونه ، وهكذا يبدو وكأنه يأخذ لنوهم حقيقة واقعة . «انظر مقالته «يجب ان تكبر في سكار سديل لكي تعرف كيف ان الامور سيئة بالفعل» مجلة **نيويورك تايمز** ، ٢٧ ابريل – نيسان ١٩٦٩) نفس الشيء ينطبق على روزاك .

وبالاضافة الى ذلك يبدو كانستون متأثرا الى حد كبير بالامزجة السائدة وهكذا كتب في ١٩٦١ ان «حركة الشباب الامريكي كما قلت بعيدة عن الاهتمامات العامة والمسؤوليات الاجتماعية وتتجه نحو عالم من ارضاء الذات على مستوى شخصي وخاص ... انهم سيؤمنون بذلك نطاقا اجتماعيا وسياسيا مستقرا لدرجة كبيرة ، ذلك ان قليلين منهم سيكونون ملتزمين بالسياسة ليفكروا في الثورة او التخريب او حتى بالتعبير الجذري ..» .

(«التغيير الاجتماعي والشباب في امريكا» ، من **تحدي الشباب** ، اريك هـ. اريكسون ، نيويورك ١٩٦١ ، ص ٢١٥) .

✱✱ بالنسبة للبعض كانت الثورة الجنسية بديلا جزئيا للنشاط السياسي . ولما كان من الصعب تحريك المؤسسات السياسية اصبحت الجامعات والجمعيات الاجتماعية اهدافا اسهل تهييئ الغطاء الاعلامي المطلوب . وقد شرحت احدى الممثلات المغزى السياسي للعري في حديث مع جريدة **النيويورك تايمز** قائلة :

«لقد اعتبرت (وما زلت) ان جسم الانسان العادي هو قمة الجمال والبراءة والحقيقة . ورغبت في ان اعارض بعريي الواقع الفعلي لفيتنام والذي هو في ذاته مجرد رمز للفساد والنفاق في زماننا. كان الجسد العاري على المسرح هو **الحقيقة** وكانت فيتنام هي **الكذب**. لقد جعلتني فيتنام وشيكاغو =

وبالرغم من كتابات اليسار الجديد الماركسية ــ اللينينية المتزايدة فإنه اقرب الى فوريه في المحتوى (٣٨) والى الدادية* في الاسلوب، كما انه يشبههما تماما اذ كان فوريه والدادية هما ايضا رد فعل على عصر جديد .

الوظيفة التاريخية لليسار المناضل :

يبدو اليسار الجديد المناضل في الميزان انه الى حد كبير ظاهرة انتقالية وعلامة على التوترات التي تصاحب التفاعل المتبادل بين الامريكيات العديدات المتعايشات في زمن التحول الامريكي العام . وفي كل الاحتمالات سيستمر هذا التحول في اشعال المزيد من العنف وفي مزيد من الاحباط الذي يؤثر في بعض الشباب فيؤدي الى اغتراب طويل المدى عن النظام القائم . ان تراجع جاذبية الاعمال المالية او الحكومية كمستقبل للشباب سيؤدي الى ان يفقد النظام معيار موهبته الاجتماعية ، ولكن اغتراب بعض شبيبة الطبقة الوسطى (وبوجه خاص من افضل الجامعات) وهم المصدر الذي تأتي منه نخبة امريكا تقليديا ، هذا الاغتراب يمكن ان يلعب ايضا دورا في المساواة الاجتماعية بفتح فرص المستقبل امام اول جيل للشبيبة الحضرية التالية لجيل الياقات الزرقاء ، وهم الذين حصلوا في السنوات

= وبركلي اوقن ان جسدي لا يمكن ان يستمر «ملكي الخاص» وان الثقة والتعرض للخطر ايضا هو طريق تحررنا . اردت ان اقول ان على النساء من جيلي اذا ارادوا الوصول للنهاية الطبيعية لطريق تحررهم ألا يعتبروا انفسهم بعد ذلك «ملكية» .

وطلب من ممثلة سوداء ان تعلق على نفس الموضوع فجاءت اجابتها اكثر وضوحا : «هـــذا الاهتمام بالعري تحت قناع التحرر الجنسي هو فخ ابيض . كثيرون من الفنانين البيض يدعـــون باستمرار انهم توصلوا الى اشكال وأفكار وتجارب جديدة . هذا يرجع الى انهم مفلسون عندما يتعلق الامر بالمهمة الصعبة الخاصة بالخلق الفني من الواقع الانساني كما هو . وهي مهمة من الصعب مواجهتها . ان اي محاولة لاستخدام عري الجسد وعرضه بطريقة عدوانية صاخبة امام الشبق العام وكلها تتم تحت شعار صالح الفن هي لا تزيد عن تلك المجلات التي تنشر صور الفتيات العاريـــات وبيوت السينما في الشارع الثاني والاربعين . اما بالنسبة الى الممثل فلا شيء يمكن ان يكون مرهقا ومحطا لشخصيته الفنية اكثر من ذلك .

«اما بالنسبة الى التحرير الجنسي او غيره فانني كسوداء مهتمة بنوع واحد من التحرير ذلك هو التحرير الكامل لكل الشعب الاسود . هذا **واقع عار** تماما» (سالي كيركلند وجودي آن الدر ، على التوالي ، كما جاء في النيويورك تايمز ٢٢ يونيو ــ حزيران ١٩٦٩) .

* مذهب تبنته مجموعة من الفنانين والكتاب في ١٩١٦ بهدف اعادة النظر بكل وسائل التعبير التقليدية ومنهم ظهرت السوريالية ... الخ . (المترجم)

٣٨ ــ انظر دانيال بل ، «شارل فوريه : نبي السعادة» ، **مجلة الباحث الامريكي** ، شتـــاء ١٩٦٨ ــ ١٩٦٩ .

الاخيرة على فرص اكبر في التعليم المتقدم .

ان الوظيفة التاريخية البعيدة المدى لليسار الجديد النضالي تعتمد على الظروف التي سينتهي فيها بالقمع او بأن يذوي هو ذاته وبالرغم من ان اليسار الجديد نفسه عقيم سياسيا وضعيف ايديولوجيا من الممكن ان يلعب دور الحافز الاضافي للتغيير الاجتماعي ويسرع ببعض الاصلاحات . فان فعل ذلك ، حتى لو اختفى هو نفسه ستكون وظيفته في الثورة الامريكية الثالثة ايجابية . فان لم يفعل فسيكونَ حافزا لاستجابة اجتماعية اكثر رجعية تجاه المشاكل الجديدة .

لقد لوحظ مرارا وجود عامل فوضوي في اليسار الجديد . ولم يعط الا قليلا من الانتباه الى اساسه الشمولي الاستبدادي ومع ذلك كلا العاملين ذو نفوذ في سلوك اليسار الجديد ومزاجه . فبالرغم من الالفاظ الديمقراطية البليغة والزعم بالاهتمام بالمساواة كانت مطالب اليسار الجديد ــ على حد فهم مراقب صديق ــ «في الجوهر نخبوية وارستقراطية ، ويجب مواجهتها صراحة على هذا الاساس» (٣٩) . اما بالنسبة الى عضوية اليسار الجديد فهي بمقاييس التركيب الاجتماعي والتشكيل النفسي تشبه بشكل ملحوظ تلك المقاييس الخاصة بالمجموعات الاوروبية التي في مواجهة التعقيدات الطاغية وايام التوتر والضغط انحدرت نحو الحركات الشمولية الاستبدادية ففي اوروبا يتم تجنيد مثل تلك المجموعات من بين الاعضاء الهامشيين في الطبقة الوسطى ، والمثقفين غير الملتزمين ، وعناصر البروليتاريا الذين اقتلعوا حديثا او مؤخرا ، وبعض رجال النقابات الاكثر انعزالا من غيرهم (٤٠) . اما في امريكا وبحكم القوى الجديدة التي تشكل مجتمعها فان الاعضاء يجندون الى حد كبير من بين المثقفين غير الملتزمين والطلاب ــ الذين يشكلون في الواقع طبقة جديدة ــ وبعض اعضاء الطبقة الوسطى ، وجميعهم على عكس أمثالهم الاوروبيين اقل استجابة لمصادر القلق الاقتصادية وأكثر استجابة لمصادر القلق النفسية . هذه العناصر يوحدها ادعاؤها السعي للحلول الشاملة ومللها او عدم صبرها على التغير الكمي .

ان الاتجاهات الاستبدادية القوية في اليسار الجديد تبدو واضحة في مسلكه وتوصيفاته * ــ ومع ذلك من الاصح ان يربط اسم اليسار الجديد بتعبير «اللااستبدادي» لانه الى حد كبير فشل في ان يشكل قدرا كافيا من الوحدة لكي يبرز حركة منظمة منضبطة شمولية استبدادية . ان مزاج وطموحات اليسار

---

٣٩ ــ فريدنبرغ ، ص ٨٩ .

٤٠ ــ وليم كورنهوزر ، **سياسات مجتمع الجماهير** .

* ان اوضح الامثلة على ذلك هو بدون شك الدعوة العلنية الواضحة لقمع الآراء المختلفة عن الآراء التي يوافق عليها اليسار الجديد . انظر ، روبرت وولف وبارينغتون مور الصغير ، وهربرت ماركيوز ، **نقد التسامح المطلق** بوسطن ، ١٩٦٥ خاصة ص‌ص ٨١ ــ ١١٠ .

الجديد الشمولية لم تختبر بعد بتنظيم شمولي بالرغم من النزاعات الانشقاقية الداخلية المرة وعمليات الطرد المتبادلة وكونها تذكرنا كثيرا بحركات الجمود العقائدي السابقة .

وبالاضافة الى ذلك فقد وجهت الهجمات الفكرية الحادة التي شنها اليسار الجديد ـ وفي بعض الاحيان الهجمات الفعلية ـ ضد المؤسسات الامريكية التي تعتمد في تشغيلها غالبا على العقل واللاعنف . ان الجامعة ، وهي مؤسسة اجتماعية تتميز بأنها بدون دفاع وضعيفة ـ وهي في امريكا الملاذ الرئيسي للفكر الليبرالي ـ كانت الهدف الاول لانها توفر الفرصة الاكبر للنجاح بأقل قدر من المخاطرة . وبشكل أعم كان متحدثو اليسار الجديد القياديون يزدرون حرية الكلام والاجراءات الديمقراطية وحكم الاغلبية . ولم يتركوا مجالا للشك في كيفية تعاملهم مع منتقديهم في حالة ما اذا استولى اليسار الجديد على السلطة .

وبالرغم من النزاع الظاهري تقوي بعض الاتجاهات الفوضوية والاتجاهات الشمولية في اليسار الجديد بعضها الآخر . فالعامل الفوضوي يتمشى مع حالة عدم اليقين المرتبطة بسرعة التغيير والارباك الذي يسببه ، والعامل المعنوي القائم على الشعور المانيوي بالصواب الذاتي المطلق يوفر نقطة انطلاق آمنة لمواجهة هذا التغيير . ويجب ان نتذكر بالاضافة الى ذلك ان الشمولية الاستبدادية نادرا ما تعلن عن نفسها مقدما وانما هي تبرز خلال الممارسة ومنذ الثورة الفرنسية كان الاسلوب السياسي العام للعالم الغربي يدعو الى الاعتماد على شعارات تعبر عن التفاني في سبيل الحرية والمساواة . حتى الفاشية ادعت ان نظامها يجعل الرجال احرارا . وكان اليسار الراديكالي صاخبا في ادعائه الالتزام بالديمقراطية الحقيقية ولكن الاختبار الحقيقي للديمقراطية ليس في الاهداف النهائية وانما في السبل المستخدمة في تحقيقها .

وهكذا يهدد مناضلو اليسار الجديد الليبرالية الامريكية بطريقة تذكرنا بالضرر الذي حاق بالاتجاه الامريكي المحافظ الديمقراطي وبالليبرالية المعادية للشيوعية على يد ظاهرة مكارثي في الخمسينات . لقد نسف اليسار الجديد التقدم الاجتماعي الامريكي بتقديم تبرير عقلاني مريح للمواقف الاجتماعية الاكثر محافظة واكثر من ذلك قد دفع الى السطح وقوى ـ وان لم يسبب ـ الازمة الحالية في الليبرالية الامريكية . فكان ذلك ربما هو اكثر النتائج السياسية ذات الدلالة لرد الفعل الشمولي ـ الجديد لليسار الجديد على الثورة الامريكية الثالثة .

ازمة الليبرالية

الى حد كبير ، يجب ان تلوم الليبرالية الامريكية الحديثة نفسها على ازمتها

الحالية . فالليبرالية التي كانت لزمن طويل الفلسفة الوحيدة لامريكا الصناعية * لم تسد فقط مجريات السياسة في البلاد انما استقرت مؤخرا وبثبات في مقعد السلطة ومنه واجهت القوى الريفية المحافظة في الكونغرس المتمرسة وان تكن في موقع الدفاع الى حد كبير . فمنذ ان ازيح الحزب الجمهوري من الرئاسة سنة ١٩٣٢ احتاج الى ٣٦ سنة وحرب عالمية وحربين آسيويتين وقلاقل عرقية ـ اجتماعية محلية لكي يعود الى البيت الابيض (ان انتصار ايزنهاور في ١٩٥٢ كان نصرا شخصيا لا حزبيا فلقد كان من الممكن ان يفوز كمرشح ديمقراطي ايضا) . ومع ذلك حتى ذلك الوقت عاد الحزب الجمهوري نتيجة تركيزه على الانقسامات داخل الليبرالية الامريكية وعلى حالة القلق التي ابدتها الامة حيال الاسلوب الليبرالي واحكامه ، اكثر من تقديمه لفلسفة سياسية بديلة .

لقد كانت الاحكام والاسلوب فيما مضى استجابة خلاقة وانسانية لضغوط ومظالم الراسمالية الصناعية . ولم يكن لدى المحافظين الامريكيين الا القليل ليقولوه عن هذه المشاكل ، ولم تستطع الحركة المحافظة الامريكية وهي تعظ بالتطهرية ومزايا المشروع الحر ان تنجح في تهيئة نفسها للعصر الصناعي ولا لليقظة الاجتماعية السياسية الضخمة التي اثارها هذا العصر . وادى ذلك الى ترك المجال مفتوحا امام الراديكاليين العقائديين الذين اتبعوا شكل عام التجربة الاوروبية او امام الليبراليين الذين سعوا الى تكييف مثالية التقاليد الامريكية وتفاؤلها مع العصر الصناعي الجديد . ولقد ادى انجاح الليبراليين الى المحافظة على الطابع الفريد لامريكا ، وكان ذلك هو قمة انجازاتهم .

فبدون الليبرالية كان من الممكن ان تتفسخ امريكا اقتصاديا او ربما ، وهو

---

* لانه جنبا الى جنب مع الطابع الزراعي كانت الامة الجديدة مشبعة بالليبرالية ، كانت جمهورية حتى العظم . فلا عرش ولا بلاط ولا عودة الى الماضي كانت عوائق امام القوى الصاعدة الجديدة التي اطلقتها التكنولوجيا الصناعية .

«كانت نقطة الانعطاف السياسية هزيمة الجنوب في الحرب الاهلية وهي التي انهت الى الابد اي احتمال لقيام امة على اساس القيم الزراعية ـ ومن المؤكد انها حطمت الى الابد امكانية وجود اتجاه محافظ كان من الممكن ان يكون اي شيء الا ان يكون ذا قيمة فكرية او درعا لمصالح تجارية خاصة. لقد كان مؤيدو برايان في انتخابات١٨٩٦ الحرجة هم راسماليين زراعيين صغارا غاضبين بسبب وضعهم غير المميز داخل النظام اكثر من غضبهم من العمليات الصناعية في ذاتها . وعندما كتبت مجموعة من الكتاب الجنوبيين في ١٩٣٠ حول الازمة الاقتصادية الامريكية والازمة الثقافية المصاحبة للراسمالية الصناعية عندما كتبوا بيانهم بعنوان سأتخذ موقفي مطالبين بالزراعة رافضين كلا من الاشتراكية والراسمالية الصناعية مفضلين الملكية الصغيرة ، لم يجدوا الا تجاوبا قليلا . وكان رد فعل الجنوب على مرحلة الركود هو الوقوف في طليعة اولئك الذين ساندوا راسمالية الدولة في السياسة الجديدة (النيوديل)» (فيكتور سي. فركيس ، **الرجل التكنولوجي** : الاسطورة والواقع ، نيويورك ١٩٦٩ ؛ ص ص ٦٥ ـ ٦٦).

الاكثر احتمالا تسقط ضحية ازمة اجتماعية سياسية معادية للديمقراطية . ان عبقرية الحل الليبرالي الخاص **بالسياسة الجديدة** كانت في انها لحمت العامل الداخلي الفردي في التجربة الامريكية التاريخية – هذه الفردية التي صاحبتها بالضرورة تقوية التردد المحافظ تجاه اي نشاط اجتماعي جماعي – بمعنى المسؤولية الاجتماعية التي تتحدد خلال العملية السياسية. بذلك تجنب الليبراليون الامريكيون الجمود العقائدي الخاص بالاشتراكيين الاوروبيين بالرغم من انهم مالوا الى مشاطرتهم التوجه الى الاعتماد على الحكومة كأداة رئيسية للأصلاح الاجتماعي. هذا التوجه بعيدا عن التفضيل الفلسفي ، كان على اي حال مفروضا بحكم الواقع السائد في امريكا : فالحكومة القومية كانت الاداة الوحيدة التي تستجيب نسبيا للعملية الديمقراطية والتي يمكن استعمالها للتعبير عن الحاجات الاجتماعية العامة للجماهير ولتحقيقها ، والتي يمكنها ان تكسر حدة عدم المساواة الاجتماعي والاقتصادي .

البواب الليبرالي ★

ومع ذلك وخلال تطور العملية السياسية اصبح الليبرالي الامريكي بشكل متزايد رجل دولة يميل الى تثبيت ما هو قائم ، واثقا في توصيفاته مقتنعا بأنه قد اكتشف الطريقة المثلى لادارة التغيير الاجتماعي . لقد تحول الليبرالي الامريكي الى مخلوق يشبه جانوس اله فتح الابواب عند الاغريق (سنستعمل لفظة البواب للتعبير عن هذا الاله – المعرب) بحيث استحوذ تدريجيا على وجهين . لقد واجه الليبرالي البرغماتي الى حد ما والذي كان عميق الجذور في التقاليد الديمقراطية الامريكية والذي قدمت قيمه الاجتماعية الاطار العريض لمعالجة مرنة لطريقة حل المشكلات ، واجه ليبراليا آخر اكثر ايديولوجية ومن ثم اكثر جمودا يتجه بشكل متزايد نحو القيادة الاجتماعية المجردة ميالا الى استخلاص طموحاته الفكرية من راديكالية اليسار الاوروبي ، معاد ايديولوجيا لمجتمع الاعمال المالية وغير صبور الى حد ما على الموقف «النفعي» غير الايديولوجي البرغماتي الممارس للسلطة . كان ظهور الليبرالي الثاني ذا علاقة وثيقة بازدياد مكانة ونفوذ المجتمع الفكري الامريكي بعد الحرب العالمية الثانية . وكان هذا الليبرالي الاكثر عقائدية هو الذي اطلق اللحن وسيطر بشكل متزايد على الليبرالية الامريكية ، بالرغم من انه كان لا يزال غير قادر خلال الستينات على تحقيق السيطرة الكاملة على الحزب الديمقراطي .

ان وصول الليبرالي العقائدي الى المكانة البارزة والنفوذ السياسي ان لم يكن الى السلطة – وهو تطور توافق مع اشتداد الضغوط في المجتمع الامريكي – لعب

★ The Liberal Janus .

دورا كبيرا في تغيير نغمة الحديث الليبرالي تغييراعميقا ودقيقا . لقد اتجهت هذه النغمة الى التقليل من العوامل الاجرائية العميقة الجذور في ارتباط الديمقراطية الليبرالية بالنظام التشريعي ، والى التقليل من الاعتزاز الوطني بالانجازات الدستورية الامريكية ، وذلك لحساب مزيد من التركيز على التغيير الاجتماعي السريع ، وعلى اعادة هيكلية العلاقات الاقتصادية وعلى اعادة تقييم التقاليد الامريكية بشكل اكثر عمومية واشد انتقادا .

الى جانب ذلك لم يكن الليبرالي الديمقراطي بريئا من خطيئة التعالي الفكري (٤١) فلما لم يكن المحافظون او الشيوعيون قادرين على مواجهة نجاحه الاجتماعي فقد تطورت ثقته تدريجيا الى غرور وتعال غالبا ما عبر عنها بعدم احتمال النقاد وبالميل الى تصنيف كل من انحرف عن النموذج الليبرالي كما يعرفه هو ، بانه رجعي . هذا الاتجاه اصبح اكثر وضوحا في العالم الاكاديمي وهو البيئة التي تزايدت سيطرة المفكرين الليبراليين عليها (٤٢) وهؤلاء كانوا اكثر ميلا من الليبراليين الممارسين للسلطة الى وضع الليبرالية الدولية ضمن مفاهيم محددة ومقاطعة الخارجين على هذه المفاهيم . وبالنتيجة اكتسبت احدى العقائد الانسانية الخلاقة تدريجيا بعض الصفات الارثوذكسية السائدة .

ادى هذا الى ان يصبح من الصعب عليها ان تدرك او ان تستجيب للظروف الجديدة غير العادية . لقد واجه الليبرالي الامريكي المشاكل التي طرحتها الثورة الامريكية الثالثة باستراتيجية من نوع **السياسة الجديدة** التي سبق تجربتها واختبارها خلال الازمة الراسمالية الصناعية الاخيرة . لم يكن هناك في التحليل الليبرالي ـ العقائدي عند تناوله المشاكل التي واجهتها الولايات المتحدة في الستينات سوى القليل من الاختلاف عن المبادىء والعلاجات التي نمت في العقود السابقة . كان هناك اعتراف ضئيل بأن المؤسسات والمنظمات الاجتماعية تبدي تجاوبا متزايدا نحو المشاكل الاجتماعية اكثر مما تبديه الحكومة الفدرالية . وبالاضافة الى ذلك كان الليبراليون العقائديون الى حد كبير متأخرين في التعرف على الطابع المعادي للديمقراطية والمعادي لليبرالية في اليسار الجديد . هنا لعبت عوامل متنوعة دورها من بينها على الاقل ان بعضهم في الماضي كان له علاقة ما مع الشيوعية . وبالرغم من ان الستالينية قد نبهت معظمهم في النهاية بقي الخوف من ان يصبحوا «محسوبين على اليسار» قويا لديهم بينما ادت فظاظة المكارثية الى ان تجعل معاداة الشيوعية موضة شائعة ومقبولة اجتماعيا واقل مخاطر من

---

٤١ ـ لمزيد من التعليقات العميقة ، انظر اندرونايت ، «ليبراليو امريكا المتجمدين» ، مجلة التقدمي The Progressive ، فبراير ـ شباط ١٩٦٩ .

٤٢ ـ لنقاش حول وضع الليبرالي في العالم الاكاديمي ، انظر ارفنغ لويس . هوروفتيس «الراديكاليون الشباب والنقاد المحترفون» مجلة كومنويلث Commonwealth ، ٣١-١-١٩٦٩ ، ص ص ٥٥٢ ـ ٥٥٦ .

الناحية السياسية من مناصرة اليسار . وهكذا تجاوب العديــد من الليبراليين العقائديين ـ على عكس اقرانهم البرغماتيين سياسيا الذين يتحدثون بما يوافق مزاج الناخبين ـ تجاوبوا مع الشعارات التي يطلقها اليسار الجديد لانها كانت ذات رنين ديمقراطي . وبرروا اجراءاتهم غير الديمقراطية باعتبارها نماذج مــن حماسة الشباب والمثالية المثيرة للاعجاب .

ان التقليل من قيمة الاجراءات الشرعية النظامية على اساس انها اصبحت تدعم المؤسسات المحافظة ، قد ساهم مباشرة في أزمة الشرعية في النظام الامريكي ، وارتبطت هذه الازمة بوضوح بعدم رغبة قطاع كبير من المجتمع الليبرالي السائد في ان يصر على التمسك بالاجراءات الشرعية . ان المواقف المتعارضة التي ابداها كثير من الليبراليين البارزين ، وميلهم لتبرير مساوىء المناضلين ـ وهو ما عكس جزئيا مفاهيمهم التعليمية الشديدة الاباحية ـ كشفت ضعف الالتزام الليبرالي بما كان يعد تقليديا احد المكونات الحيوية للديمقراطية : الا وهو احترام حكــم الاغلبية كما تعبر عنه السبل والاجراءات الديمقراطية القائمة .

ثمن انتصار الشك :

هذه الازمة في القيم الليبرالية (وقد شخّصها اليسار الجديد بدقة كاملــة كذلك ومن ثم حاز على الثقة في هجومه على الديمقراطية الليبرالية) متعلقــة بدورها بأسباب اكثر جوهرية.لم تكن الليبرالية في البداية مجرد تعبير عــن استجابة انسانية حديثة ملائمة للظروف التي خلقها التصنيع وانما كانت ايضا هجوما على القيم الارثوذكسية السائدة وقتذاك ، وهذه القيم الارثوذكسية العميقة الجذور في المجتمع التقليدي كانت خليطا من الآراء الدينية والغرائز المحافظة تقوى وتتقوى بالكنيسة القائمة والمؤسسات الريفية ـ الارستقراطية .

كان هذا الهجوم الليبرالي على الافكار والمعتقدات الارثوذكسية العميقة الجذور جزءا من مزاج عام اخذ في الظهور من العقلانية والشكوكية . هذا المزاج العام كان ملائما بشكل جيد ملحوظ للعصر الصناعي الجديد .

وعكس الليبراليون روح الزمن في الهجوم على العقيدة الدينية الماسسة . وكانوا في عدائهم للكاثوليكية عصريين كما كانوا محدثين وحديثين في الهجوم على مفاهيم الحياة الريفية ـ الارستقراطية . وكانوا ايضا ناجحين بشكل بارز وبحلول منتصف القرن العشرين كانت الولايات المتحدة قد اصبحت مجتمعا علمانيا فــي جوهره وسيطرت على وسائط اعلامه وجهاز تعليمه فلسفة عقلانية شكوكية فــي الجوهر ، باستثناء بعض المدارس الدينية .

لقد ميز النجاح الليبرالي بداية الازمة الليبرالية . فمع النجاح جاء الدليل على ان الولايات المتحدة كانت تتحول الى مجتمع بدون اي قيم اندماجية او اي مؤسسات ثقافية تدمجه . ان وسائط الاعلام لا يمكن ان تحل محل الدين كمصدر

للاندماج والتكامل طالما كانت توجهاتها تفتقر الى اهتمامات اكثر حيوية ، كما كانت القومية الصرفة وحدها خطرا واضحا على القيم الليبرالية . وكانت الشكوكية ببساطة غير كافية عندما برزت كمقولة نقيضة منتصرة على الدين التقليدي . لذا كان انحدار بعض الليبراليين العقائديين في اتجاه اليسار الراديكالي وجزئيا احدى النتائج المترتبة على نجاحهم . وانه لامر مفهوم وقد كانوا غير قادرين على التوجه نحو القيم التي حاربوها على الدوام ان ينجذبوا — الليبراليون العقائديون — نحو المعتقدات الاكثر تطرفا التي يتبناها اليسار الراديكالي ، طالما كانت هذه المعتقدات بالمثل مشتقة من رفض القديم . ومع ذلك فبالنسبة الى معظم الليبراليين كان الاتجاه نحو اليسار المتطرف حلا غير مقبول لانه اشتمل على خيانة مثلهم الديمقراطية التقليدية . ولكن ماذا كان يمكن ان يكون جوهر الشكوكية المنتصرة ؟ كانوا مجبرين على ان يسألوا انفسهم هذا السؤال .

ان العقيدة هي عامل اسمنتي اجتماعي هام . والمجتمع الذي لا يؤمن بأي شيء هو مجتمع في حالة تحلل . ان المشاركة في الطموحات العامة والايمان الموحد هو امر حيوي لحياة التجمعات . هذه حقيقة بدأ العقائديون المعاصرون والليبراليون الشكوكيون يواجهونها وبوجه خاص نتيجة مواقفهم المتعارضة في الدفاع عن الديمقراطية الاجرائية . ومن المؤكد ان المستفيدين الاساسيين من هذا الاضطراب الليبرالي كانوا هم المحافظين الامريكيين الذين بالرغم من عدم استجابتهم بشكل كبير للمشاكل الاجتماعية في امريكا المعاصرة حصدوا مكافآت سياسية بدعوتهم الى القومية والملكية الخاصة والنظام الدستوري .

من وجهة نظر الليبرالي الذي يرى نفسه قوة تقدمية فان العقيدة ضرورية للتمثل الاجتماعي الفعال للتغيير . ان التكلفة الاجتماعية لغياب القناعة وآثار الشكوكية المسيطرة التي تسبب الشلل قد اظهرتا بوضوح الاستجابة المتناقضة التي ابداها الليبرالي للتحدي الاسود الجديد . كان الليبرالي في الجبهة الامامية للنضال من اجل المساواة العرقية طالما كان المحافظون يعارضون هذه المساواة . فما ان انهارت سدود المحافظين وبرز الاسود بمطالب لم يعد يحددها له الليبرالي الابيض ، اختلط الامر على الليبرالي . تلك كانت الحالة في نضال مدينة نيويورك حول الاشراف الاجتماعي المحلي على المدارس كذلك تلك كانت حالة جامعة كورنل حيث عبّر الطلبة السود المسلحون عن مطالبهم بتقديم انذار نهائي . وقد ترتب على ذلك ان بعض الليبراليين بدوا وكأنهم يتحولون الى محافظين : لقد رفضوا مطالبة السود بمؤسسات اجتماعية مستقلة . وتحول آخرون الى مستسلمين لا يمكن تمييزهم : لقد وافقوا على كل مطالب السود في محاولة للتكفير عن ذنوبهم كرجال بيض * .

---

* من الملاحظ فعلا انه لم يحدث ان اعتزم اي مثقف ليبرالي بارز ان يقول لطلابه السود «انني لن اشترك في التمييز المضاد بأن أوافق بدون تمييز على اي طلبات تختارونها لمجرد انكم سود. =

فاكثر ما كان يحتاج اليه المجتمع في وقت التحول هذا ، مع ذلك ، كان ما صعب على الليبرالي ان يقدمه ــ لانه لم يكن واثقا من نفسه لان عدوه التقليدي كان منبطحا ــ وذلك هو تعريف مبادئه وتأكيد قناعاته والعزم على ان يتصرف بوحي من تفانيه للديمقراطية الليبرالية وذلك ما كان السود الامريكيون يحتاجون اليه ايضا من الليبرالي ، فتمثل اي مجموعة اثنية او عرقية في المجتمع يحتاج الى مؤسسات مستقرة وقيم محددة وان لم تكن جامدة . ان اندماج السود وهو امر صعب في معظم الظروف ، يصبح ميؤوسا منه اذا فشلت القيم والمؤسسات القائمة في توفير اطار مرن بدرجة كافية تمكنه من امتصاص الضغوط والتوترات التي تصاحب عملية دخول اقلية عرقية كبيرة في اطار مشاركة اجتماعية متساوية، وهي عملية لم يسبق لها مثيل . ان ظهور قيادات سوداء شابة راديكالية ومعادية للديمقراطية بل عنصرية ترجع في المقام الاول بلا شك الى بطء استجابة المجتمع الابيض للطموحات السوداء . كما ترجع ايضا لازدياد احتقار اليسار الجديد والزعماء السود الاصغر سنا للاجراءات الديمقراطية ولتيقنهم من ان مثل هذا الاحتقار يمكن التعبير عنه دون عقاب ، استنادا الى موقف الليبراليين المتناقض الخاص حول شرعية الاجراءات الديمقراطية ومعنى العقيدة الديمقراطية .

كانت تشعبات هذا الوضع اوسع واكثر ايلاما من الناحية السياسية بالنسبة الى الليبرالي: وقد ادتالى ازدياد رفض القيم الليبرالية بين العمال ذوي الياقات الزرقاء في ادنى الطبقة الوسطى الذين بداوا بتصوير الليبرالية العقائدية بأنها عدوهم الطبيعي . فبالنسبة الى عامل صناعي كان رمز العدو الطبقي هو مصرفي راسمالي غني او صناعي راسمالي غني . حتى في اواخر ١٩٤٨ كان هاري ترومن قادرا على ان يحقق نصرا انتخابيا بمخاطبة هذه المشاعر . اما في اواخر الستينات فقد حل محل هذا الرمز رمز آخر : ان العدو الطبقي هو الاسود الذي يسانده المثقف الليبرالي العقائدي الجامد ، ويفضل ان يكون استاذا في الجامعة.

هناك بعض العدل لا يمكن انكاره في امتعاض الامريكي الابيض ذي الياقة الزرقاء من المثالية الاجتماعية الليبرالية للثورة العرقية التي تأخرت طويلا والتي كانت ضرورة ملحة قد شنتها في الولايات المتحدة الفئات العليا من الطبقة الوسطى المستقرة المرتاحة دون ان تكلف نفسها كثيرا . لقد كانت الطبقة العاملة البيضاء وهي ذات ضمانات أقل من الناحية المالية واقل تقبلا للمسألة العرقية ، هي الطبقة التي تحملت عبء التغيير في التعليم والاسكان والاعراف الاجتماعية . لقد

= سأعاملكم كما أعامل كل طلابي . ان مرحلة التمييز قد انتهت ولن أعيدها تحت اسم جديد . يمكنني ان افهم الجذور النفسية لمطالبكم وأن افهم بعض مخاوفكم من المنافسة مع البيض الافضل استعدادا انني لذلك سأفعل كل شيء لاعالج هذا الوضع حتى لو بتكلفة كبيرة وبجهد تنظيمي ولكنني لن أوافق على تلك المطالب التي يمكن ان تؤدي الى ترسيخ تمايزكم عن هذا المجتمع»

بدا للكثيرين من العمال الصناعيين ان الاغنياء لم يكونوا يشاطرونهم التكاليف الاقتصادية للثورة سواء كان ذلك في اجور اصحاب الخبرة او في البرامج الاجتماعية ، وان الليبراليين المناضلين كانوا غير عازمين على تقديم التنازلات الضرورية للحصول على قبول شعبي اوسع لاجراءات التصحيح الاجتماعية المؤلمة * لقد تضاعف امتعاض قسم كبير من الراي العام الامريكي من اليسار الجديد بالشعور الذي شعر به العامل الصناعي الابيض بخيانة القوى الليبرالية . وفي هذه المرة ايضا كان ذلك لصالح العناصر الاكثر محافظة في السياسات الامريكية .

وتقوى الشعور بعدم الرضا بسبب الاحباط الذي نماه الاتجاه لمضاعفة الوكالات الحكومية من اجل تحقيق تغييرات اجتماعية ايجابية ** . هنا امتزجت ممارسة الليبرالي البرغماتي بما يفضله قرينه العقائدي ايديولوجيا . ان الجمع بين النظرية المجردة والادوات الضخمة المركبة الشاملة التأثير ، كان له اثر كبير في الاغتراب والتوتر الذي شعرت به بعض القطاعات البيضاء من الراي العام الامريكي .

ـ * من المثير حقا انه حتى عشية الحملة الانتخابية الرئاسية في ١٩٦٨ لم تكن قد بدات بعد تنظيمات مثل تنظيم الامريكيين من اجل العمل الديمقراطي في التركيز على الحاجة الى معالجة الاهمال الليبرالي بل والتجاهل الليبرالي للطبقة العاملة الصناعية . ففي عشية الانتخابات الرئاسية كشفت مجموعة من المقالات الصحفية في جريدة النيويورك تايمز عن المصدر اللاتيني والاقتصادي للمؤيدين لولاس في المراكز الحضرية في الشمال مشيرة اكثر من مرة الى الاقلية السلافية .ومن هنا تبين انه في تلك الانتخابات (حيث حصل ولاس طبقا لما ذكرته الـ N.B.C في برنامجها عبر التصويت ٪ حصل على ١٧ر٧ بالمئة من السلاف و٢٢ بالمئة من الايطاليين و١٣ بالمئة من اليهود . (النيوزويك ، ١١-١١-١٩٦٨ ، ص‌ص ٣٥ - ٣٦) . وفي انتخابات ١٩٦٩ في المراكز الحضرية حيث ظهر تحول نحو المحافظين كان بشكل عام بسبب عدم رضا الحضر على الطرح الليبرالي .

** «لدينا الان وكالات حكومية تهتم بمشاكل المدن تبلغ عشرة أضعاف ما كان لدينا في ١٩٣٩ . كما زاد بمعدل الف مرة تقريبا عدد التقارير والاوراق التي يجب ان تملأ قبل ان يمكن فعل شيء في المدينة . ان الباحثين الاجتماعيين في مدينة نيويورك سيتي ينفقون ٧٠ او ٨٠ بالمئة من وقتهم وهم يملأون الاوراق لواشنطن ولحكومة ولاية الباني ولمدينة نيويورك سيتي ولا يتوفر اكثر من عشرين او ثلاثين في المائة من وقتهم اي حوالي ساعة ونصف يوميا لعملائهم المساكين . ولقد ذكر جيمس وستون في النيويورك تايمز (٢٣-١١-١٩٦٦) انه كان في ذلك الوقت ١٧٠ برنامج مساعدة فيدرالي على الورق تمولها حوالي ٤٠٠ هيئة مستقلة وتديرها ٢١ وزارة ووكالة فيدرالية يساعدها ١٥٠ مكتبا في واشنطن و٤٠٠ مكتب في المناطق . وقد اجازت دورة واحدة في الكونغرس ٢٠ برنامجا صحيا و١٧ برنامجا تعليميا جديدا و١٥ برنامج تطوير اقتصادي جديد و١٢ برنامجا جديدا للمدن و١٧ برنامجا جديدا لتطوير الموارد و٤ برامج جديدة لتطوير الطاقة البشرية ولكل منها جهازه الاداري الخاص» (بيتر ف. دروكر ، «مرض الحكومة» ، **المصلحة العامة** ، شتاء ١٩٦٩ ص ٨) .

ان ذلك لم يكن على الدوام سياسة اجتماعية علاجية جيدة بالنسبة الـــى المجموعات المعنية ذات الامتيازات الاقل . وكما اخطأ الشيوعيون في الاعتقاد بأن القلق الاجتماعي (الثورة) هو نتاج سوء الحال الاقتصادي (الاستغلال) اخطـــأ الليبرالي العقائدي في الافتراض بأن التقدم الاقتصادي قد يشجع الازدهـــار الاجتماعي . كلاهما قلل من قيمة الابعاد النفسية والروحية . بعض الليبراليين شعر بذلك وتمت بعض التجارب التي صممت لتجمع بين المبادرة الاجتماعيـــة والمشروع الحر والدعم الحكومي (كتلك الجهود التي قام بها روبرت كنيدي فـــي بدفورد – ستويفسانت) وقصد منها تقديم اتجاه جديد . ومع ذلك بالرغم من ان نشاط المجتمع كهدف عريض هو فكرة نبيلة اصبح في الممارسة وسيلة لعب اللعبة حسب القواعد السياسية القائمة : اي التنظيم من اجل كسب السلطة ، بحيث يمكن إمّا استخلاص مزيد من الاموال العامة او خلق قاعدة لسياسات اكثر راديكالية (٤٣) .

وفي الوقت الحالي خلق ازدياد التدخل الحكومي وازدياد الادارة الاجتماعية الارادية – والاخيرة مستخلصة من «نظريات» للتغيير والتنمية الاجتماعيين – مزيجا من عدم الكفاءة العملياتية والمنازعات بين المجموعـــات المتصادمة واللامبـــالاة الاجتماعية والتعقيد السياسي الذي أدى الى انهيار الوعي العام والى اغتـــراب الجيل الاصغر سنا . وعندما حصّل الليبرالي البرغماتي اخيرا على فرصة فريدة ليفعل الكثير مما كان يطمح الى فعله ، اكتشف ان ترسانته الفكرية التي قامت على استجابة ناجحة جدا للازمة في مجتمع صناعي متقدم ، اكتشف انها قد استهلكت. اما الليبرالي العقائدي – الواثق من ان لديه العلاج الصحيح والنظرية والذي لا يطيق الحركة المحافظة الواضحة التي يبديها ممارس السلطة البرغماتي ، والمتناقض مع فوضوية وشمولية اليسار الجديد – فانه نسف الاساس الليبرالي للدعم الشعبي بتحطيمه الثقة الشعبية العامة في الالتزام الليبرالي بالديمقراطية الليبرالية .

وهكذا يواجه الليبرالي المعاصر خطر الحرمان من اعظم مصادر قوته : تفاؤله وايمانه بمستقبل امريكا ورؤياه . والليبرالي وبخاصة العقائدي المثقف ، يميل في مواجهة الازمة التي يشعر بها بشكل حاد – والتي تعامل معها في كثير من الوجوه بشكل اصح من المحافظ – يميل الى الانسحاب الى داخل قوقعة ايديولوجيـــة متذوقا حلاوة الهجوم بدون تمييز على طبيعة المجتمع الامريكي ومستمتعا بالتنبؤات والرؤى عن المصير المحتوم لهذا المجتمع .

كان المجتمع التقدمي يعرف دائما انه المجتمع الذي يشتمل على تبادل التأثير بين الاهداف الطوباوية والخطوات العملية (٤٤) ، ولكن يبدو ان الليبرالي العقائدي

---

٤٣ – انظر مناقشة جيدة في العدد الخاص من **الايكونوميست** ، ١٠–٥–١٩٦٩ وخاصة ص٥٤ .

٤٤ – من محاضرة للبروفيسور جوزيف بلو ، معهد اسبن للدراسات الانسانية ، يناير – كانون ثاني ١٩٦٦ .

لم يقدم الا مجتمعا يجمع بين الوصفات المرتجلة والحلول الجامدة عقائديا وحسب. وكنموذج لموقفه هذا ، نجد موقفه من مسألة ارتياد الفضاء وهي التي ربطت بين انفجار المعرفة والطموحات التي يشعر بها الانسان بعمق . لقد كان تجاوب العقائدي للمغامرة وللتحدي والفرص الاجتماعية التي ولدها عصر الفضاء تجاوبا لا خيال فيه وغير حكيم سياسيا ويدل على مفارقة نفسية * . لقد نادى بتركيز كل الانتباه على الاعمال الارضية التي لم تنجز بعد في امريكا ، وهو بذلك تجاهل ببساطة الحقيقة النفسية بأن الامة تصبح اكثر ادراكا لنواقصها وهي توسع طموحاتها لا وهي تقلصها .

لقد كان تقليد الريادة هو الذي حرك الخيال الامريكي وخلق مجتمعا من الحركة والنمو واعطى امريكا أسطورتها الموحدة . ولقد اصبحت الريادة العلمية بما في ذلك ارتياد الفضاء هي المعادل الوظيفي للتقليد الريادي الامريكي ، ومثل هذا التحول يتعلق مباشرة بما حققته البلاد تعليميا وعلميا . لا يعني هذا اننا ضد المزيد من الاعتمادات المالية الاجتماعية بل يعني ان تحسين المجتمع الامريكي بشكل واسع سيكون احدى النتائج الفرعية المدروسة لمجتمع يندفع الى الامام بطاقته المكتسبة التي تسعى نحو اهداف جديدة تماما ـ بما في ذلك تلك الاهداف التي تقع أبعد من تصوراتنا المباشرة ـ من خلال عملية تحقيق الوعي الاجتماعي الاكبر والمواجهة الناجحة للمشاكل التي لم تحل في الماضي .

---

* كان هدف الرئيس كينيدي للوصول الى القمر محل استنكار خاص ـ فمثلا أكد لويس ممفدرد على «ان برنامج الهبوط على القمر ... هو عمل يرمز الى الحرب كما ان الشعار الذي سيحمله رجال الفضاء ويزعمونه لصالح البشرية هو على نفس القدر من النفاق البشع الذي تمارسه القوات الجوية بشعارها «مهمتنا هي السلام» ... وليس مصادفة ان يتوافق برنامج الهبوط على القمر هذا مع التخفيضات في اعتمادات التعليم والافلاس في خدمات المستشفيات واغلاق المكتبات والمتاحف والتلوث المتزايد في الحضر وفي البيئة الطبيعية ناهيك عن الادلة الاخرى العديدة على الفشل الاجتماعي الكلي والتدهور الانساني » (نيويورك تايمز ٢١ـ٧ـ١٩٦٩) .

وبالمقابل لاحظ ميشيل هارينغتون ان «هناك تطهرية معينة في اليسار عندما تثار قضية الفضاء فمن المألوف معارضة انفاق الاموال على السماء والارض لا تزال في حاجة إليها» ولكن هذا الراي يتجاهل نقطتين : اولا ، انه اذا تحقق السلم فستكون هناك تخفيضات ضخمة من البلايين المخصصة للدفاع وكذلك سيوفر النمو الطبيعي لاقتصاد كامل العمالة الاعتمادات اللازمة لاعادة بناء امريكا والذهاب الى النجوم . ثانيا، ان الفضاء ليس فارغا من الناحية الاجتماعية والعلمية حتى من الناحية الجمالية. فمن الممكن ان يوفر مكانا للكائنات البشرية وموارد جديدة ضخمة لتطوير العالم كما انه سيؤدي بالتأكيد الى معرفة اعمق بالانسان والكون . والى جانب هذه الاعتبارات البرغماتية هناك ضرورة معنوية تتطلب ان تعيش الانسانية كامل طاقاتها وان يتمكن الناس من ان يعلنوا عن حق انهم قد جربوا او جددوا على الدوام (**القوة الامريكية في القرن العشرين** ص ٣١) .

فان تركنا جانبا احتمال ان التأثير التكنولوجي لبرنامج الفضاء قد يؤدي الى المساهمة في حل مشاكل المدن الفقيرة المنغلقة اكثر من كل العقائد الاجتماعية والبرنامجية المعاصرة ، نجد ان هناك وجها دوليا هاما آخر للجهود المبذولة في الفضاء : ذلك ان قوة عالمية كبرى كالولايات المتحدة لا بد لها ان ترتاد مجالات الحياة التي تعد حيوية من الناحية التاريخية . ان فشل الولايات المتحدة في عصر علمي كعصرنا ، في ان تندفع الى ما وراء الجبهات القائمة ــ والفضاء يوفر فرصة تحد دراماتيكية للغاية ــ ان الفشل في هذا يعني خسارة احد الدوافع النفسية الكبرى من اجل التجديد . والحقيقة هي ان مجتمعا قاريا كالولايات المتحدة لا يمكن ان يستمر في الحياة بأن يصبح كالسويد بل لا يمكن ان يستمر في الحياة دوليا ، قد لا يمكنه ان يحقق توازنا مرضيا بين الحاجات المادية المحلية والطموحات الروحية في هذه الحالة ، وقد يبدو هذا القول مجافيا للمشاعر الشعبية . ان ارتياد الفضاء هو اكثر توافقا مع تقاليد بلد رائد ارتبطت عظمته بالتجديد في الترتيبات الدستورية والتطور الاقتصادي والاكتشاف القاري والبحوث العلمية .

ان الليبرالية المعاصرة لا توفر للعديد من الامريكيين لا المبدأ ولا التقدم لذا ازمة الليبرالية الامريكية هي ازمة في الثقة وازمة في طبيعة ملاءمتها التاريخية (٤٥) وانه لاحتمال كئيب ان تتحول الليبرالية التي كانت تاريخيا المظهر الحيوي للتجديد في الديمقراطية الامريكية المعاصرة، لتصبح التعبير النقدي لأقلية عقائدية ــ تتصرف برد الفعل بشكل متزايد بالرغم من اقوالها ــ ومأوى للاحتجاج الفلسفي ضد الآثار غير الانسانية للعلوم ، بينما عملية تشكيل المستقبل النشطة هي بين ايدي نخبة محافظة اجتماعيا الى درجة ما ولكنها مجددة تكنولوجيا * .

نهاية الديمقراطية الليبرالية ؟

ان مرحلة التجديد التكنولوجي والمحافظة السياسية والتي يمكن ان تؤدي الى

---

٤٥ ــ يعبر عن ذلك بدقة عنوان الكتاب الاخير لارثر شيلزنغر الابن، **ازمة الثقة** The Crisis of Confidence ، بوسطن ١٩٦٩ .

* بالرغم من ان الرأي العام قد يتحول بشكل درامي من الجدير بالملاحظة ان استطلاعات عام ١٩٦٩ اظهرت ان الاغلبية الثابتة من الشباب ومن بين الحاصلين على تعليم جامعي كانوا مع زيادة محاولات ارتياد الفضاء . والذين كانوا ضد ذلك كانوا اكثر عددا بين الاكبر سنا وذوي التعليم الثانوي (استطلاعات غالوب كما نقلتها **النيويورك تايمز** ٧ــ٨ــ١٩٦٩ واستطلاعات هاريس **الواشنطن بوست** ٢٥ــ٨ــ١٩٦٩) وفي نفس الوقت يميل طلاب الجامعات الى صالح تقوية القانون بشكل اكثر فعالية بما في ذلك مزيد من التسجيلات التليفونية (استطلاعات غالوب كما نقلتها **النيويورك تايمز** ٢١ــ٨ــ١٩٦٩) .

شكل من اشكال حركات المديرين التكنولوجية هي مجرد احتمال واحد . هنـاك بدائل اخرى اكثر تطرفا . ان التوترات الاجتماعية ـ الاقتصادية الامريكية يمكن ان تزداد حدة في حال فقدان قوة الدفع في النمو الاقتصادي ومن ثم في سرعـة البحث الاجتماعي والتطوير التقني ـ وهو مصدر من مصادر العزة القومية . وقد يترتب على ازدياد تمزق الوعي القومي العام اصطدامات عرقية ونشاطات لعصابات المدن واغتراب للشباب بالاضافة الى انشقاق قومي عميق حول دور امريكا العالمي وقد يؤدي الى ان يراهن اقصى اليسار او اقصى اليمين على تفسخ امريكـا السياسي محاولا الاستيلاء على السلطة .

ويبدو في الميزان ان فرص نجاح اي محاولة ثورية جادة ليست كبيرة جدا . ولكي يصبح اليسار الجديد الحالي اداة ثورية فعالة عليه ليس فقط ان يتعامـل بشكل اكثر معقولية مع القضايا الجديدة التي تواجه زماننا ولكن ايضا عليه ان يطور التقنيات والمهارات والاشكال التنظيمية الضرورية للتأثير في ثورة في اكثر مجتمعات العالم حداثة وتقدما من الناحية التكنولوجية، ويتطلب ذلك تحويل حركة شابة مشكلة من الطبقة الوسطى الى درجة ما مدعومة عن بعد ببعض الجماعات الحضرية الاكثر انغلاقا على نفسها بين المثقفين ، تحويلها الى تنظيم ذي نظرية عمل منتظمة تضع في اعتبارها خصوصية امريكا المعاصرة . ان تقديس حركة الطلاب من اجل الديمقراطية لتشي غيفارا وهو ثائر ريفي تراجيدي ، واعتمادها المتزايد على مقتطفات عن الماركسية ـ اللينينية يمكن ان يعوضها عن عدم قدرتها علـى مواءمة نفسها مع المجتمع الامريكي المعاصر ، ولكنه لا يمكن ان يسهم في بروزها كقوة ثورية فعالة .

هناك اختلاف كبير بين النشاط الثوري والنجاح الثوري . فالنشاط الثوري ـ من خلال الارهاب والتخريب وعمليات الاغتيال المنتقاة وحرب عصابات المدن ـ ممكن بل هو الراجح في اوائل السبعينات . وسيأتي ذلك لا من اليسار الجديد بل من خليفته الآخذة في الظهور اي اليسار العنيف المحترف . لن يأتي من بين الشباب المثالي الذي غذى اليسار الجديد بالحماسة والاضطراب وانما من اولئك الذين هم بينهم الان وقد تصلبوا وزالت اوهامهم وازدادت مراراتهم بالتجارب في السجون ومراكز الاشغال الشاقة . وهؤلاء سيكونون مستعدين نفسيا للعنـف الحقيقي وسيرفضون اساليب الاعتصام والاغارات على مكاتب العمداء باعتبارها لعب اطفال . عندئذ سيكون على المجتمع الامريكي ان يواجه تهديدا داخليا كبيرا .

ولكن حتى عندئذ سيسود الثقل الجماعي للمؤسسات السياسية والاجتماعية والقـدرة الساحقة للسلطة المنظمة في كل الاحتمالات . وطالما يبقى اليسار الجديد غير فعال في الحالات القليلة التي يلجأ فيها للعنف فان احدا لن يتعرض له، فاذا تحول الى يسار عنيف فان القمع سيكون مصيره الحتمي . الحقيقـة ان الثورات هي من الامور النادرة تاريخيا ، كما انه في الازمنة الحديثـة يتطلب نجاحها بشكل عام الجمع بين التحلل الاجتماعي الداخلي والهزيمة العسكريـة

الخارجية . يجب ان ينهار تنظيم السلطة نفسه ويجب ان تنشق النخبة ، ويجب ان يتوقف عمل النظام الاجتماعي ـ الاقتصادي وأن تتبلور قيادة بديلة وأن تكون القوى الاجتماعية الاكثر قدرة على الخلق في قسمها الاكبر على الاقل مقتنعة بأن البديل الافضل امر ممكن . وبدون تحقيق هذه الشروط سيولّد الاعتماد على العنف الثوري القمع بل والقمع القاسي الفعال ✱ .

وسيؤدي قمع اليسار العنيف بالتأكيد الى دفع البلاد نحو اليمين. ان القمع المنظم سيحتاج الى استحداث مجموعة متنوعة من وسائل السيطرة على الفرد. فان قامت المؤسسات الشرعية بذلك بشكل منتظم فان العملية في كل الاحوال ستقوي القوى السياسية المحافظة. فان لم يتم ذلك بشكل فعال فمن المحتمل ان يؤدي الى ظهور حركة يقظة في اليمين تقوم على اشكال متنوعة من التشكيلات شبه العسكرية . ولكن حتى في تلك الاحوال يبدو ان انقلابا يمينيا متطرفا غير محتمل اطلاقا . فمثل هذا الانقلاب يتطلب تطور درجة من التماسك التنظيمي والمفاهيم التي تبرره وهو ما يبدو انه فوق طاقة اليمينيين المتطرفين ، ومعظمهم تخطاه الزمن بحكم سرعة التغير الامريكي (٤٦) .

إذن ، فالاحتمال الارجح هو ان النزاعات المدنية بين الحين والآخر ستؤدي

✱ هناك اتفاق في هذه النقطة بين مراقبين مختلفين عن بعضهم مثل اللجنة القومية لدراسة اسباب العنف وسبل منعه وبارغنتون مور وهو ناقد متشدد للنظام الامريكي الحالي . لقد استخلصت اللجنة ان «العنف الجماعي نادرا ما ينجح كأداة لانجاز اهداف المجموعة . يمكن ان ينجح عندما تتمكن مجموعة ما من التغلب على معارضيها الذين لا يكون امامهم خيار الا ان يموتوا او يتوقفوا ولكن الحكومات الحديثة يمكنها ان تنجح في مثل هذه الحالات اكثر من معارضيها في اغلب الاحوال .

«وفي امريكا المعاصرة من المرجح ان تؤدي محاولات الثورة من جانب اليسار الى موجة قمع ضخمة من جانب اليمين . ان ظهور العنف في اطار النشاطات المعارضة يرجع بشكل كبير اغتراب مجموعات ليست في الاساس متعاطفة مع المعارضين .

«ان تاريخ احداث نزاعات العمل الامريكية تشير الى انه عند ظهور العنف لم يكن في اغلب الاحوال مؤثرا بالنسبة الى العمال المشاركين فيه . وكلما ازداد عنف النزاع ازدادت فداحة مضاعفاته على العمال» (خلاصة تقرير لجنة العنف في امريكا ؛ النيويورك تايمز ٦ـ٦ـ١٩٦٩) .

ومور يمضي في نفس الطريق فيحذر بأن آفاق اي ثورة حضرية في امريكا كئيبة جدا وان الثورة الراديكالية الناجحة لم تنجح بعد في توفير «مساهمة دائمة في الحرية الانسانية» . («الثورة في امريكا ؟» **نيويورك ريفيو اوف بوكسي** ، ٣٠ـ١ـ١٩٦٩ ، انظر ايضا الدراسة العميقة التي كتبها بروس سميث ، «سياسات الاحتجاج : ما هي فعالية العنف ؟» ابحاث اكاديمية العلوم السياسية ، يوليو ـ تموز ١٩٦٨) .

٤٦ ـ هناك قدر جيد من المعلومات عن المجموعات المتطرفة اليمينية واليسارية في كتاب جورج تاير ، **الشواطىء الابعد للسياسة** The Farther Shores of Politics ، نيويورك ، ١٩٦٧ .

الى استقطاب في الراي العام يجمع بين الحزب الديمقراطي وبعض مواقف اليسار الاقل تطرفا او انشقاقاته ، وحيث يحاول الحزب الجمهوري استغلال وضعيتـه لكي يجمع اغلبية قومية محافظة . قد يحدث هذا تدريجيا ، وقد تجهض أوجه المغامرة في الحلم الامريكي على يد القادة الاكثر محافظة (مثلا دعوة سبيرو اجنيو الى رحلة الى المريخ) في الليبرالية وغضب اليسار الجديد ، والخوف من السود، سيؤدي كل ذلك الى تركيز شديد على اهمية النظام ويصبح التقدم في العلاقات العرقية مجرد زينة للعرض ثم تذوي في النهاية ويختفي من جدول الاعمال . ان ظهور رد فعل سياسي اكثر رجعية لن يكون دراميا كما لن تكون له أصـداء فاشية علنية .

قد يسرع الليبراليون العقائديون بهذه العملية باصرارهم إما على اعادة تشكيل الحزب الديمقراطي على صورتهم او على خلق حزبهم السياسـي الخاص . ان الاصرار على رد فعل عقائدي فيمواجهة التعقيد القائموعدم الموافقة على التنازلات المتبادلة العامـة من السمات الاجتماعية المميزة في اوقات الانقطاع (عـدم الاستمرار التاريخي) ، وكما لاحظنا من قبل هي سمات تعبر على وجه التحديد عن الشباب والهامشيين في المجتمع وقد تكون النتيجة السياسية هي مزيداً مـن الضغط على الليبراليين البرغماتيين الاقل التزاما بالايديولوجية ، اذ يضغط عليهم العقائديون الذين يطالبون بادارة اجتماعية واسعة النطاق ويتركون جانبا التحديات الخارجية ومن ناحية اخرى يضغط عليهم المحافظون الذين يعظون بمحاسـن التماسك الاجتماعي والآفاق العلمية الجديدة .

ان الاتجاه ضد المفكرين الكامن لدى قسم كبير من الامريكيين ، وهو الاتجاه الذي تقويه مساوىء الكليات وتزيده حدة تناقضات المثقفين ويضاعفه العداء الطبقي تجاه المتمردين المنحدرين من الطبقة الوسطى الامريكية ، هذا الاتجاه الكامن قد يؤدي الى تقويض الدعم العام الذي تحصل عليه المؤسسات التعليمية في البلاد ، وبذلك يواجه ، التحدي الكبير الذي يطرحه اليسار بتحد مساو كبير يطرحـه اليمين . سيتم تسييس الجامعة الامريكية ، فإما ان تصبح منشغلة باستمرار بقضايا غير اكاديمية وتصدر كلياتها وطلابها القرارات حول انواع الامور الخارجية كافة مضيفين بشكل متزايد المواد السياسية الى اهتماماتهم الفكريـة ، او ان تخضع لاشراف خارجي اكثر حزما من الجمعيات والمجالس المحافظة التي ستفرض مواقفها السياسية على الاعمال الداخلية للهيئات الاكاديمية * . وسيكون تدمير الجامعة الليبرالية الناتج عن ذلك علامة خطرة على تدهور الديمقراطية الليبرالية

---

* توجد امثلة على ذلك في البيان الاول الكبير الصادر في ١٩٦٩ من مجلس جامعة كولومبيا الذي عبر عن موقفه من حرب فيتنام ، وفي الاعتراضات التي قدمتهـا هيئات الـ UCLA'S لاستاذة فلسفة سوداء شابة بسبب ارتباطاتها السياسية .

الامريكية * .

في هذا النطاق قد تصبح المهمة المتعذرة حاليا وهي مهمة خلق مجتمع متعدد الاجناس تسوده المساواة ، قد تصبح ميؤوسا منها . ان الاتجاهات الحالية تؤدي الى ازمة تزداد سوءا ما لم يتم بذل جهد اجتماعي كبير لاستيعابها (٤٧) .

وبافتراض وجود موقف لامبال من جانب الشعب او حتى موقف معاد من تلك الجهود هناك أفقان متساويان في الخطورة للعلاقات البيضاء ـ السوداء في امريكا : قمع السود و / او انفصالهم . واي الاحتمالين يمكن تحقيقه فقط في نطاق جو سياسي اكثر رجعية ، ويؤدي هو نفسه الى ضغوط طاغية في الاتجاه نحو الرجعية . ان القمع ، بما في ذلك الجهود من اجل بعض اشكال التوطين المستقل ، سيشتمل على صدام كبير . فالامريكيون السود لم يعودوا مستسلمين، الى جانب ان العديد من البيض سيقفون الى جوارهم . وبالرغم من انه يمكن تحقيق القمع بفعالية ، بالذات في ظل هبة سوداء ضخمة يستثيرها اليأس بسبب غياب اي تقدم ، سيكون الثمن ردة تراجيدية في عملية الديمقراطية الامريكية ومداها الذي تعمق واتسع على مجرى تاريخ البلاد .

هناك تحديد آخر أقل وضوحا وان لم يكن أقل عمقا يواجه الديمقراطية الليبرالية . انه يرتبط ارتباطا مباشرا بأثر التكنولوجيا ويشتمل على الظهور التدريجي لمجتمع موجه وتحت السيطرة اكثر من ذي قبل . مثل هذا المجتمع قد تسوده نخبة يستند سعيها الى السلطة السياسية على تفوقها في العلم والخبرة. هذه النخبة قد لا تتردد في تحقيق غاياتها السياسية باستخدام احدث التقنيات للتأثير في السلوك العام وللاحتفاظ بالمجتمع تحت الاشراف والسيطرة المباشرين، خصوصا انها لا تواجه عقبات من القيم الليبرالية التقليدية . في ظل هذه الظروف قد لا ترتد قوة الدفع العلمية والتكنولوجية في البلاد وانما ستتعدى على الوضع الذي تستغله . ان ظهور حزب مسيطر كبير الى جانب تشكيل المجموعات المتشددة عقائديا الضيقة الرؤيا في اليسار وفي اليمين قد يسرع بالاتجاه نحو سلطة المديرين التكنولوجية هذه . مثل هذا الحزب المسيطر الكبير سيجمع بين رغبة المجتمع

---

* ان المضاعفات على المدى الطويل للهجوم على الجامعات يبدو انها لا تحوز اهتمام اليسار الجديد الا قليلا . فمثلا المطالبة بفصل ابحاث الدفاع عن الجامعات قد يؤدي الى ظهور مجموعة مستقلة من معاهد البحث الحكومية التي تدار عسكريا والتي قد تخفي سريتها عملياتها عن التأثير الفكري الخارجي كما هو حادث في الاتحاد السوفياتي . هذا بالدقة ما حدث بالفعل في حالة الاختراعات الخاصة بالحرب البكتريولوجية والتي تم تطويرها في مختبرات حكومية مغلقة بعيدا عن اشراف المجتمع العلمي . كما أن ازالة الـ ROTC قد يسرع بظهور مجموعات كبيرة مستقلة من المهنيين العاملين لمصلحة مستقبلهم بدلا من ابطاء ذلك ، بكلمات اخرى يشكل قشرة من المحاربين .

٤٧ ـ حول الخطوط العامة للجهود المطلوبة ، انظر **التقرير ... حول المخالفات المدنية** ، خاصة ص‌ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

الامريكي في الاستقرار وتلهفه التاريخي على التجديد . واذ يعتمد هذا الحزب على النمو العلمي في انتاج الوسائل التي تتعامل مع الامراض الاجتماعية يطلق مواهب الامة الفكرية في سبيل تخطيط واسع الاهداف ، وسيستغل وجود المجموعات العقائدية لاستعمالها كأجهزة قياس اجتماعية ومصادر للافكار الجديدة . ان الازمة الاجتماعية المستحكمة وظهور شخصية قيادية جذابة ، واستغلال وسائط الاعلام للحصول على الثقة العامة ، ستكون خطوات التحول التدريجي للولايات المتحدة الى مجتمع مسيطر عليه بشكل كبير * .

وقد يجد العقائديون والمحافظون كل بطريقته انه من الصعب مقاومة اغراءات استخدام التقنيات الجديدة في السيطرة الاجتماعية . ان ميل اليسار العقائدي الى تقنين الوسائل بالغايات قد يؤدي بهم الى تبرير مزيد من الاشراف الاجتماعي باعتبار انه يخدم التقدم . وقد يغري المحافظون وهم المتهمون بالنظام العام والمفتونون بالادوات الحديثة ، قد يغريهم استعمال التقنيات الجديدة كرد فعل على حالة القلق ، ذلك انهم لن يقروا بأن الاشراف الاجتماعي ليس هو الطريقة الوحيدة للتعامل مع التغيير الاجتماعي السريع .

هذه النتيجة – اذا ما تحققت – ستكون عبارة عن اجابة شديدة التشاؤم على السؤال الخاص بما اذا كانت الديمقراطية الليبرالية الامريكية قادرة على التمثل وعلى اعطاء معنى فلسفي للثورة التي تحدث . ان الامر لا يتعلق بالولايات المتحدة وحدها ، ان له آثارا اكبر . فنجاح الولايات المتحدة او فشلها سيكون دليلا هاما على ما اذا كانت الديمقراطية الحديثة مع المواطنين ذوي التعليم العالي يمكن ان تقوم بتغيير اجتماعي ضخم دون ان تفقد طابعها الديمقراطي الجوهري . ومن حسن الحظ ان التحول الامريكي يحوي ايضا الطاقة الكامنة لضمان الخلاص الامريكي .

---

* هذا ايضا قد يؤدي الى وضع متناقض تاريخيا . فالمجتمع الامريكي الديمقراطي تقليديا قد يتحول بسبب افتتانه بالقدرة التقنية الى مجتمع مسيطر عليه الى اقصى درجة ، وعندئذ قد تفقد صفاته الانسانية والمحافظة على الفرد . (مثل هذا المجتمع هو موضوع رواية كورت فون نغيت **لاعب البيانو**) . ومن ناحية اخرى ان البلدان الشيوعية بسبب عدم كفاءتها التنظيمية وفقدانها التدريجي للسيطرة السياسية قد تصبح اكثر اهتماما بقضايا الانسانية . وقد تؤدي عدم كفاءتها الاشتراكية بالاشتراك مع هذه الاهتمامات الانسانية المتزايدة ، الى نظام اجتماعي اكثر مرونة في بعض هذه البلدان في نهاية الامر .

ومع ذلك يجب ملاحظة ان هذا المستقبل البعيد الاحتمال جدا ينطبق فقط على البلدان الشيوعية الاكثر تقدما . فوزن التقاليد السياسية وطموحات القوة الكبرى على الشكل الروسي من الشيوعية والتخلف الاجتماعي الاقتصادي نسبيا في معظم الدول الشيوعية يرجع غير ذلك وبالنسبة الى ناقد لفكرة التقاطع اي تطور النظام الشيوعي الى ديمقراطية الليبرالية التقليدية ، انظر الفصل الاخير من الكتاب الذي كتبه مع صموئيل هنتنفتون ، السلطة السياسية : الولايات المتحدة الامريكية / الاتحاد السوفياتي ، نيويورك ١٩٦٤ .

الجزء الخامس

امريكا والعالم

يجب ان تعكس علاقة امريكا مع العالم القيم والاهتمامات المحلية الامريكية . لم يعد ممكنا وجود تعارض عميق بين المسلك الخارجي لمجتمع ديمقراطي ومعاييره الداخلية فشبكة الاتصالات الضخمة تكشف بسرعة الفجوة بينهما والطريق امـام الدعم المطلوب للسياسة الخارجية . فكما ان اي امة من الامم تنشغل بالتهديـد الشيوعي في الداخل ، تكون قادرة على ان تسلك سياسة متشددة معاديـة للشيوعية في الخارج ، او ان امة تخشى الثورة تصبح متورطة بشدة فـي نشاطات معادية للثورة ، فان الامة المعنية بالعدالـة الاجتماعية وباستخـدام التكنولوجيا لا يمكن كذلك الا ان تتصرف بنفس الالتزام على المستوى الدولي .

كتب جون لوك في كتابه **البحث الثاني حول الحكومة** «... في البداية كان كل العالم امريكا» . واليوم كل العالم امريكا بمعنى ان امريكا هي الاولى في ممارسة المشاكل الاجتماعية والنفسية والسياسية والايديولوجية التي ولدتها ما احرزه الانسان فجاة لسيطرة لم يسبق لها مثيل على البيئة المحيطة به وعلى نفسه . ان الثورةالامريكية الثالثة اذ تحدثفي مرحلةمنالمعتقدات المتطايرة والتغير التكنولوجي السريع الانتشار ، تحدد دور امريكا : بأنها المجدد الاجتماعي ، الذي يستغل العلم في خدمة الانسان ولكن دون ان يحدد مستقبل الانسان بطريقة جامدة . ان نجاح امريكا في بناء مجتمع ديمقراطي صحي سيضيء الامل امام عالم لا تزال تسوده الصراعات الايديولوجية والعرقية والمظالم الاقتصادية والاجتماعية . ان فشـل

امريكا لن يكون نكسة للاتجاهات القائمة منذ عصر الثورات العظمى في اواخر القرن الثامن عشر فحسب وانما سيدل على مزيد من الفشل الانساني الجوهري ، اي عدم قدرة الانسان في التغلب على غرائزه الاساسية ، واستسلامه امام تعقيدات العلم وسلطته .

المستقبل الامريكي

ان لم يتم الاعتراف بالمشاكل التي تواجه امريكا وان لم يتم التنبؤ بها فان المخاطر ستكون اعظم. والامر ليس كذلك على اي حال . فربما كانت امريكا المعاصرة اكثر انتقادا ومطالبة لنفسها من اي مجتمع آخر ، فالتقارير القومية تكشف اخفاقات المجتمع وتتضمن انتقادات كبيرة للنواقص القومية وجهودا دقيقة للجرد الاجتماعي ، وكلها تعكس مزاجا قوميا متزنا مترويا يكثر من التأمل في ذاته . وتشير الدراسات حول المستقبل ، والتي تتم على نطاق واسع (بوساطة بعثات اكاديمية خاصة او معاهد خاصة ذات تمويل جيد) تشير الى ازدياد الاعتراف القومي بأن المستقبل يمكن بل ويجب تخطيطه ، وانه بدون ان يكون هناك بعض الخيار المتأني قد يسبب التغيير فوضى شاملة * . وذلك لا يضمن ان الاستجابة القومية ستتصاعد عمليا ، ولكنه يشير الى وعي متزايد الانتشار بين القطاعات القيادية في المجتمع للحاجة الى التجاوب المدروس .

ان الحيوية التاريخية لنظام الولايات المتحدة تقوم على التزام الشعب الامريكي العميق الجذور لفكرة التغيير الديمقراطي كما كان التقليد الامريكي الخاص بالحوار الحر وبالتعبير الحر عن عدم الاتفاق في اطار (١) الهرم التنظيمي ، كان عاملا هاما في تطوير هذا التجاوب للتغيير فقد جعل من الممكن استغلال حركات الاحتجاج (ومن ثم تحويلها الى فائض تاريخي) بتحوير وتبني برامجها . لا يعني هذا انكار

---

* ان الاهتمام لا يقتصر على المثقفين ولكنه يشمل رجال الاعمال ايضا . وهكذا ففي مارس — اذار ١٩٦٩ كشفت **مجلة فورتشن** عن خطة لعلاج حالة «امة الدرجة الثانية التي لم يبن الا نصف مدنيتها» مقدمة برنامجا لاعادة تأهيل شاملة للامة . ويحتاج هذا البرنامج الى جهد ضخم عام وخاص.

انظر ايضا دراسة اكثر شمولا من ليونارد ا. ليخت ، **الاهداف والاولويات والدولارات : العقد القادم** (نيويورك ١٩٦٩) وهي تضع الخطوط العامة لخطة ذات تفاصيل غير عادية في توزيع الناتج القومي الكلي لمهام اعادة التجديد القومي ، مع تركيز خاص على الهيكل العلمي — التكنولوجي والهيكل الايديولوجي للمجتمع .

١ — انظر بعض البيانات المقارنة في «**نحو تقرير اجتماعي**» ، ص ص ٨١ — ٨٢ .

وجود عامل العنف في التاريخ الاميركي ولا ما سبق ملاحظته من اتجاه الناخبين المحافظ . والواقع الجوهري مع ذلك ، في الحياة الامريكية كان تمثل التغيير السريع الذي تحدثه الريادة والهجرة والنمو الصناعي . لقد التحم الواقع الديناميكي الاجتماعي ــ الاقتصادي بدرجة معينة مع الاتجاه المحافظ سياسيا ، وخلق نظاما اجتماعيا سياسيا تعدديا اثبت في الماضي انه مرن بدرجة ملحوظة في امتصاصه للتغير غير العادي . هذا النظام يملك خاصية بنيوية قادرة على توليد وتفسير اشارات التحذير التي يطلقها التوتر الاجتماعي المتصاعد .

ان امريكا الحالية قد وضعت لنفسها اهدافا اعلى من اي مجتمع آخر ، فهي تهدف الى خلق تناغم عرقي على اساس المساواة والى تحقيق ضمانات اجتماعية بينما تحافظ في نفس الوقت على الحرية الشخصية ، انها تهدف الى القضاء على الفقر دون مساس بحرية الافراد . ولقد كان من الممكن ان تكون التوترات في الولايات المتحدة أقل مما هي عليه لو انها تسعى لما هو أقل . ولكن الاهداف الطموحة لامريكا تعكس طابعها المجدد .

وبالرغم من ان اليسار الجديد ــ وبوجه خاص اليسار العنيف-قد أدى مؤقتا الى تقوية الاتجاهات الاجتماعية المحافظة حتى الرجعية ، ارى تعجل الشباب خليقا بأن يتغلغل اكثر فأكثر داخل النظام الاجتماعي ــ السياسي ، خصوصا عندما يبدأون في شغل مواقع اكثر نفوذا وجعلها اكثر تجاوبا للحاجة الى التغيير والاصلاح . وبالاضافة الى ذلك فقد اثارت الخبرة الدولية المتزايدة للنخبة الامريكية المثقفة والتي تعمل في المشاريع المالية والتجارية قد اثارت بالفعل اتجاها اكبر للنظر الى المشاكل المعاصرة ضمن اطار اوسع ، ومن ثم استخلاص الدروس للولايات المتحدة من التطور السياسي والتجديد الاجتماعي في البلدان المتقدمة الاخرى ✶ .

وبالنتيجة نجد ان هناك عددا اكبر من الامريكيين يعترفون بأن المجالين الكبيرين للتغيير المطلوب وللتغيير الحادث ــ كما نأمل ــ يشتملان على الجوانب المؤسسية والثقافية في المجتمع الامريكي . الجانب الاول يمت بشكل كبير وليس بشكل قاطع الى المجال السياسي ، ويمت الثاني الى الساحة التعليمية بوجه خاص لانها تتعلق بمضمون وتشكيل القيم القومية . وسيلعب مزيد من التغيير المدروس في كلا المجالين دوره كحافز على الاصلاح في مجالات اخرى من المجالات القومية بتوفيره الاطار والدافع لتبني العلاجات المطلوبة في الوقت المناسب .

✶ مثلا من المعترف به الان بصراحة اكثر ان امريكا يجب ان تتعلم الكثير من اوروبا الغربية في تخطيط المراكز الحضرية الكبرى ، والتخطيط الحضري المحلي والتقسيم الاقليمي ، وتطور مدن جديدة ، والتجديد الاجتماعي والقانوني .

التعددية بالمشاركة :

ان اقتراب الذكرى المائتين لاعلان الاستقلال قد يبرر النداء والدعوة الى مؤتمر دستوري قومي لاعادة النظر في الاطار المؤسسي الرسمي للامة . ان سنة ١٩٧٦ او سنة ١٩٨٩ وكلاهما ذكرى مرور مائتي عام على الدستور تصلح تاريخا مناسبا للقيام بحوار قومي شامل حول ملاءمة الترتيبات الموجودة حاليا للعصر ، واعمال العملية التمثيلية، والرغبة في تقليد الاصلاحات الاقليمية الاوروبية المتنوعة، وجعل الهيكل الاداري عصريا . والاكثر اهمية من ذلك ان اي التاريخين يصلح مناسبة لاعادة تعريف معنى الديمقراطية الحديثة ، وهي مهمة يقر الجميع انها تواجهنا وان لم يكن بالضرورة بشكل اكثر الحاحا مما كانت عليه ايام الآباء المؤسسين ، كما ان هذه الذكرى تصلح ايضا مناسبة لتحديد اهداف اجتماعية اساسية وطموحة * .

ومع ذلك تضطرنا الواقعية الى الاعتراف بأن التجديد السياسي المطلوب لن يأتي عن اصلاح دستوري مباشر مهما كانت الرغبة في ذلك ** . ان التغيير المطلوب سيتطور على الارجح ببطء وبطريقة غير ظاهرة ومجاله النهائي مع ذلك قد يكون بعيد المدى خصوصا بعد ان تتمثل العملية السياسية تدريجيا التغير العلمي — التكنولوجي . وهكذا في المجال السياسي قد يؤدي ازدياد تدفق المعلومات وتطور المزيد من التقنيات الفعالة في مجال التنسيق الى ان يجعل من الممكن تحقيق تطوير اكبر في السلطة والمسؤولية للمستويات الادنى في الحكومة والمجتمع . لقد سبب تقسيم السلطة في الماضي بشكل تقليدي مشاكل من عدم الكفاءة وسوء التنسيق وتوزع السلطة ، ولكن التقنيات الحديثة في الاتصالات والمحاسبة اليوم جعلت من الممكن زيادة السلطة للمستويات الادنى وتنسيقا فوريا تقريبا على المستوى القومي *** . ان النقل السريع للمعلومات مع وسائل التحليل المتقدمة جدا تجعل من الممكن القيام بتخطيط قومي واسع — بالمعنى الفرنسي الواسع لتحديد الهدف — ليس فقط بالتركيز على الاهداف الاقتصادية ولكن وبوضوح اكبر بتحديد الاهداف الايكولوجية والثقافية .

---

* على سبيل المثال يمكن تحديد ١٩٧٦ تاريخا لتحقيق هدف جهد ضخم للقضاء على الفقر كما هو معروف حاليا او للوصول بتعليم الزنوج الى المتوسط القومي العام . كذلك يمكن تحديد ١٩٨٩ للاهداف الايكولوجية .

** ان اصلاحا دستوريا بسيطا — بالرغم من عدم امكان الحصول عليه — قد يقطع شوطا كبيرا في جعل الكونغرس اكثر تجاوبا مع التطور الاجتماعي : هذا الاصلاح هو اجازة قرار من الكونغرس يوقف القرار الثاني والعشرين الذي يحد من فترة الرئاسة .

*** من الممكن ايضا الاستفادة من هذه التقنيات لتحسين اجراءات الانتخاب ولتوفير استشارات اوثق بين العامة وممثليهم. ان الجهاز الانتخابي القائم في الولايات المتحدة — فيما =

ان التطور التكنولوجي يؤكد على ان المجتمع الحديث سيحتاج بشكل متزايد الى التخطيط . وان التوجيه الارادي للمستقبل الامريكي سيصبح واسع الانتشار ، حيث يحل المخطط في نهاية الامر محل المحامي باعتباره المشرع والممارس الاجتماعي الرئيسي . سيؤدي هذا الى مزيد من التأكيد على تحديد الاهداف وبكلمات اخرى التأكيد على الاهتمام الواعي بالغايات الاجتماعية . اما كيف يمكن الجمع بين التخطيط الاجتماعي والحرية الشخصية فهذه هي المشكلة الرئيسية الآخذة في الظهور فعلا في امريكا التكنترونية ، وهي المشكلة التي تحل محل انشغال العصر الصناعي بموازنة الحاجات الاجتماعية مقابل متطلبات المشروع الحر .

ان تقوية الحكومة المحلية وبوجه خاص المركزية هي ايضا مشكلة يقر المجتمع الان بأنها ضرورة ملحة للعملية الديمقراطية في الولايات المتحدة . ان التنازل عن مسؤوليات التمويل للمستويات الادنى من النظام السياسي قد تشجع تدفق المواهب الافضل و المشاركة المحلية الاكبر في عمليات صنع القرار المحلية الاكثر اهمية . من الممكن عندئذ تزويج التنسيق القومي والمشاركة المحلية بانظمة جديدة من التنسيق . ولقد تمت تجربة ذلك بنجاح في بعض الاعمال الاستثمارية الكبرى .

ان الاتجاه نحو تنسيق اكثر ومركزية أقل يمكن ان يتحقق بالحفاظ على التقليد الامريكي الذي يميع الخطوط الفاصلة الحادة بين المؤسسات العامة والخاصة . ان مؤسسات مثل تلفزيون امريكا T.V.A او مؤسسة فورد تؤدي وظائف من الصعب كثيرا على الاوروبيين ان يفهموها فالاوروبيون معتادون على التمييز الحاد بين الدائرة الخاصة والدائرة العامة (وهو الوضع النموذجي في العصر الصناعي) او على اخضاع الخاص للعام (كما يحبذ الاشتراكيون وبعض الليبراليين) او لامتصاص الخاص في العام (كما هي الحال في الدول الشيوعية).

وفي وقت من الاوقات كانت مسألة الملكية هي القضية الاجتماعية والسياسية الحاسمة في المجتمع الذي يمر بعملية التحديث . فقد تم ادخال اشكال ملكية الارض المألوفة في العصر الاقطاعي ــ الزراعي ، بقوة العادة وبالتكيف التاريخي، في العصر الصناعي . كان ينظر الى ملكية مصنع باعتبارها الى حد كبير ملكية قطعة من الارض . أدى ذلك في النهاية الى نزاع شديد بين الاشكال القديمة

= يتعلق باجراءات التسجيل والتصويت ـ لم يواكب التجديد في الاتصالات والمحاسبات الاليكترونية. ان الاصلاحات (مثل التشاور في التصويت منزليا بطرق اليكترونية) لكي يصبح ممكنا ان يتشاور ممثلو الشعب مع مناصريهم بسرعة ، وان يعبر هؤلاء المناصرون عن آرائهم بسهولة ، هذه الاصلاحات ممكنة تقنيا ومن المرجح ان تتطور بسبب عدم الرضا المتزايد على الجهاز الحالي . ان المزيد من المشاورات المكثفة ليس بالضرورة فقط على المستوى القومي ولا بالنسبة الى المؤسسات السياسية فحسب سيكون من شأنها تقوية درجة تجاوب النظم السياسية والاجتماعية الامريكية .

وطرق تقدير الفرد والمتطلبات الجديدة للتنظيم الصناعي وحقوق العمال الجماعية والمؤسسات الاجتماعية السياسية التي تغيرت . كانت الاشتراكية احد الحلول المتطرفة في بلاد الغرب الاكثر تقدما حيث الملكية الاحتكارية غير الشخصية وحيث المشاركة المحدودة في المسؤولية مع قوة العمل المنظمة كانت هي النمط السائد في التعامل . عندئذ أعيد تعريف مسألة الملكية لتصبح شكلا من اشكال الاشراف والتنظيم بينما قضية الاستغلال المصحوب بالملكية حل محلها مشاكل جديدة تتعلق بالمشاركة الاقتصادية وبتحسن الاحوال النفسية للعاملين .

وفي مسار هذه العملية برزت الحكومة الفديرالية حتى في امريكا ، باعتبارها المؤسسة الرئيسية لاعادة بناء هيكل العلاقات الاجتماعية . واصبحت مسألة درجة دور الدولة في الشؤون الاقتصادية مسألة حيوية على عكس العصر الزراعي الذي كانت فيه بضع مؤسسات دولة قليلة منغمسة في تنظيم ومساعدة الوجود البشري اليومي حيث ان العصر الصناعي قدم فرصا اكبر في الاتجاه القومي وابرز حاجة اجتماعية اكبر للعدل الاجتماعي الذي تفرضه الحكومة. وبدا ان الاتجاه الاكثر مركزية للدولة هو البديل الوحيد للفوضى ورد الفعل الوحيد على الظلم الاجتماعي.

ان عصرنا يتجه نحو نمط جديد يميع الفوارق الفاصلة بين المؤسسات العامة والخاصة ويشجع على مزيد من المشاركة المتداخلة في كليهما من العاملين والاعضاء . ففي اوروبا لم تقتصر المشاركة في التقرير على المشاركة في الارباح وانما ادت ايضا بشكل متزايد الى المشاركة في صنع القرار . ومن الواضح ان ضغوطا في نفس الاتجاه تتزايد الان في الولايات المتحدة وفي الوقت نفسه فان اتساع الآفاق الاجتماعية امام مجتمع الاعمال الامريكي خليق بزيادة انغماس القائمين بالاعمال التنفيذية في هذه الاعمال في المشاكل الاجتماعية ، وبذلك يدمجون النشاط الخاص بالنشاط العام على كلا المستويين المحلي والقومي . هذا بدوره يؤدي الى تطبيق اجتماعي اكثر فعالية لاساليب الادارة الجديدة ، التي تختلف عن الاجراءات الحكومية البيروقراطية التي اثبتت فعاليتها وتجاوبها مع المؤثرات الخارجية * .

---

* يبدو ذلك مثيرا للسخرية بوجه خاص لان الحكومة قد منعت نقل العديد من التجديدات التكنولوجية من الدفاع الى الصناعة الخاصة (انظر د. ليستر و ج. هوويك، **تقدير نقل التكنولوجيا**، ناسا ، واشنطن ، ١٩٦٦ ، خاصة ص‌ص ٤٢ ، ٤٨ ، ٧٦ ، ٧٩) وفي نفس الوقت ان الاجراءات البيروقراطية الداخلية لعديد من الوكالات الحكومية متخلفة في مجال التجديد التكنولوجي وذلك بالمقارنة مع البنوك والشركات الكبرى . ويبدو الجمود البيروقراطي كأنه راجع للحجم وللهيكلية التنظيمية . ولقد بينت دراسة أعدها ١٦ مركز بحث اداري في ربيع ١٩٦٧ ان الشركات الصغرى المستقلة هي اكثر تجديدا من الناحية التكنولوجية من الشركات الكبرى (انظر بيتر دروكر **عصر عدم الاستمرار** ، نيويورك ، ١٩٦٩ ، ص ٦٢) .

مثل هذه التعددية بالمشاركة قد ثبت انها فعالة بشكل معقول في عملية اخضاع العلوم والتكنولوجيا للغايات الاجتماعية . في الماضي كان استعمال الآلة بالنسبة الى البعض هو بداية اليوتوبيا وبالنسبة الى البعض الآخر اطلاق عقال الشر . وبالمثل فتكنولوجيا هذه الايام يراها بعض المحافظين المحدثين بداية عصر جديد سعيد لانها تبشر بتحرير الانسان من عديد من المشاكل الاجتماعية ، بينما في نظر اليسار الجديد هي التكنترونيا التي تحل محل الملكية كرمز للشرور الاجتماعية(٢). ومع ذلك تظل القضية الحيوية هي الغايات التي يطبق في سبيلها العلم والتكنولوجيا. والمجتمع الذي ستوفر فيه التنسيق الفعال مع اللامركزية هو المجتمع الذي يمكنه اكثر من غيره ان يبلور الحوار الضروري والانعكاس المطلوب . عندئذ يمكن تعبئة الخبرة العملية من اجل الغايات الاجتماعية دون ان نمنح العلماء دورا سياسيا مسيطرا بسبب شهاداتهم العلمية * . ان التعددية بالمشاركة لن تضمن اوتوماتيكيا

---

٢ ـ يمكن العثور على مساهمات قوية في هذا الراي في كتاب جون مكدرموت «المثقفون والتكنولوجيا» The New York Review of Books ٣١-٧-١٩٦٩ . كما ناقش هذا الراي بدرجة اشد تيودور روزاك ، **تشكيل الثقافة المضادة**، نيويورك ، ١٩٦٩ .
The Making of a Counter - Culture

* ان الملاحظات التي ابداها دون ك. برايس في **الدولة العلمية** (كمبردج ، مارس ، ١٩٦٥) سانفورد أ. لاكوف و ج. ستيفان دوبر في **العلم والامة : السياسة والسياسات** (انغلوود كليفز ، نيوجرسي ، ١٩٦٢) حول السؤال المعقد عن دور العلماء في صنع السياسة ، هي ملاحظات تنطبق بشكل خاص على هذا المجال .

لا يوجد ما يبرر الاعتقاد بأن المنافسة العلمية كافية للوصول الى أحكام ملائمة تتعلق بكل مجالات الوجود الاجتماعي والسياسة العامة . ولا جدال ان الملاحظات التي ابداها مفكر فرنسي اجتماعي ، بالرغم من مبالغتها بعض الشيء ، حول أخطار الخلافات الكبيرة في الآراء غير العلمية ، هي ملاحظات مفيدة :

«نحن مضطرون الى استخلاص ان علماءنا غير قادرين الا على اتخاذ مواقف فارغة جدا عندما يبتعدون عن تخصصاتهم . ذلك يجعل المرء يعيد التفكير في تلك الافكار التي لا طعم لها والتي جمعها اينشتاين وهو عبقرية غير عادية في الرياضيات.لم يكن كبسكال ، فهو لا يعرف شيئا عن الواقع الانساني والسياسي او في الحقيقة عن اي شيء خارج مجاله الرياضي . ان الضجة التي أحدثتها ملاحظات اينشتاين في الامور الواقعة خارج تخصصه مثيرة للدهشة بقدر ما هي مدهشة عبقريته في تخصصه . ويبدو وكأن التطبيق المتخصص لقدرات المرء في مجال محدد بالذات يحبط تقديره للامور بشكل عام . حتى ج. روبرت اوبنهايمر الذي يبدو حاصلا على ثقافة عامة لا يفلت من هذا الحكم فبياناته السياسية والاجتماعية مثلا نادرا ما تتخطى مستوى بيانات رجل الشارع . وآراء العلماء التي نقلتها مجلة الاكسبريس ليست حتى على مستوى اينشتاين وأوبنهايمر . بل ان تباهيهم في =

لا الحكمة السياسية ولا المسؤولية الاجتماعية ولكنها قد تؤدي الى مجتمع قريب جدا من الاثنين .

ان استباق الآثار الاجتماعية للتجديد التكنولوجي يعطي مثلا جيدا على اشكال التعاون المؤسسي المتداخل المطلوبة . فمن بين اكثر حاجات الامة الحاحا الحاجة الى خلق مجموعة متنوعة من آليات الربط بين الحكومات والمجموعات الاكاديميـــــة ومجموعات الاعمال المحلية والقومية (يمكن ان يكـــون مثال ناسا NASA مفيدا بوجه خاص) وذلك للقيام بمهمة تقييم الآثار العملياتية للتكنولوجيا الجديدة وآثـــارها الثقافية والنفسية . ويمكن ان تقوم بذلك مجموعـــة من المجالس القومية والمحلية ــ التي لا تقتصر على العلماء ولكن تتشكل من مجموعات اجتماعية متنوعة بما في ذلك الكهنة ــ بحيث تواكب الحاجات وكذلك النمط الآخذ فـــي الظهور للتجاوب الاجتماعي حيال التغيير * .

ان الاتجاه نحو التحطم المتزايد للتمييز الحاد بين الدوائر السياسية والدوائر الاجتماعية والمؤسسات العامة والمؤسسات الخاصة ، لن يسلم نفسه ببساطة لكي يصنف اتجاها ليبراليا او محافظا او اشتراكيا ــ وكلها تعابير مشتقة من اطـار تاريخي مختلف ــ ولكنه سيكون خطوة كبرى نحو ديمقراطية المشاركة التي طالب بها بعض اليسار الجديد في أواخر الستينات . وانه لامر مثير للسخرية ان من المرجح ان تبرز هذه الديمقراطية بالمشاركة من خلال عملية تشجيع متبادل بين مؤسسات المجتمع والحكومة لا من خلال العلاجات التي طالب بها اليسار الجديد الا وهي نزع الملكية الاقتصادية والثورة السياسية وهما علاجان عفا عليهما الزمن منقولين بوضوح عن العصر الصناعي .

وقد لا يبدو ان الظهور المتطور للتعددية بالمشاركة هو جواب شاف لتلـــك

= الواقع لا يرتفع الى المستوى المتوسط . ان آراءهم غامضة عامة موروثة من القرن التاسع‌عشر وكونهم يمثلون ابعد حدود الفكر لامكانياتنا العلمية لا بد ان يكون دليلا على توقف التطور او الانفـــلاق العقلي . ان الفجوة بين القوة الضخمة التي يملكونها وقدرتهم النقدية وتقديرها لا شيء هي امر لا يبعث على الراحة بوجه خاص» . (اللول ، ص ٤٣٥) . لتعليقات اخرى مشابهة ، انظر و. تـــود («جورج واد : الرجل والكلام» **مجلة النيويورك تايم مغازين** ١٧ــ٨ــ١٩٦٧) .

* هذه المهمة تتخطى مهمة اللجنة القومية حول التكنولوجيا والتسيير الذاتي والتقدم الاقتصادي التي شكلها الكونغرس في ١٩٦٤ ، وكذلك تعرض نفسها للمواضيع التي تبحثها مثلا الجمعيـــة البريطانية للمسؤولية الاجتماعية في العلوم .

لقد اخطأت افتتاحية في مجلة ساينس (١ــ٨ــ١٩٦٩) حول الاشراف على التكنولوجيا في القول بأن هذا الاشراف يجب ان يوكل الى العلماء حصرا . ان علماء الاجتماع ورجال الدين والانسانيين يجب ان يشتركوا في ذلك ، وكذلك يجب اشراك اللجنة الخاصة حول العلوم الانسانية التي شكلتها هيئة العلوم القومية في ١٩٦٨ .

القطاعات من المجتمع الامريكي التي اصبحت مغتربة تماما ، وقد تبدو انها تغير زائد عن الحاجة بالنسبة الى اولئك الذين اكتسبوا مصلحة في الوضع الراهن. ولكن بالنسبة الى السواد الاعظم من الامريكيين الذين يقبلون مفهوم التغير التدريجي والذين يقدرون النظام القائم على الاجراءات ، قد توفر الانماط المتعددة للمشاركة الاجتماعية متنفسا خلاقا مطلوبا لمجتمع يزداد تعقيدا وتشبعا بالخبرة . في ظل هذا الوضع يصبح محتملا ان الاحزاب السياسية المعروفة تقليديا في امريكا ستقل اهميتها وستظهر بدلا منها المصالح وستكون بؤرة النشاط السياسي ، وسيعاد تشكيل التحالفات القومية على اساس يتعلق بكل موضوع على حدة حول قضايا معينة ذات اهمية قومية * .

اما في المستقبل المباشر فمن المرجح ان تسود سياسات الاحتجاج في الشارع في الابعاد المنظورة للحياة السياسية الامريكية . كما سيكون التقدم التدريجي نحو ديمقراطية جديدة يزداد اعتمادها على التعددية بالمشاركة في عديد من مجالات الحياة ، سيكون أقل ظهورا وربما مخفيا تماما بالحديث عن «التجمع القمعي» وبافتراض ان الازمات القصيرة لن تعوق الولايات المتحدة عن اعادة تحديد جوهر تقاليدها الديمقراطية فان من المتوقع ان التأثير البعيد المدى للتحول الحالي ودواماته سيكون تعميق وتوسيع مجال العملية الديمقراطية في امريكا .

التغيير في التشكيل الثقافي :

سيكون على النمو التطوري للديمقراطية الامريكية ان يواجه الاختيار من جانب التغييرات في عمليات تشكيل وصياغة محتوى الثقافة القومية . فكما هي الحال في التغير السياسي من المرجح ان الاصلاح الثقافي سيأتي عبر التطور — بالتشجيع الارادي في بعضه وكنتيجة التغيير الاجتماعي ككل في بعضه الآخر — وليس من خلال التوجيه المبرمج . ان عامل الارادة والخيار الواعي قد يكون اكثر اهمية هنا من اهميته في عملية تحويل الترتيبات المؤسسية المعقدة ، لان النظام التعليمي ووسائط الاعلام في المجتمع الحديث قد اصبحت الوسائل الاجتماعية الرئيسية في تحديد جوهر الثقافة القومية . وهو امر صحيح بوجه خاص في المجتمع الامريكي الذي قلل من دور المصادر البديلة للثقافة كالكنائس والعادات التقليدية .

---

* ليس من المرجح ان تتم هذه التحالفات وفق خط التقسيم التقليدي بين الجمهوريين والديمقراطيين او حسب الخط الحديث بين المحافظين والليبراليين ، وانما من الارجح ان يتم التقسيم على اساس مواقف فلسفية اساسية تجاه مشاكل الحياة الحديثة . وبكلمات شديدة البساطة بين الانسانيين والمثاليين في جانب ضد البرغماتيين والمحدثين في جانب آخر .

ان للنظام التعليمي مسؤولية اجتماعية خاصة فيما يتعلق بالامريكيين السود. ففي هذا المجال هناك حاجة الى تقوية شعور المواطن الاسود بالكرامة والى توسيع الفرص امامه على المدى الطويل ،وفي نفس الوقت فإن هذه الحاجات قد تصادمت احيانا ، ولكن ربما كان العلاج على المدى القصير هو الجمع بين مطالبة الامريكيين السود بشخصيتهم المستقلة (من خلال تلك المستحدثات المؤسسية كالبرامج الدراسية ومحال الاقامة المستقلة) وبين التدريب العلمي العلاجي الواسع . ان التحدي اليوم ، وربما لعقود عديدة مقبلة هو في مساعدة الامريكي الاسود على ان يقطع المرحلة الصناعية الاخيرة في تطور امريكا . ولا يمكن ان يتحقق ذلك بدون تحسس حاجاته السيكولوجية وبدون ان يصحب ذلك الاقرار بضرورة الجهد الفكري المركز المنتظم في هذا المجال . ان الجمع بين الاثنين سيكون صعبا الا انه على هذه الساحة وحدها سيحدد شكل العلاقات الامريكية ومصيرها تقدما او انهيارا .

ان الطريق الوحيد لتجنب كارثة عنصرية هو ان يتمكن المجتمع ككل من تحديد القيم التي يسعى اليها بشكل اكثر وضوحا ، وان يكون عازما على خلق اطار متجاوب لتطوير هذه القيم ، ومستعدا في نفس الوقت لان يصر على احترام الاجراءات النظامية . ان اكثر ما يمكن ان يدمر المجتمع هو الانتقال الواسع من الاباحية ووطأة الشعور بالذنب حيال اي طلب يتقدم به السود المتطرفون — وهو ما لا يؤدي الا الى اثارة وتصعيد التطرف — الى السلبية البليدة او معارضة مطالبة السود بنصيب عادل في المجتمع الامريكي سيكون عاملا حيويا ، ولكن لكي ينجح هذا الجهد لا بد ان يرتبط بالتوجه البعيد المدى لحاجات النمو في المجتمع الامريكي .

ان الانتشار الذي لم يسبق له مثيل للتعليم العام في امريكا يثير سؤالا اعم عما اذا كان التوسع الميكانيكي في فترة التعليم يكفي لتلبية الحاجات السيكولوجية والتقنية في المجتمع الجديد . ان المجال الاجتماعي للتعليم العام الحالي وفترته يختلفان عما كان يركز عليه المجتمع الصناعي في مراحله الاولى لتحقيق حد ادنى عام من القراءة والكتابة للذكور (ولتحقيق نمط نخبوي قديم من التعليم المحدود لعدد قليل) . ان البرامج المعاصرة تهدف الى تعليم نسبة عالية من الجنسين وتتطلب فترات من الدراسة تستمر بين ١٠ — ٢٠ سنة (في حالة الشهادات الاعلى) وفي امريكا يجري التعليم العالي داخل اطر تنظيمية مستقلة نسبيا حتى اطر اجتماعية مما يؤدي الى فترة طويلة من شبه الانعزال عن مشاكل الواقع الاجتماعي . وبالنتيجة فمن ناحية التنظيم والمضمون اخذ الطلاق بين التعليم والوجود الاجتماعي في النمو مما ادى الى ما نلاحظه الان بالفعل من عوارض عاطفية ونفسية للاحباط وعدم النضج بين الطلاب .

واذ يتوسع التعليم على اساس فترات متقطعة تغطي حياة المواطن كلها سيقطع المجتمع شوطا بعيدا في اتجاه هذه المشكلة . عندئذ يمكن تقصير الفترة التي يكون

فيها التعليم معزولا ومنغلقا على ذاته نسبيا وهي في المراحل الاولية . فان اخذنا في اعتبارنا النضج المادي والجنسي المبكر للشباب هذه الايام ، فان من الممكن جعلهم يتعلمون ضمن اطار للعمل - والدراسة ولا بد من تقويتهم بتدريب اضافي دوري يستمر معظم حياة الانسان النشطة .

ويمكن وضع حد للتعليم الاولي بحيث ينتهي حوالي سن الثامنة عشرة ، خصوصا وان معظم هذا التعليم الاولي يمكن تحصيله في البيت عبر الاجهزة الاليكترونية . هذه المرحلة الرسمية الاولى يمكن ان يتبعها عامان من الخدمة من اجل قضية اجتماعية مطلوبة * ثم بالانغماس المباشر في بعض النشاط المهني وبتدريب منتظم متقدم في هذه المرحلة ثم بفترات منتظمة من الدراسة «التكاملية» الواسعة التي قد تستمر من سنة الى سنتين وذلك عند بداية كل عقد من حياة الانسان حتى عمر الستين ** . فمثلا يمكن ان يبدأ التدريب الطبي او القانوني بعد عامين فقط من الدراسة الجامعية وبذا نقلل الوقت المطلوب لاكمال التدريب ، وربما يزيد ايضا عدد الذين تجتذبهم هذه المهن . ويمكن تحقيق اعادة التدريب المنتظم الرسمي وكذلك التوسع في العلم ، في فترات منتظمة على طول حياة الانسان صاحب المهنة المعينة .

ان الجمع بين التخصص الاولي مع ما يتلوه من توسع في الآفاق الفلسفية والعلمية سيساهم الى حد ما في الحد من الاتجاه الحالي الذي يجعل المزيد من التخصص يمضي جنبا الى جنب مع ارتفاع المنزلة المهنية ، وهو ما يشجع على

---

* هذه القضية يمكن ان تكون قومية او دولية ، ولن تكون مثارة بشكل عام او بشكل خاص. انها قد تكون في مواكبة المثالية الانسانية لدى الشباب وليس لحصر مثل هذه الخدمة للقضايا القومية . ان إحدى الطرق الجيدة لتناول هذا الموضوع يمكن ان تكون بالحصول على قائمة من النشاطات الانسانية المقبولة ، وان تكون الخدمة في مجالها معادلا مقبولاً للخدمة العسكرية .

** هذا التغير يجب ان يركز انتباه الجامعة على الحاجات الاوسع والاكثر دفعا للتكامل في العصر الحديث . لذا يجب ان تجمع العلم مع الفلسفة وان تكف عن ان تكون مقهى فكريا ، وان تقدم دراسات تتراوح من التعليم المادي عبر الكلاسيكيات ، ومن برامج الدراسات «الروحية» حتى آخر فروع العلم المتخصصة . وفي الواقع الفعلي سينفصل دور الكلية «الصغيرة» والجامعة زمانا ومكانا . وربما كان ذلك لصالح المؤسستين . هذا سيسمح بالتركيز على القضايا الاجتماعية الاكبر ويجنب التعليم العالي ان يكون عملية ارستقراطية وفي الوقت نفسه ستخفف بعض الاخطار التي ترافق الوهم القائل بأن المواطن المتعلم يمكن خلقه بمجرد دفع عدد من الناس في الطاحونة التعليمية .

ان الالقاب التقليدية في التعليم بالاضافة الى ذلك مثل «دكتور في الفلسفة» تعني عملية تعليمية نهائية وتعبر عن مرحلة سابقة في التاريخ الاجتماعي. ولما كان التعليم سيصبح عملية مستمرة مدى الحياة وتشمل تقريبا كل المجتمع فان الدرجات العلمية ستصبح رمزا على المفارقة التاريخية ولا بد من اعادة تصنيفها لتشير بشكل اكثر دقة الى المراحل المختلفة للمعرفة المتخصصة والعامة .

ضيق أفق النظرة العامة . ومن الممكن ان نقلب هذا الاتجاه تدريجيا بوضع يكون فيه التخصص عند العمر الذي يتمتع باكبر قدرة على الامتصاص ، متبوعا بتكامل فكري في مرحلة يزداد فيها النضج الشخصي . وقد يشجع مثل هذا المنحى على الظهور التدريجي لنخبة اندماجية محدثة يمكنها ان تظهر اهتماما اكبر بالقيم الانسانية في المجتمع في عصر تحف به بالتخصص العلمي الكبير مخاطر التفتت الفكري * .

لقد كان نظام التعليم الرسمي بطيئا نسبيا في استغلال الفرص الجديدة امام التعليم الاضافي عبر الشبكات التلفزيونية والاجهزة الاليكترونية الاخرى . كما كان مستريبا في التوجه المتزايد لدى المنظمات غير الحكومية لتطوير برامجها التعليمية والتدريبية . ومع ذلك وبطرق مختلفة يزداد انغماس الجالية السوداء ودوائر الاعمال في قضايا التعليم ، وذلك لاسباب سيكولوجية ومهنية ايضا ** . ان المزيد من التدريب التعليمي سيؤدي الى مجتمع قومي اكثر تعددية كما يؤدي الانغماس المتزايد لشركات الاعمال في التعليم الى استيعاب اسرع لاحدث التقنيات والمعارف العلمية في العملية التعليمية . لقد بدأت دوائر الاعمال الامريكية ، وبدرجة أقل الحكومة ، بدأت بتنفيذ برامج ضخمة لاعادة التأهيل والتدريب الاداري ، وهي بذلك تتجه نحو النمط التعليمي المتقطع .

ان التغيير في الاجراءات التعليمية والفلسفة التعليمية يجب ان تصاحبه ايضا تغييرات مماثلة في العمليات القومية الاوسع التي تولد القيم وتنشرها . وانطلاقا من الدور الامريكي كموزع عالمي للقيم والتقنيات الجديدة ، يصبح هذا التغيير التزاما قوميا وعالميا ايضا . ومع ذلك لم يحدث ان سمح اي بلد آخر بأن تصبح ثقافته ومزاجه واوقات فراغه اليومي ، والاهم من ذلك التعليم غير المباشر لاطفاله، ان يصبح مجالا قاصرا تقريبا على دوائر الاعمال والاعلان الخاصة ، ولا سمح بلد ما آخر بأن تتحدد معايير ونماذج مزاجه العام والمضمون الفكري لثقافته اساسا على يد مجموعة صغيرة من مقاولي العمال الذين يقيمون في مركز مديني واحد . ان

---

* «ان احد الامور المتناقضة في المستقبل هو انه بينما سيزيد عدد القرارات الادارية التي تتخذ على اساس عملية ترتيب البيانات اوتوماتيكيا مدعومة بشبكة واضحة وسريعة من الاتصالات فان الادارة والتنسيق الذكي لانظمة ذات مجال كبير ستحل محل الاعتماد القائم الان على الحكمة والبراعة والخبرة الواسعة العامة التي يتصف بها المدير في المنظمات التي تعمل على اساس اللامركزية العملياتية وباختصار سيزداد الاعتراف بأن اللامركزية الفعالة لا يمكن ان تتحقق الا حيث توجد مركزية تنظيمية وان هذا ليس امرا متناقضا بل هو واقع منطقي» (الولايات المتحدة والعلم في ١٩٨٥ ص ٤٤) .

** مثلا عندما لاحظت شركة اولن اعلانا يقول «لا يوجد في الجهل اي امكانات نمو» اسست برامج لمحو الأمية والتعليم العالي في ثلاثة من مشروعاتها . ولدى شركات كبرى أخرى برامج تدريب مماثلة .

التلفزيون الامريكي الذي تمارس عبره مجموعة صغيرة نسبيا عملية الاحتكار الثقافي ، يعكس لامبالاة عملية الاتصالات للامزجة والقيم الفلسفية لدى قسم كبير من امريكا ✱ .

ان حالة عدم الرضا العامة على هذا الواقع تشير الى انه ربما اصبح ضروريا ان يحدث بعض التغيير في هذا المجال ايضا . ومن المحتمل ان اللامركزية الجغرافية وانتشار صناعة التلفزيون في وحدات متعددة اكثر مما هو الان ، والفصل بين الاذاعة وانتاج البرامج ، والمزيد من التوسع في البرامج التعليمية، من المحتمل ان يواجه ذلك كله معارضة حادة من المصالح القائمة . فان كانت للتجربة الامريكية السابقة ثمة فائدة كمرشد في هذا الشأن فان التغيير سيأتي عبر الاحتكاك والاصلاح على خطوات ، لا من عملية تصحيح كلية وشاملة . هنا ايضا يمكن ان تصبح التطورات العلمية والتكنولوجية ادوات للتغيير البناء ، فقد تجعل من الممكن عبر اجهزة الفيديو وآلات العرض المنزلية والبرامج ذات القنوات المحلية ، تحقيق درجة من التنوع اكبر مما عليه الان ، وكذلك درجة اكبر من استغلال وسائط الاعلام السمعية والبصرية من جانب المزيد من المؤسسات والمنظمات وبدلا من الآفاق الفكرية المحدودة يمكن ان يصبح التلفزيون مصدرا للتنويع والاغناء الفكري في النمو الثقافي للمجتمع ككل .

ان التغيير الثقافي في مجتمعنا يمكن ان يحثه ايضا التمرد النسائي المتصاعد الذي يزداد تسارعا بسبب التعليم والتقاليد الجنسية الجديدة . ان دخول النساء الواسع في مجال المهن والمواقع التنفيذية والسياسية لم يمض عليه سوى جيل واحد ، وهناك الان ادلة كثيرة على حالة الاضطراب المتصاعدة بسبب عدم المساواة في الفرص القائم حاليا . ان بروز الاتجاه النسائي هذا يمكن ان ينعكس على الجبهة الثقافية في المجتمع الامريكي ، مشجعا الى درجة ما عملية الاهتمام الاجتماعية العامة بنمو الثقافة ونماذجها .

الانسانية العقلانية :

ان الاندفاع التكنولوجي والثروة الاقتصادية ، في الولايات المتحدة جعلا من

✱ «... لقد فرضت الاذاعة على المجتمع الامريكي ما يمكن اعتباره تناقضا مميتا بالمعنى المواطني العالي . فان اتساع الاتصالات لا بد ان يكون اتساعا للديمقراطية . وان القاعدة المشاركة في الديمقراطية مع ذلك قد اتسعت بينما ملكية وسائط الاتصالات والاشراف عليها قد ضاق . ويمكن القول بلا جدال ان برامج التلفزيون ابعد ما تكون عن التعبير عن رغبة الاغلبية حسبما تقول شبكات التلفزيون بل تفرضها الاقلية الاجتماعية على الاغلبية الاجتماعية ، هذه الاقلية التي تتكون من المعلنين الخمسين الموجودين في قمة المعلنين ، وثلاث الشبكات وعشر او اكثر من وكالات الاعلان» . (الكسندر كندريك **الزمان الاول = حياة ادوار د. مورو** ، بوسطن ، ١٩٦٩ ، ص ص ١٢ ، ١٣) .

الممكن الان ان يكون لمفهوم الحرية والمساواة معنى اوسع ، معنى يتخطى حدود المجالات الاجرائية والخارجية ليتناول المجالات الداخلية والشخصية للوجود الاجتماعي للانسان . ان التركيز بمزيد من التروي والدراسة على هذه الجوانب الكيفية للحياة قد يجعل امريكا قادرةعلى تجنب المخاطر التي تهدد باذابة الشخصية الفردية والتي تصاحب عملية مكننة البيئة التي تولد ذاتها ولكنها لا تحمل اي معنى فلسفي . وقد يجعل ذلك امريكا قادرة على بناء اطار اجتماعي لتوليفة من ابعاد الانسان الخارجية والداخلية .

مثل هذه التوليفة قد تنتج في النهاية من النزاع الحاد الحادث بين التفرد الشخصي غير المعقول «للانسانيين» والعقلانية النامية للشخصية «للمحدثين» ، ان المجموعة الاولى وهي مصدر كتابات كثيرة في الوسط الادبي والمنشطين الطلاب والليبراليين العقائديين ، هذه المجموعة تشترك في حمل تقليد التشاؤم والشك الذي لعب دورا حيويا في الاطاحة بالسيطرة الدينية والفلسفية لامريكا ما قبل الصناعية على قيم امريكا الصناعية ، هذه المجموعة تسعى الى تقوية هذا التقليد بالتأكيد من جديد على العواطف والمشاعر ، وانطلاقا من اسلوبها المادي وموقفها التاريخي المستمد من الموقف اللودي * . ليس من المحتمل ان يستمر هذا المعسكر حيويا لفترة طويلة . ان التحول المحتمل الكامن لليسار الجديد الى يسار عنيف لن يؤدي بالتأكيد الى تقوية تأثيره في الراي العام الامريكي . اما المجموعة الثانية وهي مجموعة نموذجية من رجال الاعمال التنفيذيين الجدد والمؤسسات الحكومية ــ التجارية ورجال التنظيم العلمي فانها تسعى الى الجمع بين المصالح الذاتية والتأكيد الجزئي على عملية التجديد العقلانية واذ تفشل في توفير المبرر العاطفي او الفلسفي لاي من غرضيها فانها تؤدي الى اغتراب الشباب الاكثر مثالية ** .

ان الصدام بين هذين التوجيهين مدمر ويهدد الديمقراطية الامريكية . انه

---

* Luddite = صفة من كلمة لاتينية تعني اللعب ، وهو اتجاه يبحث على الدوام عن جانب اللعب في اي عمل او نشاط . (المعرب)

** يزداد اقرار علم النفس الحديث بأن القيم الاساسية والاكثر تجريدية للحياة مثل الطيبة والجمال الروحي والمعنويات تصبح مهمة اكثر فاكثر في ارضاء حاجات الفرد في المجتمع الحديث . (انظر مثلا ، ابراهام ماسلو ، **الدوافع والشخصية** ، نيويورك ، ١٩٥٤ ، ونحو علم نفس للموجود ، برنستون ، ١٩٦٢) . ومع ذلك يتخذ طلب هذه الرغبات العاطفية والمجردة غالبا اشكالا مضحكة . في اواخر الستينات شهدت امريكا انتشارا لمعاهد وندوات متنوعة يشارك فيها رجال الاعمال وآخرون في جلسات «حساسية» خاصة لتحضير الارواح ويعرضون انفسهم «لعملية تشريط عقلية» ، ويمارسون تدريبات اليوغا «والتأمل» الطويل وما شابه . هذه الظواهر تعكس تحطم اطر المعتقدات الاوسع والاكثر اندماجا كما لاحظنا في نقاشنا السابق في الجزء الثاني .

يفتت بقايا المفهوم العام للعصر الصناعي ويؤدي الى استقطاب متداخل للراي العام. وهـــذا الصدام مع ذلك ما يزال يبشر بمنظور جديد هو افضل في ملاءمـــة احتياجات المجتمع الامريكي الآخذ بالظهور وذلك لانه يتخطى الاطار الذي لم يعد ملائما والذي يحد الان نظرة الانسان الحديث . هذا المنظور الجديد يشمـــل الاعتراف المتزايد بأن نزعة الانسان الطبيعية نحو التجديد العلمي لا يمكن كبحها ــ لانه طالما يعمل عقل الانسان فان التجديد العلمي سيكون احد تغييراته ولكنه يشتمل ايضا على ادراك متزايد بانه طالما يتفهم الانسان نفسه بأنه كائن متميز فان المثالية ستكون الوسيلة المركزية للتعبير عن روحه . ان الحاجة الملحة الى التجديد والى المثالية اذن تثير نظرة انسانية عقلانية تحل تدريجيا محل التشاؤمية الليبرالية لدى بعض الانسانيين واللامبالاة المحافظة الاجتماعية لدى بعض المحدثين .

هذه الانسانية العقلانية تعبر عن نفسها في طرق عديدة : اولا في وعي عام عالمي آخذ في الظهور يجعل الكثيرين من الامريكيين والمؤسسات الامريكية يتخطون الاعتبارات القومية الصرف وينغمسون بعمق في المشاكل العالمية الخاصة بازدياد السكان والتغذية ويثير بين الشبيبة الامريكية ذلك الاهتمام البنّاء بمشاكل البيئة. وثانيا في اتجاه متنام ــ بالرغم من بقايا اتجاه معاد للشيوعية ما يزال عميـــق الجذور ــ لتصدير المشاكل العالمية كقضايا انسانية وليست كمواجهات سياسية بين الخير والشر . وثالثا في مثالية عامة قوية خالية من تلك الرغبة الطوباوية العجول التي لا يمكن تحملها من اجل حل المشاكل الكبرى فورا . فمن الممكـــن ــ بالاضافة الى ذلك ــ رؤية هذه الانسانية العقلانية في حقيقة ان الامريكيين بدلا من تفادي مشاكل العلم ، يحاولون موازنة افتتانهم بالعلوم واعتمادهم عليهـــا كوسيلة للتعامل مع المشاكل الانسانية ، بمزيد من الاهتمام المكثف بالقيم الشخصية للحياة وبالسعي وراء تعريفات فلسفية وعقائدية مسكونية للطبيعة الانسانية . هذا ما يرجح احتمال عودة الحياة الى الاتجاهات الدينية الاكثر خصوصية وذات الطابع غير المؤسسي . وأخيرا الانسانية العقلانية الآخذة في الظهور هي من الناحيـــة التاريخية احتمالية بمعنى انها لا تشمل مفاهيم توصيفية عالمية للتنظيم الاجتماعي ــ كما هي الحال مع ايديولوجية القرن التاسع عشر ــ ولكنها تؤكد على التنوع الثقافـــي والاقتصادي العالمي . والانسانيـــة العقلانية بذلك هي الاصلح لان تكون ملائمة تاريخيا ، اكثر مما كانت عليه حال الانتخابات الاولى للمشاكـــل الاجتماعية . فعلى عكس العصر الصناعي عندما ادى التعقيد التاريخي وعـــدم الاستمرار الى قفزات ايديولوجية قام بها العقل في احلام مستقبلية او سلفية يسمح العصر التكنتروني وما وفره من وسائل متاحة بتحديد غايات يمكن تحقيقها، وبذا يؤدي الى علاقة اقل عقائدية واكثر فعالية بين «ما هو قائم» و«ما الذي يجب ان يكون» .

ان الثورات الكبرى في القرنين التاسع عشر والعشرين سعت من اجل الحرية والمساواة ، ولكن حتى في غياب النزاع العرقي وجد انه من الصعب الجمع بين الاثنين في عصر تصطدم فيه المؤسسات التقليدية في العصر الديني الارستقراطي

الزراعي بتأثيرات العقلانية الشكوكية والديمقراطية القانونية والوعي الاجتماعي العام الحديث واحتياجات المجتمع الحضري ــ الصناعي الآخذ في النمو . في امريكا كانت العلاقة بين الحرية والمساواة تعرقلها بشكل خاص قيم دينية مقدسة عميقة الجذور قوتها الفجوة المتزايدة الاتساع على الدوام بين الوسط الابيض المتقدم والوسط الاسود المتوقف بشكل مصطنع . واصبحت عدم المساواة نبوءة تحقق ذاتها وايضا ضرورة اقتصادية للشمال النامي صناعيا .

ان القوة الايجابية الكامنة في الثورة الامريكية الثالثة هي في انها تبشر بالربط بين الحرية والمساواة . هذا الرباط هو في ذاته عملية مستمرة ، ولن يتحقق كله مرة واحدة . ولا جدال في انه خلال العقود المقبلة يجب توقع توترات متزايدة بل وانتكاسات . ومع ذلك وبالرغم من ان الصراعات السياسية الانفعالية الكلامية غالبا ما تحجب الرؤية ، تكون الانسانية العقلانية الآخذة في الظهور هي جزء من «ثورة ثقافية» تعيشها امريكا . وهي ثورة ثقافية اطول عمرا واعمق من تلك التي اطلق عليها هذا التعبير لاول مرة . ان الثورة الثقافية الحالية اذا ارتبطت باصلاح سياسي يمكنها ان توسع تدريجيا مدى الحرية الشخصية بأن ترفع الشعور بالانجاز الذاتي لدى عدد من المواطنين لم يسبق له مثيل ، وبأن تعطي للمساواة معنى اعظم بأن تجعل المعرفة اساس المساواة الاجتماعية والعرقية . ان هذه الثورة الثقافية يمكنها ان تخلق الظروف الضرورية لمجتمع خلاق اجتماعيا ومشبع للفرد . بمجتمع سيكون له حتما دورا عالميا بنّاء .

آفاق عالمية

لا يمكن تجنب التوتر عندما يحاول الانسان جاهدا ان يتمثل الجديد في اطار قديم . فالاطار القائم يمكنه لفترة من الزمن ان يستوعب الجديد بمرونة بأن يكيفه في شكل معتاد اقرب اليه . ولكن عند نقطة معينة يصبح الاطار القديم محملا بأكثر مما يستطيع . ولا يمكن لاي جديد قادم بعد ذلك ان يعاد تشكيله في أشكال تقليدية ، وفي نهاية الامر يثبت نفسه بقوة ضاغطة . واليوم لم يعد الاطار القديم للسياسة الدولية متلائما بوضوح مع الواقع ، بما في ذلك كل دوائر النفوذ والتحالفات العسكرية بين الامم ــ الدول ، وحكاية السيادة والصراعات العقائدية التي اثارتها ازمات القرن التاسع عشر .

ولا جدال في ان الامزجة السائدة قد تغيرت بسرعة ملحوظة خلال العقدين الماضيين . كانت مرحلة الخمسينات مرحلة اليقين . كان الجانبان الشيوعي والغربي يواجهان بعضهما على ارضية وضعت القناعات ضد القناعات . وكانت المانوية ــ الستالينية تواجه تبشيرية دالاس . وسرعان ما استسلم هذا الجو

العام لجو آخر عندما لعب خروتشوف وكنيدي دور مرحلة الانتقال في عصر الاضطراب والتخبط . وادى الانشقاق في العمل الشيوعي الى ازمة ايديولوجية بينما بدأ الغرب بشكل متزايد يتساءل حول قيمه الخاصة ومدى صحتها . واصبح الشيوعيون الساخرون في مواجهة الليبراليين المتشائمين .

هناك من الدلائل ما يشير الى ان سني السبعينيات سيسودها ادراك متنام بأن الوقت قد حان للقيام بجهد مشترك لتشكيل اطار جديد للسياسات الدولية ، اطار يمكن ان يكون قناة فعالة للمحاولات المشتركة . ومع ذلك يجب الاعتراف بأنه لن يكون هناك تعاون عالمي حقيقي حتى يتحقق مزيد من الوعي المشترك العام حول الاولويات والغايات . هل هي لرفع الاوضاع المادية للانسان ولتطويره الفكري؟ هل التنمية الاقتصادية هي الجواب ام ان الجهد التعليمي العالمي الضخم هو نقطة الانطلاق ؟ هل يجب ان تكون الاولوية للصحة ؟ كيف يمكن الربط بين الرفاهية الشخصية والناتج القومي العام وهو الذي قد يبدو اقل اهمية واسهل في تحديد مقاييسه ؟ هل هناك علاقة ضرورية بين التقدم العلمي والسعادة الشخصية ؟

هناك اتفاق واسع الانتشار بالفعل الان حول الرغبة في تقليص ميزانيات التسلح وفي تطوير قوات عالمية لحفظ السلام . وهناك ايضا ادراك واع متزايد بالعدوانية التي تصاحب الانسان وبالحاجة الى السيطرة عليها (٣) . ان قوة التدمير الشاملة للاسلحة جعلت آثار النزاع لا يمكن حسابها ومن ثم قللت من احتمالات حرب كبرى ، وهنا ايضا بدأ وعي عالمي آخذ في الظهور يضغط للتخلي عن الاهتمام بالتفوق القومي ومن اجل تشجيع الاعتماد المتبادل عالميا . ولقد اتخذ هذا الادراك العالمي النامي في الولايات المتحدة في بعض الاحيان شكل الحساسية المفرطة تجاه نفوذ «التركيبة العسكرية ـ الصناعية» (٤) ، كما انها قد سدت الطريق تماما امام التطور غير المحدود للاسلحة الكيماوية والبيولوجية واستخدامها في المعارك . كما اثارت ضغوطا من اجل اعادة النظر في الاحتياجات الدفاعية ، بينما في بلاد متقدمة اخرى وبوجه خاص في اليابان واوروبا الغربية شجعت على قيام حركات قوية للسلم .

ومع ذلك سيؤدي اي تقدير واقعي الى الاستنتاج بأنه لن يكون هناك ترتيبات امنية عالمية في المستقبل المنظور . وكل ما يمكن توقعه والسعي اليه بالفعل هو توسيع اتفاقات الاشراف على الاسلحة ، وبعض التوسع في جهاز حفظ السلام التابع للامم المتحدة . فالنزاعات بين الامم ما تزال حقيقة واقعة وتقديرات مدى

---

٣ ـ انظر بشكل خاص كونراد لورنز ، **حول العدوان** On Aggression نيويورك ١٩٦٦ . وكذلك ن. تنبرغن ، «الحرب والسلم عند الحيوان والانسان» ، **مجلة العلوم** ، ٢٨ـ٦ـ١٩٦٨ .

٤ ـ انظر نقد للهجمات الراديكالية على المجموعة العسكرية ـ الصناعية في ستانلي هوفمان ، **مشاكل غوليفر** ، ص ١٤٩ .

التغير في العالم ما تزال شديدة الاختلاف والطموحات القومية ما تزال متباعدة . وبالاضافة الى ذلك على عكس الوضع في اليابان واوروبا الغربية والولايات المتحدة لا نجد في الاتحاد السوفياتي او الصين اي نقاش عن تطوير السلاح ومصروفات الدفاع . وتفرض السرية والرقابة قيودها على الآراء التي تختلف عن الراي الرسمي وبذا تحد من تأثير الوعي العالمي العام النامي على الخيارات السياسية امام قادة تلك الدول .

والصورة اكثر غموضا الى حد ما في حقول التنمية الاقتصادية والتعليمية ــ العلمية . فكل البلاد الكبرى تقبل الان بمبدأ انه يجب عليهم مساعدة البلاد الاقل تطورا . هذا موقف اخلاقي معنوي جديد وهو يشكل احد المكونات الهامة في الوعي العالمي العام الجديد . وبالرغم من ان الامم ما تزال تؤكد على سيادتها في عملية تحديد مدى المساعدة المقدمة (واغلبها يخصص اقل من ١ بالمئة من الناتج القومي العام المتاح) خلقت في الواقع رباطا لا مثيل له من قبل : ان المساعدة الاقتصادية في السنوات القادمة وبالرغم من النزاعات القائمة بين الدول ستظل تنمو وسيقل استخدامها اكثر فأكثر كوسيلة للنفوذ السياسي ومع ذلك في الوقت نفسه إذا لم تحدث ازمة شديدة كبرى ، يبدو من غير المرجح ان المساعدة ستأتي بالقدر الذي يكفي لمواجهة الآفاق الخطرة التي سبق مناقشتها في الجزء الاول .

يشير التطور التكنولوجي ــ العلمي من بعض الجوانب آمالا كبارا بانتشار عالمي سريع للبرامج التعليمية والتقنيات الجديدة . فالاقمار الصناعية التلفزيونية قد جعلت من الممكن الان تنفيذ برامج تعليمية اقليمية (كما هي الحال في امريكا الوسطى) ، كما تحقق تقدم في اقامة معاهد تكنولوجية اقليمية ، وهذه قد تقلص هجرة العقول التي تسببها جزئيا الاغراءات التي توفرها الدراسات الطويلة في البلاد الاكثر تقدما . ان لجنة المعونة من اجل التطوير في O.E.C.D تقدم امكانية المعالجة المنتظمة في مجال تلبية الحاجات التعليمية في البلدان الاقل تطورا ، وهي على عكس اليونسكو ليست خاضعة للضغوط السياسية من هذه البلدان (٥) . ان مثل هذا المدخل سيكون متماشيا مع ظهور تجمع تعاوني بين البلدان المتطورة ، قادر على تبني استراتيجية تنمية مشتركة . ان انتشار اللغة الانكليزية كلغة علمية عالمية يسرع بتشكيل العائلة العلمية العالمية التي تتزايد قدرتها على الحركة والتغيير المتبادل .

ومع ذلك من الممكن ان يعوق هذا التقدم في بلاد عديدة بسبب العجز الاجتماعي عن هضم وامتصاص الطاقة الايجابية الكامنة في النمو التعليمي

---

٥ ــ انظر فرانك س. هوبكنز ، «انظمة التعليم الامريكية للبلدان الاقل تطورا» واشنطن ١٩٦٧ (مخطوطة) واقتراحه بتشكيل ادارة خاصة لتطوير التعليم .

والعلمي . بل ان مصادرها الاقتصادية العاجزة ــ والتي لا يمكـــن تقويتها الا هامشيا بمساعدات اجنبية كبيرة سريعة ــ يمكن ان تسبب تغيرات عكسية فعلية بأن لا تحقق تقدما اجتماعيا بل نزاعا مكلفا ، بل لا تؤدي الى تجديد في السياسة وانما الى شلل سياسي . ولا جدال في ان معرفتنا الحالية المحدودة بالعوامل التي تحرك التنمية الاجتماعية والدور الذي يلعبه الدين والثقافة والسيكولوجيا فـــي هذه التنمية ، تعرقل صياغة استراتيجية فعالة من اجل توزيع الخبرة التقنيـــة وتطبيق المعونة المادية * .

في ظل هذا الوضع الذي يجمع بين القليل من النظام وعناصر الفوضى امـــام السياسة الخارجية للولايات المتحدة الان افقان عامان محتملان لهما علاقة بمـــا يجري : اولا ان العالم الثالث بالرغم من انه سيستمر في ممارسة التغيـــيرات الصاخبة يقضي بضرورة ليس من المرجح ان تجتاحه موجة ثورية عامة ، وثانيا ان الاتحاد السوفياتي سيظل في المستقبل المنظور قويا خارجيا ولكن ليس للدرجـــة التي يصبح فيها منافسا الولايات المتحدة ، وضعيفا داخليا لدرجة انه لن يكـــون شريكها العالمي .

العملية الثورية :

كان لمفهوم الثورة العالمية التي تحركها ايديولوجية مشتركة بعض المعنى عندما بدا ان الثورة الصناعية تشير الى ان اشكالا معينة من التنظيم الاجتماعي والازمـــة الاجتماعية يمكن ان تطبق بشكل عام . ولقد جمع هذا الراي بين افق عالمي فكري ووصاية ابوية تاريخية جغرافية. لقد افترض هذا الراي بأن الاطار العالمي المشترك يمكن ان يتشكل على اساس التجربة التاريخية لعدد قليل مـــن البلدان الغربية . ولقد قام هذا الافتراض جزئيا بسبب محدودية المعلومات المتوفرة عن العمليـــات الاخرى في العالم . اما الان فاننا نجد وضوحا متزايدا بأن الظروف الاجتماعيـــة تتنوع تنوعا كبيرا ، وان هذا التنوع يشتمل على خلافات دقيقة وهامة في نفس الوقت: خلافات ثقافية ودينية وفي التقاليد التاريخية بالاضافة الى العوامـــــل الاقتصادية والتقنية ** .

وبالاضافة الى ذلك نجد فئة المثقفين الثوريين في روسيا والصين في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، هي نفسها في الجبهة الامامية لعملية التحديث . لقد مثلت اكثر الاقسام تقدما في المجتمع ومن ثم كان نصرا سياسيا

---

* ذلك ما يجعل اقتراح الجمعية القومية للتخطيط (١٩٦٩) يقضي بضرورة اقامة معهد للمعونة التقنية وابحاث التطوير لتقديم المعونة التقنية للامم غير المتطورة ، وللقيام بدراسة واسعة متشعبة عن المشاكل المتعلقة بهذا التطور ، يجعله اقتراحا ذا حسنات خاصة .

** انظر نقاشنا السابق عن آفاق النجاح الثوري ص ٤٨ ، ١٨٨ ، ١١٩ ، ٢٤٨ و٢٤٩ .

حين انغمست في خطوة تاريخية الى الامام خطاها المجتمع ككل . لم يعد الوضع كذلك الان . فالمثقفون الثوريون في البلاد الاقل تطورا ، ناهيك عن اقرانهم المثقفين من الطبقة الوسطى في الولايات المتحدة ، يمثلون غالبا خليطا اجتماعيا . وفيما يتعلق بعملية التحديث خلفتهم التطورات في العلوم والتكنولوجيا وراءها بل هم في هذا المجال «اميون» الى حد كبير .

من الممكن اذن ان يحدث في بعض البلدان ، وربما في اكثرها تحديثا ، ان هذه المجموعة المختلطة من المثقفين قد تنجح في سد الطريق امام التحديث في مجتمعاتنا بدافع من تمسكها بالقيم الارستقراطية المعادية للصناعة في جوهرها ، ومن ثم اصرارها على تأجيل عملية التحديث حتى تتحقق ثورة ايديولوجية . بهذا المعنى يمكن ان تصبح الثورة التكنترونية جزئيا بالنسبة اليهم ظاهرة تحد من القدرة الذاتية . فالثورة التكنترونية اذ تنتشر بوسائط الاتصال الضخمة العامة تخلق نقيضها عبر تأثير هذه الوسائط في بعض اقسام فئة المثقفين . وفي بعض البلدان النامية يمكن ان يؤدي ذلك الى وضع المثقفين التقليديين المدربين ذوي الاتجاهات الانسانية ـ القانونية والذين هم اكثر ميلا للاتجاهات العقائدية ، وضعهم ضد من هم اصغر سنا واكثر اهتماما بالناحية الاجتماعية ممن يعملون بعملية التجديد كالمهندسين والطلاب الذين يجمعون بشكل فعال بين التحديث النابع من الواقع والتحديث الاجتماعي الجذري بالرغم من كون برامجه مقتبسة .

ففي امريكا اللاتينية نجد ان اكثر الاصلاحات تطرفا ترتبط بالبيرونية والفاشية اكثر مما ترتبط بالشيوعية . وفي السبعينات سيبلغ عدد الطلاب حوالي المليون (٦) ، وبعد ذلك سيخلق قاعدة طموحة ملتهبة سياسيا من اجل الاصلاح. وبالاضافة الى ذلك يمكن ان نتوقع ازدياد معارضة حكومات امريكا اللاتينية وميلها لاجراء اصلاحات محلية جذرية(٧) ، وان كانت ستفعل ذلك ضمن اطار يجمع بين الاتجاهات الكاثوليكية المسؤولة اجتماعيا والقومية ، وعلى ارضية التنوع القومي الكبير . ذلك سيؤدي الى نمط من التغيير متميز جدا ولكن لا يرجح ان تكون مظاهره الجذرية على نمط البلاد الشيوعية ، بوجه خاص لان التعقيد الثقافي النسبي في امريكا اللاتينية يقلل من جاذبية النماذج الاوروبية الشرقية والسوفياتية الجامدة لها . والاكثر احتمالا هو ان تصبح مجموعات الضباط التي تتكون اجتماعيا من الضباط الشباب الراديكاليين المؤمنين بالتكنولوجيا وبالتجديد،

---

٦ ـ ارفنغ لويس هوروفتس وآخرين ، **راديكالية امريكا اللاتينية** **Latin American Radicalism**
كما ان تحرك الطلاب في امريكا اللاتينية مغطى جيدا في الفصول ٨ ـ ١١ ، في كتاب دونالد ك. ايمرسون ، **الطلاب والسياسة في الامم النامية** **Students and Politics in Developing Nations** .

٧ ـ انظر كلوديو فيليز ، «المركزية والقومية في امريكا اللاتينية» **الشؤون الخارجية** اكتوبر ـ تشرين اول ١٩٦٨ .

تصبح مصدر التغيير الثوري بدلا من الاحزاب الشيوعية المحلية . وعندئذ لن تغلف الايديولوجيا الغضب في امريكا اللاتينية وانما سيغلفه استمرار المشاعر المعادية للامريكان بكل بساطة ووضوح .

اما في اماكن اخرى من العالم فان التركيبات الاجتماعية المشابهة يمكن ان تؤدي الى انظمة تسعى لتعويض الضعف في العقائد الدينية المحلية وفي التقاليد الفكرية بأن تصبح هي ذات توجه عقائدي . ان الانقلابات التي حدثت في العراق والسودان في اواخر الستينات والتي قامت بها تحالفات بين الضباط والمثقفين قد تتكرر في اماكن اخرى في افريقيا والشرق الاوسط . ومع ذلك هناك ما يبرر الى حد ما نظرة التشاؤم بالنسبة الى مدى اصالة هذه الانظمة الجديدة وعمق التزامها الايديولوجي . ان بعضا من ايديولوجيتهم تشكله عوامل خارجية (مسألة اسرائيل والموقف السوفياتي) وبعضه هو مجرد ترداد لما هو شائع الان ، وكثير منه سريع التغير بل خاضع لتغييرات كبيرة * . ولا شك ان هذه الانظمة ستلقى المساعدة وستستغل من السوفيات والصينيين (والاخيرين على سبيل المثال قد فتحوا بالفعل بعض المداخل السياسية الى شرق افريقيا) . حتى في هذه الحالة ستظل العلاقة مجرد تعاون تكتيكي اكثر منه اشرافا فعليا وسياسة استراتيجية مشتركة .

وبالمثل ففي جنوب وجنوب شرقي آسيا سيكون للانماط الثورية على الاغلب طابع محلي ومتميز في الجوهر. من الممكن تماما ان تنقسم كل من الوحدتين السياسيتين الكبيرتين — الهند والباكستان — وكلاهما يجمع مجموعة من الكيانات الاتنية والاقتصادية ذات الوضع السيء وسيحدث هذا على الاغلب بوجه خاص عندما تختفي النخب الحالية عن المسرح وهي التي تشكلت وحدتها الداخلية بالنضال ضد بريطانيا . ان الضعف المتزايد الذي يعانيه حزب المؤتمر في الهند يصاحبه ازدياد حدة التوترات الاتنية واستقطاب الآراء السياسية . فان كان الاتحاد الهندي قد انهار ، فان التاميل الجنوبيين الساعين للانفصال ، وهم على الاغلب من الجناح اليساري الراديكالي ، سيواجههم الهندوس الشماليون الراديكاليون والاكثر تدينا. وسيتجه كل منهما الى تقوية التمايز العقائدي والمحلي للآخر . وكما حدث من قبل في الصين قد ينتج اي توجه عن مثل هذه المواجهة نحو الشيوعية ، وسرعان ما سيمتص ثقافيا بل ربما يقضي عليه بسبب ثقل التخلف الاقتصادي .

---

* وبالاضافة الى ذلك هناك انظمة تواجه صعوبة الدخول فيما اسماه هنتنغتون المرحلة الثانية من الثورة : «ان الثورة الكاملة مع ذلك تشمل مرحلة ثانية : هي خلق ومأسسة نظام سياسي جديد . ان الثورة الناجحة تجمع بين التعبئة السياسية السريعة والمأسسة السياسية السريعة . ليست كل الثورات قادرة على افراز نظام سياسي جديد . ان مقياس ثورية الثورة هو سرعة ومدى اتساع المشاركة السياسية وان مقياس نجاح الثورة هو في سلطة واستقرار المؤسسات التي تولدها» (هنتنغتون ص ٢٦٦) .

اما في الصين فانالنزاع الصيني السوفياتي قد اسرع بالفعل في عملية صَيْنَنَة الشيوعية الصينية التي لا مفر منها . لقد بدد هذا النزاع منظور الثورة العالمي وربما بل والاهم من ذلك انه قطع الصلة بين عملية التحديث في الصين والتزامها بالنموذج السوفياتي . وقد يؤدي هذا الى التخفيف من التماسك الايديولوجي للنظام ، والى مزيد من التجريب الانتقائي في صياغة الطريق الصيني نحو المعاصرة .

ان عددا من الهبات في العالم الثالث سيكون لها حتما توجه قوي معادٍ لامريكا ، وسيكون ذلك على الاغلب صحيحا بوجه خاص حيث الوجود والقوة الامريكية لهما وجود بارز تقليديا . اما في المناطق القريبة من الاتحاد السوفياتي والصين فستسود على الارجح وفي المدى الطويل مواقف معادية ضد السوفيات وضد الصينيين ، وذلك بغض النظر عن طبيعة الاصلاحات الداخلية او التعقيدات الخارجية للانظمة الحاكمة . هذا ما يلقي من جديد اضواء كاشفة على ان العملية الثورية في ذاتها لن تحدد بالضرورة موقف السياسة الخارجية للنخب الجديدة، وهو موقف سيشكله على الارجح الجمع بين العداوات التقليدية والمخاوف الحالية والحاجات السياسية المحلية .

وبالاضافة الى ذلك يستجيب التوجه الاساسي للنخب الجديدة اكثر فأكثر للآثار الفكرية للتغيرات المحلية في العالم الاكثر تقدما ، تلك التغيرات التي يلمسها ويراها بشكل مباشر وشخصي اعضاء النخبة هؤلاء من خلال السفر والدراسة ووسائط الاعلام العالمية . هذا التآلف مع الحياة في الخارج سيؤدي بدوره الى التقليل من اهمية الايديولوجيات الاندماجية التي كانت في الماضي تشكل مصدر الرؤية الواضحة للمستقبل والعالم الخارجي . ان النمطية الايديولوجية كانت هي الوصفة العلاجية في سبيل اعادة تشكيل عالم بعيد وغير معروف الى حد كبير، ولكن التقارب والاحتقان العالمي الان يفرضان التنوع الثوري.

والقيم الحقيقية تبعا لذلك ــ لتمييزها عن القيم اللفظية ــ للنخب الطموحة في الامم النامية ستشكلها تطورات متداخلة لا تعميمات مجردة . ان نجاح الولايات المتحدة في صياغة ديمقراطية فعالة متعددة الاجناس بينما هي ترتاد العلوم والتكنولوجيا ، ومقدرة اوروبا واليابان على التغلب على الضغوط النفسية والاجتماعية المترتبة على المعاصرة الناضجة ، واخيرا وليس آخرا الدرجة التي سيتخلى فيها الاتحاد السوفياتي عن الارثوذكسية العقائدية التي تعوق تطوره الاجتماعي ، كل ذلك سيكون ذا اهمية حيوية في تشكيل نظرة زعماء العالم الثالث.

الولايات المتحدة / الاتحاد السوفياتي : منافسة اوسع واقل احتداما :

بقدر ما ينظر الامريكيون الى التغيرات الثورية خارج بلادهم باعتبارها اوتوماتيكيا معادية لمصالحهم ، يقوون من مدى ما تبدو فيه هذه التغييرات مفيدة

للسوفيات بحيث يمكن وضعها ضمن اطار شيوعـــي عالمي . والعكس بالعكس ، فبقدر ما تنظر امريكا لهذه التغيرات نظرة محايدة تقلل من قوة الجذب الداخليــة النموذج السوفياتي امام ثوار العالم الثالث وتشجع العوامل المحلية على الظهور الى السطح بسرعة . لقد ضعفت الجاذبية السوفياتية بالفعل بظهور دول اكثر نضالية من الاتحاد السوفياتي وبظهور مجموعات سياسية اكثر نشاطا من الاحزاب الشيوعية الموالية للسوفيات . كما تراجعت جاذبية السوفيات بسبب ازديـــاد البيروقراطية السوفياتية الداخلية والقيود الجامدة على الابداع الفكري والتحديث الاجتماعي مما جعل الاتحاد السوفياتي هو اكثر الانظمة الاجتماعية والسياسية محافظة في العالم الاكثر تقدما * .

لذا فمن المحتمل ان يصبح طابع المنافسة الامريكية السوفياتية اقل ايديولوجية بالرغم من انها قد تصبح اوسع من الناحية الجغرافية واكثر خطرا بمقاييس القوة المستخدمة في هذا الصراع . ان ما قد يجعل العلاقات الامريكية السوفياتية اكثر استقرارا هو زيادة الاتصالات المباشرة بين البلدين ، والقيود المفروضة علـــى الاسلحة بفضل الاعتراف المتبادل بالقوة التدميرية الخاصة بأنظمة التسليح الحالية والتخفيف من الآمال الايديولوجية في العالم الثالث . ومع ذلك قد يصبح مزيد من المناطق في العالم هدفا للتحركات والتحركات المضادة اذا زادت القـــوة العسكرية السوفياتية على المدى البعيد ، وبوجه خاص امكانيات النقل الجويـــة والبحرية التقليدية مما يوسع رقعة المنافسة الامريكية السوفياتية الى مناطق كانت تعد في الماضي بعيدا عن متناول السوفيات . وقد تغري حالة اللااستقرار في العالم الثالث احدى الدولتين ، فتستخدم قوتها لتسبق او لتجهض تحـــرك الاخرى ، مما يخلق أوضاعا تشبه واقعة فاشودا ** ، وهي واقعة كادت في نهاية القرن التاسع عشر ان تؤدي الى حرب بين فرنسا وبريطانيا في وقت كانت هذه القوى تتحرك (وظلت تتحرك) نحو توافق اوروبي «٨» .

وبشكل عام لا يبدو ان التعاون الوثيق بينالولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي محتمل بشكل كبير في العقد القادم . ويرجع ذلك جزئيا الى الطابع الايديولوجي والسياسي المختلف لكلا البلدين . ان امريكا شيوعية ستظل في كل الاحتمالات منافسة للاتحاد السوفياتي تماما كما اصبحت الصين الشيوعية الان . كما ان اتحادا سوفياتيا ديمقراطيا ومبدعا سيكون على اساس حجمه وقوته منافسا اقوى

---

* حذر بعض العلماء السوفيات بالفعل (وبالذات كابتسا وساخاروف) من التكلفة الناتجة على المدى البعيد للنمو العلمي والفكري السوفياتي .

** واقعة فاشودا : نسبة الى قرية قرب حدود السودان الجنوبية الغربية حيث واجهت القوات البريطانية المتقدمة من الشمال ، القوات الفرنسية القادمة من الغرب في مرحلة التوسع الاستعماري في اواخر القرن الماضي . (المعرب)

٨ ــ انظر مقالتي : «السلم والقوة» **انكونتر** ، نوفمبر ــ تشرين ثاني ١٩٦٨ .

للولايات المتحدة مما هو عليه الان النظام السوفياتي العقائدي الارثوذكسي البيروقراطي الراكد . وبالاضافة الى ذلك ليست البلاد الديمقراطية بالضرورة بلادا مسالمة والتاريخ الامريكي يبرز ذلك بوضوح . ان المنافسة بين الامم هي صفة ملازمة للنظام العالمي الذي يعمل بدون مفهوم عالمي عام ، وهي نتيجة قرون من صياغة نظرة الانسان للامم المتنافسة التي تصر كل منها على تفوقها الفردي وقيمها الخاصة . وليس من المحتمل ان تنتهي مثل هذه المنافسة قبل عملية اعادة بناء جوهرية لطبيعة العلاقات بين الامم ومن ثم لطابع السيادة القومية ذاتها .

وفي الوقت الحالي يلقى تشكيل نمط تعاوني عالمي جديد مساعدة قليلة من الاتحاد السوفياتي ، بالرغم من انه يعتبر نفسه في الجبهة الامامية للتقدم التاريخي وكان الى وقت قريب حامل لواء ايديولوجية عبرت الحدود القومية التقليدية . ومن سخرية التاريخ ان الاتحاد السوفياتي اليوم يتبع سياسة خارجية شديدة القومية ، ويتبع سياسة محلية تدعو الى السيطرة على الاقليات غير الروسية ويشن بنشاط الحملات ضد الانماط الاقليمية للتعاون الدولي ويخصص قدرا قليلا من المساعدات لا تتناسب مع قدرته للبلاد الاقل تطورا (١٠ بالمئة من المعونة الخارجية الامريكية) ويرفض القيام بجهد مشترك لاستكشاف الفضاء (ويغلف جهوده بالسرية المطلقة) .

ولا جدال في ان احد الآثار التي لا يمكن تحاشيها للنزاع الصيني السوفياتي قد يكون تصلب النظرة السوفياتية وازدياد الشعور بالاضطهاد في العالم . وبالرغم من ان القادة السوفيات يريدون تجنب المواجهة على جبهتين نجدهم من ثم مدفوعين للتوافق إما مع الغرب او مع الشرق ، فان مدى التحدي الصيني في حد ذاته يقوي مخاوفهم ويجعل الاولوية للاستعداد العسكري ويثير اهتماما شديدا بحرمة الحدود * .

ان ضعف الزعماء السوفيات الداخلي وعدم شعورهم بالامن يعد عاملا مساويا في الاهمية وان لم يعترف به بشكل عام ، عاملا يعوق الاتحاد السوفياتي عن السعي نحو اشكال اكثر ترابطا في التعاون الدولي . فالنظام السياسي الذي يقفون على راسه لا يزال بعد خمسين عاما من اعلانه يفتقر الى الشرعية الاولية

---

* لتقدير المخاوف السوفياتية يجب ان يتخيل المرء وضعا تواجه فيه الولايات المتحدة ٨ ملايين مكسيكي مسلحين بالاسلحة النووية والصواريخ ويصرون علنا على ان الولايات المتحدة قد اخذت اراض واسعة من الاراضي المكسيكية ، وان النظام الامريكي هو نظام شرير بطبعه وان الحكومة الامريكية هي عدوتهم . مثل هذا الوضع سيثير بلا شك مخاوف كبيرة بين الشعب الامريكي . بل ان قلق السوفيات يزيد عن ذلك بسبب حقيقة ان سيبيريا – وهي غير متطورة وغير مسكونة نسبيا – تعمل كمغناطيس جاذب للجماهير الصينية ، ولان اتفاقات الحدود الروسية – الصينية هي ذات طابع تاريخي مشكوك فيه .

الضرورية ، فالنخبة الحاكمة تعتمد بشكل كبير على القمع والرقابة للاحتفـــاظ بالسلطة ، وهي سلطة حصلت عليها لا بالوسائل الدستورية المعتادة وانما بالقتال الداخلي البيروقراطي الطويل تعـــد الصراعات على الخلافة صورة لذلك) . ان العجز العقائدي للنظام السياسي السوفياتي عن الاستجابة للحاجات الداخليـــة لعملية التجديد الاجتماعي ، والتوافق الواسع مع الغرب وما يحمل معه مـــن اعتراف بأن النظرة اللينينية الثنائية للعالم – وهي التي تبرر بدورها المفهـــوم اللينيني للحزب الحاكم – لم تعد ملائمة ، كل ذلك سيؤدي بالضرورة الى حالة من عدم الاستقرار السياسي داخليا في الاتحاد السوفياتي وفي بلاد اوروبا الشرقية التي يسيطر عليها السوفيات .

بشكل عام يعكس هذا الموقف اللينيني المحافظ تخلف روسيا في مجالـــي التحديث والتطور السياسي . وبمقاييس المدينة العالمية ، فان الاتحاد السوفياتي يمثل مجتمعا متدينا قديما يمارس المعاصرة بحكم الوجود ولكن ليس بشكـــل طبيعي بعد (٩) .

مترتبات سياسية :

ان الاقتراحات العامة السالفة الذكر تشير الى عدد من المترتبات الفوريـــة للسياسة الخارجية الامريكية في مجالي الافتراضات المرشدة ، والموقف الخارجي المطلوب. ولنحاول قبل ان نصوغ هذه الافتراضات والمواقف ان نحدد هذه المترتبات في أوجز أشكالها : موقف قائم على اعتبارات ايديولوجية تخطاه الزمن ، محور امريكي – سوفياتي لم يعد صالحا على الارجح ليكون اساس نظام عالمي جديد ، دوائر نفوذ تقليدية تفقد قدرتها على الحياة ، تقريرية اقتصادية بالنسبة الى البلاد الاقل تطورا او للدول الشيوعية لا توفر اساسا معقولا للسياسة ، تحالفات اقليمية تخطاها الزمن ضد دول فردية ، حضور امريكي عسكري ضخم في الخارج يتحول ليكون ضد المصالح الامريكية وضد نمو مجتمع عالمي ، جهاز دبلوماسي امريكي نما في عصر ما قبل العصر العالمي والتكنتروني واصبح قديما ويحتاج الى تحديث شامـــل .

وبالرغم من ان السياسة الخارجية الامريكية لم تكن مجرد سياسة معاديـــة للشيوعية بدون تمييز كما شاء نقادها ان يؤكدوا ✶ ، فقد كان هناك ميل لفظي

---

٩ – انظر وصفا مثيرا للتاريخ الروسي و«تخلفه» بالمقارنة مع الغرب في كتاب هيوسيتون – واتسون ، **الامبراطورية الروسية** ، ١٨٠١ – ١٩١٧ , **The Russian Empire, 1801 - 1917** اكسفورد ، ١٩٦٧ ، خاصة ص‌ص ٧٢٨ – ٧٤٢ .

✶ ان الاتهام بأن الولايات المتحدة قد اقامت سياستها الخارجية على اساس الافتراض بمؤامرة شيوعية عالمية واحدة هو اتهام عزيز عند بعض النقاد الاكاديميين . والحقيقة ان الولايات المتحدة =

قوي في الدوائر الرسمية الامريكية الى اختصار المشاكل الدولية واعتبارها مواجهة عقائدية ، ولاعتبار كل تغيير جذري عملا مضادا للمصالح الامريكية ، من الان فصاعدا ليس من المرجح ان ينظر الى التحولات المحلية في المناطق المختلفة من العالم كجزء من تهديد عالمي . وبالاضافة الى ذلك سيستمر الانتشار التدريجي للتعددية في العالم الشيوعي بالاسراع في الاختلافات بين الانظمة الشيوعية . سيقلل ذلك من الاعتماد على التدخل الامريكي الفعلي ويجعل هذا التدخل ضروريا في المقام الاول للدفاع عن المصالح الامريكية الاساسية او للرد على عمل عدائي مكشوف من قوة ما ، عمل يحمل في طياته تهديدا للولايات المتحدة * .

كما ان النظرة الاقل ايديولوجية ستقلص العلاقة الامريكية ـ السوفياتية الى مقاييسها الصحيحة . ان التهديد الرئيسي الذي يطرحه الاتحاد السوفياتي امام الولايات المتحدة هو تهديد عسكري ، فوجود اتحاد سوفياتي اقوى من امريكا لا مفر من ان يهددها ، كما ان اتحاد سوفياتي اضعف من امريكا سيجعله يشعر بأنه مهدد منها . ولما كانت الحرب بين القوتين العظميين ستكون مدمرة لكليهما فان المنطق يفرض على البلدين الوصول الى ترتيبات معينة للاشراف على التسلح. ان استمرار محادثات سولت (محادثات الحد من الاسلحة الاستراتيجية) بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي يمكن اعتباره اكثر من مجرد تفاوض بين متنافسين ، وهي بدون قصد ، ولانها ستكون محادثات طويلة ، تعد مؤشرا في واقع بدأ بالفعل لجهد مشترك حول التسليح والاستراتيجية ، وبالرغم من ان هذا الجهد المشترك محدود القوة الفعلية سيؤثر بالتدريج وبشكل متزايد في الطريقة التي يتصرف بها كل جانب محفزا اهتماما متبادلا اكبر بتحسس الحاجات والمخاوف ** .

= كانت الاولى في تقديم المساعدة ليوغوسلافيا في اواخر الاربعينات، كما كانت الاولى في المبادرةفي التبادل الثقافي الامريكي ـ السوفياتي وزيارات رؤساء الدول الى آخره .

* بعبارات أدق ، قد يكون مرغوبا ومفيدا للولايات المتحدة ان تقدم معونات لتايلاند من الاسلحة والمعدات اذا ما تعرض هذا البلد للتهديد من جانب فيتنام الشمالية . نفس الشيء ينطبق على تهديد كوريا الشمالية لكوريا الجنوبية او تهديد الدول العربية لاسرائيل ولكن في اي من هذه الحالات لا يجب ان تشترك القوات الامريكية الا اذا اصبحت قوة كبرى كالاتحاد السوفياتي او الصين متورطة بشكل مباشر . ان الامتناع الامريكي الكامل قد يشجع العدوان ولكن المعونة الامريكية يجب ان تكون كافية لجعل الحرب إما غير مفيدة او مكلفة جدا للمعتدي . اكرر ـ ان الاشتراك المباشر يجب ان يدخر لاوضاع تشترك فيها قوة ذات قدرة على تهديد الولايات المتحدة .

** لقد أدى العلم والتكنولوجيا بالفعل الى تثوير ممارسة السيادة بين البلدين كل في علاقته مع الآخر . فقد ادى استخدام طائرات الـ U - 2 ومن بعدها الاقمار الصناعية الاستطلاعية ادى الى خرق مزاعم السيادة غير المحدودة على المجال الجوي القومي ، واخترق الى حد ما سرية =

وفي الوقت الحالي وحتى يمكن التوصل الى اتفاق ملزم يكفي تطور التكنولوجيا الامريكية وتعقدها لان يوفر الدرجة المطلوبة من الغموض في علاقة القوة كما وكيفا بين الدولتين . وفي المرحلة الحالية لهذا التكافؤ المدمر يكـــون هذا الوضـــــع الاستراتيجي والنفسي ضروريا لكي يحل محل الاعتماد السابق على اظهار القوة والردع الفعلي الذي ولده التفوق الامريكي في القوة التدميرية . ان الــــــردع المتكافىء يحتاج الى بعض الغموض تماما كما كان التفـــــوق في الردع يتطلب المصداقية المؤكدة .

ولكن الفرص امام اتفاق اوسع نطاقا خارج هذه العلاقة محدودة نسبيا (١٠) . فان دولا عديدة جدا ترفض المحور الأمريكي ـ السوفياتي وهذا ما يغري واشنطن وموسكو باستغلال مشاعر الرفض هذه . وفي الواقع كلما كانت الجهود المبذولة لخلق مثل هذا المحور ناجحة ازدادت المعوقات في طريقه . وبالاضافة الى ذلك لا يمثل الاتحاد السوفياتي بديلا اجتماعيا حيويا يوفر للعالم نموذجا جذابا وملائما للتعامل مع مشاكله القديمة او بوجه خاص مع المشاكل الجديدة التي يطرحها العلم والتكنولوجيا . وبالنتيجة يكون اقصى ما يمكن ان تسعى اليه امريكا في حدود المعقول هو زيادة توريط السوفيات في التعاون الدولي من خلال مشاريـــــع كالاكتشاف المشترك للفضاء ، ودراسات أعماق البحار ، وما الـــــى ذلك . وستساعد هذه المشروعات المشتركة بالتراكم على تشكيل نمط من الانغمــــــاس المشترك المتعاون يمكن ان يشمل الدوائر الاخرى في النهاية .

وفي الوقت الحالي من المرجح ان النفوذ الامريكي والروسي سيتناقصان فـــي مجالات كانت كلا الدولتين تعتبرها مناطق نفوذها الخاصة . وفي المدينة الحديثة نجد ان المناطق «خارج اللعبة» ممكنة فقط في العلاقات بين العصابات الاجرامية، ذلك ان الاحتفاظ بدوائر النفوذ المغلقة في المدينة العالمية يزداد صعوبة او علـــى

= العسكرية السوفياتية. ان اذعان الاتحاد السوفياتي وتسليمه برحلات الـ U - 2 حتمتها ضرورة عدم قدرتها على اسقاط هذه الطائرات . وبالرغم من حادثة مايو ـ ايار ١٩٦٠ تأكدت سابقـــة التفتيش من جانب واحد وأصبحت منذ ذلك الوقت امرا تمارسه الدولتان . ان التعقيد الـــذي يصاحب عملية التوصل الى اتفاق الاشراف على السلاح يمكن فهمه بالخلاصة التالية التي قدمهـا مختص في هذا المجال : «هناك اساس للامل (في اتفاق محتمل) اذا قبل كلا الطرفين حقيقة ان اكثر ما يمكن ان يتوقعاه لفترة من الوقت هو تحقيق توازن استراتيجي عند مستوى عال من القوة وان كان اقل سرعة في تصاعده . واذا ما اقر الطرفان بأن تحطيم حلقة الفعل ورد الفعل بينهما يجب ان تكون له الاولوية في اي مفاوضات» (جورج ، وراتجنز ، مستقبل السباق في الاسلحة الاستراتيجية، نيويورك ، ١٩٦٩ ، ص ٤٠) .

١٠ ـ في هذا المجال اتفق مع الاستنتاجات التي توصل لها تيودور داربر ، في مقالتــــه «السياسات العالمية : مرحلة جديدة ؟» **انكونتر** ، أغسطس ـ آب ١٩٦٩ ، ص ١٢ .

الاقل يزداد كلفة . ستبقى اوروبا الشرقية منجذبة نحو الغرب وليس بغير القمع السوفياتي المباشر يمكن تعويقها عما يمكن ان يحدث فيها بسرعة الا وهو الارتباط بين اوروبا الشرقية وبين كيان اوروبي اكبر ، حتى القوة السوفياتية لن تكون قادرة على منع هذه العملية تماما ، فان الجاذبية الثقافية التقليدية للغرب قوية جدا ، ويقويها في الوقت الحالي اعتراف اوروبا الشرقية المتزايد انه بسبب الفجوة التكنولوجية بين الشرق والغرب لا يمكن لروسيا ان تساعد اوروبا الشرقية مساعدة فعالة للدخول في العصر ما بعد الصناعي . هذا الانجذاب هو امر صحي، لان توسيع الروابط بين اوروبا الشرقية واوروبا الغربية تدريجيا كفيل بان يؤثر في الاتحاد السوفياتي ويقلل من طابعه العقائدي .

كما ان فكرة العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وبين امريكا اللاتينية لا بد لها ان تنتهي . فالقومية اللاتينية الامريكية التي تزداد جذرية باتساع قاعدتها الشعبية سيتم توجيهها بعداء متزايد ضد الولايات المتحدة ، الا اذا استطاعت الولايات المتحدة ان تغير موقفها بسرعة . وتبعا لذلك قد يكون من الحكمة بالنسبة الى الولايات المتحدة ان تاخذ خطوة صريحة للتخلي عن مبدأ مونرو وللتسليم بانه في العصر العالمي الجديد لم يعد التماسك الجغرافي او تماسك نصف الكرة الارضية حاسما من الناحية السياسية بالضرورة . وليس هناك افضل بالنسبة الى الولايات المتحدة فيما يتعلق بالعلاقات الامريكية العامة من ان تجعلها على نفس المستوى الذي تقيم فيه علاقاتها مع بقية العالم ، بحيث تحدد دورها في التأكيد على السمات الثقافية السياسية (كما تفعل مع اوروبا الغربية) والالتزامات الاقتصادية ــ الاجتماعية (كما تفعل مع البلدان الاقل تطورا) .

كما سيكون من المفيد النظر الى مسألة التطور السياسي في البلدان الشيوعيه والنامية بقدر كبير من الصبر . فكما ان ضخ القوة الامريكية يمكن الا يكون الحل على الدوام كذلك الاعتماد على النمو الاقتصادي لا يضمن لا اشاعة الديمقراطية ولا الاستقرار السياسي ولا اتباع النمط الامريكي . وقد سبق الاشارة الى ان التغير السياسي في البلدان الشيوعية ليس مجرد ناتج ثانوي للتطور السياسي ، كما ان ضعف البلدان الاقل تطورا امام الدعوات الراديكالية يزداد عند بداية تطورها. ان المعونة الاجنبية والصلات الاقتصادية الوثيقة ليست دواء مسكنا للازمات العميقة الجذور ولا هي علاج لامراض المؤسسات المتمترسة وراء الايديولوجية .

يتطلب ذلك ان نتوجه نحو علاقات اقتصادية دولية ومعونة اجنبية ليست ذات طابع سياسي في الشكل بالرغم من انها في نهاية الامر تظل سياسية في الهدف. فان كان هذا الهدف لتشجيع ظهور مجتمع من الامم اكثر تعاونا بغض النظر عن النظام الداخلي لكل منها فانه سيكون خطوة في الاتجاه الصحيح لاعطاء الاجهزة الدولية دورا اكبر في التطوير الاقتصادي وللبدء في ازالة القيود عن التجارة . مثل هذا الاجراء سيكون في نهاية الامر ناجحا على الارجح لانه ذو مظهر سياسي اقل وضوحا ولا يرتبط بتوقع التغير السياسي السريع والاساسي الذي تحققه

المعونة الاقتصادية المباشرة ✱ .

كما ان اتخاذ موقف اقل تورطا تجاه العمليات الثورية في العالم واقل قلقا وانشغالا بالاتحاد السوفياتي ، سيساعد الولايات المتحدة على تطوير موقف مختلف تجاه الصين . فالصين وجنوبي آسيا مناطق كثيفة السكان ورثت عن الماضي تحديات معقدة في مجال التنظيم الاجتماعي . وما تزال تناضل مع هذه المشاكل القديمة في وقت بدأ العالم المتقدم يواجه فيه مشاكل ذات أبعاد جديدة . والى ان تتم اقامة الروابط مع الصين ــ وهي روابط يمكن في البداية العمل في سبيلها من خلال اليابان واوروبا الغربية ــ ستظل الصين جزءا مفصولا عن البشرية ويفصل نفسه في ذات الوقت ، وهو وضع خطر لان تخلفها ستصاحبه بشكل متزايد قوة نووية ضخمة . ومن ثم على الولايات المتحدة بدلا من ان تكون حليفا غير مباشر للسوفيات ضد الصين ــ وهو ما تريده موسكو بوضوح ــ ان تشجع جهود البلاد الاخرى لاقامة روابط مع الصين . وبالاضافة الى ذلك لا بد لها ان تطلق مبادراتها هي (١١) ، وان تتجنب ان تصبح متورطة في اتفاقات امنية معادية للصين علنا .

ولا جدال انه في عصرنا العالمي هذا يجب ان تشبه الترتيبات الامنية تلك الترتيبات الموجودة في المراكز المدينية السكانية الكبرى . هذه الترتيبات توجه لا ضد تنظيمات او أفراد معينين ولكن ضد اولئك الذين يخرجون على المعايير القائمة . وهكذا يجب ان تحل جمعية ما قائمة على مفهوم الامم المتعاونة المرتبطة فيما بينها من اجل غايات متنوعة بما في ذلك الامن ، ان تحل تدريجيا محل الاحلاف الموجودة حاليا التي تتشكل عادة على اساس وجود معتد محتمل ، يذكر اسمه صراحة في ميثاقها او في الادبيات الملحقة . وبالرغم من انه في البداية سيكون ذلك تغييرا شكليا ــ لان جمعية الدول هذه ستضم بالضرورة فقط اولئك الذين تجمعهم المصالح والمخاوف ــ فإن هيكلا مفتوحا ومدروسا تكون فيه عناصر الامن جزئية وثانوية سيتجنب الوقوع عن طريق المؤسسات في النزاعات الحتمية، وان تكن مؤقتة ، بين مصالح الدول ✱✱ .

✱ لا يتطلب ذلك استبعاد تركيز الجهود على دول بعينها عندما تتطابق آفاق التطوير الاقتصادي مع المصالح الامريكية السياسية الاكثر تحديدا . بكلمات اخرى ان المعونة الدولية الاقتصادية للاغراض الانسانية يمكن ان تسير جنبا الى جنب مع الجهود الاكثر انتقائية والاكبر فيما يتعلق ببلدان معينة .

١١ ــ انظر مقالتي «ملاقاة التعايش السلمي المحدود الذي تقدمه موسكو» **مجلة ذي نيوليدر** ، The New Leader ، ١٦-١٢-١٩٦٨ .

✱✱ قد يكون لذلك علاقة خاصة بالجهود المبذولة في بناء نظام للتعاون في المحيط الهادي ، ان جنوب شرقي آسيا في ذاتها لا تستطيع على الارجح حتى مع تحسين ادائها الاقتصادي ان تخلق =

ان تطوير أشكال الامن الدولي سيسهل عملية اعادة بناء الموقف الدفاعي الامريكي تدريجيا ، وبشكل خاص بتركيز الوجود العسكري الامريكي في الخارج في عدد من البلاد الرئيسية القليلة . ذلك ان الوجود العسكري الامريكي الطويل المدى من شأنه ان يولد شعورا بالعداء السياسي تجاه الولايات المتحدة ، حتى في البلدان التي تعد من اصدقائها التقليديين كتركيا ، وذلك باستثناء البلاد التي تشعر بتهديد مباشر لها . وبالرغم من ان هذا الوجود كان مطلوبا في وقت من الاوقات من البلدان المعنية فقد اتجه لان يصبح مصلحة امريكية مكتسبة . ان الحاجة تقل للقوات الامريكية الموجودة في الخارج والتي وضعت هناك على افتراض انها قد تطلب لتامين الامن في بلدان مختلفة ضد تهديد مشترك ، وذلك بسبب القيود المفروضة على شن حرب شاملة بسبب قوة تدمير الاسلحة النووية ، ولان حالات العنف المتفرقة في العالم الثالث ستحل محل الاهتمام السابق بالحرب المركزية . وباستثناء بعض الحالات (مثل كوريا الجنوبية وبرلين والمانيا الغربية) لن ينهار الاستقرار العالمي والمصالح الامريكية على الارجح اذا ما اصبح الوضع الامريكي الدفاعي محددا في مناطق اقل ، واعتمد بشكل متزايد على قدرة التحرك البعيد (هذا ما فعله الاتحاد السوفياتي ولم يسبب الا اضرارا قليلة لأمنه) ✱ .

= الاسس للامن الاقليمي . ولكن اذا توسعت عبر اشتراك اليابان واستراليا والولايات المتحدة ـ ليست موجهة بشكل خاص ضد الصين ـ فان بعض اشكال التعاون يمكن ان يتطور تدريجيا ، ويمكن ان يضم هذا النظام في النهاية بلادا اكثر فاكثر .

✱ ان بعض التسهيلات المعدة سلفا لقوات حفظ السلام الدولية يمكن تقديمها اذا ما اتفق مع البلد المضيف ان تتولى الامم المتحدة امر القواعد الامريكية المخلاة . ومع ذلك في كل الاحوال يجب ملاحظة ان الراي العام الامريكي يبدو اقل ميلا الى مساندة استخدام القوات الامريكية في حماية الامم الاجنبية . ولقد بيّن استطلاع للراي العام في منتصف ١٩٦٩ كان السؤال فيه ما اذا كان على امريكا ان تساعد الدول الاجنبية اذا ما غزت هذه الدول قوات عسكرية شيوعية من الخارج ، بيّن ان هؤلاء الذين ابدوا عزمهم الاعتماد على القوة كانوا اغلبية في حالتي كندا والمكسيك فقط (٥٧ بالمئة ، و٥٢ بالمئة على التوالي) وكان الرقم بالنسبة الى المانيا الغربية ٣٨ بالمئة وبالنسبة الى اليابان ٢٧ بالمئة وبالنسبة الى اسرائيل ٩ بالمئة (هنا كان العدوان الخارجي المفترض ليس شيوعيا بالضرورة) وبالنسبة الى رومانيا ١٣ بالمئة . فان جمعنا هؤلاء مع الذين ابدوا عزمهم على المساعدة بدون استعمال القوة تصبح النسب كالتالي : كندا ٧٩ بالمئة ، والمكسيك ٧٦ بالمئة والمانيا الغربية ٥٩ بالمئة واسرائيل ٤٤ بالمئة ورومانيا ٢٤ بالمئة ، واليابان ٤٢ بالمئة (استطلاعات هاريس ، كما نقلتها مجلة **التايم** ٢ـ٥ـ١٩٦٩) .

من الممكن ان يتغير المزاج القومي العام بسهولة على ضوء الظروف ، ولكن الاستطلاع السابق ذو دلالة في الاشارة الى الموقف العام . فهو يشير بتناول اكثر انتقائية لمسألة الالتزام العسكري ويمكن ان يكون له علاقة بمدى التجاوب العام المرجح حيال تشكيل جيش محترف متطوع . ان الجيش الكبير القائم على الخدمة الالزامية كان انعكاسا للقومية الشعبية التي أثارتها الثورة الفرنسية والتي =

وأخيرا تحتاج الفرص والمخاطر المصاحبة للعصر العلمي التكنولوجي الى تغيرات دقيقة وهامة في المواقف الامريكية والتنظيم الامريكي . هذه التغيرات لن تحدث بسرعة ، كما لا يمكن تصورها مسبقا بالتفاصيل ، كما انه ليس من المحتمل ان تتحقق بشكل درامي . واخيرا وليس آخرا تحتاج امريكا لكي تلعب دورا عالميا فعالا الى جهاز للعلاقات الخارجية يستفيد من احدث تقنيات الاتصالات ويستعمل اسلوبا وتنظيما متجاوبا مع حضورنا العالمي المتزايد الاحتقان .

هذه هي الحالة اليوم تقريبا . لا يزال جهازنا الديبلوماسي نتاج الترتيبات التقليدية التي وضعت بعد ١٨١٥ التي اهتمت بالطقوس والبروتوكول . كما انها مربوطة في اغلبها بالعلاقات الثنائية بين الحكومات وغالبا ما تهمل الدور الحالي المهم للتطورات الاجتماعية . وليس من المصادفة ان رجال الصحافة ــ وهم اقل اعتمادا على الاتصالات الحكومية واكثر اهتماما لان ينغمسوا في حياة المجتمع ــ كانوا في معظم الاحوال اكثر احساسا بنمط التغيير الواسع في البلاد الاجنبية مما شعر به الديبلوماسيون الامريكيون المحليون . ان العلاقات الخارجية المعاصرة تتطلب بشكل اكثر فأكثر مهارات الاتصالات الفكرية ــ العلمية ، بما في ذلك المقدرة على الاتصال بفعالية مع القطاعات المبدعة في المجتمعات الاخرى . ان التدريب الديبلوماسي القائم واجراءاته تنقصه بشكل خاص هذه المجالات .

وبالاضافة الى ذلك فإن كل تقاليد التعليمات السرية والبرقيات المطولة التي ترهق قيادة وزارة الخارجية في واشنطن يوميا لم تأخذ في اعتبارها التطور الحاد في وسائط الاتصال الحديثة ولا تطور اسلوب ارسال التقارير الخارجية الرائع في الصحف الكبرى الامريكية والاجنبية حتى في دور التلفزيون * . لقد علق جيمس ايزر العالم السياسي الكندي على تقرير دنكن في ١٩٦٩ وهو تقرير ينتقد الخدمات الخارجية البريطانية ، علق قائلا «كثيرون يحركون اقلاما كثيرة على قطع كثيرة من الورق فيملأونها برسائل لا قيمة لها» (١٢) . كما شكا طومس جيفرسن ذات مرة انه لم يسمع شيئا من واحد من سفرائه منذ سنة ، ويستطيع وزير الخارجية الحالي ان يشكو من انه يسمع يوميا الكثير جدا من الكثيرين جدا من

= وات في كل مواطن جنديا . ولقد كان لذلك معنى اكبر في عصر السلاح غير المعقد نسبيا وعصر الدوافع الايديولوجية الشديدة ! اما الان وهذان العاملان يتغيران بشكل كبير فــان حالة الجيش المحترف والمستخدم لغايات منتقاة تكتسب وزنا اكبر .

* يستطيع الكاتب ان يقرر بناء على خبرته الشخصية في اثناء عمله في وزارة الخارجية انه في معظم الحالات يمكن الحصول على صورة للتطورات الخارجية بقراءة الصحف الجيدة بما في ذلك بالطبع الصحف الاجنبية ، بدلا من متابعة مئات البرقيات اليومية التي غالبا ما تذكر تفاهات حفلات الكوكتيل ، وتكون الصورة الاولى افضل ان لم تكن مساوية للصورة الثانية .

١٢ ــ جريدة ستار ، مونتريال ، ٩ــ٩ــ١٩٦٩ .

السفراء الذين لا حاجة اليه بهم .

ان الولايات المتحدة هي البلد الذي يحتاج اكثر من غيره بشكل ملح الى اصلاح خدماته الخارجية ومؤسسة صنع القرار فيه ، وهي البلد الافضل من ناحية الاستعداد والتجهيز لتحقيق مثل هذا الاصلاح . انها المجتمع الاول الذي يصبح عالمي التوجه ، وهي البلد الذي يملك اوسع واقوى شبكات الاتصال . كما ان اوساط الاعمال المالية في امريكا قد حصلت على خبرة ضخمة في العمليات الخارجية وامتلكت بفعالية كبيرة فنون ارسال التقارير الدقيقة والممثلين في الخارج والاشراف المركزي دون الاعتماد على عدد ضخم من الموظفين او العمليات الزائدة عن الحاجة ، كما ان امريكا هي الرائدة في تبني احدث التقنيات مثل المؤتمرات التي تعقد عن طريق دوائر التلفزيون المغلقة ، ومثل العقول الاليكترونية المنظمة للوقت والمخترعات الاخرى .

وبالرغم من ان هذا ليس مجال ذكر الاصلاحات المطلوبة بالتفصيل تبقى المسألة في انه انطلاقا من التغيرات الجوهرية في طريقة تفاعل الامم قد حان الوقت للقيام بدراسة شاملة واصلاح كبير للهيكل المغرق في التقليدية القائم حاليا ولاسلوب العمل الخارجي الامريكي . ان التوسع في استخدام العقول الاليكترونية والاتصالات الاليكترونية المباشرة بالصوت والصورة في خدمة الديبلوماسية سيسمح بتخفيض حجم وعدد البعثات الديبلوماسية الامريكية ويجعلها من الناحية العملية تشبه الشركات الدولية ذات الفعالية الاكبر . ان عملية صنع القرار في واشنطن تحتاج الى ان توجه وتحرر من شبكة الشريط الاحمر البيروقراطي (١٣) .

مجتمع الامم المتطورة

هذه التغييرات الفورية الضرورية لا بد من دعمها بجهد اوسع للاحاطة بالاتجاهات العالمية نحو الفوضى . لا بد في النهاية من تشكيل تجمع من الامم المتطورة اذا ما كان للعالم ان يستجيب بفعالية للأزمة الخطرة المتزايدة التي تهدد الان بطرق مختلفة العالم المتقدم والعالم الثالث على السواء . ان الانقسامات القائمة منذ امد بين الدول المتطورة ، وبوجه خاص تلك الانقسامات القائمة على اساس مفاهيم ايديولوجية بالية ستؤدي الى نفي الجهود التي تقوم بها كل دولة على حدة لمساعدة العالم الثالث ، بل انها في العالم الاكثر تقدما قد تسهم في

---

١٣ ـ لمزيد من النقاش انظر مقالتي بعنوان «التخطيط السياسي العالمي» مجلة الاهتمامات العامة Public Interest شتاء ١٩٦٤ .

بعث القومية .

اوروبا الغربية واليابان :

لا بد ، من منطلق امريكي ، ان تشمل اهم التغيرات الواعدة في السنوات القادمة ، تشمل اوروبا الغربية واليابان . ان مقدرة هذه المناطق على الاستمرار في النمو الاقتصادي وعلى الاحتفاظ بأشكال سياسية ديمقراطية نسبيا ستؤثر بشكل حيوي في التطور التدريجي للنظام العالمي الجديد اكثر من تأثير التغيرات في العلاقات الامريكية السوفياتية . ان اوروبا الغربية واليابان يوفران امكانيات اكبر للمبادرات التي تؤدي الى بناء نسيج جديد للعلاقات الدولية . ولانهما ، مثل امريكا ، في الجبهة الامامية لعملية التجديد العلمي والتكنولوجي يمثلان اكثر المناطق حيوية في العالم .

وبالرغم من ان بعض الباحثين يؤكدون حيوية القومية الاوروبية نجد الاندفاع الكبير لتطور اوروبا الغربية هو في اتجاه التعاون المتزايد وهذا هو الاهم، وفي اتجاه الوعي العام بالاوروبية * . فبالنسبة الى الاوروبيين الشباب نراهم يرون اوروبا الغربية الان كيانا متميزا في كل شيء الا في الجانب السياسي : فبالرغم من انها «أي اوروبا» لا تزال يحكمها عدد من الشيوخ والزعماء القرويين الذين عفا عليهم الزمن (والذين يزورهم تباعا امير اجنبي قادم من واشنطن) نرى اوروبا بالنسبة اليهم بلا حدود ، مفتوحة لسياحة لا حدود لها ولحركة غير محدودة تقريبا للبضائع ولفيض حر متزايد من الطلاب والعمال . ومن المؤكد انه ما تزال الاقليمية الايجابية لم تنضج بعد ، ولكن ما يجري يوفر على الاقل الاساس النفسي المطلوب لاوروبا الجديدة . لقد اسرعت الثورة التكنترونية بظهور اوروبا هذه ولم يعد للافكار الاتوقراطية الخاصة بالعصر الصناعي اي سيطرة عليها اليوم .

ان تأثير العلم والتكنولوجيا في اوروبا ، بالرغم من انه كان ممزقا لبعض المجتمعات (وبوجه خاص ايطاليا التي اكملت بالكاد المرحلة الصناعية من تطورها)، قد ادى الى المزيد من التعاون . أما في اليابان التي ينقصها المتنفس الخارجي

---

* اتضح ذلك بشكل دراماتيكي في فرنسا حيث اظهرت استطلاعات الراي ان الراي العام الفرنسي الذي كان يعد لفترة طويلة شديد القومية ، يساند ظهور حكومة اوروبية يكون لها سلطات تقريرية على الحكومة الفرنسية المحلية في مجالات مثل الابحاث العلمية (٦٦ بالمئة للحكومة الاوروبية و١٥ بالمئة لحكومة فرنسية تقرر هي) وفي السياسة الخارجية (٦١ بالمئة و١٧ بالمئة على التوالي) . هذه الاستطلاعات تشير الى ان معظم الفرنسيين يفضلون الحفاظ على دور الحكومة الفرنسية في القرار في الشؤون الداخلية الصرفة فقط مثل السياسة الاجتماعية والاجازات والتعليم الخ . (الان نسيلوه وبيار ويل ، «الفرنسيون والوحدة السياسية الاوروبية» المجلة الفرنسية للعلوم السياسية، فبراير – شباط ١٩٦٩ ، ص ص ١٤٥ – ١٧٠ .

المباشر الذي وفرته الوحدة الاوروبية للاوروبيين الغربيين ، والتي لا تزال خاضعة لوجود امريكي عسكري سياسي ظاهر جدا . فانه . اي تأثير العلم والتكنولوجيا ، له مضاعفات داخلية متعاظمة . فهو يميل الى ان يجعل النزاعات الداخليـــة السياسية للأمة اكثر حدة ويستقطب الراي العام ويجعل التوجه المستقبلي للبلاد مزعزعا * . ان النزاعات بين الاجيال التي تبرز في معظم انحاء العالم المتقدم لها ثقل خاص في اليابان بسبب الهبة الثقافية التي أدت اليها هزيمتها في الحرب العالمية الثانية ولان التوازن بين تقاليد اليابان ومؤسساتها الديمقراطية الحديثة لم يتحقق الا مؤخرا . ان اعادة احياء القومية اليابانية او الانعطاف نحو الراديكالية الايديولوجية ، سيهدد بشكل خطير هيكل السلم الهش في المحيط الهادي وسيؤثر مباشرة في مصالح الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والصين .

ومن ثم يجب بذل الجهود من اجل تشكيل تجمع يجمع الامم المتطورة وهذه تضم دول الاطلنطي والدول الشيوعية الاوروبية الاكثر تقدما واليابان . هذه الامم لا تحتاج — وهي لا تستطيع لوقت طويل — الى ان تشكل تجمعا متجانسا يشبه مجموعة السوق الاوروبية المشتركة او يشبه ذلك التجمع المتجانس الذي كان مأمولا في يوم من الايام بالنسبة الى مجموعة الاطلنطي . ومع ذلك سيساعد التقدم في هذا الاتجاه على انهاء الحرب الاهلية التي سادت العلاقات الدولية بين الامم المتطورة في المائة والخمسين عاما الاخيرة . وبالرغم من ان النزاعات القومية والايديولوجية بين هذه الامم لم تعد تتلاءم مع المشاكل الحقيقية للبشرية ادى استمرار وجودها الى رد فعل بناء تجاه المشاكل التي يزداد اعتراف الدول الديمقراطية والشيوعية بانها القضايا الرئيسية في عصرنا ، ان غياب عملية التوحيد القائمة على الاشراك المتبادل ابقت هذه النزاعات القديمة على قيد الحياة واخفت الغاية من تحمـــل مسئولية الحكم .

ان الاعلان عن الحاجة الى مثل هذا التجمع ، والقول بان ايجاده هو المهمة الكبرى في العقد القادم ليس نوعا من الاحلام الطوباوية . فالبشرية تتحرك بثبات في ظل ضغوط اقتصادية وعلمية وتكنولوجية نحو تعاون واسع النطاق . وبالرغم من التكسات الدورية يشير تاريخ البشرية كله بوضوح الى التقدم في هذا الاتجاه. والسؤال هو ما اذا كانت الحركة العفوية تكفي لمعالجة الاخطار التي لاحظناها . وطالما تكون الاجابة بالنفي فان ذلك يستتبع ان تكون الاجابة الواقعية هي الدعوة الى جهود ارادية للاسراع بعملية التعاون الدولي بين الامم المتقدمة .

---

* وهكذا انكمش تدريجيا تحالف يمين — الوسط الذي حكم اليابان في مرحلة ما بعد الحرب: في ١٩٥٢ حصل على ١ر٦٦ بالمئة من التصويت الشعبي ، وفي ١٩٥٣ على ٧ر٦٥ بالمئة ، وفي ١٩٥٥ على ٢ر٦٣ بالمئة . وفي ١٩٥٨ على ٨ر٥٧ بالمئة . وفي ١٩٦٠ على ٦ر٥٧ بالمئة ، وفي ١٩٦٣ علـــى ٧ر٥٤ بالمئة . وفي ١٩٦٧ على ٨ر٤٨ بالمئه . وفي ١٩٦٩ على ٦ر٤٧ بالمئه .

ان الحركة تجاه تجمع اكبر للامم المتطورة ستتم بالضرورة خطوة خطوة وهي لن تحول دون قيام علاقات متجانسة داخل الكيان الاكبر . وبالاضافة الى ذلك لا يمكن لمثل هذا التجمع ان يتحقق بالتحام الدول القائمة في كيان واحد اكبر . ان الرغبة في خلق دولة رسمية اكبر هي في ذاتها امتداد للعقلية المستمدة من عصر القومية . ويبدو اكثر معقولية ان نحاول الجمع بين الدول القائمة من خلال روابط غير مباشرة ومتنوعة والقيود الآخذة في الازدياد بالفعل على السيادة القومية .

ان الاتحاد السوفياتي في هذه العملية واوروبا الشرقية من جانب واوروبا الغربية من جانب آخر سيستمرون لوقت طويل في التمتع بعلاقات اكثر خصوصية داخل مناطقهم الخاصة . لا يمكن تجنب ذلك . والمسألة مع ذلك هي ان نطور هيكلا اوسع يربط بينهم في أشكال من التعاون اقليمية او وظائفية متنوعة . مثل هذا الهيكل لن ينهي المنافسة النووية السوفياتية ـ الامريكية التي قد تبقى محورا لقدرة العالم العسكرية ، ولكن في ظل التعاون الاوسع قد تشبه المنافسة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في نهاية الامر في الشكل المنافسة الاستعمارية الانجليزية ـ الفرنسية في اواخر القرن التاسع عشر : وحادثة فاشودا لم تفسد الوفاق الاوروبي الداخلي الذي كان آخذا في الظهور .

ان التحرك نحو مثل هذا التجمع سيحتاج في كل الاحوال الى مرحلتين كبيرتين متداخلتين . اولاهما ستشمل صياغة روابط هذا التجمع بين الولايات المتحدة واوروبا الغربية واليابان وكذلك مع البلاد الاكثر تقدما الاخرى (مثل استراليا واسرائيل والمكسيك) . والمرحلة الثانية ستشمل توسيع هذه الروابط لتشمل البلدان الشيوعية الاكثر تقدما . وقد يتحرك بعضها ـ مثل يوغوسلافيا او رومانيا ـ نحو تعاون دولي اوثق بسرعة اكبر من الآخرين ، ولذا ليس بالضرورة ان تكون المرحلتان متمايزتين بشكل حاد .

الهيكل والبؤرة :

سيحتاج التجمع الناشيء للدول المتطورة الى درجة ما من التعبير المؤسسي ، حتى لو كان من غير الحكمة السعي لخلق عمليات اندماجية ترابطية عديدة قبل الاوان . من الممكن تهيئة الاوضاع لترتيب اولي ، يقام فيه فقط مجلس استشاري اعلى للتعاون الدولي يجمع بشكل منتظم رؤساء حكومات العالم المتطور ليناقشوا المشاكل المشتركة بينهم في مجالات الامن ـ السياسي والعلم ـ التعليمي والاقتصاد ـ التكنولوجي ، وكذلك ليتناولوا من هذا المنظور التزاماتهم المعنوية تجاه الامم الآخذة بالنمو . ويمكن لجهاز مساند دائم الى حد ما ان يوفر استمرارية هذه الاستشارات .

ان مجلسا من ثم كهذا للتعاون العالمي سيكون اكثر من O.E.C.D في انه سيعمل على مستوى اعلى وسيعنى ايضا بالاستراتيجية السياسية ، ولكنه سيكون

اقل تماسكا من الناتو لانه لن يسعى الى بناء هياكل عسكرية ـ سياسية مندمجة. ان مجلسا ، مع ذلك ، من هذا النوع ـ قد يربط في البداية الولايات المتحدة واليابان واوروبا الغربية فقط ومن ثم يجمع الزعماء السياسيين لدول تشترك في طموحات عامة معينة وفي مشاكل التحديث ـ سيكون اكثر فعالية من الامم المتحدة في تطوير برامج مشتركة ، خاصة وان كفاءة الامم المتحدة تحدها بالضرورة الحرب الباردة والانقسام بين الشمال والجنوب .

ان ضم اليابان هام بشكل خاص سواء كان ذلك مع التطور الداخلي للحياة اليابانية او لحيوية مثل هذا التجمع . ان اليابان قوة عالمية ، ففي عالم الاتصالات الاليكترونية التي تفوق سرعة الصوت يكون من الخطأ النفسي والسياسي التفكير في اليابان باعتبارها امة آسيوية قبل كل شيء . ان اليابان تحتاج الى متنفس يتناسب هو وتطورها المتقدم ، لا الى مكان يجعلها في وضع العملاق بين الاقزام ويستبعدها في واقع الامر من مجالس قوى العالم الفعلية . ان عقد الاجتماعات الثنائية الامريكية ـ اليابانية بانتظام على مستوى الوزراء هو ترتيب ثنائي مطلوب، ولكن اليابان ستكون اكثر ابداعا وانطلاقا في الشؤون الدولية في ظل وضع اكبر مع شركاء متساوين .

بدون مثل هذا الوضع الاكبر هناك خطر من ان تصبح السرعة غير العادية للتطور الياباني الاجتماعي ـ الاقتصادي عاملا مدمرا . ان التوقعات الاوتوماتيكية للنمو الياباني في المستقبل والقائمة على ازدياد معدلاتها في اواخر الستينات هي توقعات مضللة . ان هذه التوقعات لا تحسب حساب تأثير اثر التغيير في التقاليد اليابانية وهو تأثير يقضي على الاستقرار . هناك امكانية حقيقية ان اليابان في السبعينات ستواجه نزاعات داخلية مقلقة الى اقصى حد ما لم يتم بطريقة ما تحريك المثالية اليابانية وتحويلها نحو اهداف اكبر من التعصب للجزيرة او الاستمتاع الشخصي . ان التعاون الدولي الذي يشمل ويشارك اليابان المسؤولية والسلطة ايضا يمكن ان يكون هو ذلك المتنفس .

مثل هذا المجلس سيوفر ايضا اطارا للامن السياسي حيث يمكن النظر الى الامن المتعلق بكل دولة ضمن اطار يأخذ في الحسبان الارتباطات التي لا مفر من وجودها مع امور مثل السياسة السوفياتية في برلين والازمة الصينية السوفياتية والتطور النووي الصيني ومترتباته بالنسبة الى امن اليابان وعلاقات الشرق والغرب في اوروبا ، وما الى ذلك فان امورا مثل اعادة تسليح اليابان بل حتى احتمال حصول اليابان على اسلحة نووية (وفي راي اعداد متزايدة من اليابانيين ان ذلك سيحدث في النصف الثاني من السبعينات) (١٤) يمكن النظر اليها بمقاييس

---

١٤ ـ انظر في هذا استطلاعات الراي العام وتحليلها في **بحوث السلم في اليابان** Peace Research in Japan ، طوكيو ، ١٩٦٨ ، ص ص ٢٥ ـ ٧١ ـ وهي تشير الى ازدياد التوقعات اليابانية بشأن الانتشار النووي .

هذا الاهتمام الاوسع لا بمجرد التجاوب لاعتبارات محلية بحتة . ولا جدال ، انه انطلاقا من طبيعة التطورات العلمية والاتصالات الحديثة لم يعد الوقت مبكـــرا للتفكير في التعاون التكنولوجي بين اوروبا الغربية واليابان وكذلـــك بين الاثنين والولايات المتحدة في بعض مجالات الدفاع .

ان جهود الامن السياسي مع ذلك وفي كل الاحتمالات ستكون تالية الاهمية لجهود توسيع مجال التعاون العلمي ــ التعليمي والاقتصادي ــ التكنولوجي بين اكثر الامم الصناعية تقدما والتي تتحول الى مرحلة ما بعد الصناعية ، وتدخل من بعض جوانبها في عصر ما بعد القومية . ان شبكة المعلومات العالمية العتيدة التي تعد اليابان وأوروبا الغربية والولايات المتحدة من اكثر البلاد تهيؤا لاستعمالها * ، قد تخلق الاساس لبرنامج تعليمي مشترك ولتبني معايير اكاديمية مشتركة ولتنظيم عملية تجميع المعلومات ولتقسيم اكثر معقولية للعمل في مجال البحث والتطوير . ان العقول الاليكترونية في M.I.T تعمل الان بالفعل وبانتظام في «التحادث» مع جماعات امريكا اللاتينية ، ولا توجد اي عقبة تقنية لاقامة رابطة معلوماتية دائمة بين جامعات نيويورك وموسكو ومكسيكو وميلانو مثلا (١٥) . مثل هذه الرابطـــة المعلوماتية العلمية ستكون اسهل من البرامج التعليمية المشتركة وستشجع علـى قيام نظام تعليمي دولي بتوفير حافز اضافي للتقسيم الدولي للعمل الاكاديمـــي ولتوحيد المعايير الاكاديمية ولتجميع المصادر الاكاديمية من عدة امم .

ويمكن الاسراع بالخطوات في هذا الاتجاه باقامة بعض النشاطات المشتركـــة الرمزية . ان اكتشاف الفضاء هو على الارجح اكثر الامثلة درامية للمغامـــرة

---

* «تقدم اوروبا الغربية واليابان الفرص الفورية لشبكة المعلومات العالمية . فالاوروبيـــون واليابانيون يزدادون حساسية تجاه اهمية تخزين المعلومات وشبكة نقلها التي تشبه الشبكة التي يتم الان تطويرها في هذا البلد .

«سيعتمد نجاح الاوروبيين في هذا المشروع جزئيا على مقدرتهم في تعديل بعض المواقف الحالية المقيدة . واحد هذه المواقف هو التقليد الساري الخاص بسرية اعمال البحث والتطوير عندهم . وموقف آخر هو الموقف القومي الذي يعرقل المشاركة في مصادر المعلومات الاقليمية . وسيكـون من المؤسف ان تعطل هذه المواقف تشكيل الشبكة طالما لا يمكن للاوروبيين على المدى البعيد ان يفكروا بمقاييس «الابحاث الايطالية» ، و«الابحاث النروجية» اكثر مما يمكن ان يميزوا بين الابحاث فـــي كاليفورنيا او نيوجرسي .

«هناك كل العوامل التـــي تشجع الاوروبيين على التغلب على هذه المشاكل . ان شبكة نقـــل المعلومات الامريكية يجب ان تربط مباشرة بشبكتهم الاقليمية مما يسمح بتبادل اوسع للمعلومات» (**مجلة التلفزيون الفصلية** ، ربيع ١٩٦٨ ، ص ص ١٠ ــ ١١) .

١٥ ــ انظر في هذا المجال خطاب ليونارد ماركس مدير المعهد الامريكي الدولي «مشروع بنـــاء مدرسي جديد» ٨ــ١١ــ١٩٦٧ .

الانسانية التي اصبحت ممكنة بفضل العلم ، ولكنه اي اكتشاف الفضاء في الوقت الحالي ما يزال محتكرا بشكل كامل تقريبا وعلى اساس تنافسي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . ان تجميع المصادر من اوروبا الغربية واليابان والولايات المتحدة لعمل مشترك معين سيفيد كثيرا في الاسراع بالتعاون الدولي(١٦). وبالاضافة الى ذلك ربما كان مطلوبا ان نطور ميثاقا دوليا حول المترتبات الاجتماعية للعلوم والتكنولوجيا التطبيقية . ذلك لن يسمح فحسب بتقدير وزن الآثار الاجتماعية والبيئة للتقنيات الجديدة مقدما وانما سيجعل ايضا من الممكن تحريم استخدام الكيماويات للحد من تعريض الانسان للخطر ولمنع الاخطار العلمية الاخرى التي قد تنجرف اليها بعض الحكومات .

ولقد تحقق بالفعل بعض التعاون الدولي في المجال الاقتصادي ــ التقني ، ولكن المزيد من التقدم يحتاج الى المزيد من التضحيات الامريكية . لا بد من القيام بجهود اكبر لتشكيل هيكل نقدي عالمي جديد مع ما يترتب عن ذلك من مخاطرة بالوضع الامريكي المواتي النسبي الحالي . ان المزيد من التقدم يتطلب في كل الاحوال التخلي عن القيود التي فرضها الكونغرس في ١٩٤٩ و١٩٥٤ على نشاطات الشركات الكبرى الامريكية وعلى توكيلاتها ومشاريعها في الخارج . ان ظهور هيكل دولي حقيقي للانتاج والتمويل لا بد ان يمضي جنبا الى جنب مع بروز «نظرية الانتاج الدولي» * . ان التقدم على هذه الخطوط سيسهل ايضا خلق منطقة للتجارة الحرة وهو هدف مأمول في المراحل المتقدمة .

---

١٦ ــ لمزيد من الحسابات التفصيلية لما يمكن ان يساهم به مساهمون آخرون غير الولايات المتحدة ، ماليا ، انظر **الايكونومست** ٩ــ٨ــ١٩٦٩ ص ١٣ .

* يقول جود بولك «ان ما نحتاج اليه ليس نظرية في التجارة الدولية مجردة عن الانتاج ، وانما نظرية في الانتاج الدولي تفترض التجارة مقدما بحكم تخصصها» . ثم يستطرد ملاحظا «ان المسالة ليست مسألة التدخل في اقتصاد الآخرين ، ان الامر يتعلق باطلاق امكانيات الانتاج في كل البلاد . ان مشاكل الانتاج تبدو من وجهة نظر اي اقتصاد اكبر بكثير من اقتصاد الامة ، تبدو جديدة لكل انسان . ان الولايات المتحدة لا يمكن ان تتخلى عن اهتمامها بميزان المدفوعات القومي ولكنها بدأت كما هو ملحوظ بادراك الحاجة الملحة الى نظام محاسبة دولي شامل يقدر الحسابات القومية الحالية . انها تحتاج بشكل خاص الى متابعة الصورة الكاملة للحركة الدولية لعوامل الانتاج . وبمجرد الشعور بهذه الحاجة يكون،معنى ذلك تحقيق تقدم غير عادي في مجرد عشرين سنة ، لانه لا يمكن ظهور اي فك ارتباط للدولار من وظيفته الدولية بدون فك ارتباط معجز للانتاج والتجارة التي يدعمها . كما لا يمكن ان يكون هناك اي تحسين فعلي لهذه الوظيفة الا في اطار الاحتياجات الخاصة بالنقد والسلفيات في الاقتصاد العالمي الجديد» . («الاقتصاد العالمي الجديد» ، **كولومبيا جورنال اوف ورلد بستنس** يناير ــ كانون ثاني / فبراير ــ شباط ١٩٦٨ ص ١٥) .

الدول الشيوعية :

قد يشارك الاتحاد السوفياتي في مثل هذا الاطار الاوسع للتعاون بسبب جاذبية الغرب للاوروبيين الشرقيين ـ الذين يتوجب على الاتحاد السوفياتي ان يتبعهم وإلا فقدهم تماما ـ وبسبب حاجة الاتحاد السوفياتي الخاصة لزيادة التعاون في مجال الثورة التكنولوجية والعلمية . أما ان الاوروبيين الشرقيين سيقتربون اكثر فأكثر من اوروبا الغربية فهو امر مؤكد . ان أحداث ١٩٦٨ في تشيكوسلوفاكيا هي مجرد نذير لما هو آت بالرغم من جهود السوفيات القمعية لمواجهتها . انها مسألة وقت فقط ثم تبدأ الدول الشيوعية في قرع ابواب السوق الاوروبية المشتركة او O.E.C.D ، وعندئذ ستكون الاتفاقات الاوسع بين الشرق والغرب هي الطريق امام موسكو للحفاظ على روابط فعالة مع عواصم اوروبا الشرقية .

ان تطور التفكير والمسلك اليوغوسلافي يؤكد حقيقة ان الدول الشيوعية ليست لديها اي مناعة ضد عملية التغيير ولا ضد المبادرات الغربية الذكية . فمنذ اكثر من عشرين عاما بقليل كانت التصريحات اليوغوسلافية لا تختلف كثيرا عن التصريحات الصينية اليوم . ومع ذلك تتقدم يوغوسلافيا الان جميع الدول الشيوعية في الاصلاح الاقتصادي وانفتاح مجتمعها والاعتدال الايديولوجي . وفي اواخر الستينات انضمت الى منظمة جات * . كما ان التحاق يوغوسلافيا بمنظمة افتا EFTA ** هو امر محتمل، وربما بالسوق المشتركة في النهاية . وبالرغم من ان يوغوسلافيا ما تزال ملتزمة بفكرة «الاشتراكية» نجد آراءها في السياسات الدولية معتدلة وذات تأثير ملحوظ في الشيوعية في اوروبا الشرقية .

وهناك اتجاهات مماثلة تتطور ببطء في اماكن اخرى من العالم الشيوعي . ومن المؤكد ان هذه الآراء تواجه معارضة البيروقراطيين المتمترسين ولكن الرجعيين يخوضون معركة خاسرة على المدى الطويل . فالقوى الاجتماعية ضدهم، والنخبة المحافظة هي في موقع الدفاع في كل مكان . ومن المشكوك فيه انهم يستطيعون عكس الاتجاه نحو مجتمع اكثر انفتاحا وانسانية واقل ايديولوجية ، وان كان من المؤكد انهم قادرون على تأخير ذلك . ان مقاومة تلك الانظمة التي تسيطر عليها بيروقراطيات محافظة متمترسة ستزداد ضعفا اذا ما نظر الغرب للحرب الباردة باعتبار انها ترجع في الاساس الى ازدياد ضعف العقائد التي تخدم مصالح الحكام الشيوعيين ، اي اذا ما تناول الغرب قضية الحرب الباردة باعتبارها مجرد استثناء عارض لا مهمة ورسالة .

---

* GATT : الاتفاق العام حول التجارة والتعريفة الجمركية .

** EFTA : الاتحاد الاوروبي للتجارة الحرة .

ويمكن تحريك التجاوب السوفياتي على المدى الطويل ــ وتحليلنا السابق يشير الى انه سيكون طويلا ــ من خلال فتح باب التعاون الاوروبي مع الشرق وعبر خلق هيئات جديدة بين الشرق والغرب ، مشكلة في الاساس لكي تشجع الحوار وتبادل المعلومات ولكي تشجع روح التعاون . ان التحديد المتروي المدروس لاهداف مشتركة معينة في التطور الاقتصادي والمساعدة التكنولوجية وترتيبات الامن الشرقية ــ الغربية ستساعد على تحريك الشعور بالغايات المشتركة وعلى نمو بدايات لاطار مؤسسي (على سبيل المثال من خلال الروابط الرسمية في المجال الاقتصادي بين O.E.C.D ومجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة ولاسيما C.E.M.A وفي المجال الامني بين حلفي الناتو ووارسو ، ومن خلال اتفاقات الاشراف على السلاح الامريكية ــ السوفياتية ، او بخلق جهاز استشاري سياسي شرقي ــ غربي غير رسمي) ✱ (١٧) .

ويمكن ان يكون لهدف تعاوني اكبر آخر مزايا اخرى . فمن جانب قد يبدي الاتحاد السوفياتي في البداية ترددا وربما عداء في وجه المبادرة الغربية . لذا نرى ان اي مدخل قائم على توافق امريكي ــ سوفياتي (كما يطالب بعض الامريكيين) يمكن ان يكون مجهضا ومن ثم يزيد التوترات ولكن لا يجب ان يؤدي التردد السوفياتي في البداية الى وقف الجهود من اجل تجمع تعاوني اكبر ، كما انه لا يمكن لموسكو ان تستغل مثل هذه الجهود بسهولة لتصعيد الحرب الباردة . وعلى العكس من ذلك لم تثمر المقاومة السوفياتية الا مزيدا من العزلة المكلفة. فإذ يحاول الاتحاد السوفياتي عزل اوروبا الشرقية عن الغرب سيحرم بالضرورة نفسه من ثمار التعاون التكنولوجي الشرقي ــ الغربي الاوثق . في ١٩٨٥ سيكون مجموع الناتج القومي العام في الولايات المتحدة واوروبا الغربية واليابان حوالي ٣٠٠٠مليار دولار او ما يساوي اربعة أضعاف الناتج القومي العام السوفياتي المحتمل (بافتراض معدل نمو موات للسوفيات) ومع التحول التدريجي لبعض دول اوروبا الشرقية في اتجاه المزيد من التعاون مع السوق الاوروبية المشتركة و O.E.C.D لا يمكن للاتحاد السوفياتي ان يمتنع عن ذلك الا بتكلفة عالية على حساب تطوره الخاص ووضعه العالمي .

مخاطر ومزايا :

ان تشكيل مثل هذا التجمع يمكن ان يثير الاتهامات القائلة بأن ظهوره سيشجع

---

١٧ ــ لمزيد من تطوير هذه المقترحات انظر مقالتي «اطار التنازلات بين الشرق والغرب» **الشؤون الخارجية** ، يناير ــ كانون ثاني ١٩٦٨ .

✱ ليس الامر مجرد تقرير تكنولوجي ومتعدد الاطراف كما يقول بيار هاسنر في مقالته بعنوان «آثار التغيير في اوروبا الشرقية في حلف الاطلنطي» (**مجلة اوربيس** ربيع ١٩٦٩ ، ص ٢٤٦) ولكنها ايضا استراتيجية ارادية وان كانت بعيدة المدى .

الانقسام في عالم يهدده التفتت بالفعل . والجواب على هذا الاعتراض هو من شقين : اولا ان التقسيم موجود بالفعل ومشكلتنا الحالية هي كيف نتعامل معه على افضل وجه . فطالما ينقسم العالم المتقدم نفسه ويتنازع لن يكون ممكنا صياغة اهداف متماسكة . وربما استطاعت البلدان الاقل تطورا ان تستفيد من هذه الخصومات الداخلية في العالم المتقدم التي تجعلها تتنافس في تقديم المعونة . ولكن هذه المعونة تميل الى ان تركز على المزايا السياسية في المدى القصير لمقدميها وهي خاضعة للتحولات السياسية ويمكن ان تقل كلما قلت حدة الخصومة .

ثانيا ان ظهور هيكل اكثر تعاونية بين الامم الاكثر تطورا يمكن ان يزيد من امكانية وضع استراتيجية طويلة المدى للتطور الدولي قائمة على وعي عام عالمي آخذ في الظهور لا على الخصومات القديمة . عندئذ يمكن ان تقل الرغبة في الحصول على مردودات سياسية فردية وتمهد الطريق امام معونات اجنبية ذات طابع دولي ومتعدد الاطراف اكثر مما هو حادث الان . وبرغم ان المشاكل المعقدة الخاصة بالتعريفات الجمركية والادارة قد لا تختفي من الممكن ان تصبح السيطرة عليها أيسر في ظل وضع يقلل العقبات امام الانتاج الدولي الحقيقي وبالتالي يقلل من تعنت هذه الدولة او تلك فيما يتعلق بترتيبات الحماية. ومع ذلك فان الدوافع وراء السعي لمثل هذا التجمع هو امر بالغ الاهمية . فان لم يبرز هذا التجمع من الخوف والحقد ، وبرز من الاعتراف المتزايد بأن شؤون العالم لا بد ان تدار على اساس مختلف ، فان التجمع لن يزيد من تقسيم العالم ــ كما فعلت الاحلاف في الماضي ــ ولكنه سيكون خطوة في اتجاه وحدة اكبر .

لذا سيساعد ظهوره ، بل ربما يسرع ، في مزيد من تطوير الهيئات العالمية الحالية ــ مثل البنك الدولي ــ التي هي على اي حال مؤسسات امر واقع في العالم المتطور موجهة لمساعدة العالم الثالث . وسيساعد الشعور المتزايد بالتجمع داخل العالم المتطور ، في تقوية هذه المؤسسات بمساندتها بدعم الرأي العام ، ويمكن ان تؤدي في النهاية الى شيء ما في اتجاه نظام جمركي عالمي * .

ان امريكا بوجه خاص ستكسب مزايا عديدة من توحدها بهدف اكبر . وسيؤدي هذا الهدف الى التقليل من الخطر المتزايد بالعزلة الامريكية في العالم ، هذه العزلة التي لا يمكن تجنب اشتدادها بسبب المشاكل المصاحبة للقفزة الامريكية المحلية نحو المستقبل . وبالاضافة الى ذلك لا يمكن للولايات المتحدة ان تشكل العالم بيد واحدة حتى لو كانت القوة الوحيدة القادرة على تحريك الجهود المشتركة لتحقيق ذلك . ان الولايات المتحدة بتشجيعها القوى الكبرى الاخرى والاشتراك

---

* في رايي ان مثل هذا المجتمع سيوفر ايضا قاعدة لتطبيق اقتراحات اكثر بعدا وخيالا في التعاون الدولي . مثلا تلك الاقتراحات التي وردت في كتاب «مجموعة من الاقتراحات السلمية» التي اعدها معهد ابحاث السلام الدولي ، اوسلو ، في خريف ١٩٦٦ .

معها في مواجهة مشتركة للمشاكل التي تعترض حياة الانسان على ظهر هـــذا الكوكب ، وبالمشاركة في محاولة الاستفادة المدروسة للامكانيات الكامنة التـــي يوفرها العلم والتكنولوجيا ، ستستطيع اي الولايات المتحدة ان تنجز بشكل اكثر فعالية هدفها الذي طالما دعت اليه .

ان السعي من اجل هذا الهدف لا يمكن مع ذلك ان يحدد جغرافيا بالعالـم الاطلنطي كما لا يجب ان تستخلص دوافعه من المخاوف الامنية التي تحركها قوة خارجية كبرى . ان احد اسباب تدهور الجاذبية الشعبية لمفهوم الاطلنطي هـو ارتباط هذا المفهوم بظروف اوروبا ما بعد الحرب العالمية الثانية وبالخوف مـن العدوان السوفياتي . وبينما كان هذا المفهوم فكرة شجاعة في وقتها اذ هو اليوم مفهوم محدود تاريخيا وجغرافيا . من المطلوب الان تناول اوسع واكثر طموحـا وملاءمة للعصر بالاعتراف بأن مشاكل السبعينات ستكون ذات طابع ايديولوجـي اقل حدة مما كانت عليه في الماضي ، وستعكس بشكل واسع القرف من عالم لا يزال غير مبني سياسيا وبه قدر كبير من اللامساواة الاقتصادية .

مثل هذا المدخل سيميل ايضا الى انهاء الجدل حول العالميـــة الامريكية . فالحقيقة هي ان قدرا كبيرا من المبادرة وقوة الدفع في مجال التنفيذ على مثل هذا النطاق الكبير سيكون من جانب الولايات المتحدة . ذلك ان غياب المبادرة الامريكية البناءة في ظل التقسيم القديم للامم المتطورة وضعف وتخلف الـدول النامية سيؤدي على الاقل الى تعميق الانقسام الحالي في الشؤون الدولية ، هذا الانقسام لا يمكن وقفه اذا استمرت الولايات المتحدة في الطريق الـــذي شاعت الدعوة اليه الان ، طريق فك الارتباط . حتى ان استطاعت امريكا بالرغم مـن ثقلها وزخم قوتها ان تفك ارتباطها مع العالم هناك نغمة يمضي عليها الزمن فـــي عبارات الادانة البليغة للتورط العالمي للولايات المتحدة خصوصا اذا جاءت هذه الادانة من الاوروبيين وهم الذين اظهروا مقدرة في الحفاظ على السلام العالمي لا تثير الاعجاب . وبالاضافة الى ذلك حتى اكثر المحاكمات الألمعية لسياسة الولايات المتحدة لا يمكنها ان تلغي حقيقة ان الولايات المتحدة بالرغم من سجلها الطويل من الاخطاء والمفاهيم الخاطئة قد اصبحت الى درجة ما القوة الوحيدة التي بـــدأت بالتفكير بمعايير عالمية والتي تسعى بنشاط في سبيل اتفاقات بناءة على نطـــاق العالم . ومن المفيد في هذا الخصوص ان نلاحظ ان مبادرات مثل مبادرة اتفاق حظر اجراء التجارب النووية واتفاق منع انتشار الاسلحة النووية قد عارضتهـــا حكومات،كان بعض نقاد الولايات المتحدة وتورطها العالمي يمدحونها عادة . ان التاريخ هو الذي قرر التزام هذا البلد بالشؤون الدولية على نطاق عالمي . ولا يمكن عدم القيام بذلك . ويبقى السؤال هو : ما هو شكل هذا الالتزام وما هي اهدافه ؟

ان الجدل حول العالمية له مع ذلك وظيفة مفيدة . فبالرغم من ان قدرا كبيرا من النقد لم يؤد الى برنامج سياسي ذي معنى * قد أدى الجدل الى اعتراف متزايد

---

* هناك ناقد يعرّف نفسه بانه متعاطف مع مدرسة «العزلة او العزلة الجديدة» يستخلص ان =

بضرورة اعادة تحديد دور امريكا العالمي على ضوء الظروف التاريخية الجديدة». ان اندفاع امريكا في العالم بنموها الخاص وبفعل حربين عالميتين جعل امريكا تحرك بنشاط في البداية ، ثم تضمن ، استعادة الغرب لاقتصاده ولأمنه العسكري . هذا الوضع ــ النابع من الضرورة المتميزة بالهموم العسكرية الثقيلة ــ اخذ يتحول بشكل متزايد نحو مزيد من التورط في المشاكل الاكثر اساسية وذات الطابع السياسي الاقل ، والتي تواجه الانسانية في الثلث الاخير من هذا القرن .

لقد امسك جون كنيدي بروح الوضع الامريكي الجديد في العالم عندما قال عن نفسه «انه اول رئيس امريكي يعتبر العالم كله من شؤون السياسة المحلية بمعنى أو آخر» (١٩) . ومن المؤكد ان كنيدي كان اول رئيس «عالمي» للولايات المتحدة . فروزفلت برغم كل اتجاهاته الدولية كان يؤمن في الاساس باتفاق عالمي

= البدائل التي يقدمها الطلاب التقليديون في السياسة الدولية مثل ليمان ومورغنتو ليس لديهم سوى القليل نسبيا مما له طابع بنّاء ليقدموه (شارل غاتي ، «جدل كبير آخر ؟ النقد المحدود للسياسة الخارجية الامريكية» ، **السياسة الدولية** ، اكتوبر ــ تشرين اول ١٩٦٨ ، خاصة ص‌ص ١٥٠ ــ ١٥١) . وبالاضافة الى ذلك نرى نزوع بعض الكتاب المطلعين للتركيز كلية تقريبا على نواقص عمل السياسة الخارجية الامريكية يجعل من الصعب عليهم ان يلمسوا اداءها المحترم نسبيا خلال الاعوام العشرين الاخيرة بالمقارنة مع اداء القوى الاوروبية مثلا . وهكذا كتاب ستانلي هوفمان الضخم (٥٥٦ صفحة) والمثير في بعض اجزائه وهو كتاب **مشاكل غوليفر** (نيويورك ١٩٦٨) يركز كلية تقريبا على التعجل ، والتفكير الخاطىء ، وسوء الفهم ، والشعور بصواب الموقف الذاتي ، وسهولة الانخداع والتنازل ، وعدم المرونة وأسلوب الشعور بالاضطهاد في السياسة الخارجية الامريكية . وقد ادى به ذلك على مستوى اكثر شعبية الى ان يقول في مقالة نشرها في مجلة **لايف** ٢١ــ٣ــ١٩٦٩ بعنوان «السياسة في السبعينات» : «لقد أعد الامريكيون بالتاريخ وبالغريزة لعالم من الاسود والابيض حيث لا يوجد فيه الا الانسجام او الفوضى الشاملة» وهو لم يشرح لماذا في هذه الحالة نجحت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في الحفاظ على السلام بينما فشلت في ذلك القوى الاوروبية في الماضي .

وفي نفس الوقت يؤكد انصار التقاليد على استمرار حيوية القومية فهم بالضرورة ميالون الى اقتراح سياسات لم تعد تتفق مع الزمن . وهكذا في عشية رفض الشعب الفرنسي لديغول كان هوفمان يتحدث عن «تقارب حيوي» مع ديغول . («امريكا وفرنسا» **الجمهورية الجديدة** ١٢ــ٤ــ١٩٦٩ ، ص ٢٢) .

١٨ ــ انظر التحليل العميق للمواقف الدولية تجاه الولايات المتحدة في استطلاعات الراي التي وردت في تقرير **مستقبل الديبلوماسية الامريكية العامة** The Future of U.S. Public Diplomacy, وهو تقرير اللجنة الفرعية للشؤون الخارجية لمجلس النواب ، واشنطن ، ٢٢ــ١٢ــ١٩٦٨ ، خاصة ص‌ص ١٥ ــ ١٨ .

١٩ ــ آرثر شيليزنغز الابن ، **الف يوم** A Thousand Days, ، بوسطن ١٩٦٥ ، ص ٥٥٩ .

يشبه اتفاق ١٨١٥ حيث «الاربعة الكبار» كان لهم دوائر نفوذ خاصة . اما ترومان فلقد تجاوب قبل كل شيء لتحد شيوعي معين واظهرت سياساته انها تعطي أولوية واضحة للمشاكل الاقليمية . واستمر ايزنهاور على نفس الطريق مطبقا بين الحين والآخر سوابق اوروبية على مناطق اخرى . هذه التحولات كانت معبرة عن تغير دور الولايات المتحدة . مع كنيدي كان الشعور بأن كل قارة قادرة وكل شعب له الحق في ان يتوقع القيادة والطموح من امريكا ، وان امريكا ملزمة بنفس القدر من الانغماس والتورط في كل قارة وكل شعب . ان أسلوب كنيدي المثير الذي خاطب في بعض نواحيه العواطف اكثر من الفكر ركز على الطابع الانساني العالمي للمهمة الامريكية ، بينما كان افتتانه الرومانسي بفتح الفضاء يعكس قناعته بأن زعامة امريكا العلمية ضرورية لفعالية دورها العالمي .

ان التورط العالمي مع ذلك يختلف اختلافا كيفيا عما كان يعد حتى الان سياسة خارجية . انه لا يتفق مع المعادلات الحدية ولا المراجع التقليدية . ولكن هـــذا التعقيد الفكري لا ينفي حقيقة انه سواء بالخير او بالشر فان على كاهل الولايات المتحدة مسؤولية كبرى في تشكيل اطار التغيير . هذا الراي معرض لسهولة الخطأ في التفسير وهو غير مقبول بدرجة كبيرة لدى بعض الدوائر . ان ظروف العالم لا تدعو الى سلام امريكي كما ان العصر ليس عصر القوة الامريكية الوحيدة . ومع ذلك نجد الحقيقة انه بدون الولايات المتحدة وبدون ان يستعمل مجتمعها العالمي الاول نفوذه الكبير لتحديد الاتجاه الايجابي للاسراع بخطى التغيير ، قد يصبـــح التغيير فوضى عندما يرتبط بالنزاعات والعداوات القديمة ، بل قد ينتهي به الامر الى تهديد الجهود المبذولة لتحسين طبيعة وطابع الحياة الامريكية الداخلية .

والخلاصة : بالرغم من ان هدف تشكيل تجمع من الامم المتطورة هو أقــل طموحا من هدف الحكومة العالمية ، فانه ممكن التحقيق اكثر من الهدف الثاني . وهو هدف اكثر طموحا من مفهوم تجمع الاطلنطي ومتلائم تاريخيا مع الثـــورة الفضائية الجديدة . وبالرغم من اقراره بالانقسام الحالي بين الامم الشيوعية وغير الشيوعية يحاول ان يخلق اطارا جديدا للشؤون الدولية ليس باستغلال هـــذه الانقسامات ولكن بالنضال من اجل خلق ثغرات تؤدي في النهاية الى الاتفاق ، والنضال من اجل الحفاظ على هذه الثغرات . واخيرا يعترف بأن الامم المتطورة في العالم لها سمات مشتركة معينة وانه بدون تنمية شعور اكبر بالانتماء الـــى التجمع بينها لا يمكن مواجهة التهديد المتزايد بالتفتت العالمي مواجهة فعالة ، هذا التفتت الذي يقوى في ذاته شعور القلق المتنامي على نطاق العالم بسبب عـدم المساواة بين البشر .

ان هناك ارتباطا وثيقا بين المعنى التاريخي للتحول الداخلي في امريكا ودور امريكا في العالم . وقد تم فيما سبق من هذا الكتاب تلخيص الاولويات المحلية الى ثلاثة مجالات كبرى هي : الحاجة الى اعادة ترتيب مؤسسات الديمقراطيـــة الامريكية لتقوية قدرة تجاوبها الاجتماعية وتمييع الخطوط الفاصلة التقليدية بين العمليات الاجتماعية الحكومية وغير الحكومية ، والحاجة الى مؤسسات مشاركة

لمواكبة المضاعفات غير المتوقعة للتغير العلمي التكنولوجي ، والحاجة الى اصلاحات تعليمية للتقليل من آثار النزاعات العرقية والنزاعات بين الاجيال ولتطوير قيم انسانية في المجتمع الجديد الآخذ في الظهور .

والحاجات الدولية المماثلة لحاجاتنا المحلية تشبهها وهي : التشكيل التدريجي لتجمع من الامم المتطورة يكون تعبيرا واقعيا لوعينا العام الآخذ بالظهور ؛ والتركيز على توزيع المعرفة العلمية والتكنولوجية مما يعكس مدخلا اكثر فعالية نحو مشاكل الانسان يؤكد على الايكولوجيا (البيئة) اكثر من الايديولوجيا ؛ وأن يساعد تحقيق الحاجتين السابقتين في تشجيع انتشار نظرة عالمية انسانية عقلانية تحترم الفرد وتحل تدريجيا محل النظرات الدينية والايديولوجية الشديدة القومية المأسسة التي سادت التاريخ الحديث .

ولكن مهما كان الامر الذي يخبئه المستقبل لامريكا وللعالم فان العصر التكنتروني بجعله الكثير من التكنولوجيا في متناول اليد والكثير من الاليكترونيات متاحة للجميع ، سيجعل الاختيار المدروس الارادي في كثير من القضايا امرا لا مناص منه . ان العقل والايمان والقيم ستتفاعل بشدة مؤكدة أولوية تحديد الغايات الاجتماعية بوضوح اكثر من اي وقت مضى . لاي الغايات توجه قوانا ؟ وكيف يمكن تطوير حوارنا الاجتماعي؟ وما هي الطريقة التي نؤدي بها العمل المطلوب ؟ هذه قضايا فلسفية وسياسية في آن . ففي العصر التكنتروني تصبح الفلسفة والسياسة امرين حيويين .

الفهرست

٣٠٠٠ / ٨٠ / ٧٥٣